عامر الكفيشي

قضايا إسلامية معاصرة

حركة التاريخ في القرآن الكريم

دار الهادي

شبكة الفكر
alfeker.net

حركة التاريخ في القرآن الكريم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

1424هـ - 2003م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف:٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس:٥٤١١٩٩ - ص.ب:٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان
Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

قضايا اسلامية معاصرة

حركة التاريخ في القرآن الكريم

عامر الكفيشـــي

مركز دراسات فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد
بالتعاون مع دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطاهرين، وعلى أصحابه المجاهدين، ومن والاه إلى يوم الدين.

- ١ -

إن دراسة حركة التاريخ البشري، تنطوي على أهمية بالغة، بما تحمله من فوائد جليلة، ومعطيات هامة، بالنسبة للأمم والشعوب، سواء على مستوى قياداتها الحاكمة، أو نخبها المفكرة، أو فئاتها المثقفة، أو عموم جماهيرها التواقة إلى العيش الكريم...ناهيك عن خطورتها البالغة؛ لما تتضمنه من إثارات متنوعة، وتوظيفات هادفة، وتحليلات هامة، تتعلق بواقعنا الراهن بكل ألوانه وإشكالياته الحاضرة. وهي كفيلة بأن ترفد وعي وتفكير عالمنا العربي ـ الإسلامي المعاصر، نورا وبصيرة في خضم تحولاته القائمة،وتطلعاته نحو المستقبل، فضلا عن كونها تبعث فيه روح الأمل والتجديد، ليعاود حمل رسالته السامية إلى العالم كله.

ولعل من أهم الفوائد المترشحة عن دراسة حركة التاريخ، أنها تعرف الفرد والأمة، موضع كل منهما، ودوره في مسيرة الحياة الإنسانية.فالتبصر بحركة التاريخ، والوعي التام لعناصرها، يزودان الإنسان بالرؤية الواضحة لمجريات الواقع الإنساني في الماضي والحاضر، و يمنحانه القابلية الفذة على مرونة التحكم في صياغة المستقبل، وفن إدارة مشروعه النهضوي الحضاري، بشكل يضمن الرخاء والسعادة والتقدم لهذه الأمة وللبشرية،

ويجنب الجميع أهوال الزمان وغصص الدهر.

ومن الأهمية بمكان القول: إن البحث في هذا الموضوع يكتسب أهميته الكبيرة، من إلحاح القرآن الكريم ـ لكونه المصدر الإلهي الأول نحو توجيه الإنسان وبناء الحياة ـ بالدعوة الجادة إلى النظر والتدبر في حركة التاريخ؛ لما لها من آثار معرفية ونتائج عملية، على حاضر الإنسان ومستقبله، كما جاء في خطابه سبحانه وتعالى:

﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾[1]

ـ ٢ ـ

إن ثمة دوافع أساسية أخذت بوجهتنا نحو خوض غمار هذا الموضوع، يأتي في مقدمتها ما للدراسات القرآنية من أثر بالغ، وحضور دائم، في إثراء وإغناء ميادين المعرفة البشرية، في مختلف نواحي الحياة، ومناهج شؤونها المتنوعة. إضافة لما في هذا البحث من أسرار ونكات هامة وشيقة، تضمنتها نصوص القرآن الكريم، بعثت فينا روح الهمة والمثابرة أكثر فأكثر نحو مواصلة الاشتغال فيه. فإن من أعظم وأشرف المسؤوليات الملقاة على عاتق المفكرين من أبناء القرآن العزيز، أن يشمروا عن سواعد الجد و الاجتهاد؛ ليكشفوا عن كنوزه الغالية، ويتعمقوا في معارفه وأغراضه السامية؛ ليقدموه معجزة خالدة، ومنهجا قائدا، ومشعلا هاديا؛ ليخرج الناس من ظلمات الجاهلية إلى أنوار الهداية الربانية ـ بإذن الله تعالى ـ

ومن أبرز دواعي اختيار هذا البحث، حاجتنا الماسة ـ نحن المسلمين ـ في هذا العصر، إلى معرفة وفهم، كيف تجري حركة التاريخ؟ وما هو دورنا، وموقعنا فيها؟ وما يهمنا أكثر، كيف نكتشف ذواتنا، ونبث فيها روح الإبداع والتجديد، على هدى القرآن المجيد، نحو نهوض حضاري شامل، يمكننا من مسك زمام المسيرة الإنسانية، حتى نصنع لنا تاريخا جديدا، موصولا بتاريخ أمتنا المجيدة، يوم كانت خير أمة أخرجت للناس، بما تحملته من مسؤوليات، وقامت به من أدوار رائدة ومشرفة.

كما أن من جملة العوامل التي حفزتنا للتصدي إلى هذا الموضوع، تلك الصيحة المحمومة التي أطلقتها بعض دوائر الأبحاث الاستعمارية ، تحت عنوان «نهاية التاريخ»، فزعمت أن حركة التاريخ قد توقفت إلى ما وصلت إليه اليوم، بما حققه الشيطان الأكبر ـ

أمريكا ـ من انتصارات في العالم، وبسط لنفوذها التسلطي على سائر أرجاء المعمورة، خصوصا بعد تحطم عرش ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي ، وما إلى ذلك من ادعاءات مزيفة، لا يقصد منها سوى تحطيم معنويات إنسان ما يسمى بالعالم الثالث، وحلحلة عزيمة المسلمين ليستسلموا إلى حتمية القضاء والقدر الاستكباري من عيش تحت مظلة الرحمة الأمريكية، من دون أي تفكير بالخلاص من هيمنتها فضلا عن العمل في مواجهتها وتحديها.

إن قرآننا العزيز ليؤكد بكل اقتدار، وعبر تحولات الواقع البشري المحسوس، بأن حركة التاريخ لن تتوقف، رغم ما تمر به من منعطفات حادة، ومسارب خطيرة، وستواصل سيرها حتى تكون نهايتها في رحاب الله تعالى، في العودة إليه يوم القيامة:

﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم﴾[(٢)]

وليس بخاف على أهل العلم والمعرفة، أن البحث في حركة التاريخ البشري برؤية قرآنية، يعد من الأبحاث جديدة العهد في حركتنا الفكرية المعاصرة، ولازال بحاجة لمزيد من التوسعة والعمق.وهذا لا ينفي ـ بالطبع ـ وجود محاولات قيمة ومشكورة أنجزت في هذا المجال، إلا أن تطور وتنامي حركة البحث والمعرفة تستدعي مواصلة الجهود، والاستمرار في الشوط؛ للتوصل إلى نتائج جديدة، أو التنبيه إلى حقائق كانت غامضة، لم تتكشف للسابقين.

ـ ٣ ـ

يحاول هذا البحث أن يدرس أبعاد وكيفية حركة التاريخ البشري، فهي تيار متدفق من الوقائع والأحداث المتواصلة مع حركة الزمن، تسير وفق سنن وقوانين ثابتة ومحكمة، بعيدا عن العشوائية والعفوية، لها عناصرها الفاعلة والمؤثرة. ويشكل الإنسان عنصرا أساسيا في معادلاتها، والتحكم في مجرياتها ووجهتها.

فالتاريخ بالنسبة للإنسان، ليس مجرد ماض قد تصرم وانتهى؛ بل هو النهر الكبير الجاري مع الزمن.وقد بدأت حركة التاريخ منذ أن خلق الله تعالى آدم وقال للملائكة:

﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾[(٣)]

استمرت هذه الحركة تجري عبر الزمن، لتصب في الحاضر، وتمضي نحو المستقبل. والأمة التي لا تتحسس ولا تعي حركة التاريخ، تكون فاقدة للإحساس الحضاري، وفي

غيبوبة عن ذاتها في خضم الواقع الذي تعيشه.

وإذا كان القرآن الكريم، هو المصدر الأساسي الذي تعرفنا خلاله ـ بصدق وموضوعية ـ على تاريخ الأمم السابقة والأجيال الغابرة، كما قال تعالى مخاطبا نبيه الكريم (صلوات الله وسلامه عليه):

﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا﴾[٤]

فإن دراسته بوعي وتأمل، كفيلة بأن تعلمنا كيف نقرأ تأريخنا المعاصر، لننطلق على ضوئه إلى بناء المستقبل المشرق، وتشييد الغد الوضاء. فحركة التاريخ ليست مجرد أحداث ووقائع لها أسبابها المعينة؛ بل هي تعبير عن صراع بين خطين أو موكبين، موكب الإيمان بالله تعالى، وموكب الكفر والشيطان. وجدير بالإنسان المسلم أن يتفقه بمداخلات كلا الموكبين، ليعرف عن كثب واقع الحياة الدنيا، وما هو خط السير الصحيح فيها، وتلك هي الإشكالية الأساسية التي يدور عليها مدار البحث.

ـ ٤ ـ

يحتوي هذا البحث على مقدمة وستة فصول، ثم خاتمة واستنتاجات، مشفوعة بقائمة المصادر والمراجع المعتمدة في البحث. وكل فصل من فصوله اشتمل على مباحث متعددة، بحسب ما تستوجبه طبيعة البحث فيه.

فالمقدمة: فيها بيان لأهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وإشكالية البحث فيه، وطبيعة المنهج وخطة البحث المتبعة، ثم بيان أهم المصادر والمراجع المعتمدة، مشفوعة بصعوبات البحث وأهم المشاكل التي اعترضت سبيله.

الفصل الأول: تناولنا فيه موضوعات أساسية في ثقافة حركة التاريخ، بدءا بتعريف مصطلحها، وتحليل ركنيه؛ الحركة والتاريخ، لغة واصطلاحا.

ثم بحثنا في أهمية مرجعية القرآن الكريم، وموضوعية الأسباب الداعية للعودة إليه في دراسة الموضوع. بعدها توقفنا عند مفهوم حركة التاريخ عند العرب قبل وبعد مجيء الإسلام. وأخيرا تعمقنا في بحث أثر الوعي القرآني لحركة التاريخ في مسيرة الفرد والأمة، ما بين لنا دور القرآن الكريم وأثره الكبير في توجيه وإغناء المسيرة الحضارية لأمتنا الإسلامية. فقيمة هذا الفصل تتجلى بمقدار مايبينه لنا من تعريف بماهية وأهمية حركة التاريخ.

الفصل الثاني: قصدنا فيه بحث صلة التاريخ بالعلم والقرآن الكريم؛ لما لهذه المسألة من أثر على موضوعية دراسة حركة التاريخ نفسها. فتضمن الفصل عدة مطالب هامة، في البدء تناولنا علمية التأريخ على ضوء دراسات الحاضر، وآراء العلماء المسلمين من قبل. ثم تطرقنا إلى أهمية العلوم المساعدة ودورها في دراسة هذه الحركة؛ لنؤكد صحة المقولة التي تدعي بأن «التاريخ أم العلوم كلها»، فليس هناك شيء إلا وله صلة بالتاريخ.ثم انتقلنا إلى التعريف بفروع علم التاريخ؛ لإعطاء فكرة واضحة عن مجالات كل فرع منها، وعلاقته بدراسة حركة التاريخ البشري. بعد ذلك تناولنا أهمية التأريخ النقلي أو التاريخ العام في خدمة دراسة موضوع البحث. ثم ختمنا الفصل بدراسة معمقة عن أثر القرآن الكريم في التأريخ بشكل مفصل. وبذلك ظهرت قيمة هذا الفصل وأهميته من خلال علاقة أبحاث حركة التاريخ بالعلم والقرآن الكريم.

الفصل الثالث: اشتمل على دراسة ضافية، تهدف إلى تكوين ثقافة قرآنية شمولية عن حركة التاريخ البشري، تضمنت عرضا تفصيليا عن أخبار الأمم السالفة، والقصص القرآني والأمثال القرآنية، وتأريخ حركة النبوات والرسالات، وتأريخ حركة الدعوة الإسلامية في عصر الرسول الأكرم (صلوات الله وسلامه عليه).ظهر من خلالها، أن القرآن الكريم هو المصدر الأساسي الأول الذي يعرفنا على تاريخ الأمم السالفة، وطبيعة السنن والقوانين التي حكمت أحوالها. بشكل يمكننا فيه تحديد رؤية قرآنية واضحة عن طبيعة مسار حركة التاريخ الإنساني.

الفصل الرابع: حمل عنوان «القرآن يوظف حركة التاريخ». قصدنا به، تبيان آلية القرآن الكريم في كيفية استثمار حركة التاريخ وتسخيرها دينيا، نحو بناء الإنسان والحياة، بتوظيفه للتاريخ في مجالات مختلفة، منها: مجال الاتعاظ والعبرة؛ مجال الفكر والثقافة؛ مجال السياسة والحكم؛ مجال المرابطة والجهاد؛ مجال الاجتماع والحضارة. ثم تناولنا البحث في حركة المجتمع، ثم حركة الحضارة، من الزاوية القرآنية. وأخيرا ختمنا الفصل بدراسة عن أسباب نهوض المجتمعات والحضارات وانحطاطها على ضوء القرآن الكريم.فتبدت قيمة هذا الفصل، بما قدمه من رؤية واضحة عن التعامل القرآني مع أهم المفاصل الحيوية في حركة التاريخ، وفي مقدمتها المجتمع والحضارة، وما يتعلق بهما من تحولات وتبدلات تاريخية.

الفصـل الخامس: قدمنا فيه دراسة قرآنية متكاملة، حول العناصر الأساسية الداخلة في صميم حركة التاريخ البشري. فكان الحديث في البدء عن طبيعة السنن أو «القواعد والقوانين» التي تحكم حركة التاريخ، ثم الحديث عن إشكالية دور الإنسان وفاعليته في هذه الحركة، ثم الحديث عن إشكالية دور المجتمع وأثره فيها، وأخيرا انتقل البحث إلى إشكالية الزمان في حركة التاريخ.وبدت أهمية هذا الفصل، من كونه عالج مرتكزات نظرية، وفرضيات تطبيقية، قرآنيا وتاريخيا، بينت طبيعة التفاعلات الجارية بين العناصر الأساسية في حركة التاريخ، وكيفية تأثيرها في مجرى ووجهة هذه الحركة.

الفصـل السـادس: قصدنا فيه تبيان أهم الملامح العامة لحركة التاريخ في القرآن الكريم، فتحدثنا أولا: عن طبيعة الرؤية القرآنية لها ـ بعد أن ذكرنا على نحو الإشارة مداخلات مختصرة عن الاتجاهات الرؤيوية المعاصرة لها، دون الخوض في مناقشتها، فليس من منهجية هذا البحث الدخول في جدلية الرد والمناكفة مع الأفكار و النظريات الوضعية، التي تمس مفرداته، بقدر ما نبغي قراءة وتثبيت الوجهة القرآنية في ذلك ، فوجدناها قد تميزت بالواقعية والشمولية والموضوعية التي استوعبت كل معطيات المسيرة الإنسانية، على خلاف كل الاتجاهات المعاصرة في تفسير حركة التاريخ.ثم تطرقنا إلى مسألة هامة وأساسية، عنوانها «الدين محور حركة التاريخ». بعد ذلك انتقلنا إلى الحديث عن أهم الخصائص التي تميزت بها الرؤية القرآنية عن حركة التاريخ. وأخيرا ختم الفصل بمسألة غاية في الأهمية، وذات صلة أساسية بالموضوع، وهي تكامل حركة التاريخ من منظور قرآني، حيث استطعنا أن نبين ـ وبحسب وسعنا ومقدار فهمنا ـ ما هي وجهة القرآن المجيد في طبيعة المسار والسلوك لحركة التاريخ، عبر القرون والأجيال المتعاقبة؛ لبلوغ كمالها المنشود، بصورة موجزة دون الخوض في عمق التفاصيل؛ لكونه من الأبحاث الفلسفية التأملية الشائكة، التي لا يتسع لها البحث. فيكون هذا الفصل، قد شكل قيمة معيارية للرؤية القرآنية، بينت عمق وواقعية هذه الرؤية، ودقتها وشموليتها لكل مجريات حركة التاريخ عبر الماضي والحاضر والمستقبل.

أمـا الخاتمـة والاسـتنتاجات: فقد تضمنت خلاصة للأفكار الهامة التي تقصاها البحث، إضافة إلى تقويمات متنوعة، ومنتجات مفكرة، تخللتها أحيانا بعض التمنيات على الباحثين لمعالجة موضوعات نافعة ـ مستقبلا ـ ذات صلة حية بالموضوع.

ونظرا لكثرة المصادر والمراجع القيمة، المعتمدة في البحث، وحتى لا نبخس قيمة شيء منها، فقد ارتأينا الإشارة إلى أبرزها وأهمها صلة بصلب الموضوع؛ للتعريف بها، بشيء من الإيجاز، كما يلي:

١. **نخبة من موسوعات التفسير للقرآن الكريم:** ازدانت ببعدها الحركي والاجتماعي، فساهمت بتسليط الأضواء على أهم المعاني والحقائق الكامنة وراء نصوص القرآن الكريم، والتي هي مفاتيح أساسية في سبر جوانب البحث وأبعاده المتعددة.حيث إن إشكالية البحث في أصلها تدور حول رؤية القرآن المجيد لحركة التاريخ البشري. إذ هو الوحي الإلهي الذي يمتلك صفة الحضور الدائم في الواقع الإنساني على امتداد الحياة كلها.

٢. **ابن خلدون؛ المقدمة:** وهو سفر قيم ورصين، غني عن التعريف، حاضر كمصدر هام لدى المتخصصين في شؤون التاريخ الإنساني. صاغه مؤلفه وفق منهجية شمولية، مزجت بين جوانب المعرفة الإنسانية المتنوعة. كشف خلاله ـ بفضل مشاهداته وتأملاته العميقة في قاموس الحياة الاجتماعية، وقراءاته الواعية لآيات القرآن الكريم ـ عن طبيعة حركة التاريخ، وما تعتمل فيها من سنن وقوانين، تتحكم في نشأتها وتطورها، في مختلف أحوالها. فكانت هذه المقدمة ـ رغم ما عليها من ملاحظات ـ فتحا كبيرا في دنيا الإبداع والتجديد الإسلامي في مجال دراسة التاريخ.

٣. **جودت سعيد؛ حتى يغيروا ما بأنفسهم:** دراسة جادة تصب في صلب موضوع البحث. تناولت مسألة التغيير الاجتماعي، الذي هو أساس حركة التاريخ. استطاع المؤلف أن يوضح سر مشكلة تخلف المسلمين، وهو جهلهم بأن مشكلتهم تخضع لسنن وقوانين، بإمكانهم الكشف عنها وتسخيرها لصالحهم. وهي سنن الله تعالى في الأنفس والاجتماع الإنساني، وبفعلها تستطيع المجتمعات البشرية، أن تنمو وتتكامل، أو تتخلف وتهبط إلى الحضيض.

٤. **د. عبد الحليم عويس؛ تفسير التاريخ، علم إسلامي:** عالج فيه المؤلف، تفسير التاريخ من منظور إسلامي ـ كعلم ـ له منهجه وقضاياه وأسلوبه في التحليل والاستنتاج. كما أكد فيه على ضرورة فقه الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى نشوء

الحضارة أو إخفاقها، مبينا أن الانسجام مع السنن الكونية والاجتماعية والتاريخية هو الطريق الوحيد لتقدم وتكامل الاجتماع الإنساني، وتجنبه المنزلقات الحادة في طريقه.

٥. **د. عماد الدين خليل؛ التفسير الإسلامي للتاريخ:** يعد تجربة رائدة، ومحاولة مبكرة، في تفسير التاريخ من منظور إسلامي. فقدم رؤية قرآنية ناصعة عن أصول منهج متكامل و شامل في التعامل مع حركة التاريخ الإنساني، انتقل فيها من مرحلة عرض وتجميع المفردات، إلى محاولة الربط والتنسيق فيما بينها، ثم استخلاص القوانين والسنن التي تحكم ظواهر التاريخ. بذلك يعد هذا الكتاب من المراجع الهامة التي لا غنى عنها لأي باحث في شؤون التاريخ؛ لما يتمتع به من أصالة في الفكرة، وعمق وشمولية في الرؤية، وفق منهجية علمية راقية.

٦. **مالك بن نبي؛ ميلاد مجتمع - شبكة العلاقات الاجتماعية:** فيه أفكار ممتعة، ونظرات واعية، في تحليل مشكلات الحضارة،كما هي حال سائر مؤلفاته القيمة، التي حملت روح التجديد في البحث، والتأمل العميق في طبيعة النفس الإنسانية، وحركة المجتمع البشري. احتوى هذا الكتاب شذرات نافعة، رفدت موضوع البحث. فقد بين أن حركة التاريخ وعملية تطور الأمة مرهونتان بالتغيرات النفسية والاجتماعية. واستطاع أن يحلل مشكلة أية حضارة إلى عناصرها الأساسية. وأكد على دور العنصر العقيدي في حركة التاريخ وبناء الحضارة. وكانت في أفكاره الأخرى، إضاءات قيمة، ساهمت في إفادة موضوع البحث من نواحي مختلفة.

٧. **السيد محمد باقر الصدر؛ المدرسة القرآنية:** يعد من المراجع الأساسية التي اعتمدها البحث في كافة فصوله ونواحيه؛ لما يتمتع به المؤلف من موقعية رائدة ومتميزة في العالم الإسلامي، فهو الفقيه والفيلسوف والمفكر والمرجع الديني الكبير، الذي شهد القاصي والداني بألمعيته ، و عمق تفكيره، وأصالة رؤيته، ودقة منهجيته، فاستطاع في وقت مبكر من أيام عمره الشريف أن يغني مسيرة الفكر الإسلامي، بنتاجاته الفذة، كاقتصادنا، وفلسفتنا، والأسس المنطقية للاستقراء، وسائر مؤلفاته الرائدة، فأتحف الفكر، وأشبع نهم العلماء والباحثين في مختلف مجالات الفكر والمعرفة الإسلامية. ومن جملة ثمرات قلمه المبارك، كتاب «المدرسة القرآنية» الذي انطلق فيه،بتفسيره الموضوعي

للقرآن، فانتخب «السنن التاريخية» موضوعا منها، حيث أكد منذ البدء على أن القرآن الكريم أول مصدر تحدث عن «السنن التاريخية»، بالقياس إلى البحوث الوضعية التي اهتدت بوقت متأخر إلى فكرة قانونية التاريخ، والتي أخفقت في صياغتها بشكل صحيح. ثم أعطى فكرة عامة عن سنن التاريخ، وبين مصاديقها ، وكيفية الإفادة منها في مجال السلوك الإنساني. فهو كتاب غني وثري في مادته، عكف على دراسته عدد من الباحثين ولازال بحاجة إلى مزيد من البحث و التحليل.

٨. **محمد تقي مصباح اليزدي ؛ النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ:** يعد ـ بحق ـ محاولة تجديدية في باب المعارف القرآنية؛ لإبراز نظرة الكتاب العزيز عن المجتمع والتاريخ. أقدم المؤلف ـ قرآنيا ـ على مناقشة عدة مفاهيم ونظريات لعلماء الاجتماع الغربيين. و قد أفدنا من قسمه الثالث، في بحث حرية الإنسان، وبحث التكامل في المجتمع والتاريخ، إفادة كبيرة. كذلك كان موضوع السنن الإلهية في تدبير المجتمعات في القسم الثاني عشر من أقسام الكتاب، ممتعا وموضع إثراء وعطاء لموضوع البحث.

٩. **محمد هيشور؛ سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها:** دراسة أكاديمية رائدة في ميدانها، احتوت على كثير من التحليلات الهامة، والتعليلات الممتعة، في طبيعة ثنائية الحضارة، من إقبال و إدبار،وذهاب وإياب، وقيام وسقوط. وقد أفاد الفصل الرابع من الكتاب ـ بشكل خاص ـ موضوع بحثنا، إفادة بالغة، حيث ركز فيه المؤلف على سنن القرآن في سقوط الحضارات، وبين أن أساس التغيرات والتحولات في حياة الأمم نابع عن عوامل داخلية وليس عن عوامل خارجية، كما بحث خلال سنن القرآن، أثر المقاصد والنوايا والاعتقادات في توجيه حياة الأمم؛ لما ينتج عنها من سلوكيات اجتماعية، وممارسات سياسية، تؤثر على طبيعة المصير الذي ينتظرها.

١٠. **الشيخ مرتضى المطهري؛ المجتمع والتاريخ:** وقد اعتمدناه وبقية كتب المؤلف الأخرى، مراجع أساسية في كافة فصول البحث.فقد كان المؤلف مفكرا إسلاميا فذا، عرف بأصالة أفكاره، ونضوج وعيه، واستيعابه الكامل لجوانب النظرية الإسلامية في مختلف شؤون الحياة.ومن جملة نتاجاته القيمة، كتابه «المجتمع والتاريخ» الذي بحث فيه

نظرية تطور المجتمع وفق مراحل التاريخ البشري، حيث تصدى فيه إلى مناقشة العديد من النظريات الوضعية التي فلسفت حركة المجتمع والتاريخ، خصوصا النظرية الماركسية التي بهرت كثيرا من شباب ومثقفي هذا العصر. وأثبت أن الرؤية الإسلامية، وبفضل القرآن العزيز هي الوحيدة القادرة على تفسير حركة التاريخ، بواقعية إنسانية وموضوعية.

- ٦ -

أما أهم الصعوبات أو المشاكل التي واجهها الباحث، فلعلها كانت في قلة المصادر والمراجع الإسلامية الأصيلة، ورغم أن القرآن الكريم، قد نبه إلى مثل هذه الدراسات الحيوية،و قدم لها كثيرا من الإشارات والحقائق الجلية التي شكلت إضاءات رائدة في هذا المجال. تبقى مسألة إشكالية المنهج المتبع في قراءة النصوص، وكيفية تفسيرها، والربط فيما بينها موضوعيا. علما أن كتب التفسير والحديث لم تتناول ذلك بشكل مباشر، وإن كانت لم تخل من إشارات تتعلق به من قريب أو بعيد. أضف إلى ذلك أن العلماء المسلمين الأوائل لم يبلغ اهتمامهم بمسألة «تفسير» أو «تحليل» أو «فلسفة» حركة التاريخ البشري، إلى الدرجة التي بلغت إليها اهتماماتهم في العلوم الأخرى. وعندما حاول بعضهم التطرق إلى هذا المجال من البحث، جاءت محاولاتهم عامة ومحدودة، دون أن تتوغل في إشكالياته بسعة و عمق، مما جعل مكتبتنا الإسلامية تعاني من فجوة ملحوظة في هذا الاختصاص. إلى أن جاء دور العلامة «ابن خلدون» واستطاع أن يخطو بمقدمته خطوات رائدة في دراسة التاريخ، إلا أنه ـ وللأسف ـ وبسبب ظروف الضياع التي عاشتها هذه الأمة خلال تلك الفترة، تجمدت حركة البحث التي بدأها هذا العالم الكبير،حتى جاء العصر الراهن، وأحس حملة الفكر والثقافة الإسلامية، أنهم قد تأخروا عن الركب في هذا المضمار، فشمروا عن سواعد الجد والاجتهاد نحو مواصلة المشوار. ولازالت محاولاتها المخلصة بحاجة إلى مزيد من الجهود المتواصلة؛ لتطويرها وإنمائها بشكل يتناسب وحجم عظمة وأهمية القرآن الكريم في مسيرة هذه الأمة الظافرة.

في الختام أود الإشارة إلى أن هذا الكتاب، هو رسالة ماجستير، نالت تقدير (ممتاز) من كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية في لبنان، وقد أجريت عليها بعض

التغييرات المحدودة.

وتأتي هذه المحاولة في دراسة «حركة التاريخ في القرآن الكريم» ضمن مسلسل المحاولات الطيبة التي يقدمها المخلصون من أبناء هذه الأمة؛ لرفد ثقافتها وترشيد مستقبلها المشرق بإذن الله تعالى. ورغم ما بذلته من جهود حثيثة في هذا السبيل، فهناك شعور يخالجني بالقصور والتقصير، وأن كثيرا من الأمور قد خفيت علي، أولم أتمكن منها، وهذا هو مقدار جهدي المحدود، فإن وفقت فيه، فذلك من فضل الله تعالى، وإلا فإني من طلاب العلم، ودائما بحاجة ماسة إلى التسديد والتوجيه من قبل أهل الدراية والمعرفة، والله ولي التوفيق.

- ٧ -

ولا يسعني في الختام، إلا أن أتقدم بجزيل الشكر والامتنان لأستاذي الفاضل، الدكتور حسان حلاق الذي تفضل بالإشراف على رسالتي وبذل الكثير من وقته وجهده في ذلك، وكان مثلا رائعا في دماثة أخلاقه، وسعة صدره، طيلة الفترة الماضية، ما يجعلني ذاكرا لفضله طوال حياتي، إن شاء الله تعالى.

وكذلك أتقدم بجزيل الشكر للأساتذة الأفاضل: الدكتور محمد علي محمد القوزي، والدكتور نايف معروف، لتجشمهم عناء قراءة الرسالة ومناقشتها.

والله المسؤول أن يأخذ بأيدينا لما يحبه ويرضاه، إنه نعم المولى ونعم النصير.

عامر الكفيشي

الشهير «أبو حيدر الكوفي »

دمشق في محرم الحرام / ١٤٢٢هـ

مارس /٢٠٠١م

الفصل الاول

أساسيات في ثقافة حركة التاريخ

تعريف مصطلح حركة التاريخ:

عند تحليل هذا المصطلح ـ من أجل شرحه ـ نجده يتألف من كلمتين هما «حركة» و «التاريخ»، ولكل واحدة منهما، مدلولها اللغوي والاصطلاحي الخاص بها.

أولا: المقصود بكلمة «حركة»:

في اللغة: هي اسم مأخوذ من التحريك، و هو الانتقال، وهو خلاف السكون(٥). وفي العرف العام، هي النقل من مكان إلى مكان، وتدعى: الحركة الأينية المسماة بالنقلة(٦). فعندما يحمل شيء وينقل من موضع إلى آخر فإن ذلك يسمى بالحركة.

في الاصطلاح: عند المتكلمين، هي حصول الجسم في مكان بعد حصوله في مكان آخر، فهي عبارة عن مجموع الحصولين(٧). لذا قيل: الحركة كونان في آنين في مكانين، و السكون كونان في آنين في مكان واحد(٨). وقال صاحب الأطول: لا تطلق الحركة عند المتكلمين إلا على هذه الحركة الأينية ، وهي المتبادرة في استعمالات أهل اللغة(٩).

أما معناها عند الحكماء، فهي الخروج من القوة إلى الفعل على التدريج أو يسيرا أو لا دفعة(١٠)، ومعنى التدريج: هو وقوع الشيء في زمان بعد زمان(١١).

يتضح من ذلك، أن الحركة هي ضد السكون، وهي التغير المستمر الذي يطرأ على الأشياء من حيث مكانها أو أحوالها، مقترنا بجهة الزمان كوعاء لها غير منفك عنها. بهذا فإن للحركة سرعة معينة، تحسب في خلال النسبة بين المسافة التي يقطعها المتحرك والزمان الذي يستغرقه لقطعها.

ثانيا: المقصود بكلمة «التاريخ»:

في اللغة: قال الرازي: «التاريخ» و «التوريخ»، تعريف الوقت. تقول: أرخ الكتاب بيوم كذا، و «ورخه» بمعنى واحد.[١٢]

وقد فرق الأصمعي بين اللغتين، فقال: بنو تميم يقولون: ورخت الكتاب توريخا، وقيس تقول: أرخته تأريخا، وهذا يؤكد كونه عربيا[١٣].

وقيل: إن التاريخ مأخوذ من الأرخ - يعني بفتح الهمزة وكسرها - وهو ولد البقرة الوحشية إذا كان أنثى، أو ولد البقرة الصغير، لأنه شيء حدث كما يحدث الولد[١٤].

وقيل: لفظ التاريخ، ليس بعربي محض؛ بل هو مأخوذ من «ماه روز» بالفارسية، «ماه: القمر» و «روز: اليوم» وكان الليل والنهار طرفاه[١٥].

وهذا ما قاله أبو الريحان البيروني (توفي: ٤٤٠هـ): بأن لفظ «تأريخ» تعريف لكلمة «ماه روز» الفارسية، و معناها حساب الشهور والأيام[١٦]، أو التوقيت بحسب القمر[١٧]، كما أن كلمة «ماه روز» تدعو إلى الشعور شعورا لا مراء فيه، بأن المراد منها تعيين بدء الشهر القمري[١٨].

هناك من الباحثين، من يناقش في صحة هذا الرأي، كالشرقاوي[١٩]، والعروي[٢٠]، وروزنثال[٢١]، ويصر الدكتور حسان حلاق على عروبة كلمة التاريخ، فيقول: «ولكن من الثابت، أن المناطق العربية الجنوبية اليمنية، استخدمت لفظ «ورخ» و «توريخ» قديما، و منها جاءت كلمة تاريخ و مؤرخ، وعلى هذا فإن كلمة تاريخ لفظ عربي أصيل، وإن استخدمت الشعوب القديمة لفظا مماثلا له»[٢٢].أما لماذا اعتمدت الشعوب سابقا القمر مقياسا لها في التقويم دون أن تعتمد السنة الشمسية؟ «لأن القمر يغيب كل شهر. أما السنة الشمسية فليس فيها من تقسيم ظاهر سوى توالي المواسم، وهو تقسيم غير سهل الملاحظة، وحدوده غير قاطعة، وهو ليس مقسما إلى أشهر...ولذا اتخذ البشر القمر أولا لعد الأيام والأشهر وإحصاء السنوات»[٢٣]. وهذا ما انتهجه المسلمون في صدر الإسلام، عندما اتخذوا من الشهر القمري مقياسا للتقويم الإسلامي، كما جاء في رواية ميمون بن مهران التي تقول: «إن الخليفة عمر لما جمع وجوه الصحابة (رضي الله عنهم) قال: إن الأموال كثرت، وما قسمناه غير مؤقت، فكيف التوصل إلى ما يضبط ذلك، فقال الهرمزان

ـ وهو ملك الأهواز وكان قد أسر عند فتوح فارس، وحمل إلى عمر فأسلم ـ إن للعجم حسابا يسمونه «ماه روز» ويسندونه إلى من غلب عليهم من الأكاسرة ، فعربوا لفظة «ماه روز» بمؤرخ، و جعلوا مصدره التاريخ، و استعملوه في وجوه التصريف، ثم شرح لهم الهرمزان كيفية استعمال ذلك، فقال عمر: ضعوا للناس تاريخا يتعاملون عليه و تصير أوقاتهم مضبوطة فيما يتعاطونه من معاملاتهم»[(٢٤)]، و جمع الخليفة عمر الناس فقال: من أي يوم نكتب التاريخ؟ فقال علي: من مهاجرة رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه)، وفراقه أرض الشرك. ففعله عمر[(٢٥)].

أما قبل الإسلام، فقد كانت العرب تؤرخ بالكوائن و الحوادث المشهورة، من قحط، أو خصب، أو قتل رجل عظيم، أو موته، أو وقعة مشهورة عند الناس[(٢٦)].

في الاصطلاح: تعددت تعاريفه، وتنوعت تبعا لثقافات وانتماءات ومذاهب الباحثين:

يقول خليفة بن خياط (توفي:٢٤٠هـ): وبالتاريخ عرف الناس أمر حجهم وصومهم وانقضاء عدد نسائهم، ومحل ديونهم، يقول الله تبارك وتعالى لنبيه (صلوات الله وسلامه عليه)[(٢٧)]:

﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾[(٢٨)]

أما الكافيجي (توفي:٨٧٩هـ)، فيضفي على التاريخ بعدا حضاريا فيقول : «التاريخ،تعريف الوقت بإسناده إلى أول حدوث أمر شائع، كظهور ملة، أو وقوع حادثة هائلة، من طوفان أو زلزلة عظيمة»[(٢٩)].

أما كلمة التاريخ عند السخاوي(توفي:٩٠٢هـ)، فقد أخذت بعدا اجتماعيا وثقافيا واضحا، فقال: «هي التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال، من مولد الرواة والأئمة ووفاة وصحة وعقل وبدن ورحلة وحج، وحفظ وضبط وتوثيق وتجريح، وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة من ظهور ملمة وتجديد فرض، وخليفة ووزير وغزوة وملحمة وحرب وفتح بلد وانتزاعه من متغلب عليه، وانتقال دولة، وربما يتوسع فيه لبدء الخلق وقصص الأنبياء، وغير ذلك من أمور الأمم الماضية، وأحوال القيامة ومقدماتها مما سيأتي أو دونها كبناء جامع أو مدرسة أو قنطرة أو رصيف أونحوها مما يعم الانتفاع به مما

هوشائع مشاهد أوخفي سماوي،كجراد وكسوف وخسوف أو أراضي،كزلزلة وحريق وسيل وطوفان وقحط وطاعون وموتان، وغيرها من الآيات العظام والعجائب الجسام والحاصل أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت بل عما كان في العالم» [٣٠].

أما العلامة ابن خلدون (٧٣٢ـ ٨٠٨هـ/١٣٣٢ـ ١٤٠٦م)، فقد أوضح مفهوم التاريخ بقوله: «إعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم. حتى تتم فائدة الإقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا» [٣١].

وقال في التاريخ ـ أيضا ـ: «إنه خبر عن الاجتماع الإنساني، الذي هو عمران العالم ومايعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش وتأنس العصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال» [٣٢].

نجد هنا «ابن خلدون»، «قد فهم التاريخ باعتباره ضرورة حضارية لفهم الإنسان من خلال تاريخه، فهو كشف للصراعات البشرية، ولطبيعة العمران المتطور من العمران البدوي إلى العمران الحضري، وما يترتب على هذه المسيرة البشرية من قيام وانهيار الدول المختلفة، وبذلك نرى أن كافة مظاهر النشاط الإنساني تندرج في ميدان التاريخ» [٣٣].

هكذا تطور معنى كلمة «تاريخ» مع الزمن حيث «في مبدأ أمرها كان تحديد الشهر، ثم اتسع فصار التوقيت العام، أي تحديد عهد حادث من الحوادث. ولا زالت اللغة في تطورها حتى شمل اللفظ رواية الحادث نفسه من جهة، وتحديده من جهة أخرى. وكانت هذه الخطوة الأخيرة في سبيل بزوغ كلمة التاريخ بالمعنى الاصطلاحي المعروف» [٣٤].

ومما تجدر الإشارة إليه: إن بعض الباحثين قد فرقوا في الكتابة بين كلمة «تأريخ» بالهمز، وبين كلمة «تاريخ» بالألف اللينة، حيث إن الأولى تفيد التحقيق و الضبط؛ لتسجيل الأحداث والتطورات التي حصلت في الماضي خوفا عليها من الضياع، أي علم التأريخ، بينما الثانية تفيد الإشارة إلى الماضي ذاته كأحداث وتطورات وواقع وجد قبل التأريخ [٣٥].

بذلك تكون كلمة «التاريخ» من حيث الاصطلاح، قد تقلبت بين عدة من المعاني، حتى أخذت تطلق بمعناها الواسع الشامل الذي يتعلق بكل ماله صلة بما حدث من فعاليات للبشرية في الماضي. هذا باختصار ما يتعلق بركني مصطلح «حركة التاريخ».

ثالثا:المقصود بمصطلح «حركة التاريخ»:

أما عن المصطلح كوحدة متكاملة، فالمقصود به: كيفية نشوء وتنقل أحوال الاجتماع الإنساني التي تنتظم عبر الماضي البشري، موصولة بالحاضر والمستقبل، بكل ما تحمله من قوانين وسنن، وأسباب ومؤثرات، تتداخل في نشوئها وتغيرها وتطورها وتسلسلها الزمني وما تعكسه من آثار ونتائج إيجابية وسلبية على الحياة البشرية. فاصطلاح «حركة التاريخ» يتضمن بعدين أساسيين :

١. البعد التاريخي

يشمل مجموعة أخبار وقائع وأحوال الاجتماع الإنساني الظاهرة على امتداد حركة الزمان المستمرة في الماضي .

٢. البعد الماورائي

لمجموع هذه الوقائع والأحوال الظاهرة، على امتداد حركة الزمان المستمرة ، المتمثل بالأسباب و العوامل الفاعلة و المؤثرة في تغيير و نمو و تطور ـ صيرورة ـ المسيرة البشرية، حاضرا ومستقبلا.

إذن ما نقصده «بحركة التاريخ» هو واقع مسيرة البشرية من جميع الوجوه، دون أن نهمل منه شيئا؛ ليشمل كل تفاعلات الحياة الإنسانية في الماضي، بلحاظ الحاضر والمستقبل؛ باعتبارها وحدة عضوية تتفاعل وتتكامل مع بعضها. إذ لا يمكن التفكيك بين «أجزاء الحضارة البشرية الواقعة على امتداد الزمان بعضها عن بعض، فكل جزء يرتبط بالجزء الذي قبله وبعده ارتباطا قويا، وكل جزء حصيلة الأجزاء السابقة، ومادة للأجزاء اللاحقة»[٣٦].

إن حركة التاريخ تمثل رؤية حضارية للحياة البشرية في وحدتها المتعددة المظاهر،

وفي تغيرها المستمر، منذ فجرها الأول، إلى يومنا الحاضر، وحتى المستقبل، رؤية واقعية شاملة، تنطلق من نظرة كلية عامة، وإدراك موضوعي عميق لكل مقوماتها؛ «لأن التاريخ، هو الحركة: حركة الكون وحركة الأرض وحركة الأحياء والناس على سطح الأرض، وما تستتبعه هذه الحركة الدائمة من تغير دائم. حيث إن الحركة والتغير مستمران منذ أن بدأ الله سبحانه الخلق إلى أن يطوي الأرض وما عليها، فإن التاريخ أيضا متصل منذ الأزل إلى الأبد، وهو يشمل الماضي والحاضر والمستقبل جميعا، فكله تاريخ، وكله ميدان عمل للمؤرخ، وهو نهر الحياة المتدفق الجاري المتجدد بما تأتي به منابعه، وما تأتي به روافده»[٣٧].

ومن الأهمية بمكان، أن نشير إلى أثر عنصر «الحركة» في دراسة التاريخ البشري، الذي يختزن في داخله «حركة الزمن المتدفق» دون أن يقبل «التجمد أو السكون» ليظهر معنى ومغزى التاريخ الإنساني، بشكل يختلف كثيرا عن دراسته في حالة سكونه فحسب؛ لأن «أثر الزمن في الأشياء والأعمار ظاهر لكل ذي بصيرة، فالزمن يفتت الحياة باستمرار، فما أن يبدأ وجود الحياة في شيء؛ بل ما أن يبدأ وجود شيء حيا كان أو غير حي، حتى يبدأ هذا الوجود بالذوبان والتفتت والضياع. إن الحياة تولد في الزمن، ولكن الزمن يغتالها باستمرار»[٣٨]. بذلك ينبغي أن تكون معرفتنا عن أمور وقضايا المجتمع البشري وما يدور فيه، معرفة على أساس أنها أمور جارية متحركة؛ لأن تاريخ الاجتماع الإنساني كأي موجود حي متحرك.

لماذا حركة التاريخ في القرآن الكريم ؟

إن السبيل الصحيح للتعرف على لب حركة التاريخ البشري، وإدراك سننها وقوانينها، والعناصر المؤثرة فيها، وفهم الروابط التي تشدها إلى الواقع الحاضر وإلى المراحل المستقبلية، لا يتم إلا بالرجوع إلى كتاب الله العظيم، فهو الوحي المنزل من العليم الخبير المحيط بكل شيء، وهو القول الفصل في كل أمر:

﴿ومن أصدق من الله قيلا﴾[٣٩]

وهو الإخبار الصادق في كل حديث:

﴿ومن أصدق من الله حديثا﴾[٤٠]

وسر الرجوع إلى القرآن الكريم في فهم حركة التاريخ، واكتشاف قوانينها وسننها الحاكمة عليها، يعود إلى ضعف القدرات الإنسانية، وعجز الوسائل المتاحة، وعدم قدرتها التامة على إدراك ذلك، والتوصل إليه بدقة، لأسباب عديدة، في مقدمتها:

أولا: طبيعة سعة الماضي

ثانيا: طبيعة التعقيد

ثالثا: طبيعة المنهج

نتحدث عنها بشكل موجز:

أولا: طبيعة سعة الماضي:

الذي هو موضوع حركة التاريخ، ذلك الماضي الممتد عبر قرون سحيقة من الزمن، الذي يرد التعبير عن قدمه في القرآن الكريم بلفظ «القرون» و «القرون الأولى»[٤١]. كما قال تعالى:

﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا﴾[٤٢]

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾[٤٣]

فالماضي البشري «ما أطوله مدى، وأوسعه مجالا، وأشده تداخلا وتعقدا ! أحقاب

مديدة، وأحداث متتابعة متشابكة، وأمم تعاقبت على مسرح الوجود، وشعوب تصارعت وتفاعلت و أنتجت وأجدبت، وحضارات تتالت وأخذ بعضها عن الآخر، وفعل بعضها في الآخر، أخذا وفعلا، قليلهما بارز بين، و كثيرهما خفي قصي. حياة إنسانية غنية القوى، متنوعة العناصر تشترك في تكوينها خوالج القلوب وهبات النفوس، وانطلاق الخيال وتوثب الفكر، وتصطدم في مرافقها الرغبات والأهواء والمطامع، ويمتزج في صنعها الخير والشر والحسن والقبح والحق والباطل. سلاسل متماسكة من الأحداث، ترتبط فيها السياسة بالاقتصاد، و الأدب بالاجتماع، و الفن بالأخلاق ، وتنبث هذه جميعا في خلاياها فتفعل وتنفعل، وتؤثر وتتأثر، وتخرج نتاجا متموجا صعب الممسك، سريع الانفلات. أي عقل بشري يستطيع أن يحيط بهذا كله ويسبر غوره؟ أي ذهن له من السعة والنفاذ ما يؤهله لوعي حقيقته؟»[٤٤].

من ناحية أخرى يمكن أن نؤكد شمولية وسعة حركة التاريخ البشري، بشكل لا يمكن الإحاطة بجوانبها، بالقول: «إذا كان الإنسان والزمان موضوع التاريخ، كما بين الإمام السخاوي، فهل بعد أشمل من الزمان وأشمل من الإنسان؟ وكيف لامرئ أن يحيط بالزمان ويعرف عوالم الإنسان؟»[٤٥]. ذلك ما يفرض علينا أن نعود إلى القرآن الكريم؛ لأنه وحي هاد وصادق من رب الإنسان والزمان :

﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾[٤٦]

ثانيا: طبيعة التعقيد:

الذي تشهده الساحة التاريخية، في تعدد أوجه النشاط البشري، وخفاء الكثير من أسرارها، يفرض حالة من الشك، وعدم الدقة العلمية في صحة النتائج التي يتوصل إليها البحث التاريخي، بخلاف المسائل المادية في الطبيعة، الخاضعة للتحليلات والتجارب المختبرية، التي تجعل الباحث العلمي مهيمنا على موضوع دراسته العلمية، مستوعبا لكل أبعادها، شاهدا عليها، معاصرا لها، فمثلا «الباحث التاريخي، الذي يريد أن يفسر المجتمع البشري، ونشوءه وتطوره ومراحله، في ضوء الظواهر التاريخية و الاجتماعية، لا يستطيع أن يتبين هذه الظواهر بصورة مباشرة، كما يتبين العالم الفيزيائي ظواهر الطبيعة، التي يدرسها في مختبره الخاص، وإنما هو مضطر إلى تكوين فكرة عنها، ترتكز على النقل والرواية،

وشتى المخلوقات العمرانية وغيرها من الآثار، ذوات الدلالة الناقصة. فالفرق إذن كبير جدا، بين الظواهر الطبيعية، التي يرتكز عليها البحث العلمي، في العلوم الطبيعية، بصفتها المواد الرئيسة له، وبين الظواهر التاريخية، التي يقوم على أساسها البحث التاريخي، بصفتها مواد أولية له...وهكذا يختلف البحث التاريخي، عن البحث الطبيعي من ناحية المادة - الظواهر -، التي يملكها الباحث، ويقيم عليها تفسيره واستنتاجه»[٤٧].

ثالثا: طبيعة المنهج:

الذي يسلكه الباحث التاريخي في دراسة الساحة التاريخية، والتي لا تختلف عن سائر الساحات الاجتماعية الأخرى، بتأثرها إلى حد كبير بذاتية الباحث، مهما ادعى النزاهة والموضوعية، فليس بإمكانه أن يتجرد تماما عن بعض القوى الداخلية، و التوجهات الخفية، التي تدفعه إلى الانحياز وعدم الحيادية في اتخاذ وجهات نظر أو أحكام معينة.

يبدو هنا الفرق واضحا بين دراسة الطبيعة وبين دراسة التاريخ ففي «الدراسة الطبيعية يمكن التجرد التام، وتجنب التأثير الشخصي للدارس في موضوع الدرس، أما في التاريخ فمن الصعب التجرد التام»[٤٨]. إن الأدلة المسوقة في تفسير أو تعليل حركة التاريخ، تكون متأثرة بإسقاطات وخلفيات الباحثين، وفي ذلك يقول كولنجوود في المسودة التي كتبها عام ١٩٣٦: «إن القديس أوغسطين نظر إلى التاريخ الروماني من وجهة نظر المسيحيين القدامى، ونظر إليه تلمونت من وجهة نظر فرنسي عاش في القرن السابع عشر، كما نظر إليه جيبون من وجهة نظر إنجليزي عاش في القرن الثامن عشر، أما مومسين فقد نظر إليه من وجهة نظر ألماني عاش في القرن التاسع عشر، ويبدو ألا جدوى من وراء التساؤل عن أي تقدير من هذه التقديرات هو الصادق؟ إذ الواقع أن أحدا من هؤلاء ما كان ليستطيع غير هذا التقدير».![٤٩]

ولابد من مجرد إشارة، تغني عن كل تفصيل، حيث وجدنا كل نظريات التفسير أو التعليل أو الفلسفة الوضعية لحركة التاريخ، التي قامت على بعضها دول، واحتشد لبعض منها الكثير من المؤيدين والأنصار، كيف تساقطت وانهارت الواحدة تلو الأخرى، كما

حصل للماركسية، وما ذلك إلا دليلا واضحا على فشل كل المحاولات التي تريد أن تستوعب حركة التاريخ بعيدا عن الاهتداء بوحي السماء.

إن هذه الأسباب وغيرها، تحدونا إلى العودة إلى كتاب الله العزيز، للاسترشاد برؤيته الربانية الحقة؛ لمعرفة كيف تمضي حركة التاريخ. «فالقرآن الحكيم هو النبع الأصيل لإمداد الحياة بروافد الفكر المهتدي بنور الوحي الإلهي، فياض بالعلوم والمعارف، زخار بروائع الحقائق، يستثيره الباحثون بالبحث والنظر فيعطيهم من خزائن حكمته ما تشاء عقولهم المسلمة من فلسفته»[٥٠].

ومن الأهمية بمكان، التأكيد على أن القرآن الكريم، ليس كتابا تاريخيا، ولا علميا؛ لنترقب منه أن يكشف عن حقائق، ومبادئ العلوم المختلفة بما فيها علوم التاريخ؛ لأنه ما نزل ليطرح نفسه بديلا عن قدرات الإنسان ومواهبه العلمية، وسعيه الجاد، في اكتشاف القوانين والسنن الكونية، والتوصل إلى معرفة الحقائق والمبادئ العلمية التي تحكم الأشياء والموجودات. إنه كتاب دعوة وهداية، نزل بمنهج رباني قويم لدعوة الناس إلى الله تعالى، وهدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور[٥١]، وتفجير طاقاتهم الإنسانية الكامنة، نحو الإيمان والمعرفة والاستقامة في الحياة:

﴿قد جاء كم من الله نور وكتاب مبين(١٥)يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾[٥٢]

لقد قدم القرآن المجيد رؤية واضحة وشاملة حول حركة التاريخ البشري، في خلال ما تضمنه من إشارات وشواهد قصصية في هذا المجال، إذ بمقدوره أن يجيبنا على كل ما يتعلق بهذه الحركة، وما تحتمله من تساؤلات، فيبين: ما هو التاريخ البشري، وكيف بدأ؟ وكيف نما وتطور؟ وهل يتحرك بلا مغزى؟ وهل حركته نحو التكامل أم الانحطاط؟ وهل له سنن وقوانين تتحكم في حركته وتطوره؟ وما هي العوامل الأساسية في حركته؟ وما هو دور الإرادة الإلهية في ذلك؟ وأين يكون موقع النشاط الإنساني فيها؟ وعلى هذا «فمن يزعم أن القرآن يخلو من بذور المذهب التاريخي يكون في ضلال مبين»[٥٣].

إن من خصائص الرؤية القرآنية لحركة التاريخ، أنها ترفض بشكل مطلق تلك النظرة العفوية أو الاستسلامية في تفسير حركة التاريخ وتعليلها، كما بين القرآن العزيز في خلال

أسلوبه الفني، ومنهجه الرائع، في آيات عديدة، أن حركة التاريخ تحكمها سنن وقوانين مثلما هناك سنن وقوانين تحكم حركة هذا الكون الفسيح في مجالاته المختلفة، ولهذا كان الإلحاح القرآني بالدعوة إلى السير في الأرض، وبالنظر إلى سنن الذين خلوا من قبل، والتأمل في مصائر الأمم والحضارات الذاهبة، وفقه سنن إقبالها وأدبارها، وعوامل رقيها وأسباب سقوطها، وكيف ازدهرت وكيف اندثرت[٥٤]. يقول تعالى:

﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين (١٣٧) هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾[٥٥]

كما نبه القرآن الكريم إلى أهمية دور الإنسان وفاعليته في صنع حركة التاريخ، ليبادر إلى التحكم فيها لا أن تكون هي المتحكمة فيه. فهو محور التغيير، وبيده مفتاح حركة التاريخ. يقول تعالى:

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[٥٦]

مفهوم حركة التاريخ عند العرب

١. مرحلة ما قبل الإسلام:

لعل غريزة حب الاستطلاع عند الإنسان، كانت وراء اهتماماته الأساسية نحو سبر أحوال الماضي وتفهم القوى المتنفذة في تكوينه؛ لإشباع حاجته في الإجابة عما يدور في خلده من تساؤلات؛ من أين أتى؟ ومن سبقه؟ وكيف سيكون مصيره؟ وقد يكون هذا الإحساس التاريخي بالماضي لدى الإنسان، هو الذي دفع المؤرخ الفرنسي المعاصر «لوسيان فيفر» أن يعبر عنه بالاتجاه النفسي لدى الإنسان عندما عرف التاريخ بأنه، «حاجة الإنسانية بكليتها، وحاجة كل جماعة بشرية، في كل لحظة من لحظات تطورها؛ للبحث في الماضي، وإبراز الوقائع والأحداث، والتطلعات التي تهيئ الزمن الحاضر، وتسمح بفهمه وتساعد على الحياة فيه»(٥٧).

فالإنسان يمتاز على سائر الكائنات الحية الأخرى، بأنه يحمل حسا روحيا يدفعه إلى التطلع دائما نحو السمو والعلو، وكثيرا ما يشعر بالسأم والملل حتى بعد إشباع سائر الجوانب المادية الأخرى لديه، إذا لم يشبع جوانبه الروحية، ومن جملة حاجاته الروحية والنفسية الأصيلة والقديمة عنده، إشباع إحساسه بما يدور حوله، وتطلعه لفهم ما وراء ذلك(٥٨).

ولا تقتصر هذه النزعة التاريخية «على توق الإنسان، في كل حال وزمان إلى تذكر حوادث الماضي وحفظها وترديدها؛ بل تتعدى ذلك إلى التساؤل عن القوى التي تحرك ذلك الماضي، وعن المصير الذي يسير إليه، والقدر المخبأ له. ونرى هذا التساؤل في دعوات الأنبياء والمصلحين، وفي تطلعات الشعراء والفنانين، وفي استقراءات العلماء والفلاسفة؛ بل في خلجات نفس كل حي وتأملات فكره، عندما يعود إلى نفسه ويحاول

استجلاء معنى الحياة وسر الوجود»[٥٩].

إن اهتمام الإنسان في الماضي، تعبير عن حبه وشوقه لمعرفة ما جرى للبشر الذين سبقوه، وهذا ما يعلل وجهة التاريخ بمعرفة الماضي، فالتاريخ بمفهومه العام يكون من أقدم العلوم الإنسانية التي مارسها الإنسان منذ بداياته الأولى، وقد كان الإنسان فيما يسمى «بحقبة ما قبل التاريخ» التي سبقت عصر اختراع الكتابة يحمل التاريخ عن طريق المشافهة من جيل إلى جيل[٦٠].

وحينما «أخذ الإنسان البدائي منذ فجر المدنية يقص على أبنائه قصص أسلافه ممتزجة بأساطيره ومعتقداته، بدأ التاريخ يظهر إلى حيز الوجود في صورة بدائية أولية، وبدأ الإحساس به يتكون في ذهن البشرية منذ أقدم العصور، وتدرج التعبير عن التاريخ مختلطا أولا بعناصر من الفن، كالرسم والنقش على الحجر. وعندما سارت البشرية قدما في مضمار الحضارة في شتى أساليبها وصورها، رويدا رويدا، أخذ التاريخ يشكل أساسا جوهريا في تسجيل موكب البشرية الحافل الدؤوب، إذ هو المرآة أو السجل أو الكتاب الشامل الذي يقدم لنا ألوانا من الأحداث وفنونا من الأفكار وصنوفا من الأعمال والآثار»[٦١].

وعندما نعود إلى العرب قبل الإسلام، فبالرغم من وجود حس تاريخي نسبي، في كل من وادي الرافدين، ووادي النيل، وبلاد اليمن (عرب الجنوب)، وتدمر، والأنباط، والمناذرة، فإن منطقة نجد والحجاز، قد تأخر فيهما ميلاد مثل هذا الوعي أو الحس التاريخي[٦٢].

فالتاريخ عند أهل الحجاز وبدو نجد قبل الإسلام، كان يمثل لونا من ألوان الأدب والمسامرة وسرد الحوادث والوقائع التي يتداولونها في حلقات السمر التي تعقد أمام الأخبية والخيام بما يتوخى منه إمتاع النفوس ومؤانستها، وإثارة كوامنها بذكر العجائب والأوهام والتهويلات الخرافية[٦٣]، وبعبارة أخرى: لم يكن لدى العربي الجاهلي شعورا باستمرار الأحداث وديمومتها، وتفاعلها الداخلي، وعلاقتها بحاضره ، وإمكانات تأثيرها في المستقبل على النحو الذي يصح أن يسمى وعيا تاريخيا[٦٤]. لأن تحقيق الحس التاريخي، لدى أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية، يحتاج إلى «أن تكون لديه فلسفة ما

للحياة: دينية تفسر مغزاها، أو سياسية تبرر حركتها. فهل كان لعرب الجاهلية مثل هذه الفلسفة الدينية أو السياسية التي يمكن أن تخلق هذا الوعي الخاص بالتاريخ؟»[٦٥]. إن افتقاد عرب الجاهلية لمثل هذه الفلسفة الشاملة، جعلهم يفتقدون هذا الحس أو النظرة الحضارية للتاريخ، على الرغم من احتفاظهم ببعض القصص والأخبار عن العرب البائدة، وجيرانهم من أهل الكتاب، والأمم المجاورة، من الفرس والروم والأحباش والهنود وغيرهم، وهي قصص تمتزج فيها الحقيقة التاريخية بالأسطورة الشعبية، لإثارة الحس والخيال عندهم.

ويبرز هنا دور «الدين» كعامل أساسي في يقظة الحس التاريخي لدى أية أمة ما، كما يؤكد أحد الباحثين المعاصرين قائلا: قد أبرزت الأساطير القديمة أيضا ضياع بعض الشعوب التاريخي والجغرافي بسبب فقدان الإيمان والعقيدة، فالوظيفة الأساسية لكل عقيدة هي أن تصوغ للجماعة تصورا عن التاريخ، هذا التصور الذي يشرط ويحدد في نهاية المطاف مجموعة نشاطاتها وأفعالها واختياراتها الكبرى[٦٦].

وقد يعود السبب في عدم نضج الوعي التاريخي لدى هؤلاء العرب، إلى أن البيئة الصحراوية القاسية لم تساعد على الاستقرار، وقيام مجتمع متحضر (في نجد) خاصة، مما أضفى على نشاطهم الاقتصادي بطابع الرعي، وعلى حياتهم الاجتماعية بطابع البداوة والترحال، فأصبح النمط الثقافي السائد في المنطقة العربية، شفهيا يقوم على الأيام والأنساب[٦٧].

إن ما يسمى «بأيام العرب»، وهي وقائعهم وحروبهم، التي حفرت في ذاكرتهم، كحرب البسوس وداحس والغبراء وذي قار وسواها، «لا تدل على تصور كوني واضح للتاريخ يربط بين ماضي الأمة وحاضرها على نحو حضاري شامل. ذلك أن قصص الأيام، لم تكن تمثل في مضمونها الحقيقي مادة تاريخية يعتد بها، كذلك لم يكن الهدف من تناقلها تكوين مادة تاريخية محددة، وإنما كانت ترجع في أغلب الظن إلى الرواية الأدبية أكثر مما ترجع إلى الرواية التاريخية»[٦٨].

أما بالنسبة إلى الأنساب التي بالغوا فيها واهتموا بها كثيرا، «فكانت على رغم كونها أكثر دلالة على وجود الإحساس التاريخي؛ إلا أنها ذات أهمية تقل كثيرا عن أهمية

الأيام، كشكل من أشكال التعبير التاريخي، لأنها تفتقد وجود عناية للاحتفاظ بكمية مناسبة من الأحداث التاريخية المتصلة بأفراد شجرة النسب»[٦٩].

واللافت للنظر ـ أيضا ـ أن العرب لم يكن لديهم تقويم ثابت ينسبون إليه الوقائع والأحداث التي يشهدونها؛ بل كانوا ينسبونها إلى حوادث أكثر أهمية وشهرة منها، فكانت قبائل الحجاز وما يجاورها تؤرخ بأيام وقائعها المشهورة، كحرب البسوس وعام الفيل مثلا. وأما قبائل اليمن التي تنتمي إلى حمير فكانت تؤرخ بالتبابعة ،والتي تنتمي إلى غسان كانت تؤرخ بسد مأرب، كما كان أهل صنعاء يؤرخون بظهور الحبشة[٧٠].

لذا فإن عرب الجاهلية قبل الإسلام لم يكن لديهم شعور بالزمن كمفهوم حضاري، يجعلهم يتفاعلون مع الوقائع والأحداث، وينظرون إلى إمكانات تأثيرها في المستقبل على النحو الذي يمكن أن يسمى وعيا تاريخيا، الأمر الذي أفقدهم ـ أيضا ـ النظرة العلمية لحركة التاريخ.

«وهكذا يمكن القول: بأن الأمة العربية قبل الإسلام كانت تفتقد الحس التاريخي الواضح، فضلا عن دعوى التعلق بفهم مغزى فلسفي للتاريخ في حركته العامة»[٧١].

٢. مرحلة ما بعد الإسلام:

بعد ظهور الإسلام، وتكامل نزول القرآن الكريم، بدأ الوعي التاريخي يدب في أعماق الإنسان المسلم، بعد أن أدرك دوره الرسالي ،وأخذ يتحسس أبعاد عمقه في التاريخ، وأصبح يتجاوز حدود قبيلته الضيقة، في خلال القصص القرآني، الذي قدم له حديثا ضافيا حول بداية خلق الإنسان، وكيف تكون المجتمع الإنساني، وما جرى على الأمم السالفة من أحداث... في سبيل أن يتحمل مسؤولياته الإسلامية الكبيرة، التي تفرض عليه أن يصنع تاريخا موصولا بما وعاه من تاريخ الأمم الماضية كما تعلمه من الكتاب والسنة الشريفة، وهكذا وجد الوعي التاريخي لدى الإنسان المسلم[٧٢].

إن مجيء الإسلام قد غير من فهم العرب للتاريخ بشكل ملحوظ،حيث «وجد الباحثون النطاسيون[٧٣] في القرآن الكريم،إطارا متكاملا لتفسير التاريخ،يتناول الواقعة التاريخية تناولا تحليليا،ويتناول الحضارة تناولا تركيبيا...ويقدم في خلال منهجي التحليل

والتركيب ـ في أروع تكاملهما ـ تفسيرا للعملية الحضارية في سائر مراحلها»[٧٤].

قدم القرآن الكريم منهجا متكاملا في التعامل مع التاريخ البشري، في خلال إشارته إلى السنن والقوانين التي تحكم حركة المجتمع والتاريخ، وما تضمنه من عروض تأريخية حفزت المسلمين نحو دراسة التاريخ بشمولية ووعي، يقول تعالى:

﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين (١٣٧) هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾[٧٥]

﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾[٧٦]

كما أن في أحاديث الرسول الأكرم (صلوات الله وسلامه عليه) إشارات واضحة وصريحة تتصل بوعي حركة التاريخ، والتعامل مع أبعادها وآثارها الحضارية. فقد كان يحسس أصحابه بدور التاريخ بتذكيرهم بما جرى لأسلافهم من قبل، وما حل من دمار بهم، نتيجة أعمالهم، فروى سالم بن عبد الله عن أبيه (رضي الله عنه)،أن النبي (صلوات الله وسلامه عليه) لما مر بالحجر[٧٧] قال:

﴿لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا، إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم. ثم تقنع بردائه وهو على الرحل﴾[٧٨].

إن في هذا الموقف النبوي الرائع دعوة واضحة إلى دراسة أفعال الماضين، والنظر في آثارهم للاعتبار بما أصابهم بسبب أعمالهم.

كان (صلوات الله وسلامه عليه) ـ دائما ـ يحدث أصحابه عن أحوال الأنبياء والمرسلين السابقين، وعن أممهم، وما جرى لهم، وفي ذلك تحسيس واضح نحو وعي التاريخ، فقد جاء في حديثه (صلوات الله وسلامه عليه) عن الخضر وموسى (عليهما السلام)، ما رواه أبي بن كعب، عندما سأله ابن عباس عن لقاء موسى بالخضر، فقال: «نعم سمعت رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه) يقول: بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل جاءه رجل فقال: هل تعلم أحدا أعلم منك؟ قال: لا. فأوحى الله إلى موسى: بلى عبدنا خضر، فسأل موسى السبيل إليه، فجعل له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه، فكان يتبع الحوت في البحر، فقال لموسى فتاه: أرأيت إذ آوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت

وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره. فقال موسى: ذلك ما كنا نبغي، فارتدا على آثارهما قصصا، فوجدا خضرا، فكان من شأنهما الذي قص الله في كتابه» [٧٩].

وروى الترمذي، عن الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) قال:

«تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم» [٨٠].

قال حاجي خليفة: «وقد ورد في الأثر، عن سيد البشر، من ورخ مؤمنا فكأنما أحياه» [٨١].

أما السخاوي ،فقد ذكر عن الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) ما روي عنه:

«من ورخ مؤمنا فكأنما أحياه ، ومن قرأ تاريخه فكأنما زاره...وعنه أيضا: ذكر الصالحين من الأموات، رحمة للأحياء من أهل المودات ، ويرجى لمن ورخ جماعة أن يشفع السعيد منهم في الشقي» [٨٢].

ونسب للرسول الأكرم (صلوات الله وسلامه عليه) قوله:

«لا تدع التاريخ فأنه يدل على تحقيق الأخبار وقربها وبعدها» [٨٣].

كما ذكرت المصادر الإسلامية، اهتمامات كبار الصحابة (رضي الله عنهم) بوعي حركة التاريخ، فجاء في وصية الإمام علي بن أبي طالب لولده الحسن (عليهما السلام)، يدعوه فيها إلى قراءة التاريخ، والنظر في أحوال الماضي، للاتعاظ و الاعتبار بما جرى لهم، فقال:

«أحي قلبك بالموعظة ...واعرض عليه أخبار الماضين، وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين.وسر في ديارهم وآثارهم، فانظر فيما فعلوا، وعما انتقلوا، واين حلوا ونزلوا! فإنك تجدهم انتقلوا عن الأحبة، وحلو دار الغربة؛ وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم... أي بني، إني وإن لم أكن عمرت عمر من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم، وفكرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم؛ حتى عدت كأحدهم؛ بل كأني بما انتهى إلي من أمورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم ؛فعرفت صفو ذلك من كدره، ونفعه من ضرره» [٨٤].

وفي خطبة أخرى له (عليه السلام)، يقول مخاطبا أصحابه:

«..وإن لكم في القرون السالفة لعبرة! أين العمالقة! أين الفراعنة و أبناء الفراعنة! أين

أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيين، و أطفئوا سنن المرسلين ، و أحيوا سنن الجبارين! أين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا الألوف، وعسكروا العساكر، ومدنوا المدائن!» [٨٥].

وذكر ابن النديم (توفي: ٣٨٠) في الفهرست جمعا من المصادر الأساسية، اهتمت ـ منذ وقت مبكر ـ بالأعمال التأريخية، كتأريخ الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) والخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم)، والوقائع والأحداث التي مر بها المسلمون والدولة الإسلامية في صدر الإسلام وما بعده من العصور الأخرى [٨٦]، كما نجد عملا ببليوغرافيا أكثر تفصيلا قام به السخاوي (في القرن العاشر الهجري) جمع فيه أهم النتاجات التاريخية الواصلة إليه [٨٧].

هكذا، بفضل القرآن الكريم والسنة الشريفة، استطاع المسلمون خلال عصر ازدهار الحضارة الإسلامية ـ في القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) ـ أن يتوسعوا في دراسة القرآن الكريم، ويستخرجوا منه عددا من العلوم المتفرعة عنه، كعلوم التفسير والإعجاز والقراءات وغيرها، كما استطاعوا ـ أيضا ـ أن يؤسسوا لعلوم أخرى تتصل بالقرآن الكريم، كعلوم الحديث والعقيدة والفقه واللغة وغيرها، حتى أحدثوا ثورة علمية كبرى على مختلف الأصعدة في العالم. غير أن ذلك العقل الإسلامي الفذ، الذي تمكن من فتح باب العلم على مصراعيه، وشيد أعظم صروح المعرفة الإنسانية في الدنيا، نراه ـ وللأسف الشديد ـ قد أهمل دراسة أبعاد وعمق حركة التاريخ في القرآن الكريم، رغم الاهتمام الكبير بدراسة قصص القرآن الكريم، والتأمل الواسع بما جاء فيها؛ إلا أنه تناولها بطريقة السرد التأريخي ، دون أن يحاول استخلاص ما فيها من روح واستكشاف ما وراءها من سنن وقوانين، تحكم حركة التاريخ والمجتمع [٨٨].

ورغم التطور والوعي الكبير الذي أحدثه ظهور الإسلام في الفكر التاريخي، فقد ظل التاريخ عند المسلمين إلى عهد ابن خلدون (القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي) يسوده الطابع الإخباري في سرد الوقائع والأسماء والأوقات، دون تحليل وتعليل، ونفاذ إلى باطن الأمور. ولما جاء ابن خلدون، عاب على أكثر المؤرخين القدامى منهجهم في التاريخ، فقال: «ثم إذا تعرضوا لذكر الدولة، نسقوا أخبارها نسقا، محافظين على نقلها،

وهما أو صدقا، لا يتعرضون لبدايتها، ولا يذكرون السبب الذي رفع من رايتها، وأظهر من آيتها، ولا علة الوقوف عند غايتها، فيبقى الناظر متطلعا بعد إلى افتقاد أحوال مبادئ الدول ومراتبها، مفتشا عن أسباب تزاحمها أو تعاقبها، باحثا عن المقنع في تباينها أو تناسقها»[٨٩].
فدعاه ذلك إلى وضع كتابه الذي قال عنه: «فأنشأت في التاريخ كتابا، رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجابا، وفصلته في الأخبار والاعتبار بابا بابا، وأبديت فيه لأولية الدول والعمران عللا وأسبابا... إلى أن يقول: وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا، واخترعته من بين المناحي مذهبا عجيبا، وطريقة مبتدعة وأسلوبا، وشرحت فيه أحوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية، ما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها، ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها، حتى تنزع من التقليد يدك، وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك»[٩٠].

هكذا لم يشأ ابن خلدون أن ينظر إلى التاريخ كرواية تدون؛ بل كعلم يستحق الدرس. وقد أراد أن يكتب التاريخ على أسس علمية منهجية تعتمد على الشرح والتحليل، فدرس أحداثه وظواهره ليجرد منها قوانين عامة ونواميس مطردة، فمناط عظمة «ابن خلدون» ومعقد الطرافة فيه أنه لم يتقدمه باحث عربي أو يوناني قدحت في ذهنه هذه الفكرة الجريئة، تجريد القوانين والنواميس العامة المسؤولة عن سير التاريخ... وهكذا فلئن كنا نجل «ابن خلدون» فليس ذلك لأنه جاء بموسوعة تاريخية عظيمة في عصره؛ بل لأنه قام بمحاولة فذة رائدة في فهم التاريخ وتحليل أحداثه وردها إلى عللها وأسبابها القريبة والبعيدة...وبعبارة أخرى إن التاريخ عنده لم يعد سردا للحوادث بل أصبح تعليلا لها[٩١].

بذلك يعد «ابن خلدون» أول من نظر من علماء المسلمين إلى التاريخ البشري، نظرة شاملة واعية، واستخلص من المدونات التأريخية التي سبقته آراء جديدة في تفسير وتعليل حركة التاريخ، لم تكن معروفة عند غيره من المؤرخين المسلمين.

وجاء «محيي الدين، محمد بن سليمان، الكافيجي»، (٧٨٨ ـ٨٧٩هـ) بعد «ابن خلدون»، وقدم كتابا يهتم بمعالجة نظرية علم التأريخ، وقد سماه «المختصر في علم التاريخ»، كتبه سنة (٨٦٧ هـ ـ١٤٦٣ م)، و هو كتاب جدير بالاهتمام؛ لأصالة طريقته، وجودة كتابته، وقد أجاب فيه باختصار عن المسائل المتعلقة بخصائص علم التأريخ وغرضه، وهدفه، وفوائده.

غير أنه كرس مجالا أوسع للمعضلات الناجمة عن غموض كلمة «تأريخ» العربية، وعن مركز التأريخ في العلوم الدينية الإسلامية[٩٢].

ويعتقد الكافيجي، أن علم التأريخ، من جملة العلوم الهامة، التي تربط الإنسان وتوصله بالله تعالى لما فيه من فوائد جمة، فقال في مقدمة كتابه: «وبعد فإن من جملة العلوم النافعة في المبدأ والمعاد، وما بينهما علم التأريخ الذي فوائده وغرائبه لا تعد ولا تحصى وهو بحر الدرر والمرجان، لا يحيط بمنافعه نطاق التحديد والتبيان وفيه عجائب الملك والملكوت، وفيه إيصال إلى جانب الحق ذي العظمة والجبروت»[٩٣]. بل ذهب الكافيجي إلى أبعد من ذلك، عندما عد علم التأريخ من العلوم الواجبة كفائيا،فقال: «وإنه واجب علمه على سبيل الكفاية كوجوب سائر العلوم لضبط زمن المبدأ و المعاد ومابينهما على أحسن ما يكون»[٩٤].

كما توافرت لدى الكافيجي نظرة واعية متقدمة لحركة التاريخ، تشكلت عنده فور اكتشافه للوظيفة الأساسية للتاريخ، كشف عنها خلال فهمه وإدراكه لموضوع علم التاريخ، بقوله: «وأما موضوعه، فهو أمور حادثة غريبة لا تخلو من مصالح، وترغيب، وتحذير، وتنشيط، وتثبيط، ونصح، واعتبار، وبسط، وانفعال، بحيث يلاحظ فيها ضبطها بتحرير تحديد، وتقرير تعيين وتوقيت؛ لغرض صحيح في ذلك كوقائع متعلقة بالأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام). قال الله تعالى:

﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[٩٥]

كما قال تعالى:

﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾[٩٦]

وكسائر حوادث من الأمور السماوية والأرضية من حدوث ملة وظهور دولة، وزلزلة، وطوفان، وموتان ، إلى غير ذلك من الحوادث الصائلة العظام ، والأمور الهائلة الجسام»[٩٧].

وما دل على وعي الكافيجي لحركة التاريخ، هو دفاعه الشديد عن علم التأريخ، أمام القائلين بعدم نفعية الانشغال به، برده عليهم قائلا: «بل فيه فوائد لا تحصى، منها إحاطة تلك

الحوادث الجزئية على وجه معتبر بهذا العلم الشريف، ولولاه لكان الخائض فيها يتكلم فيها كيف ما اتفق، بلا تمييز بين صحيح وفاسد، وتخبط فيها خبط عشواء، فيكون كحاطب ليل، فيكون هذا العلم قانونا لها، وميزانا، وعيارا، ومكيالا لها، فإذا اتزنت بهذا الميزان تكون صحيحة العيار، معتبرة لدى أولي الأبصار والأفكار»[(٩٨)].

ثم جاء «شمس الدين السخاوي» (٨٣١ ـ ٩٠٢هـ) صاحب كتاب «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» الذي أقام فيه نصبا قيما لعلم التأريخ العربي، ودافع فيه عن دراسة التأريخ كموضوع ثقافي مساعد في مناهج الدراسة الدينية، كما يعد كتاب السخاوي عرضا جميلا لعلم التأريخ الإسلامي وآماله ومعضلاته لمن يعرف كيف يقرأه[(٩٩)].

لقد أعطى السخاوي بعدا علميا للتاريخ على ضوء:[(١٠٠)]

١ـ تعريفه لعلم التأريخ بقوله: «إن التاريخ فن يبحث فيه عن وقائع الزمان وحيثية التعيين والتوقيت؛ بل عما كان في العالم».

٢ـ توضيحه لموضوع علم التأريخ بقوله: «وأما موضوعه، فالإنسان والزمان».

٣ـ تحديده لمسائل علم التأريخ بقوله: «ومسائله، أحوالهما ـ أي الإنسان و الزمان ـ المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان».

٤ـ تبيينه لفوائد علم التأريخ بقوله: «وإن ـ التأريخ ـ جم الفوائد، كثير النفع لذوي الهمم العالية والقرائح الصافية، لما جبل عليه طباعهم من الارتياح عند سماعهم هذه الأخبار إلى التشبه والاقتداء بأربابها؛ ليصير لهم نصيب من حسن الثناء،وطيب الذكر». وقال السخاوي ـ أيضا ـ في التأريخ : «غزير النفع، كثير الفائدة، بحيث يكون من عرفه، كمن عاش الدهر كله، وجرب الأمور بأسرها، وباشر تلك الأحوال بنفسه، فيغزر عقله، ويصير مجربا غير غر ولا غمر»[(١٠١)].

لقد مثل كل من «الكافيجي» و «السخاوي» مرحلة التنظير للكتابة التاريخية، بشكل منهجي، مثلت دعما لما أرساه «ابن خلدون» من قواعد في دراسة التاريخ، حتى أصبح التأريخ علما له موضوعه، ومسائله، وفوائده، وقوانينه. هكذا أعطى الإسلام بمجيئه،للتاريخ بعدا علميا وروحيا وأخلاقيا، مستمدا من أصل العلاقة التي تربط بين الإنسان وربه، تلك العلاقة التي بوأت للإنسان موقعه في الأرض، كخليفة لله عز وجل.

أثر الوعي القرآني لحركة التاريخ في مسيرة الفرد والأمة

في القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو إلى وعي حركة التاريخ، والتسلح بالثقافة التاريخية الصحيحة، في خلال السير في الأرض، والنظر في آثار الغابرين، يقول تعالى:

﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين (١٣٧) هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾(١٠٢)

﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾(١٠٣)

﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾(١٠٤)

﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوةوأثاروا الأرض وعمروهاأكثرمما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فماكان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾(١٠٥)

إن التاريخ يشكل مصدرا هاما من مصادر المعرفة والثقافة، وليس كما يتصور بعضهم أنه مجردعلم الماضي؛ بل هوعلم الحاضر والمستقبل أيضا؛ لما يقدمه من عطاءات كثيرة ومختلفة للأجيال البشرية،فالتاريخ كما يكشف عن الكثيرمن الحقائق العلمية، التي تحكم وتفسرحركة الاجتماع الإنساني،فإنه يحمل بين جوانحه ـ أيضا ـ الكثير من التجارب والدروس والعبر التي تحتاج إليها الإنسانية في مسيرتها،لتتعلم منها، وتتربى عليها. «فالحياة كثيرا ما تواجهنا بمشكلات، منها البسيط ومنها المعقد، التي يشكل الفهم التاريخي بعدا هاما من أبعاد فهمها ككل» (١٠٦)، ومسيرة الحياة بحر متلاطم الأمواج، تنطوي على مفاجآت مذهلة، لا يقوى على تجاوزها إلا من يملك رؤية شمولية واضحة عما يجري فيها، فالهدف من دراسة حركة التاريخ « قد لا يكون مجرد التعرف على الحدث التاريخي، أو حتى مجرد التعرف على الأسباب والعلل التي وراء ها؛ بل أكثر من ذلك بكثير، وهو التعرف على فلسفة الحياة ككل» (١٠٧).

والقرآن الكريم وضع التاريخ في موضعه التربوي الأخلاقي، ليستطيع الإنسان

بواسطته أن يتعرف على العناصر التي ترتكز عليها حركته، والسنن والقوانين التي تحكم أحداثه وظواهره في مختلف المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والحربية وغيرها ليهتدي إلى سبيل الخير والصلاح، يقول تعالى:

﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾[١٠٨]

﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ماكان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[١٠٩]

ومن الأهمية بمكان القول: بأن الدول والشعوب في التاريخ المعاصر باتت أكثر اهتماما بدراسة تاريخها القديم والوسيط والحديث، على اعتبار أن الشعوب التي ليس لها تاريخ، ليس لها حضارة ولا أصول ولا جذور تاريخية، وبمعنى آخر فإنها تفتقر إلى الأسس الحضارية. فالتاريخ يعكس مختلف أوجه النشاطات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وهو مرآة لهذه الحياة، ويمكن الاستفادة من التاريخ عبر صفحات التأريخ من عبر الماضي وأخطائه لبناء المستقبل بصورة أفضل، وذلك اعتمادا على مبدأ ونظرية «نفعية التاريخ»[١١٠].

والقرآن الكريم عندما يؤكد على وعي وثقافة حركة التاريخ، إنما يدعو للإقبال على الماضي وإدراكه في سبيل إحيائه؛ لأن التاريخ في نظر بعض الباحثين هو «السعي لإدراك الماضي البشري وإحيائه»[١١١]، وإحياؤه يعني استجلاء مغزاه، واستخبار معناه، ولن يتأتى هذا الإحياء الواعي للماضي إلا بتيقظ الحس التاريخي لدى أفراد الأمة؛ لتنعكس تأثيراته الإيجابية على مجمل سلوكها الاجتماعي وحركتها العامة. بذلك تكون الثقافة التاريخية «سبيل نحو إدراك الذات أفرادا وجماعات، إذ تمثل معارف متنوعة، وخبرات متعددة يستحصلها الإنسان من جهود الماضي، توسع من تجربته وتعمقها في الحياة»[١١٢].

وعندما نؤكد على أن التاريخ يمثل حركة الماضي بكل أبعاده، الممتدة نحو الحاضر والمستقبل؛ لاعتقادنا بأن «المشاكل التي تواجه الجيل الحاضر قد طرحت على بساط البحث بشكل ما مرارا كثيرة فيما مضى. نعم إن التاريخ لا يعيد نفسه، ولا يمكن أن يجعل بحيث يعيد نفسه، إلا أن ما من حادث يحدث إلا وهو يزيد في محيط كل حادث يترتب

عليه، بمقدار كونه علة في حدوثه، وبذلك يكون مجرد حدوث حادث ما مرة سدا قويا مانعا من حدوثه أبد الدهر مرة أخرى، إن الثروة الضخمة المتجمعة من تجارب الماضي يجب أن تبقى» (١١٣).

إن العودة إلى التاريخ، وفق رؤية واعية، تبعث في النفس شعورا بالثقة والاطمئنان، وتنمي المناعة والصلابة في وجه الأحداث، من أجل الاستمرار في صنع التاريخ بشكل يسهم في الإبداع والبناء الحضاري؛ لأن الإنسان الرسالي ، صانع التاريخ، لا يكون مستقبليا مطلقا يسبح في عالم الرؤى والأحلام، ولا حاضريا مطلقا، يستغرق فيما حوله من أحداث ومشكلات، ولا ماضويا مطلقا يذوب في الماضي، ويعمل على استرجاعه كما كان، وإنما يعيش القلق الدائم والجهد المثابر نحو الحاضر والمستقبل في خلال وعي وإدراك الماضي. وعندما تتفاعل قوى وعناصر هذا المثلث الزماني ـ الماضي والحاضر والمستقبل ـ في ذات الفرد والأمة، بإدراك متزن سليم، فإنها تنتج العمل التاريخي المبدع الذي يتغلب على مصاعب الحاضر، ويخطط لآمال المستقبل(١١٤). لأن اجتياز الحاضر، ومواجهة المستقبل، لن يحصل إلا إذا استثمر الخلف ما ورثوه من تجارب السلف، ونظروا إليها بتدبر وحكمة، كما قال تعالى:

﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص(٣٦) إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾(١١٥)

فالقرآن الكريم هو الذي فتح أمامنا معرفة التاريخ، وألزمنا بالنظر بما فيه من كوامن وأسرار، ودروس وعبر، بعقول واعية، وقلوب منفتحة، وذلك قوله تعالى:

﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾(١١٦)

فالآية المباركة ربطت بين مفهومين أساسيين هما:

١ـ السير في الأرض الذي يشير إلى ما يبذله الإنسان من جهد حسي ومادي، يكتشف به كينونة الحوادث والوقائع التاريخية التي تختزنها الأرض عبر الأجيال والقرون السالفة.

٢ـ النظر والتأمل، اللذان تتحقق بهما غاية السير في الأرض وهي الغاية من التاريخ، وقيمته في حياة الإنسان.

وبذلك يكون القرآن المجيد قد أرسى وعي حركة التاريخ على أسس منهجية حكيمة، تعبر بالإنسان من التاريخ إلى الواقع، ومن الماضي إلى الحاضر، ليكتشف ما ورائيات هذه الحركة، بما يزود الفرد والأمة بالوعي، ويحرك فيهما روح اليقظة، ويدفع بهما نحو الفعل التاريخي الشاهد على النهوض الحضاري الشامل. وإن أهم ما ينتجه الوعي القرآني لحركة التاريخ من فوائد على مسيرة الفرد والأمة هي:

أولا: القدرة على الإبداع والفعل الحضاري

ثانيا: القدرة على التحليل والنقد التاريخي

ثالثا: الإحساس بتقلبات الأحوال والظروف

رابعا: الإحساس بحتمية انتصار الحق

ويمكن أن نتحدث عنها بإيجاز كما يأتي:

أولا: القدرة على الإبداع والفعل الحضاري

في القرآن الكريم، إشارات رائدة، نحو سنن وقوانين المجتمع والتاريخ، كيف تبنى الحضارات ثم تنهار، وكيف تتحرك مسيرة البشرية في علوها وهبوطها، وانتصارها واندحارها، وكيف تتذوق المجتمعات حلاوة الخير والسعادة، ومرارة البؤس والشقاء، كل ذلك يعرضه القرآن؛ من أجل أن يوجه العقل الإنساني نحو وعي هذه السنن الحاكمة على مسيرة التاريخ البشري. لتكون دعما للبشر، ومساعدا لهم في الابتعاد عن الوقوع في الخطأ مرة أخرى، فكل الذين لا يتعلمون من أخطاء الماضين، يكونون معرضين لإعادة دفع ثمن جهلهم اجتماعيا في حياتهم الدنيا[١١٧].

إن الاهتمام بفقه «التاريخ تحديدا، ليس ترفا ولا تزيدا؛ بل هو من صميم مسألة النهضة، والخروج من عثرتنا التي طال أمدها، ذلك أن التاريخ ليس الماضي بل المستقبل»[١١٨]؛ لما يمثله من قدرة هائلة بيد الأمة، يجعلها قادرة على مواجهة التحديات، ودفعها نحو التقدم والرقي الحضاري.

ولعل في طليعة التحديات التي تعيشها أمتنا الإسلامية اليوم، هي حالة «التفتت»و «التميع» و «الجمود»، بل قل: «إنها تقف على هامش حركة التاريخ»، فهي لا تعرف -

بالتحديد ـ طبيعة موضعها الذي توجد فيه من التاريخ البشري، وما هي وجهتها التي تنحو إليها. لذلك نحتاج ـ اليوم ـ في البداية أن نشخص في أي مرحلة من مراحل التاريخ نعيش، وقد يكون هذا الهاجس هو أكبر التحديات التي نعاني منها أمام عواتي الزمن... وفي هذا الصدد يقول الدكتور حسن حنفي: «يثار كثيرا هذه الأيام أننا في أواخر القرن العشرين، وفي أوائل القرن الواحد والعشرين، بعد عام أو أقل بقليل، أنا لست بالقرن العشرين، وهل تاريخي يبدأ بالسيد المسيح مع إجلالي وتعظيمي له، وهل أنا كنت في تاريخ قديم، ثم في تاريخ وسيط، ثم في تاريخ حديث، كما هي مراحل تحقيب التاريخ الغربي، أنا في مرحلة تاريخية مختلفة، كانت عندي نهضة أولى في القرون السبعة الأولى قبل ابن خلدون، وكنت مبدعا وعالما ومفكرا ومسيطرا على العالم، وبلغت الذروة في العصر الذهبي في القرن الرابع والخامس، عصر البيروني والمتنبي والتوحيدي، ثم بعد ذلك، بعد ابن خلدون توقفت الحضارة عن الإبداع، وأصبحت أدون الموسوعات والملخصات، وأجتر بالذاكرة ما عجز الإبداع عنه بالعقل، ثم منذ قرنين من الزمان هناك حركات الإصلاح الديني، منذ الأفغاني، وأحاول أن أنهض من جديد، أكبو مرة وأصحو مرة، فأنا الآن في أعتاب فترة ثالثة، بعد العصر الذهبي الأول، وبعد عصر الركود، وأحاول أن أنهض من جديد، فأنا في بداية القرن الخامس عشر، وبداية فترة ثالثة، بعد سبعمائة سنة الأولى، وسبعمائة سنة ثانية، أنا في بداية السبعمائة سنة الثالثة، أنا في بداية عصوري الحديثة، وليس في نهاية عصور الغرب الحديثة، الغرب ينهي وأنا أبدأ، وبالتالي معرفة قوانين التاريخ، وفي أي مرحلة من التاريخ أنا أعيش، تساعد المفسر على أن يقرأ القرآن ويعرف سنن التاريخ ونواميس المجتمع»(١١٩).

نعم إن وعي حركة التاريخ، يعني فقه سنن التاريخ ونواميس المجتمع، والتي بحضورها الفاعل في ضمير الأمة، يمكنها من الدخول في صلب معترك الحياة، فتكون ذات إبداع وفعل حضاري إيجابي، يجعلها قادرة على استيعاب حركة الزمن، ومواكبة متطلبات الرقي والتقدم الإنساني. لأن الإنجاز الحضاري، أو أي مشروع للنهوض، لابد أن يأخذ في اعتباره الأبعاد الثلاثة المطلوبة كمرتكزات لهذا الإنجاز: استشراف الماضي، الأمر الذي يعني استيعاب مسيرة التراث، واستلهامه، وتقويمه، في خلال قيم الوحي في الكتاب والسنة، واعتماده مصدر عبرة ومخبر تجربة...واستيعاب الحاضر والسنن التي حكمت تكوينه

وتشكيله، وموقعه من مسيرة الماضي «التراث»..ورؤية المستقبل، أو استشراف المستقبل، واستلهام التراث تعني قدرتنا على جعل التراث يجيب عن أسئلة الحاضر، ويمكننا من رؤية المستقبل[١٢٠].

ثانيا: القدرة على التحليل والنقد التاريخي

هي من الوظائف التربوية الأخلاقية التي تعطي للتاريخ بعدا أكبر من كونه مادة للوعظ والإرشاد فحسب[١٢١]. فهي تعمل على تشذيب التاريخ من كل الشوائب العالقة به ـ من خرافات وأوهام وأساطير ومبالغات ـ حتى يتحول إلى وسيلة عملية تحرر الفكر الإنساني من قيود العبودية والخرافة والغباء، وتنشر الحرية، وتنور العقل؛ ليتمكن الإنسان من محاكمة كل ما يجري حوله من مظاهر النشاط الإنساني برؤية أخلاقية حكيمة، تميز الغث من السمين، وتشخص الصواب من الخطأ. إن هذه القدرة على «التحليل والتمييز» بين الأحداث والأحوال والأشياء، والحكم عليها بالسلب أو الإيجاب؛ تمنح العقل صحة وعافية، وتشفيه من داء السذاجة والسطحية في الفهم والاعتقاد[١٢٢]، وهي التي تؤهل الأمة للرقي والتكامل في طريق الحياة، ولن تتأتى هذه المهارة الأخلاقية إلا في خلال التعامل مع حركة التاريخ بالتحليل والنقد الموضوعي. فالتاريخ ليس حركة موسومة بالعصمة، وبمنأى عن الأخطاء والعثرات، فكما هو حافل بالانتصارات الباهرة، والإنجازات المشرفة، كذلك مليء بالانتكاسات المخزية، والكوارث المؤلمة. ومادام الإنسان جزءا من موضوع التاريخ، فلابد أن يكون عرضة للتأثر بنوازع الخير والشر من داخل نفسه، كما قال تعالى:

﴿ونفس وما سواها(٧)فألهمها فجورها وتقواها﴾[١٢٣]

وكذلك عرضة للعوامل التي تداهمه من الخارج، فتأخذ به نحو النجاح أو الفشل؛ النهوض أو السقوط؛ التقدم أو التراجع. ولعل من أسوأ ما يمنى به الإنسان من انتكاسة في وعيه تجر عليه الويلات، عندما يحسن الظن كثيرا بحركة التاريخ، فيخيل إليه أنها تمضي نحو المستقبل بحركة تصاعدية، تقدمية مستقيمة، فيدفعه ذلك إلى السكون والاستسلام إلى منطق الضرورة التاريخية. أو عندما يسيء الظن بها تماما، فيعتقد أنها تمضي بخط تراجعي

نحو التدهور والانحطاط فتسبب له حالة اليأس والإحباط، وفقدان الثقة بالمستقبل.» وقد ولدت هاتان النظرتان المتطرفتان إلى التاريخ وإلى المستقبل مفهوما للتقدم البشري غير متكامل، ومن ثم دفعتا بالإنسان إلى ارتكاب المزيد من الأخطاء الكبرى في شأن نفسه وفي شأن عالمه»[١٢٤]. لأن كلتا النظرتين تنطلقان من فهم مادي للحياة بعيدا عن هدي الإيمان بالله تعالى، فيؤدي بالإنسان إلى التردي والسقوط، فيضل في سعيه وهو يحسب أنه يحسن صنعا في حياته، كما قال تعالى:

﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا(١٠٣)الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا(١٠٤)أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا(١٠٥)ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا﴾[١٢٥]

وهذا يعني أن الفهم الخاطئ أو الناقص للواقع سوف ينعكس على حيوية الأفكار وحركتها السليمة في التطبيق، والحركة هي أساس الحياة. فالأفكار الحية هي الأفكار الفاعلة، والأفكار الفاعلة هي الأفكار المؤثرة على الواقع، والأفكار المؤثرة على الواقع هي الأفكار التي نزلت بصورة سليمة[١٢٦]. فتأمين عملية التغيير الاجتماعي بشكلها السليم نحو الرقي والتقدم، والاحتفاظ في الوقت نفسه، باستمرار الوجود الاجتماعي لأية أمة ما، يشكلان وظيفة جوهرية من وظائف ثقافة التاريخ الحية. فالثقافة التاريخية عنصر توازن إلى جانب الثقافات الأخرى، وهي تساهم في تحديد أولويات التغيير الاجتماعي وغاياته، بجعله متوافقا مع أهداف الأمة وتطلعاتها.

هذا المعنى للتاريخ بما أنه مجموعة إحداثيات تعين مكان ومكانة جماعة ما، هو الذي يهمنا هنا، وهو الذي يكمن وراء العقيدة، كما يكمن وراء علم التاريخ الوضعي ذاته، أي العلم الذي يسجل وقائع التاريخ ويتحقق من صحة هذه الوقائع. فالتاريخ ـ كمعنى ـ يحدد أفق ممارسة وحياة الجماعة، بينما يعمل التاريخ، كمبنى وكعلم وقائعي على بلورة وتجسيد وتجسيم هذا المعنى في طريقة صياغته للواقعة التاريخية، أي في طريقة ربطه الماضي بالحاضر بالمستقبل[١٢٧].

كما أن الانفتاح الواعي على حركة التاريخ، لا يجعل من الفرد مجرد متلق صامت،

يلتقط بسذاجة كل ما هو موجود في صحائف التأريخ، دون استنطاق ومساءلة ومحاكمة؛ بل يكسبه « ملكة الحوار» مع شخوص التاريخ حتى يستجلي الحقائق الكامنة التي طالما اختفت وراء ظواهرها البارزة، فما يغطس من حقائق ورؤى واقعية في عمق البحر التاريخي، هو أكبر بكثير مما يطفو على سطحه، ومن يملك وعي التاريخ لا يكتفي برؤية السطح دون أن يغوص إلى الأعماق ليتعرف على المجهول الغائب عنه.

إن أهم ما «يلزم للمؤرخ أن تتوفر له ملكة النقد، فلا يجوز له أن يقبل كل كلام أو يصدق كل وثيقة أو مصدر بغير الدرس والفحص والاستقراء، فيأخذ الصدق، أو أقرب ما يكون إليه، ويطرح جانبا ما ليس كذلك، وإذا أعوزت المؤرخ ملكة النقد سقطت عنه صفته، وأصبح مجرد شخص يحكي كل ما يبلغه على أنه حقيقة واقعة، وليس بهذا يدرس أو يكتب التاريخ»[(١٢٨)].

لذا فليس من الصواب أن نأخذ كل ما ورد في كتب التاريخ أخذ المسلمات دون فحص وتدقيق، وبالتالي لابد من تربية حس تاريخي متيقظ يتمكن من اصطياد الحقيقة التاريخية. إن الميزة التي جعلت «ابن خلدون» يتفوق على غيره من المؤرخين الذين سبقوه في الإسلام، هي قدرته الإبداعية على «التحليل والنقد التأريخي» تلك الملكة التي حصل عليها خلال إدراكه الواعي لحركة التاريخ، فأخذ يشخص أخطاء الماضين من المؤرخين عندما نقدهم قائلا: «وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة و الوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط»[(١٢٩)]، وقد أشار إلى أمثلة من ذلك، منها ما ورد في التضخيم والتهويل في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر في بعض الوقائع والحكايات، كما نقل المسعودي في تأريخه «مروج الذهب»[(١٣٠)]، وكثير من المؤرخين[(١٣١)]، في جيوش بني إسرائيل بأن عدد من كان مع موسى (عليه السلام) من بني إسرائيل في التيه ممن حمل السلاح خاصة من عمر ابن عشرين فما فوقها، كانوا ستمائة ألف أو يزيدون، وقد ناقش «ابن خلدون» هذا الخبر ورده وفق ضوابط وأصول استقاها خلال وعيه لحركة التاريخ[(١٣٢)]. كما نقد خبر مدينة إرم في

صحارى عدن وما جاء في وصفها على لسان بعض المؤرخين[١٣٣]. كذلك سخف ما تناقلته الأخبار من أسباب في نكبة البرامكة على يد الخليفة العباسي هارون الرشيد بفعل ما جرى من قصة أخته العباسة مع مولاه جعفر بن يحيى البرمكي[١٣٤]، وغيرها من الوقائع والأخبار التي لا يصح وقوعها وفق الزمان والمكان والأجواء التي نسبت إليها.

كما أن الوعي القرآني لحركة التاريخ، يربي القابلية الفذة على استقراء الأحداث، وتحليلها، ومقارنة بعضها ببعض، وإدراك السنن والقوانين التي تحكم نشاطات المجتمعات البشرية، ونشوء وتطور الحضارات الإنسانية، وعوامل سقوطها وانهيارها، فإنه يحصن الفرد والأمة من مغبة الانزلاق في أغاليط المؤرخين، وتزييفهم للحقائق التاريخية سواء بقصد أو بدونه. كما يكسب المناعة الكافية من التأثر بلوثات الإعلام الفاسد الذي تمارسه اليوم مؤسسات القوى الاستكبارية والصهيونية العالمية من أجل إسقاط الشخصية الإسلامية، وتجريدها من هويتها الأخلاقية الأصيلة، وفصلها عن دينها الحنيف، بمختلف الطرق والأساليب، وفي مقدمتها تزوير الحقائق ونشر الأكاذيب، وصولا إلى غاياتهم الخبيثة.

ثالثا: الإحساس بتقلبات الأحوال والظروف

إن حركة التاريخ تمثل سلسلة من التغيرات الاجتماعية المستمرة، دون أن تتوقف عند حد معين، فتحمل سيلا من تقلبات الأحوال والظروف عبر التاريخ البشري، كما أوضح ذلك القرآن الكريم:

﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء﴾[١٣٥]

أي نصرفها ونداورها ونحولها. ودال يدول دولا: دار. ودالت الأيام: دارت وتحولت من قوم إلى آخرين. والمعنى: تصرفها مرة لفرقة ومرة عليها. ومداولة الأيام تعاقب الشدة والرخاء، والهزيمة والنصر، والضراء والسراء[١٣٦].

وقال القرطبي: نداولها بين الناس، من فرح وغم وسقم وغنى وفقر[١٣٧].

فالآية المباركة تشير إلى سنة من سنن الله تعالى في هذه الدنيا، المتقلبة بأهلها من حال إلى حال، كما أشار إليها ابن خلدون في مقدمته قائلا: «من الغلط الخفي في التاريخ

الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام، وهو داء دوي شديد الخفاء، إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة. فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة، وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوا ئدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة، ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال. وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفات والأقطار والأزمنة والدول، سنة الله قد خلت في عباده»[(١٣٨)].إن وعي هذه السنة التاريخية، يوسع من أفق الرؤية الحضارية لما يجري على مسرح الحياة، من أفعال وأحداث، ولما يحصل للبشر من نشاطات ومعطيات، وبالتالي فلا تتضيق الدنيا على أحد، كما لا ينبغي أن يأخذه الزهو والغرور بقوته وغناه، فحركة التاريخ تثبت بشكل قاطع خلال استقراء الماضي والحاضر، أن مجرى الحياة البشرية قد مر بدورات عديدة، وحالات مختلفة، عاش خلالها، هدوءا وصخبا، علوا وهبوطا، بطئا وسرعة، دعة وجدبا، تقدما وتأخرا، انتصارا وهزيمة، تقلبت فيها أحوال الناس، وتبدلت ظروفهم وتغيرت أوضاعهم ـ أفرادا وجماعات، وأمما ودولا ـ وفق ما يسميه القرآن الكريم، قانون التدافع الاجتماعي، الذي يقول عنه تعالى:

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾[(١٣٩)]

فالقرآن الكريم يبين أن سنة الله تعالى لا تعطي لأية أمة، السيطرة والغلبة الدائمتين. فكل أمة من الأمم أو جماعة من الناس، تتسلط وتسود مدة من الزمن، وبعد أن ينتهي أجلها، وتنصرم مدتها، تزول عن الوجود، فتقوم على حطامها أمة أخرى، ولم يحصل ذلك بظلم من الله تعالى، ولكن نتيجة سوء عملها الذي يجلب عليها الدمار ويأتي بقوم آخرين. وقد حصل للمسلمين في التاريخ، ما حصل لغيرهم من قبل، من تقلبات وتحولات[(١٤٠)]:

﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾[(١٤١)]

إن الوعي القرآني لحركة التاريخ، يبعث الأمل في نفوس المؤمنين المستضعفين عندما تخنقهم المحنة، التي طالما يمرون بها في مراحل التاريخ، وهم يعانون ما يعانون من الشظف والحرمان، وشدة الأذى والعدوان على أيدي أهل الباطل، فيأتي نداء الحق سبحانه ليجدد الحركة والنشاط في نفوس المؤمنين قائلا:

﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد(١٩٦)متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾[١٤٢]

وقال سبحانه:

﴿فإن مع العسر يسرا(٥)إن مع العسر يسرا﴾[١٤٣]

ويحاول القرآن الكريم أن يعالج حالة الضعف والإحباط التي تصاب بها الجماعة المؤمنة جراء المحنة القاسية من قبل الأعداء والظالمين، عبر تحسيسها بحركة التاريخ، وما تحمله من تقلبات وتغيرات في مسلسل الأحداث؛ ليثبت قلوب المؤمنين، فلا يقترب إليها القلق، ولا يدنو منها الاهتزاز؛ لأن من يحمل لواء الثورة والتغيير يحتاج إلى شعور مشحون بالتفوق والقوة والأمل، كما قال تعالى:

﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾[١٤٤]

كما أن الرسول الأكرم (صلوات الله وسلامه عليه) كان يحاول دائما أن يركز إشراقة الأمل في نفوس المسلمين نحو المستقبل الزاهر، كلما عصفت بهم عاتيات الأهوال والشدائد؛ ليخرجهم من سجن الذات الضيقة إلى فسحة الأمل الرحيب، فيذكرهم بحتمية الانتصار، بتذكيرهم بتقلب الأحوال والظروف، وفق السنن الإلهية في حركة التاريخ. كما حصل في يوم الأحزاب، في معركة الخندق، عندما بشر النبي الكريم (صلوات الله وسلامه عليه) المسلمين بفتوح اليمن والشام والمغرب والمشرق، لما رأى ما نزل بهم من الأهوال والشدائد، حيث وصفهم الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون(١٠)هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا﴾[١٤٥]

قال ابن إسحاق: «وحدثت عن سلمان الفارسي، أنه قال: ضربت في ناحية من الخندق، فغلظت علي صخرة، ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) قريب مني؛ فلما رآني أضرب شدة المكان علي، نزل فأخذ المعول من يدي، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة؛ قال: ثم ضرب به ضربة أخرى، فلمعت تحته برقة أخرى؛ قال: ثم ضرب به الثالثة، فلمعت تحته برقة أخرى. قال: قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! ما هذا الذي

رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال: أوقد رأيت ذلك يا سلمان؟ قال: قلت: نعم؛ قال: أما الأولى فإن الله فتح علي بها اليمن؛ وأما الثانية فإن الله فتح علي بها الشام والمغرب؛ وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق»[١٤٦].

إنه الوعي الكامل لحركة التاريخ الذي حمله الرسول الأكرم (صلوات الله وسلامه عليه) ليثبت به قلوب أصحابه، ويخرجهم من ظلمات اليأس إلى أنوار الأمل، في أحرج الظروف، لا ليخدر عقولهم؛ بل ليحفزهم نحو الجد والاجتهاد في السعي والعمل، كما كان يطلب منهم، أن يتبصروا بأحوال من كان قبلهم، ويستشرفوا التجربة البشرية التاريخية، فينقلوها من ورائهم إلى أمامهم؛ ليعتبروا، ويحول اعتبارهم دون السقوط الحضاري[١٤٧]:

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾[١٤٨]

هذه هي سنة الله القديمة، الدائمة، في تمحيص المؤمنين، يتراوحون بين النصر والهزيمة، حتى إذا ثبتوا على عقيدتهم، لم يتزعزعوا، استحقوا نصر الله، وصاروا من أهل الجنة. هكذا خاطب الله الجماعة المسلمة الأولى؛ لينفتحوا على التجارب العميقة في التاريخ[١٤٩].

رابعا: الإحساس بحتمية انتصار الحق

إذا قلنا: إن الحاضر هو مستقبل الماضي، وماضي المستقبل[١٥٠]؛ أدركنا قيمة الرؤية القرآنية في رصد معالم المستقبل، وهي رؤية تمتلك كامل مقوماتها لاكتشافها السنن والقوانين الناظمة لحركة التاريخ البشري، والاهتداء بها نحو استشراف ما سيأتي في الغد حيث يقول تعالى:

﴿قل سيروافي الأرض فانظرواكيف بدأالخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة﴾[١٥١]

إن غاية دراسة الماضي «هي من أجل ضرورة توضيح الرؤية إلى المستقبل،...ودون التنبؤ بالمستقبل، بشكل من الأشكال، لا يمكن الانتفاع بالتاريخ»[١٥٢]، فإذا عرف الإنسان،

الإنسان، ووعى كيف عاش البشر في الماضي وما هي مشكلاتهم، استطاع أن يتنبأ عن طبيعة عيشه في المستقبل، ربما لا يستطيع أن يعرف بالتحديد صورة المستقبل، ولكنه يتمكن من قراءة ملامحه، خلال معرفته بسنن وقوانين التغير والتحول التي تحكم حركة التاريخ، وفي طليعة هذه السنن، هي سنة «حتمية انتصار الحق». هذه الحتمية التي تتكشف واضحة بقراءة حركة التاريخ البشري، الذي يبدو في خلاصته صورة طبق الأصل لقصة خروج آدم (عليه السلام) من الجنة، ثم عودته إليها ثانية بعد أن قطع شوطا كبيرا في الكدح والمعاناة على طريق هذه الحياة. فحركة التاريخ بطبيعتها دورة طويلة المدى، بدأت من الله تعالى يوم خلق البشرية، وستنتهي إليه في يوم من الأيام، كما جاء في خطابه سبحانه إلى الإنسان:

﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه﴾[١٥٣]

وهذا المعنى ينطوي على فكرة جوهرية، هي أن حركة التاريخ تنتظم في عمليات متوالية من الحل والشد، والجذب والطرد، والتشتت والتفرق، تدور حول محور واحد يمثل حالة الصراع بين قطبين أساسيين يحكمان هذه الحركة على امتدادها هما الحق والباطل، أو العدل والظلم.» وعناصر الصراع ـ هذه ـ تحمل في طياتها مبدأ الفناء المقابل لمبدأ البقاء، فعنصر الظلم يحتوي بذور الفناء والإذابة للعدل ولا يمكن أن يجتمعا، وكذلك العدل بالنسبة للظلم، وهكذا بين الحق والباطل، والصلاح والفساد، وبقية العناصر»[١٥٤].

وقد أشار القرآن الكريم إلى ثلاث حقائق أساسية في حركة التاريخ:

الحقيقة الأولى: إن تاريخ البشرية منذ البدء كان ولا يزال يمثل صراعا دائما، ومواجهة مستمرة، بين قوى الحق والخير وبين قوى الباطل والشر، على امتداد الزمان والمكان، وقد بدأ هذا الصراع المرير الدائم منذ هبوط آدم وزوجه، وإبليس وقبيله، جميعا إلى الأرض[١٥٥]:

﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾[١٥٦]

عن طبيعة وأبعاد هذا الصراع يمكن القول: «إنه صراع بين الشيطان والإنسان فقط، وليس صراعا بين الإنسان والإنسان ـ وإن ما يظهر لبعضهم وكأنه صراع بين الإنسان

والإنسان، سواء ما بين الطبقات، وما بين الرجل والمرأة...إلى آخر الصور التي تظهر وكأن فيها لونا من الصراع ـ ليس صراعا بين الإنسان والإنسان في حقيقته، وإنما هو صراع بين الشيطان والإنسان أيضا»[١٥٧]، وفي ذلك يقول تعالى:

﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾[١٥٨]

﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين (٦٠)وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم(٦١)ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون﴾[١٥٩]

هكذا يتواصل سجال الحرب بين الطرفين، فتارة تكون الغلبة لقوى الحق والخير على قوى الباطل والشر، وتارة أخرى يكون العكس، يقول تعالى:

﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾[١٦٠]

الحقيقة الثانية: إن عاقبة الصراع والمواجهة بين قوى الحق وبين قوى الباطل، لابد أن تسفر في نهاية المطاف عن انتصار الحق وثباته، وهزيمة الباطل واندحاره؛ «لأن السلام ـ حالة اجتماعية ـ بنسبة ما هو حالة نفسية، لا سبيل إلى تحققها إلا بضرب من التوازن بين قوى الداخل وقوى الخارج. وهذا التوازن يستلزم بالضرورة غلبة الحق على الباطل في كل صراع يحدث بينهما، سواء داخل النفس أو خارجها»[١٦١]. وفيه يقول تعالى:

﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾[١٦٢]

﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾[١٦٣]

﴿ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾[١٦٤]

الحقيقة الثالثة: في خضم حركة هذا الصراع وهذه المواجهة المستمرة بين قوى الحق وبين قوى الباطل، تبزغ الحقيقة، وتتجذر معالم الحق، وتنطمس معالم الباطل، وهذه هي الحكمة من هذا الصراع الدائم، «إنه تقابل بين الخير والشر على أوسع الجبهات، تقابل لابد منه إذا ما أريد للحياة البشرية أن تتجاوز الكسل إلى النشاط، والفتور إلى التمخض، والسكون إلى الحركة. إنه ابتلاء فعال لن يأخذ تاريخ البشرية ـ بدونه ـ شكله الإيجابي ولا يمضي إلى غاياته المرسومة منذ هبوط آدم إلى يوم الحساب»[١٦٥]، يقول تعالى:

﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾[١٦٦]

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾[١٦٧]

إن تكامل ثلاثية هذه الحقائق مع بعضها يؤكد ـ بشكل لا يحتمل الشك ـ بأن مسيرة البشرية منذ اليوم الذي انطلقت فيه وهي تسير نحو كمالها المقدر لها في علم الله تعالى، الذي يتحتم فيه الانتصار الشامل للحق. لذلك صارت كل هذه المعاناة والصراعات بين الحق وبين الباطل، تمهيدات ضرورية للتغيير الاجتماعي الإسلامي العالمي المرتقب، الذي سيعم المعمورة في المستقبل[١٦٨]، كما جاء في وعد الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾[١٦٩]

﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[١٧٠]

ويتأكد ذلك أكثر بظهور الإسلام وسيادته، وهيمنته على الأديان كلها؛ باعتباره الدين الحق الذي ارتضاه الله تعالى رسالة خاتمة لكل الرسالات الإلهية في الأرض[١٧١]:

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾[١٧٢]

خامسا: وعي التواصل مع التراث وتفعيله

بما أن التراث ينتسب إلى الماضي سواء البعيد أو القريب منه، ويندرج ضمن سياقات حركة التاريخ، بمعنى أنه يدخل في دائرة الفعل والنتاج الإنساني؛ باعتباره «مجموعة عطاءات الآباء والأجداد على المستوى الروحي والمادي عبر تفاعلهم مع الدين، وضمن خضوعهم لقيود الزمان والمكان اللذين تم الإنجاز فيهما»[١٧٣]. حيث إن النظرة الإسلامية إلى التراث تتقاطع مع نظرة الحضارة الغربية المعاصرة التي تعتبر مجموع المخلفات

الحضارية و الثقافية بما فيها الدين، من جملة التراث، وتخضع كلها إلى النقد والتقويم والقبول والرفض. وتنبثق هذه النظرة الغربية للتراث من طغيان الروح المادية العلمانية - البعيدة عن الدين - التي تغمر ذهنية المجتمعات الغربية.

قد فرق باحث إسلامي معاصر - دفعا للالتباس وسوء الفهم الذي حصل لدى البعض - بين مستويين من الموروث الإسلامي:

المستوى الأول: موروث مقدس، منتج للتراث، هو القرآن الكريم بتمامه، والصحيح من السنة الشريفة فقط.

المستوى الثاني: الإنتاج الفكري للمسلمين عبر التاريخ، أو المعارف والعلوم المنتجة، التي أنجزها العقل المسلم في هدي القرآن الكريم والسنة الشريفة[(١٧٤)].

فما نقصده بالتراث - تحديدا - هو المستوى الثاني دون المستوى الأول، «إذ إن الوحي الإلهي لا يقبل الانتقاء والاختيار منه أو محاولة تطويعه للواقع، أو التفكير بتوظيفه لتحقيق مصالح خاصة أو عامة، بل هو إطار يحكم الحياة؛ ولكنه يدعها تتطور داخله، فإذا انفلتت خارجه فقد وقع انحراف لابد من تقويمه»[(١٧٥)]. كما حذر القرآن الكريم من مغبة التعامل معه بانتقائية، وذلك في قوله تعالى:

﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون﴾[(١٧٦)]

فالتراث تركة الماضي، المتمثل بالمنجزات البشرية الحضارية والثقافية، بما فيها الأفكار والمعتقدات والآداب والفنون والصناعات، وسائر المنجزات الأخرى، معنويا وماديا، وهو تعبير عن هوية الأمة وحجم الذات التي تجسدت في شخصيتها. ويعكس صورة حضور الماضي في الحاضر؛ ليستحثه نحو المستقبل.

وإذا كان التاريخ كما عرفه أحد المؤرخين الألمان بقوله: إنه«حاصل الممكنات التي تحققت»... فإن «التراث» لا يعني فقط «حاصل الممكنات التي تحققت»؛ بل يعني كذلك حاصل الممكنات التي لم تتحقق وكان يمكن أن تتحقق. إنه لا يعني «ما كان» وحسب؛ بل أيضا، ولربما بالدرجة الأولى، ما كان ينبغي أن يكون، ومن هنا حصل اندماج المعرفي والأيديولوجي والوجداني في مفهوم التراث[(١٧٧)].

إن انتساب التراث إلى الماضي، ينبغي أن لا يحدث لدينا ردة فعل منه سواء للانفصال عنه أو لتحديه؛ ما دامت فيه إمكانية قراءته من منظور تاريخي، تخرج به من سكونه الماضوي؛ لتنطلق به إلى الحركة والفاعلية نحو الحاضر والمستقبل، «فالتراث واقع إنساني اجتماعي تاريخي... لأنه حركة متصلة معبرة عن المجتمع في تحول وتجدد مع وجود خيط جامع رابط يمثل هوية المجتمع صعودا وهبوطا» (١٧٨)، فالنظرة الفاحصة للتراث لا تنتج معرفة «حاصل الممكنات التي تحققت» فحسب؛ بل تعمل على اكتشاف «حاصل الممكنات التي لم تتحقق وكان بالإمكان تحققها»، وهو ما يسهم الوعي التاريخي بتحصيله وتفعيله. إلا أن المشكلة التي حلت بالمسلمين ـ في هذا العصر ـ أنهم أخذوا يتعاملون مع تراثهم عبر مناهج وأبجديات الآخرين المعرفية، وبالذات مع منتجات الثقافة الغربية، دون ضوابط وحدود، ما دفع بهم إلى اتخاذ موقفين متضادين:

الأول: موقف الدفاع ورد الشبهات التي توجه لكافة موروثاتنا الحاضرة فيما بيننا وتبرئتها من كل عيب، دون أن تكون لدينا قدرة البناء والإبداع والنهوض الحضاري من جديد، ما جعلنا ننشغل بالموروثات كليا، بينما الآخر ـ المتربص بنا ـ يتقدم في المضي إلى الأمام.

الثاني: موقف تجريم التراث، والعبور إليه من بوابة قراءات ومناهج الآخرين، بحيث صار فهمنا ووعينا للتراث صدى للرؤية الغربية ـ العلمانية ـ التي لا ترى مقدسا في كل الموروثات، وخاصة «الدين» الذي ينبغي أن يخضع للنقد والتقويم؛ بل ضرورة إبعاده وفصله عن الحياة. بذلك تمت مذبحة التراث في ثقافتنا الراهنة من ناحيتين: «من ناحية أولى رغبة مسبقة في تبرئة التراث، ومن الثانية رغبة في تجريمه. وبين كلتا الرغبتين المتعارضتين ضاعت الحقيقة التاريخية بما هي كذلك، هذه الحقيقة التي ستظل ضائعة ما دامت لا تحترم في موضوعيتها» (١٧٩).

و إذا ما أردنا حضور وفاعلية التراث كمفهوم أيديولوجي يساهم في إشادة النهضة الشاملة، ينبغي أن نعيد لتراثنا وجهه الصحيح، ونضعه في موضعه اللائق ـ دون إفراط أو تفريط ـ وذلك:

١ـ بتشكيل رؤية مرجعية لهذا التراث تنطلق من «معرفة الوحي في الكتاب والسنة،

كمعارف يقينية، و أدلة عمل وتعامل، وكحماية ثقافية، وكخلاصات اختصرت التجربة البشرية لصالح الأمة الخاتمة، وكمعيار لبيان الخطأ والصواب، والحكم على الفعل التاريخي في المسيرة الفكرية والثقافية» [١٨٠].

٢ـ بالتعامل مع التراث من منظور تاريخي واع يعيده إلى سياقاته التاريخية، في حدود زمانه وطبيعة ظروفه المنتجة له، دون حبسه في إطار ماضويته السكونية؛ بل لقراءته وتفسيره، بحيادية إيجابية؛ لتعقله ووعيه، بغية الكشف عن محدداته وتشكيلاته، وما ينطوي عليه من أبعاد يمكن الكشف عنها والتعريف بها.

إن الوعي التاريخي يعين ـ بشكل جاد ـ على تحديد المنهج والرؤية الصالحة للتواصل مع التراث، والتعامل معه بروح موضوعية، بعيدا عن التأزمات الداعية إلى الذوبان فيه، و تحويله من زمانيته إلى اللازمانية، أو الانفصام عنه وجحوده بقتله ولعنه، بحيث «تمثل العودة إلى التراث بعد هذا وذاك نوعا من الاحتجاج الضمني على تفكك منظومات القيم، وانهيار الثقافات المحلية، والإخفاقات الكثيرة في أكثر المعارك الحضارية التي نخوضها على مختلف الصعد؛ وتمثل احتجاجا على المحاولات الكثيرة الرامية إلى سلخ هذه الأمة عن تراثها برمته خيره وشره. وذلك ليس بهدف التحضير لتمثل الحداثة والمعاصرة؛ وإنما من باب التمهيد الثقافي للعيش عالة على فتات موائد الآخرين الذين لا يرون فينا أية أهلية لتقليدهم أو الاستفادة منهم!» [١٨١].

لاشك بأن الانخراط من جديد في ركب النهوض الشامل، يقتضي توظيف التراث بما فيه من تجارب وأساليب وممارسات أسعفت الأمة في رقيها وإبداعها العلمي والمعرفي و الفني والجمالي في عصور الازدهار والتقدم، واستيعاب أدواته وتقنياته في ذلك، واستلهام ما في التراث من مواقف جسدت ـ بحق ـ منظومة القيم الأخلاقية التي قامت على معايير الخير والحق والعدل، التي أسستها الشريعة الغراء؛ لتجديد النشاط الروحي والمعنوي في جسد الأمة المتثاقفة مع بيئتها الدينية، وتراثها الراسخ في اللاشعور؛ «لأن التراث الذي هو نواة الثقافة، هو أيضا خميرة كل نهضة في كل وقت» [١٨٢].

بالتأكيد فإن التراث، عندما يندرج في سياقات الماضي، لابد أن يتأطر بتاريخيته القابلة إلى النقد والتقويم خدمة لتسريع حركة النهوض، الداعية لتفعيل التراث؛ بإعادة

قراءته دوما «أي على نحو جديد من منظور معاصر، أن نعيد قراءة التراث والتاريخ و الواقع المتغير مع كل مرحلة حضارية جديدة، إننا مع كل مرحلة حضارية تتغير زاوية الرؤية، وتتضاعف حصيلة المعرفة، ويتغير إطارها، ويتعدل منهج المعالجة والتناول، وتتجدد الظروف والأوضاع، ويثار الجديد من المشكلات، وفي ضوء هذا كله تكون القراءة الجديدة المتجددة، لا افتئاتا على التاريخ؛ بل متابعة والتزاما أكثر عمقا» (١٨٣).

ولا تفوتنا ملاحظة أن التراث، إذا كان سجلا حافلا بالنجاحات الباهرة والانتصارات المشرفة، فإنه مليء أيضا بالإخفاقات المحزنة، والانتكاسات المفجعة وذلك ما يجعله ينضوي في دائرة ما أمرنا الله تعالى بالسير في رحابه والنظر في أعقابه؛ لتفحصه للاعتبار والموعظة، كما في قوله تعالى:

﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل﴾ (١٨٤)

ومن أولويات تفعيل التراث، مهمة تجديد قراءة التاريخ العربي والإسلامي وتدوينه، وفق قواعد إسلامية موضوعية، تحاول فهمه وفلسفته نحو العمل في بناء الحاضر الإسلامي، عبر اكتشاف دور الإسلام في هذا التراث ودور هذا التراث في حركة التاريخ، وما هو دور الأمة التي كان الإسلام محركا لها، ومعبرا عن واقعها الروحي والمادي، و تطلعاتها في السمو والإبداع، فنحن إلى الآن لازلنا نقرأ تأريخنا، على صورة وقائع وحوادث مفردة، تتحرك في نطاقات ضيقة ترتبط بالأفراد أو الأسر أو المواقع السياسية أو الدينية أو الاجتماعية أو العلمية، وكأننا نقرأ صورة أفراد يعتنقون الإسلام. أما صورة المجتمع الإسلامي أو المسلمين الذين دانوا بالإسلام وارتبطت به عقولهم وقلوبهم وأعمالهم و شيدوا صرحه العظيم، فتكاد تكون مغيبة عن ساحة تاريخنا الإسلامي، فالشيء المهم في قراءة حركة التاريخ، معرفة حجم ونوعية التغيير الذي أحدثه الإسلام في واقع الأمة، وما هي الأساليب التي مارسها للوصول إلى ذلك التغيير، وما هي الانحرافات والأخطاء التي حصلت خلال تلك المسيرة، وما هي أسبابها، للتعرف على ذلك والتعلم منه. ومما «لا شك فيه أن أخطاء كثيرة ارتكبت، ومعاصي جمة اقترفت أدت بمجموعها إلى أن تترك هذه الأمة مكان الصدارة، والصيرورة إلى البحث عن مكان في ذيل القافلة، وصرنا ـ كما في حديث القصعة ـ غثاء كغثاء السيل مع كثرة العدد، ووفرة الإمكانات؛

ففقدنا الوزن والتجانس»[١٨٥].

بذلك تصبح الثقافة التاريخية الواعية ـ لكونها جزءا من مركب الثقافة العامة للأمة ـ عاملا أساسيا نحو توظيف وتفعيل حركة التراث «في تجلية الهوية الحضارية للأمة، وتأكيد ذاتها، وحماية هذه الذات من الذوبان والانكسار، باعتبار أن التراث يستوعب مجموعة الرؤى والأفكار والخبرات والإبداعات، مما أنتجته الأمة في طول تجاربها الحياتية الشاقة، في حالات الانتصار والهزيمة، وفي حالات الازدهار والركود، وفي حالات التقدم والانحطاط ، ولذا فهو يجسد الذاكرة التاريخية للأمة، ويمثل الزمن المتحرك المحيط بجميع فعاليات الأمة ومكتسباتها، مثلما كان يمثل الزاد التاريخي لها في وجهه الآخر»[١٨٦].

الهوامش

١) سورة آل عمران ، الآية : ١٣٧.

٢) سورة المائدة ، من الآية :١٠٩.

٣) سورة الحجر ، من الآية :٢٩.

٤) سورة طه ، الآية :٩٩.

٥) الشيخ فخر الدين الطريحي: مجمع البحرين، المكتبة المرتضوية، طهران، ط٢، ١٤٠٣هـ (ح ر ك)، ج٥، ص٢٦١.

٦) العلامة محمد علي التهانوي : موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٦، مادة الحركة، ج١، ص٦٥٢.

٧) الطريحي : مجمع البحرين، (ح ر ك)، ج٥ ، ص٢٦١.

٨) أبو البقاء : الكليات، تحقيق: د. عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م)، ص٣٧٧.

٩) التهانوي : موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، مادة الحركة، ج١، ص٦٥٢.

١٠) الإمام سعد الدين التفتازاني : شرح المقاصد،منشورات الشريف الرضي، قم ـ إيران، ١٤١٣هـ ج٢، ص٤٠٩.

١١) جميل صليبا : المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢، ج١، ص ٤٥٧.

١٢) محمد بن أبي بكر الرازي : مختار الصحاح، مكتبة بكداش، حلب ـ سورية، (د.ت)، (أ ر خ)، ص١١.

١٣) السخاوي : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م)، نسخة مصورة من خزانة

المرحوم المحقق أحمد باشا تيمور، ص٦.

١٤) ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، (أ ر خ)، ج١، ص٥٨.

١٥) السخاوي : الإعلان بالتوبيخ ، ص٦.

١٦) البيروني : الآثار الباقية عن القرون الخالية، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص٢٩.

١٧) روزنتال : علم التأريخ عند المسلمين، ترجمة: د. صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، (١٤٠٣هـ ـ١٩٨٣م)، ص٢٣.

١٨) دائرة المعارف الإسلامية : يصدرها باللغة العربية: أحمد الشنتاوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبدالحميد يونس، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، المجلد الرابع، مادة تأريخ، ص٤٧٤.

١٩) د. عفت الشرقاوي : أدب التاريخ عند العرب، دار العودة، بيروت، (د.ت)، ص ٢٤٩.

٢٠) د. عبد الله العروي : العرب والفكر التاريخي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٨٥م، ص٧٩.

٢١) روزنتال : علم التأريخ عند المسلمين ، ص ٢١.

٢٢) د. حسان حلاق : مناهج الفكر والبحث التاريخي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط٣، (١٤١٨هـ ـ١٩٩٨م)، ص ٣٣١.

٢٣) د. فكتور سحاب: إيلاف قريش، رحلة الشتاء والصيف، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٢، ص ٣٣١.

٢٤) انظر : السخاوي ؛ الإعلان بالتوبيخ، ص ٨١ البيروني: الآثار الباقية فن القرون الخالية، ص٢٩ـ ٣٠.

٢٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، المجلد الأول، ص ١١.

٢٦) البطليوسي : الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تحقيق: مصطفى السقا، حامد عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١، القسم الأول، ص١٩٧.

٢٧) تاريخ خليفة بن خياط : تحقيق؛ أكرم ضياء العمري، دار طيبة، الرياض، ط٢، ١٩٨٢م، ص٥.

٢٨) سورة البقرة ، من الآية :١٨٩.

٢٩) الكافيجي : المختصر في علم التاريخ، بتحقيق نص روزنثال، انظر: علم التاريخ عند المسلمين، ص٣٢٦.

٣٠) السخاوي : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص٧.

٣١) ابن خلدون : المقدمة، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٦م، ص١٧.

٣٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص٣٣.

٣٣) د. نشأت نور الدين الخطيب : التأريخ والمؤرخون العرب، شركة النعمان التجارية، بيروت، (١٤٢٠هـ ـ١٩٩٢م)، ص ٢٢.

٣٤) د. حسين نصار : نشأة الكتابة الفنية في

الأدب العربـي، مكتـبة النهضـة المصـرية، القاهرة، ١٩٥٤، ص١٧١.

٣٥) انظـر : د. حسـان حـلاق؛ مـناهج الفكـر والبحث التاريخي، ص١١.

د. قسـطنطين زريـق : نحـن والـتاريخ، دار العلـم للملايـن، بـيروت، ط٦، ١٩٨٥، ص ١٤.

د. طـريف الخـالدي : بحـث فـي مفهـوم الـتاريخ ومـنهجه، دار الطلـيعة، بـيروت، ١٩٨٢، ص١٥.

٣٦) محمد مهدي الآصفي : المذهب التاريخي في القرآن، دار القرآن الكريم، قم - إيران، ١٤١٢هـ، ص١٧.

٣٧) د. حسين مؤنس : الحضارة، سلسلة عالم المعرفة، رقم ٢٣٧، الكويت، ط٢، (جمادي الأولى ١٤١٩هـ - أيلول ١٩٩٨م)، ص١٢٥.

٣٨) الشيخ محمد مهدي شمس الدين : حركة الـتاريخ عـند الإمـام علـي، مطـابع مكتـب الإعلام الإسلامي، طهران - إيران، (شوال ١٤٠٥هـ)، ص٥١.

٣٩) سورة النساء ، من الآية :١٢٢.

٤٠) سورة النساء ، من الآية :٨٧.

٤١) عمر فروخ : الإسلام والتاريخ، دار الكتاب العربـي، بـيروت، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)، ص ١٤٨.

٤٢) سورة يونس ، من الآية :١٣.

٤٣) سورة القصص ، من الآية :٤٣.

٤٤) د. قسطنطين زريق : نحن والتاريخ، ص٦٠- ٦١.

٤٥) عبد اللطيف شرارة : الفكر التاريخي في الإسلام، دار الأندلس، بيروت، ط٢، ١٩٨٣ ، ص٢٥.

٤٦) سورة فاطر ، من الآية :١٤.

٤٧) السـيد محمـد باقـر الصـدر : اقتصـادنا،دار الـتعارف للمطبوعات،بيروت،ط١٤،(١٤٠١هـ - ١٩٨١م)،ص٨٨ - ٨٩.

٤٨) د. عـبد العزيـز الـدوري وآخـرون : تفسـير الـتاريخ، منشـورات مكتـبة النهضـة، بغـداد، (د.ت)، ص٢٤.

٤٩) ر.ج.كولـنجوود : فكـرة الـتاريخ، تـرجمة: محمـد بكـير خلـيل، وزارة التربـية والتعليم، لجـنة التألـيف والـترجمة والنشـر، القاهـرة، ١٩٦١، ص١٢.

٥٠) محمـد الصـادق عـرجون : سـنن الله فـي المجـتمع مـن خـلال القـرآن، منشـورات العصر الحديث، جده، (١٣٩١هـ - ١٩٧١م)، ص١٤.

٥١) انظر : السيد محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م)، ص٤٥- ٤٧.

٥٢) سورة المائدة ، الآيتان : ١٦،١٥.

٥٣) د. محمد إقبال : تجديد التفكير الديني في الإسـلام، تـرجمة: عـباس محمـود، مطبعة لجنة التأليف والترجمة في القاهرة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٨، ص١٦٠.

٥٤) محمـد هيشـور : سـنن القـرآن فـي قـيام الحضـارات وسـقوطها، المعهـد العالمـي للفكر الإسلامي، القاهرة، (١٤١٧هـ - ١٩٩٦

م)، ص٣٦.

٥٥) سورة آل عمران ، الآيتان :١٣٧ ـ ١٣٨.

٥٦) سورة الرعد ، من الآية :١١.

٥٧) د. ليلى الصباغ : دراسة في منهجية البحث التاريخي، مطبوعات جامعة دمشق، (١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩م)، ص١٦.

٥٨) د. عبد الحليم عويس : تفسير التاريخ، علم إسلامي، دار الصحوة للنشر، القاهرة، (د.ت)، ص٤٨.

٥٩) د. قسطنطين زريق : نحن و التاريخ، ص ١٣٤.

٦٠) انظر : د. ليلى الصباغ: دراسة في منهجية البحث التاريخي، ص١٦ ـ ١٧.

٦١) د. حسن عثمان : منهج البحث التاريخي، دار المعارف، القاهرة، ط ٤، ١٩٨٠، ص١٢.

٦٢) د. سالم أحمد محل : المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب، كتاب الأمة، العدد ٦٠، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، (رجب ١٤١٨هـ ـ تشرين الثاني ١٩٩٧م)، ص٤٣.

٦٣) د. عبد الرحمن مرحبا : الموجز في تاريخ العلوم عند العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت،ط ٢، ١٩٧٨، ص١٦٦.

٦٤) الشيخ محمد مهدي شمس الدين : حركة التاريخ عند الإمام علي ، ص٨٨

٦٥) د. عفت محمد الشرقاوي : أدب التاريخ عند العرب، دار العودة، بيروت، (د.ت)، ص ١٦٠.

٦٦) برهان غليون : الوعي الذاتي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٩٢م، ص٢٢.

٦٧) د. سالم أحمد محل : المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب، ص٤٣.

٦٨) د. نشأت الخطيب : التأريخ و المؤرخون العرب، ص٦٦.

٦٩) فرانز روزنثال : علم التأريخ عند المسلمين، ص ٣٣.

٧٠) د. السيد عبد العزيز سالم : مناهج البحث في التاريخ الإسلامي والآثار الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ت)، ص ٢٠.

٧١) د. عفت محمد الشرقاوي : أدب التاريخ عند العرب، ص١٥٨.

٧٢) الشيخ محمد مهدي شمس الدين : حركة التاريخ عند الإمام علي، ص ٩٠.

٧٣) النطاسيون : جمع نطاسي، وهو العالم بالأمور، وكل من تأنق في الأمور ودقق النظر فيها، فهو نطس ومتنطس. انظر: ابن منظور: لسان العرب، (ن ط س)، ج٦، ص ٤٤٦٠.

٧٤) د. عبد الحليم عويس : تفسير التاريخ، علم إسلامي، ص١٠٣.

٧٥) سورة آل عمران ، الآيتان : ١٣٧ـ ١٣٨.

٧٦) سورة هود ، الآية: ١٢٠.

٧٧) الحجر : قرية صغيرة، بها كانت منازل ثمود، قوم النبي صالح (عليه السلام). انظر:

ياقوت الحموي، معجم البلدان، المجلد الثاني، ص١١٩.

٧٨) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، ج٦، كتاب أحاديث الأنبياء، باب - ١٧ ، الحديث ٣٣٨٠، ص٣٧٨.

٧٩) ابن حجر العسقلاني: المرجع نفسه، ج٦، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: ٢٧، ص٤٣١، رقم الحديث: ٣٤٠٠.

٨٠) من حديث رواه أبو هريرة، سنن الترمذي: تحقيق: الشيخ إبراهيم عطوة عوض، دار الحديث، القاهرة، (د.ت)، ج٤، كتاب البر و الصلة، باب ما جاء في تعليم النسب، حديث رقم ١٩٧٩، ص٣٥١.

٨١) حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، أوفست عن طبعة المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، المجلد الأول، المقدمة ص٣.

٨٢) السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص٢٧-٢٨.

٨٣) انظر: روزنثال: علم التأريخ عند المسلمين، ص٤٤-٤٥. د. حسان حلاق: مناهج الفكر والبحث التاريخي، ص٥٢.

٨٤) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ط٢، (١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م)، ج١٦، ص٦٢ و ص٦٧.

٨٥) ابن أبي الحديد: المرجع نفسه، ج١٠، ص ٩٢.

٨٦) انظر: ابن النديم؛ الفهرست، تحقيق: الشيخ إبراهيم رمضان، بيروت، دار المعرفة، (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م)، المقالة الثالثة، ص١١٧ وما بعدها.

٨٧) انظر: السخاوي؛ الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص١٥٣.

٨٨) د. عبد الحليم عويس: تفسير التاريخ، علم إسلامي، ص١٠٤.

٨٩) ابن خلدون: المقدمة، ص ١٤.

٩٠) ابن خلدون: المصدر نفسه، ص ١٤.

٩١) انظر: د. محمد عبد الرحمن مرحبا؛ الموجز في تاريخ العلوم عند العرب، ص ١٦٦-١٦٧.

٩٢) انظر: الكافيجي: المختصر في علم التاريخ، بتحقيق نص روزنثال، ص٣٢٦ و ص٣٣٣.

٩٣) الكافيجي: المصدر نفسه، ص٣٢٥.

٩٤) الكافيجي: المصدر نفسه، ص٣٣٣.

٩٥) سورة يوسف، الآية: ١١١.

٩٦) سورة يوسف، من الآية: ٣.

٩٧) الكافيجي: المختصر في علم التاريخ، ص ٣٣٣

٩٨) الكافيجي: المصدر نفسه، ص٣٣٥.

٩٩) انظر: روزنثال؛ علم التأريخ عند المسلمين، ص٣٧١ - ٣١٩.

١٠٠) انظر السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم

التاريخ، ص٧-١٤.

١٠١) د. عبد الحليم عويس : تفسير التاريخ، علم إسلامي، ص١٢٩.

١٠٢) سورة آل عمران ، الآيتان :١٣٧-١٣٨.

١٠٣) سورة الأنعام ، الآية :١١.

١٠٤) سورة الحج ، من الآية :٤٦.

١٠٥) سورة الروم ، الآية :٩.

١٠٦) د. طريف الخالدي : بحث في مفهوم التاريخ ومنهجه، ص٢٣.

١٠٧) محمد تقي المدرسي : المنطق الإسلامي، أصوله ومناهجه، دار الجيل، بيروت، ط٢،(١٤٠١هـ - ١٩٨١م)، ص٥١٧.

١٠٨) سورة هود ، الآية :١٢٠.

١٠٩) سورة يوسف ، الآية :١١١.

١١٠) د. حسان حلاق : مناهج الفكر والبحث التاريخي، ص١٩.

١١١) قسطنطين زريق : نحن والتاريخ، ص٤٩.

١١٢) د. محمد فتحي عثمان : المدخل إلى دراسة التاريخ الإسلامي، دار النفائس، بيروت، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، ص٤٧.

١١٣) هرنشو : علم التأريخ، ترجمة: عبد الحميد العبادي، سلسلة المعارف العامة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٧م، ص١٦٧.

١١٤) انظر : قسطنطين زريق ؛ نحن والتاريخ، ص١٦٩ ، ص١٩٠.

١١٥) سورة ق ، الآيتان :٣٦ - ٣٧.

١١٦) سورة الحج ، الآية : ٤٦.

١١٧) جودت سعيد : حتى يغيروا ما بأنفسهم، مطبعة زيد بن ثابت الأنصاري، دمشق، ط٦ ، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م)، ص ١٣٠.

١١٨) شوقي جلال : التراث والتاريخ، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥، ص٣١٧.

١١٩) د. حسن حنفي : الهرمنيوطيقا والتفسير، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، السنة الثالثة، (العدد٦/١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)، قم - إيران، ص ٨٦

١٢٠) عمر عبيد حسنه : في النهوض الحضاري، بصائر.. وبشائر، المكتب الإسلامي، بيروت، (١٤١٧هـ-١٩٩٦م)، ص٥٢.

١٢١) الشيخ محمد مهدي شمس الدين : حركة التاريخ عند الإمام علي، ص٩٠.

١٢٢) لأنجلو اوسينوبوس وآخرين: النقد التاريخي، تعريب : د.عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط٤، ١٩٨١، ص٢٥١.

١٢٣) سورة الشمس ، الآيتان :٨-٧

١٢٤) الشيخ محمد مهدي شمس الدين : حركة التاريخ عند الإمام علي، ص٢٤.

١٢٥) سورة الكهف ، الآيات :١٠٣-١٠٦.

١٢٦) زكي الميلاد : الفكر الإسلامي، تطوراته ومساراته المعاصرة، سلسلة كتاب قضايا إسلامية، رقم ٢٣، طبع ايران - قم، (١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م)، ص٨٢

١٢٧) برهان غليون : الوعي الذاتي، ص٢٢.

١٢٨) د. حسن عثمان : منهج البحث التاريخي ،

ص١٩.

١٢٩) ابن خلدون : المقدمة ، ص١٧.

١٣٠) انظر : المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، منشورات دار الهجرة، قم - إيران، ط٢، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م)، ج١، ص٦١.

١٣١) انظر : الطبري ؛ تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، المجلد الأول، ص٢٤٦.

ابن الأثير : الكامل في التاريخ، المجلد الأول، ص١٨٧.

١٣٢) انظر : ابن خلدون ؛ المقدمة ، ص١٧.

١٣٣) انظر : ابن خلدون ؛ المصدر نفسه، ص١٩

١٣٤) انظر : ابن خلدون ؛ المصدر السابق ، ص ٢٠.

١٣٥) آل عمران ، من الآية :١٤٠.

١٣٦) السيد محمد حسين فضل الله : تفسير من وحي القرآن، دار الملاك، بيروت، ط٢، (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م)، ج٦، ص٢٨٠.

١٣٧) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، ج٤، ص١٤٠.

١٣٨) ابن خلدون : المقدمة ، ص٢٨.

١٣٩) سورة البقرة ، من الآية :٢٥١.

١٤٠) عبد الحميد صديقي : تفسير التاريخ، ترجمة: د. كاظم الجوادي، دار القلم، الكويت،(١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م)،ص١٥١.

١٤١) سورة الأحزاب ، الآية :٦٢.

١٤٢) سورة آل عمران ، الآيتان :١٩٦.١٩٧.

١٤٣) سورة الشرح ، الآيتان :٥ - ٦.

١٤٤) سورة هود، الآية: ١٢٠.

١٤٥) سورة الاحزاب، الآيتان: ١٠-١١.

١٤٦) ابن هشام : السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا - إبراهيم الأبياري - عبد الحفيظ شلبي، دار الكنوز الأدبية، القاهرة، (د.ت)، القسم الثاني، ص٢١٩.

١٤٧) د. أحمد محمد كنعان : أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، سلسلة كتاب الأمة، العدد: ٢٦، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، (محرم - ١٤١١هـ)، من المقدمة ص٧ - ٨.

١٤٨) سورة البقرة ، الآية :٢١٤.

١٤٩) سيد قطب : في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط٩، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م)، المجلد الأول، ص٢١٨.

١٥٠) عمر عبيد حسنة : في النهوض الحضاري، بصائر وبشائر، ص ١٧

١٥١) سورة العنكبوت ، من الآية :٢٠.

١٥٢) محمد تقي المدرسي : المنطق الإسلامي، أصوله ومناهجه، ص٥٨٢.

١٥٣) سورة الانشقاق ، الآية :٦.

١٥٤) محمد هيشور : سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص٦١.

١٥٥) سيد قطب : في ظلال القرآن ، المجلد الثالث، ص١٢٧٠.

١٥٦) سورة الأعراف ، الآية :٢٤.

١٥٧) د. عبد الحليم عويس : تفسير التاريخ، علم إسلامي، ص٢٢٦.
١٥٨) سورة فاطر ، من الآية :٦.
١٥٩) سورة يس ، الآيات :٦٠-٦٢.
١٦٠) سورة النساء ، الآية :٧٦.
١٦١) عبد اللطيف شرارة : الفكر التاريخي في الإسلام ، ص١١٠.
١٦٢) سورة الأنبياء ، من الآية :١٨.
١٦٣) سورة الإسراء ، الآية :٨١.
١٦٤) سورة الأنفال ، الآية :٨.
١٦٥) د. عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٥، ص٢٣٦.
١٦٦) سورة الرعد ، الآية :١٧.
١٦٧) سورة البقرة ، من الآية :٢٥١.
١٦٨) حسين معن : نظرات في الإعداد الروحي، مؤسسة العارف ، بيروت، ط٢،(١٤١٢هـ - ١٩٩٢م) ، ص١١٦.
١٦٩) سورة النور ، الآية :٥٥.
١٧٠) سورة الأنبياء ، الآية :١٠٥.
١٧١) الفخر الرازي : التفسير الكبير، ط٣، ج١٦ ، ص٤٠.
١٧٢) سورة التوبة ، الآية :٣٣.
١٧٣) د. عبد الكريم بكار : من أجل إنطلاقة حضارية شاملة، الدار الشامية، بيروت، (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)، ص٣٠.
١٧٤) عبد الجبار الرفاعي : جدل التراث والعصر، سلسلة كتاب قضايا إسلامية معاصرة، رقم ٧، طبع إيران - قم، (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م)، ص١٢.
١٧٥) د. اكرم ضياء العمري : التراث والمعاصرة، كتاب الأمة، رقم ١٠، مطابع الدوحة الحديثة، الدوحة - قطر، (ربيع الآخر / ١٤٠٦هـ)، ط ٢، ص٢٨.
١٧٦) سورة البقرة ، من الآية :٨٥.
١٧٧) د. محمد عابد الجابري : التراث والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩١م، ص٢٤.
١٧٨) شوقي جلال : التراث والتاريخ ، ص١٢٥ - ١٢٦.
١٧٩) جورج طرابيشي : مذبحة التراث في الثقافة العربية المعاصرة، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٣م، ص١٠.
١٨٠) عمر عبيد حسنه : في النهوض الحضاري ، ص٥٥.
١٨١) د. عبد الكريم بكار : من أجل إنطلاقة حضارية شاملة، ص ٣٢.
١٨٢) برهان غليون : اغتيال العقل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٦، ١٩٩٢م، ص٣٢٩.
١٨٣) شوقي جلال : التراث والتاريخ ، ص١٢٥.
١٨٤) سورة الروم ، من الآية :٤٢.
١٨٥) د. عبد الكريم بكار : من أجل إنطلاقة حضارية شاملة ، ص٤٠.
١٨٦) عبد الجبار الرفاعي : جدل التراث والعصر ، ص١٣ - ١٤.

الفصل الثاني

علاقة التاريخ بالعلم والقرآن الكريم

أولا: علاقة التاريخ بالعلم والعلوم المساعدة

هل التاريخ علم ؟

هناك جدال طويل، وآراء كثيرة، حول مسألة كون التأريخ علما أم لا؟، وكان القرن التاسع عشر مثارا لكثير من المناقشات والمناظرات في هذا المحور من البحث.

لقد أفرط قوم في تقديس التاريخ، وعدوه كل شيء، وهو علم العلوم، وما العلوم الأخرى إلا مجرد ظواهر تاريخية. بينما بخسه آخرون، وقالوا: لا يصلح التأريخ أن يكون علما؛ بل هو نوع من الأدب، فهو يعنى بالتدوين القصصي لمجرى الأحداث، والقصة بلا شك هي من أبواب «الإنشاء الأدبي»[(١)]. في حين نرى بعضهم اتخذ موقفا وسطا بين الموقفين كما هو عند «ج.ب. بيوري» أحد أشهر مؤرخي انكلترا (١٨٦١-١٩٢٧م)، حيث قال: «إن التأريخ علم لا أكثر ولا أقل»[(٢)].

إن علماء الطبيعة والرياضيات، الذين نظموا علومهم ومعارفهم على أساس المنهجين التجريبي والاستدلالي، هم الذين كانوا يسخرون من علمية التأريخ، والسبب يعود إلى أن مختبراتهم لم تتمكن من فحص مادته بالمجهر والمخابر والميزان، ولم يتمكنوا من قياس حجم ووزن وكثافة الحدث التاريخي، وبذلك سلبوا عنه صفة «العلمية».يقول «وليام جيفونز» العالم الإنجليزي (١٨٣٥-١٨٨٢م): «من السخف أن نفكر في التأريخ على أنه علم بالمعنى الصحيح»[(٣)].

ويعلل حكمه هذا بقوله: «لأنه -أي التأريخ- يعجز عن إخضاع الوقائع التاريخية لما

يخضعها له العلم من المعاينة والمشاهدة والفحص والأختبار والتجربة، وبذلك لا يمكن من دراسته استخلاص قوانين علمية يقينية ثابتة، على نحو ما هو موجود بالنسبة لعلم الطبيعة أو علم الكيمياء مثلا»[٤].

ويقول «جوزف هورس»: «هل يجيز لنا تماثل الطرق التي قمنا بالإشارة إليها، أن نوافق مؤرخي القرن التاسع عشر في تصنيف التأريخ علما بين العلوم ببساطة تلفت النظر، وأن نجعله في المنزلة الأخيرة منها؟ نحن لانعتقد بأنه كذلك، ولكننا نرى العكس أقرب إلى الصواب، فبين التاريخ والعلوم فارق أساسي يباعد بينهما حتى المعارضة.فالعلم يبحث في الحوادث الملحوظة، عن المشابهات التي تظهر، ويكشف عن العناصر المشتركة في الوقائع حيث يتعرفها في حقيقتها، فيبحث بعد ذلك عن أسباب تكرار هذه الملامح تكرارا متشابها في وسط ظروف مختلفة جدا، فيصوغ لهذا الناتج احتمالات تثبت حقيقتها فيما بعد بالاستدلال العقلي أو بالاختبار، وهكذا ينتهي العلم إلى إثباتات تقرر ميزة عامة أو قوانين، وتجتهد في تنسيقها في نظام.

أما التأريخ فعلى العكس، لأنه لايرتبط بالوقائع التي يضع لها حدودا، إلا بحكم ما هو موحد بينها.وهذا ماكشف عنه كورنو بقوة لا مثيل لها، ذاهبا إلى حد أنه لم يترك للتاريخ، كحقل خاص به، إلا فضلة . كل ما يرفض بطبيعته أن يخضع للعقل، وكل ما ينزل منزلة ما لا حل له في حدود العلاقات الضرورية لوضع نظام.بلا ريب، أن التاريخ يبحث عن الأسباب التي كانت وراء تتابعها ويجتهد في جعلها مترابطة متسلسلة، ولكن صفة العلم تبقى غير متوفرة على حقيقتها»[٥].

وقد تصدى الباحثون في التاريخ للدفاع عن «علمية التأريخ» فقالوا: «إن التأريخ من حيث الأصل، يندرج تحت ما نسميه العلوم، وهي التي نقصد بها ألوانا من التفكير تبعث فينا أسئلة معينة نحاول الإجابة عنها»[٦]. هكذا هو التأريخ شأنه أن يبحث عن الأسباب عبر ما يطرحه من أسئلة، فيجيب عليها العقل.

أما أستاذ التأريخ الإنجليزي «هرنشو» فقد ناقش مسألة «علمية التأريخ» وفق منهج علمي، بدأ بتعريف العلم بقوله: «هو المعرفة المنظمة، المبوبة، المقننة، فإذا تقرر ذلك، فليس ثمة مسوغ لأن نتعجل إسقاط التأريخ، أو أي موضوع آخر من عداد العلوم...ثم استشهد .

هرنشو . بأقوال طائفة من العلماء والفلاسفة والأدباء، في تحديد مدلول العلم، منها:

قول (ت.هـ.هكسلي): إنني أقصد بالعلم كل معرفة تقوم على الدليل والإستنباط.

قول (الكسندرهل): كل معرفة معقولة فهي علم، و إن العلم معرفة روعيت فيها الأوضاع الصحيحة.

قول (كارل بيرسن): إن وظيفة العلم تنحصر في تقسيم الوقائع، ومعرفة تتابعها، وأهميتها النسبية.

ثم أضاف .هرنشو .قائلا: ويكفي في إسناد صفة العلم إلى أي موضوع أن يمضي الإنسان في دراسته مع صرف شيء من عنايته إلى توخي الحقيقة، وأن يكون فهما ذكيا في البحث عن كل ما يتصل به من الحقائق، وأن يؤسس على حكم ناقد أطرح منه هوى النفس وكل افتراض سابق، وأن يكون قد رد بقدر ما يسمح مضمونه إلى البسائط الثلاث: التصنيف، والتبويب، والتقنين» [(٧)].

كذلك بين «هرنشو» طبيعة علم التأريخ قائلا:« إن التأريخ علم ولكنه ليس كالفلك الذي هو علم معاينة مباشرة، ولا كالكيمياء، علم تجربة واختبار؛ ولكنه علم نقد وتحقيق» [(٨)].

يقول «لويس جوتشلك»: «من المؤكد أن التأريخ علمي في منهجه، فإن ملايين الحقائق التاريخية يمكن أن تقرر بحيث تقنع غير المختصين والخبراء على حد سواء» [(٩)].

إذن لابد أن يكون التأريخ علما، لأنه لم يعد مجرد رواية تنقل، بأسلوب إنشائي خاص دون منهجية علمية تختص بذلك، وقد أشار الدكتور أسد رستم إلى هذه الناحية قائلا: «وحسبنا أن نذكر أن أكثر مؤرخينا اليوم يزعمون أن كتابة التاريخ لا تتعدى نقل الرواية والإلمام بقواعد اللغة. ففي عرفهم أنك إذا أجدت الإنشاء وفهمت بعض النص فقد هيئت لك العدة لكتابة التاريخ. ولقد فات هؤلاء أن التأريخ هو علم أيضا يعوزه ما يعوز العلوم الأخرى من طب وهندسة وفقه وغيرها، وأنه لابد لصاحبه من أن ينشأ نشأة علمية خاصة يتربى فيها على الشروط الفنية التي يقتضيها كل علم» [(١٠)].

كما تجدر الإشارة في هذا المجال، إلى أن «ابن خلدون» هو أول من قال بأن التاريخ علم كسائر العلوم الأخرى، له موضوعه ومنهجه الذي ينتهي به إلى طائفة من القوانين العامة، التي يمكن بها تفسير الأحداث البشرية، تفسيرا علميا، يرد كل حدث إلى أسبابه

وعوامله[١١]، وقد بين ذلك بوضوح، عندما عرف التاريخ تعريفا علميا دقيقا، أدخله في عداد العلوم الاجتماعية الهامة بقوله: إن التاريخ «في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق»[١٢].

ثم جاء الكافيجي بعد ابن خلدون، وأكد على أن التاريخ علم كسائر العلوم الأخرى، فقال: «إنه علم كسائر العلوم المدونة، كالفقه والنحو والبيان، وغير ذلك. فثبت الاحتياج إليه، كما ثبت الاحتياج إلى ما عداه من العلوم»[١٣].

ما ينبغي التأكيد عليه في هذا الصدد ، أن ما يجعل من التاريخ علما هو طريقة البحث أو منهج الباحث الذي يعتمد أساسا على الوثائق التي لا يمكن بدونها أن يكون هناك تأريخ[١٤].

أما حول علاقة التاريخ بالعلوم الأخرى، « يمكن القول: بأن التاريخ، بما يتميز من صفات مرنة، باستطاعته أن يحوي كل العلوم، إذ بإمكان المؤرخ ضمن اختصاصه أن يكون مؤرخا للشعوب والدول والأحداث، وفي الوقت نفسه يمكن أن يكون مؤرخا للعلوم والهندسة والطب والفلك والرياضيات، ذلك أنه كان .ولا يزال .يوجد تاريخ للهندسة وتاريخ للطب وتاريخ للفلك والكيمياء والفيزياء وللرياضيات... ولكن ليس في المقابل هندسة تاريخية أو طب تاريخي، إنما هناك تاريخ للطب»[١٥].

علاقة دراسة حركة التاريخ بالعلوم المساعدة:

من الواضح أن العلوم والمعارف الإنسانية والاجتماعية متنوعة، ويوجد فيما بينها تداخل وتشابك كبيران، وليس بالإمكان معرفة أي علم منها بتمامه، بشكل مستقل عن سائر العلوم والمعارف الأخرى. مثال ذلك هو علم التفسير، فمن أراد الاشتغال بتفسير القرآن الكريم، ومعرفة مراد آياته الشريفة، ومعانيه السامية، عليه أن يتقن علوم اللغة، والنحو،

والصرف، والاشتقاق، وعلوم البلاغة الثلاثة «المعاني، والبيان، والبديع»، والقراءات، وأصول الدين، وأصول الفقه، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والحديث الشريف، والتاريخ وغيرها[١٦]. كذلك الأمر بالنسبة إلى دراسة حركة التاريخ، فإنها تتصل بمختلف فروع العلم والمعرفة الإنسانية والاجتماعية، «فمن الضروري للمؤرخ أن يكون واسع الثقافة، عارفا بالعلوم المتصلة بدراسة التاريخ وكتابته. ويمكن أن تسمى العلوم اللازمة للمؤرخ .أو لغيره من الدارسين والباحثين بالنسبة لموضوع كل منهم .بالعلوم المساعدة أو العلوم الموصلة. ويلاحظ أن العلوم المساعدة تختلف وتتفاوت .بالنسبة لدارس التاريخ .باختلاف العصر أو الناحية التي يرغب في دراستها والكتابة عنها»[١٧].

عن أهمية العلوم المساعدة بالنسبة لمن يريد إدراك أبعاد حركة التاريخ، يقول ابن خلدون: «إن فن التاريخ محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر، وتثبت، يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط»[١٨].

كما أن عملية التكامل الموجودة بين سائر العلوم المختلفة، بشكل وآخر، تدعو الباحث التاريخي إلى التعرف على هذه العلوم المساعدة، وقد دعا المؤرخ البريطاني إدوارد فريمن إلى ذلك بقوله: «إن المؤرخ يجب أن يعرف كل شيء: الفلسفة، القانون، المالية، الأجناس، الجغرافية، علم الإنسان، العلوم الطبيعية... ثم أضاف متسائلا: أو ليس المؤرخ معرضا لأن يصادف في دراسته للماضي، مسائل في الفلسفة والقانون والمالية...؟ وبقدر ما تتعدد الفروع الخاصة في المعارف التي يكون حجة فيها، يكون أكثر استعدادا لعمله الذي اتخذه مهنة له»[١٩].

ويمكن أن نوجز أهم العلوم المساعدة على النحو التالي:

١. علم التفسير:

للقرآن الكريم في شخصيتنا الإسلامية دور كبير، فهو يؤسس لنا عقيدتنا ويحدد لنا مفاهيمنا، ويرسم لنا سلوكنا، ويؤصل لنا تصوراتنا عن كل المفردات المتصلة بالإسلام، في خطوطه العامة والخاصة، كما يوجه تطلعاتنا الروحية والعملية، ويرشد خطواتنا على امتداد الطريق المستقيم، وسيبقى هو المصدر الإلهي الذي يمد الإنسانية بمقومات الحياة، بحفظه

لمدخرات الأمم وتجاربها الحضارية... وتبلغ هذه المسألة حدا من «الثقل» و«الاتساع» في القرآن الكريم، بحيث أن جل سوره لا تكاد تخلو من عرض لواقعة تاريخية، أو إشارة سريعة لحدث ما، أو تأكيد على قانون أو سنة تتشكل بموجبهما حركة التاريخ[٢٠].

بذلك يلزم الباحث الإسلامي في التاريخ عموما والتاريخ الإسلامي خصوصا أن يكون متشربا بثقافة القرآن الكريم وآدابه القويمة، حتى يتمكن من الانفتاح على عموم حركة التاريخ البشري بكل وعي وثبات، وفق رؤية ربانية شاملة. وقد أشار الدكتور أسد رستم لأهمية علاقة علم التفسير بالتاريخ بقوله: «وهل ننسى القرآن والتفسير والحديث ووجوب التضلع في هذه العلوم لمن يعنى بتاريخ العرب»[٢١]، فكتب التفسير تعد مصادر تاريخية، تتضمن شروحا تفصيلية لما ورد في القرآن الكريم من قصص وأخبار ووقائع وسنن تاريخية.

٢. مصطلح الحديث:

العلاقة بين مصطلح الحديث وبين دراسة التاريخ، علاقة مباشرة وهامة لارتباطهما ولارتباط قواعدهما معا[٢٢]، فالحديث يعد المصدر الثاني للشريعة الإسلامية، كما يعتبر أصدق المصادر التاريخية بعد القرآن الكريم، وقد أكد الدكتور أسد رستم على أن مناهج البحث التاريخي الحديث والمعاصر عند علماء الغرب، ليست غريبة عن علم مصطلح الحديث؛ بل تمت إليه بصلة قوية. فالتاريخ دراية أولا ثم رواية، كما أن الحديث دراية و رواية[٢٣]. كما أن قواعد مصطلح الحديث تعطي الباحث في حركة التاريخ دقة أكثر، وعمقا أشمل، في تعامله مع مجريات الوقائع والأحداث؛ للوصول إلى نتائج سليمة، بعيدا عن الزيغ والالتباس.

٣. علم اللغة:

هو العلم الذي يدرس وسيلة التعبير عن الأفكار. ولابد للباحث التاريخي مبدئيا، أن يعرف اللغة الأصلية الخاصة بالموضوع التاريخي الذي يقوم بدراسته، بدلا من الاعتماد على الترجمات التي قد تشوه المعاني الأصلية وتحرفها. وكلما تعددت اللغات التي يلم بها

الباحث، فإنه يكون أقدر على الرجوع إلى الأصول والمصادر التاريخية الأولى، وإدراك الحقائق من مظانها مباشرة[٢٤]. فالباحث -مثلا- في تاريخ اليونان يحتاج لمعرفة اللغة اليونانية القديمة، والباحث في العصر العثماني يحتاج لمعرفة اللغة التركية القديمة، والباحث في تاريخ اليهود يحتاج لمعرفة اللغة العبرية وهكذا. إذن من يريد أن يدرك أبعاد حركة التاريخ في القرآن الكريم، عليه أن يتقن لغة القرآن، العربية.

لذا فإن مشكلة بعض المستشرقين الذين أساءوا في أحكامهم على الإسلام والمسلمين . سواء بقصد أو دون قصد . هو جهلهم بالعربية، الذي أدى بهم إلى الوقوع بأوهام خطيرة، منها «شرح كارترمير، «الأحداث» بالغوغاء، وتفسير كازانوفا، لفظ «أمي» بشعبي، ومن ذلك ما وقع فيه المستشرق الألماني (براجشتراسر) في تحقيق كتاب مختصر في شواذ القراءات لابن خالويه، حيث صحف كلمة أبي عمرو بن العلاء: فقد تربع في لحنه،وجعلها: فقد تربع في الجنة، مع أن المقام ذم »[٢٥]. والأخطر من ذلك ما وقع به المستشرق البريطاني (مونتجمري. وات) من تفسير الغض من البصر بأنه التواضع، حيث قال: وقد نزلت آيات أخرى تدعو المؤمنات إلى التواضع[٢٦]:

﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ﴾[٢٧]

مع العلم أن الآية تشير إلى الأمر بعدم النظر إلى ما يحرم نظره على الأجنبي، ولا علاقة لهذا بالتواضع.

٤. علم فقه اللغة :

هو العلم الذي يعنى بتطور ثقافة اللغة، فاللغة كائن حي ينمو ويتغير ويتطور تبعا لظروف المكان والزمان وما يصحب ذلك من تغير الإنسان واختلاط الثقافات. وقد التفت فيكو الإيطالي إلى أهمية فقه اللغة في فهم عصور التاريخ على أساس أن الإشتقاقات اللغوية تكشف عن أسلوب الحياة والتفكير لدى شعب ما، وذلك لارتباط الألفاظ بالمعاني[٢٨].

واللافت للنظر، أن كثيرا من العبارات التي كانت متداولة بين الناس، أصبحت اليوم تحمل دلالات مغايرة لما كانت تحمل في السابق، فمثلا كلمة «الاستعمار» التي استخدمها

القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾[٢٩]

يعني بها، تعمير الأرض وإصلاحها بالإنسان، بينما أصبحت اليوم تعني سيطرة وتسلط شعب على شعب آخر. كلمة «القرية» أو «القرى» التي استخدمها القرآن الكريم في آيات عديدة:

﴿وكم من قرية أهلكناها﴾[٣٠]

﴿وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾[٣١]

لم تأت في القرآن لتقتصر على معنى الضيعة أو البقعة الصغيرة من الأرض، التي تسكنها مجموعة قليلة من الناس، كما نصطلح عليها اليوم؛ بل جاءت لتشمل «كافة التجارب السياسية والتشكيلات الاجتماعية والكيانات المحلية أو العالمية، والتجمعات المذهبية.. إلى آخره»[٣٢]... أو كما يقول السيد محمد رشيد رضا: «القرية، هي المدينة الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها، التي يعبر عنها في عرف هذا العصر بالعاصمة كما تقدم مرارا، وكان الأنبياء يبعثون في هذه القرى الجامعة؛ لأن سائر البلاد والشعوب تتبع أهلها إذا آمنوا»[٣٣].

إذن فقه اللغة يمنح الباحث في حركة التاريخ مرونة أكثر تؤهله نحو إدراك تطور المجتمعات والحضارات، من خلال تطور وتغير ثقافة اللغة.

٥. علم التوقيت، أو الكرونولوجيا:

هو العلم الذي يبحث في الزمن بصفته بعدا يقاس من أبعاد الوجود الإنساني، حيث إن حياة الإنسان تجري مع الزمن، وفي الزمن يحدث تتالي الأحداث، وأنماط التفكير، ونشاطات الإنسان، التي يكون مجموعها تاريخ العالم، وفي خلال الزمن يكتب الإنسان التاريخ، وقد رأى الإنسان بإمكانه قياس الزمن، فسعى لقياسه فعلا، وربط به بالطبع قصة حياته وحوادثها[٣٤]. فالذهن البشري لا يتصور وقوع حادث من أي نوع، إلا أن يسأل: «متى!؟»، وقد جاء علم التأريخ إجابة عن هذا السؤال[٣٥].

والزمن له أهمية قصوى في دراسة حركة التاريخ البشري، سواء بالنسبة للأمم أو الحضارات، فمفهوم «الأجل» الذي طرحه القرآن الكريم في آيات عديدة، إنما يشير به إلى

مسألة التوقيت في عمر الأمم والحضارات، تلك الحتمية التاريخية المحددة سلفا في علم الله تعالى، على ضوء الأعمال والممارسات التي يقوم بها البشر:

﴿ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾[٣٦]

﴿وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم(٤)ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾[٣٧]

﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا﴾[٣٨]

فالتوقيت عنصر أساسي يرصد كل فعل تاريخي، يحدث على الأرض، لذلك دخل بعدا أساسيا في حركة التاريخ، ومن ثم، فلا بد لمن يريد دراسة حركة التاريخ في القرآن الكريم، يلزمه فهم واستيعاب معنى وأجزاء الزمن الذي تضبط به الأحوال، خلال الرؤية القرآنية الشاملة.

٦. علم الجغرافية:

إن الارتباط وثيق بين التاريخ والجغرافية، أو بين الزمان والمكان، فالأرض هي المسرح الذي حدثت عليه وقائع التاريخ، وهي ذات أثر في توجيه البشر، وللظواهر الجغرافية المختلفة .مع غيرها من المؤثرات .أثر كبير في الإنسان وبالتالي في التاريخ، وذلك تبعا لنوع تفاعله مع بيئته ومواجهته لظروفها[٣٩].

وقد تنبه بعض المؤرخين المسلمين إلى أثر العامل الجغرافي في فهم التاريخ وكتابته، فالمسعودي لم يكن مؤرخا فحسب؛ بل كان مؤرخا وجغرافيا معا، فهو رحالة سائح يجمع مادته التاريخية من رحلاته الواسعة، ويعنى بأثر المناخ والبيئة فيما يناقش من قضايا التاريخ[٤٠]. فقد مال منذ حداثته إلى السفر، فرحل إلى بلاد فارس وكرمان والهند، وزار جزيرة سيلان، وركب البحر باتجاه كمبالو ومدغشقر، ومنها اتجه نحو عمان، وقام بجولات في ماليزيا حتى بلغ مشارق الصين، وجاب بحر الصين، وله معرفة بشطآن بحر قزوين، كما جاب الساحل الشرقي للبحر الأحمر، وقضى فترة في بلدة طبرية بفلسطين، ومنها انتقل إلى إنطاكية في سوريا الشمالية، وجاء إلى البصرة، ثم فارق العراق متنقلا بين الشام ومصر، حتى نزل الفسطاط سنة (٣٤٤هـ/٩٦٥م)، وتوفي فيها في السنة التالية[٤١].

وقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى مسألة تأثير الموقع الجغرافي على مختلف الظواهر الاجتماعية، فذكر عدة دراسات تحت عنوان: «في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير في أحوالهم»[٤٢]، وتحت عنوان: «في أثر الهواء في أخلاق البشر»[٤٣]، وكذلك تحت عنوان: «في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم»[٤٤].

وقد بالغت بعض المدارس الفكرية في أهمية وأثر الوضع الجغرافي في الحياة البشرية، فحاولت أن تفسر حركة التاريخ على أساس الجغرافية فحسب[٤٥]. غير أن الشيء الذي لا ينكر، أن العوامل الجغرافية المختلفة، تؤثر في نشاط الإنسان، وتشجعه على العمل، كما تؤثر في طباعه وأخلاقه وفي شحذ ذهنه أو العكس[٤٦].

مما يوضح لنا أثر الجغرافية في حركة التاريخ ما نلاحظه من تدخلها أحيانا تدخلا حاسما في تغيير مجرى الأحداث. فمثلا عاق البحر تقدم تيمورلنك عن العبور إلى أوربا بعد أن هزم بايزيد الأول في موقعة أنقرة في سنة ١٤٠٢م. كما أن سهول روسيا الشاسعة، وشتاؤها القارس كانت عوامل أدت إلى إخفاق حملة نابليون عليها في سنة ١٨١٢م، وكذلك الحال بالنسبة لزحف جحافل هتلر عليها من بحر البلطيق حتى البحر الأسود في سنة ١٩٤١م[٤٧].

هكذا تساعد الإحاطة بطبيعة البيئة والجغرافية للمناطق المختلفة في العالم، على إدراك النجاحات و الإخفاقات الحاصلة في حركة التاريخ.

٧. علم الاقتصاد:

يدرس مجموع سلوك البشر تجاه الثروات الطبيعية، وما ينتجونه في حقلها، وما يقدمونه من خدمات، وتدخل فيه بالطبع دراسة النظم الاقتصادية المختلفة عبر العصور، وهو من العلوم الأساسية المساعدة للتاريخ[٤٨]. فالعوامل الاقتصادية تعد من العوامل الفاعلة في رسم سياسات البلدان وفي التحكم بمصائرها، كما يقوم الاقتصاد بدور بارز في مجرى تاريخ هذه البلدان، حيث إن وجود الاقتصاد، والزراعة، والصناعة، والتجارة، من العوامل المحركة للتاريخ[٤٩].

كما وجدنا كيف أثرت الظروف الاقتصادية تأثيرا واضحا في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ـ١٩١٨م)، وفي الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ـ١٩٤٥)، وفي العلاقات بين الدول الكبرى والصغرى بعضها ببعض، وهي من الأسباب الرئيسة للمشاكل والاتجاهات العريقة أو الناشئة، المتقدمة أو الناهضة أو البدائية، وستظل الظروف الاقتصادية عاملا هاما في توجيه مصائر الشعوب بل الإنسانية جميعا[٥٠]. لكن دون أن يبلغ الأمر إلى حد اعتبارها العامل الرئيس، والرائد الأول في نشوء وتطور حركة المجتمع والتاريخ، كما ذهبت إلى ذلك النظرية الماركسية[٥١].

ربط القرآن الكريم في العديد من آياته بين الاقتصاد وبين أوضاع الإنسان والمجتمع، فقد تحدث عن إفساد أهل الكتاب لمجتمعاتهم خلال ممارساتهم الاقتصادية الباطلة، فقال تعالى:

﴿ياأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم(٣٤)يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾[٥٢]

كما أن الإسلام ربط بشكل مباشر بين الاقتصاد، وبين حركة المجتمع الإنساني، في خلال مجموعة من التعاليم الاقتصادية: حول الملكية، والمبادلات، والمدخولات، والحجر، والإرث، والهبات، والصدقات، والوقوف، والعقوبات المالية، أو ما يتعلق بالثروة وغيرها[٥٣].

إن القرآن الكريم له نظرته المحددة والواضحة، إلى حركة الاقتصاد في المجتمع، وينبغي لمن يريد دراسة حركة التاريخ البشري، أن يتعرف وجهة القرآن في ذلك.

٨. علم الأجناس والإنسان، وعلم وصف الشعوب:

تعتبر الانتربولوجيا والاثنوغرافيا من العلوم الاجتماعية المساعدة في مجال التأريخ؛ بل إن «هيوغ أتكن» يرى بأن هذا العلم هو أشد العلوم الاجتماعية ملائمة للمؤرخين. ذلك لأن علماء الإنسان والمؤرخين يواجهون مشكلات كثيرة مشتركة، وتظهر بينهم في بحثها في بعض الأحيان اختلافات متشابهة في الرأي[٥٤]. ومهما يكن من أمر فإن ما يتوصل إليه علم

الأجناس (الإنسان) ممكن جدا أن يخدم المؤرخ لاستكمال أبحاثه[٥٥]، باعتباره يعالج المسائل التاريخية، بتتبعه مجرى التطور البشري، وانتشار البشرية على سطح الأرض، ونشوء الثقافات الإنسانية، بدراسة القيم والقواعد الإنسانية وسلوك الإنسان في أنماط مختلفة من المجتمع[٥٦].

أما علم وصف الشعوب أو علم الأقوام، فإنه يتناول دراسة الحياة التقنية للأقوام، ولأوضاعها الاجتماعية، والدينية، ولبناها الاقتصادية، وروابطها الثقافية، من لغة، وقيم، وفن، وآداب... وتبدى للتاريخ أن الشيء الذي لا يوجد في باطن الأرض أو على سطحها، أو في النصوص المكتوبة، يمكن أن يشاهد ويلاحظ في فكر الناس الأحياء وسلوكهم. فإذا أريد فهم حياة المجتمعات في التاريخ، فإن هذا الأخير لا غنى له عن «علم الأقوام»[٥٧].

٩. علم الاجتماع:

يعد من العلوم الوثيقة الصلة بعلم التاريخ، ويحتاجه الباحث في حركة التاريخ، ليساعده في فهم الأحداث التاريخية وتفسيرها، وهو علم ، يقوم بدراسة شاملة للأفعال والعلاقات الإنسانية، كما يهتم بدراسة التغير الاجتماعي، مثلما يهتم بدراسة التغير السياسي والاقتصادي والثقافي والديني والعسكري[٥٨].

وأشار القرآن الكريم إلى مسألة حركة التغيير الاجتماعي، عبر الزمان، فقال تعالى:

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[٥٩]

﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[٦٠]

«وهناك اتجاه قوي في علم الاجتماع يؤمن إيمانا عميقا بأهمية العنصر الاجتماعي في الأحداث التاريخية، مثل: حركات العمال والفلاحين، وجماعات الحرفيين، كذلك هناك من يؤمن بأهمية معرفة أثر الأحداث والأبنية الاجتماعية، ويرى هؤلاء أن علم الاجتماع هو علم تاريخي يستمد مادته من التاريخ، ولكنه في النهاية يرد نتائجه إلى التاريخ»[٦١].

ويمكن لعلم الاجتماع أن يخدم الباحث في حركة التاريخ، عندما يستعين به في تحليل وتفسير بعض الظواهر التي يصاب بها المجتمع، كظاهرة «الاستضعاف» أو «الترف» أو «الطغيان» وغيرها، وأثرها في سير حركة التاريخ.

وقد تحدث ابن خلدون عن بعض الظواهر الاجتماعية التي تؤثر على وضع حركة التاريخ، مثل: التوحش، والتأنس، والعصبيات وغيرها فقال: «إعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ، أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش، والتأنس، والعصبيات، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال»[٦٢].

هكذا يتضح أن موضوع التاريخ، هو الاجتماع «العمران»، الذي يخضع للتحليل والتفكيك، يتعرف المؤرخ من خلالهما، على البناء الداخلي، الذي يتحرك المجتمع به: «كيفيات الوقائع». حسب مصطلح ابن خلدون. بعد أن يستخدم المؤرخ النظر في «باطن» المجتمع، و «تعليل» المكونات[٦٣].

١٠. علم النفس:

عن أهميته يقول الفيلسوف الاجتماعي الفرنسي،غوستاف لوبون(١٨٤١.١٩٣١): «هو أساس جوهري لمعرفة التاريخ»[٦٤]. فالباحث في حركة التاريخ بحاجة لعلم النفس في كل خطوة من خطوات عمله، ولاسيما في مرحلة النقد التاريخي، وفي مرحلة التركيب، إذ يعينه على فهم نفسيات الماضي، وكيف يتغلغل في مشاعر رجال بيئة معينة، وكيف يفسر سلوكهم والعلاقات القائمة بينهم؛ باعتبار أن «السلوك البشري» مهما كان نوعه، خاضع لمؤثرات نفسية مباشرة وغير مباشرة؛ بل يمكن أن تفسر كثير من الأحداث التاريخية بعوامل نفسية[٦٥].

وذكر القرآن الكريم شواهد من حوادث التاريخ في المجتمعات الغابرة، كقصة قارون الذي كان من قوم موسى (عليه السلام) فتمرد وبغى عليه، وفيه قال تعالى:

﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم﴾[٦٦]

إن هذه الظاهرة القارونية، تشير إلى طبيعة الأثر النفسي الذي تحدثه حالة الثراء المالي على شخصية الإنسان، فتجنح به إلى البطر والإفساد في الأرض:

﴿كلا إن الإنسان ليطغى(٦)أن رآه استغنى﴾[٦٧]

وكذلك ظاهرة الانحراف الجنسي التي تمثلت في قوم لوط، الذين كانوا يأتون الرجال من دون النساء، وما لهذه الظاهرة الانحرافية في أفراد المجتمع من آثار على مجتمعهم، تؤدي به إلى الدمار والهلاك كما حدث ذلك لهم:

﴿ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون(٥٤) أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون(٥٥) فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون(٥٦) فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين(٥٧) وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين﴾[٦٨]

كما تعتبر العوامل النفسية من جملة العوامل المحركة للأحداث عبر التاريخ، فكثير من الصراعات العالمية تعود إلى مثل هذه الأسباب، وإن تسترت وتقنعت بأقنعة أخرى تخفي ثيابها الحقيقية. ففي مطلع القرن العشرين وعندما ظهرت ألمانيا الحديثة إلى حيز الوجود أخذت تسعى إلى استعمار تونس أو ليبيا حتى تثبت لنفسها وللأوربيين بأنها أمة أوربية لا تقل شأنا عن غيرها من الأمم الأوربية المستعمرة الأخرى كفرنسا وإنجلترا و النمسا وغيرها، طبعا هذا بالإضافة إلى الدوافع الاستعمارية الأخرى لها[٦٩].

إن دراسة حركة التاريخ تحتاج إلى الإحاطة بأهم نتائج علم النفس وتحليلاته، لتخرج بنتائج عملية صادقة، من جراء معرفة ما وراء الوقائع والأحداث من دوافع نفسية.

وهناك من العلوم المساعدة الأخرى، التي تلقي مزيدا من الضوء على حركة التاريخ البشري: علم النقوش الكتابية، وعلم الرنكيات، و علم النميات، و غيرها، التي تدرس بقايا الأمم والحضارات التي سادت ثم بادت، لتكون شاهدا عليها، تنطق عن واقعها الاجتماعي في مختلف مجالاته، وتقدم لنا العبرة والموعظة، لما أصابها، وحل بها. «وتقدم الآثار الفنية لنا شهادات صادقة عن جميع الموضوعات التي تنطوي على دراسة إحدى الحضارات، ويمكن أن يقال، على العموم، إنها تنم على ما ظهرت في زمنه من الأفكار والمعتقدات والرغبات، حتى الأزياء، ويشتمل جميع البدائع الفنية، من نحت وألواح وأوسمة، الخ،على لغة جلية أيضا، فالمتفننون يؤلفون، على شكل منظور، بين احتياجات الزمن الذي يعيشون فيه، ومشاعره ومعتقداته»[٧٠]. فالتنقيب والبحث في الأرض، للكشف عن آثار الماضين، منهج قرآني، دعت إليه آيات عديدة، منها:

﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾[٧١]

﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق﴾[٧٢]

وهذه الدعوة القرآنية، نحو السير في أطراف الأرض، يراد بها من الإنسان، أن يتعظ بمن سبقه، فعندما ينقب في الآثار الفرعونية في مصر، أو يشاهد الآثار الفينيقية في لبنان، أو يدرس النقوش والآثار في بلدان أخرى كروما والأندلس، تبدو له نظرتان إلى هذه الآثار، نظرة لدراسة عظمة الإبداع الفني، والقوة التي امتلكها هؤلاء الذين أشادوا هذه الحضارات، وهي نظرة حسنة، في أن يتعرف كل جيل على ما صنعه الجيل السابق. وهناك نظرة أخرى، وهي نظرة الاعتبار والاتعاظ، فعندما يرى الإنسان هذه الآثار العظيمة والقلاع الحصينة، وهذا الإبداع الفني، فإنه سيتساءل ويكتشف، أن هؤلاء المبدعين، وأولئك العظماء، الذين أقاموا هذا التراث، ذهبت بهم الأرض، وتحولوا إلى تراب، ولم يبق منهم غير هذه النقوش، والرنكيات، والنوميات، وغيرها[٧٣].

﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾[٧٤]

من هنا لم يعد ممكنا دراسة حركة التاريخ البشري، بعيدا عن العلوم والمعارف الأخرى، إذ إن رؤية أي حدث تاريخي، لا بد أن تتداخل في خلالها منتجات لعلوم أخرى، تساهم في تشكيل صيغة تكاملية لرؤية ذلك الحدث. وقد أضحت القاعدة أن يضم أي مؤتمر لعلم التاريخ علماء من تخصصات مختلفة توافروا على بحث ظاهرة مشتركة، ويأتي هذا اتساقا مع منهج البحث الجامع أو المتداخل[٧٥].

ثانيا: علاقة علوم التاريخ بدراسة حركة التاريخ

علوم التاريخ:

تنقسم الدراسات التاريخية إلى ثلاثة أقسام متغايرة، كل قسم منها يمثل فرعا من علوم التاريخ له خصوصياته، ومجاله الخاص به، ، فيما بينها علاقات وثيقة مترابطة:

القسم الأول: ويصطلح عليه «التأريخ النقلي»:

وضعت له عدة تعريفات، أكثرها إيجازا، «هو التدوين القصصي لمجموع شؤون العالم كله أو بعضه» [٧٦]، وبذلك فهو العلم الذي يعنى بتسجيل وقائع وحوادث وأوضاع وأحوال العالم في الزمان الماضي، بما فيها أخبار البشر، والأرض والسماء، والنباتات والحيوانات، والأفكار، والنظم، والعلوم المختلفة، في قبال ما يجري حالا؛ باعتبار أن كل واقعة أو حادثة أو حالة تتعلق بزمان الحال، تعتبر من وقائع وحوادث وأحوال اليوم التي تسجلها الصحف، وتتناقلها وسائل الإعلام الصوتية والمرئية وما شابهها، فإذا انقضى زمانها، وصارت في الماضي، أصبحت جزءا من التاريخ [٧٧].

والتأريخ النقلي هو العلم الذي يهتم بسرد و تدوين كينونات الماضي البشري في مختلف المجالات، وقد حفل تراثنا العربي و الإسلامي بهذا القسم من فنون المعرفة الإنسانية.

«ومن المعروف أن أول تدوين لأخبار العرب السابقين للإسلام كان في عهد معاوية ابن أبي سفيان في أواسط القرن الأول الهجري، عندما أمر ‹عبيد بن شرية› بتدوين أخبار العرب والعجم. ثم بدأت الكتابة التاريخية تتطور تباعا عند المسلمين بسبب عوامل عديدة منها ميولهم نحو الكشف عن ماضيهم. وأصبح عدد المؤرخين منذ العهد الأموي مرورا بالعهود العباسية والفاطمية والمملوكية ومن ثم العثمانية أكثر من أن يحصوا، ويحتاج الحديث عنهم إلى دراسات مفصلة معمقة تبعا للعهود التي عاشوا فيها أو تبعا للموضوعات

التي بحثوها أو تبعا لمناهجهم التاريخية التي اتبعوها»[(٧٨)].

في مقدمة الموسوعات التأريخية المشهورة والمعتمدة لدى العرب والمسلمين، ما دونه:

١.البلاذري (توفي: ٢٧٩هـ) في (فتوح البلدان) و(أنساب الأشراف).

٢.اليعقوبي (توفي: ٢٩٢هـ) في تأريخه المعروف (بتأريخ اليعقوبي).

٣. الطبري (توفي: ٣١٠هـ) في (تأريخ الرسل والملوك) وبعضهم يسميه (تأريخ الأمم والملوك).

٤. المسعودي (توفي: ٣٤٦هـ) في (مروج الذهب ومعادن الجوهر).

٥. البيهقي (توفي:٤٧٠هـ) في كتابه (تأريخ البيهقي).

٦. ابن الأثير (توفي: ٦٣٠هـ) في (الكامل في التاريخ).

٧. ابن كثير (توفي: ٧٧٤هـ) في (البداية والنهاية).

٨ ابن خلدون (توفي: ٨٠٨هـ) في كتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، وغيرهم[(٧٩)]، وعليها أصبح الاعتماد في معرفة وقراءة أخبار الماضين، وعلى وجه الخصوص تاريخ العالم الإسلامي.

من هنا يتضح أن التأريخ النقلي يتصف بثلاث صفات أساسية[(٨٠)]:

١. هو من العلوم الجزئية، بمعنى أنه علم بالكينونات المحددة، ضمن زمان ومكان معينين، وليس علما بالكليات أو القواعد والقوانين العامة، التي تنتظم بها حركة الفرد والمجتمع في زمن معين.

٢. هو من العلوم النقلية وليس العقلية، حيث يعتمد على ما يسجله المؤرخ من مشاهدات ومسموعات، وصلت إليه عن طرق يراها كافية في تدوينها، دون أن يتدخل العقل في إصدار أي حكم لها أو عليها.

٣. هو من العلوم التي تختص بالماضي لا بالحاضر، ولذلك أطلق عليه اصطلاحا «التأريخ النقلي».

القسم الثاني: ويصطلح عليه «التاريخ العلمي»:

هو العلم الذي يسعى إلى تعليل حركة التاريخ، أو البحث في صيرورته،دون أن

يكتفي بمجرد سرد الوقائع والأحداث تأريخيا، بل يستقصي ما وراءها من أسباب وعوامل واقعية، ويربط بعضها ببعض ربطا سببيا. بذلك يكون التأريخ النقلي بمثابة المادة الأولية والمبادئ الأساسية التي يعتمدها هذا القسم من العلم، فالوقائع والحوادث والأحوال التاريخية، تكون «كالعناصر التي يجمعها العالم الطبيعي في مختبره، ويجري عليها تجاربه بالتحليل والتركيب والملاحظة، لاكتشاف خصائصها وطبائعها، وروابطها العلية و المعلولية، واستنباط القوانين الكلية بهذا الشأن... التي لا تختص بالماضي؛ بل يمكن تعميمها للحاضر والمستقبل، وهذه الجهة تجعل التاريخ نافعا، ومنبعا من منابع معرفة الإنسان، الأمر الذي يجعله، يتحكم بمستقبله»[٨١].

لقد أكدت المناهج الحديثة في دراسة التاريخ، أن جمع المادة التاريخية،لم يشكل إلا خطوة أولى نحو التعليل والبحث في الأسباب،للوصول إلى القواعد والأسس التي تتحكم بحركة التاريخ، وهذا ما عناه ابن خلدون عندما عرف التاريخ بقوله: «هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول... وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد من علومها وخليق»[٨٢].

بذلك يكون الفرق واضحا بين عمل الباحث في التاريخ، وبين عمل الباحث في عالم الطبيعة. فالأول يكون عمله منطقيا وعقليا وذهنيا خلال الوثائق التي بين يديه، أما الثاني فيكون عمله خارجيا وعينيا عبر التجارب العلمية والمشاهدات الحسية التي يباشرها بنفسه.

وظهر هذا الفرع من علوم التاريخ في المدارس الغربية كردة فعل على الاتجاهات الأحادية في تفسير حركة التاريخ، كما يقول لويس جوتشلك: «ولقد ظهر للتكاثر في فلسفات التاريخ هذه، رد فعل في القرن التاسع عشر أيضا، ولا يزال مستمرا حتى يومنا هذا. أدى في البداية إلى تكوين مدرسة للمؤرخين .العلميين .وجميع هؤلاء تقريبا هم عن طريق مباشر أو غير مباشر من تلاميذ رانكة، اعتقدوا أنه من الممكن أن تعرف كيف ،حدث التاريخ بالفعل،دون أية فلسفات سببية أو فقط بفلسفات قائمة، كل منها تتكيف نتيجة تاريخية خاصة. وهؤلاء، ومن وافقهم على فكرتهم يقولون بأن خير فلسفة للتاريخ ليست هي تلك التي تعتنق اعتناقا كاملا نظرية السببية؛ بل ترى تسلسلا للسوابق و اللواحق»[٨٣]،

فهذا العلم لا يريد التسليم بفلسفة سببية واحدة، أو بعامل واحد يتحكم في حركة التاريخ؛ بل يريد أن يتعرف عن كثب على حقيقة الأسباب والعوامل التي تقف وراء الوقائع والأحداث كل على حدة.

ويتصف هذا القسم من علوم التاريخ بالصفات التالية[٨٤]:

١. هو من العلوم الكلية لا الجزئية؛ لأنه علم بالكليات والقواعد العامة التي تحكم حركة الماضي.

٢. هو من العلوم العقلية، وليس النقلية ؛ لأنه يعتمد على البرهان العلمي في داخل مختبرات العقل والمنطق.

٣. هو من العلوم التي تتعلق بالماضي؛ ولكن يمكن تعميمه للموارد المشابهة في الحاضر والمستقبل.

٤. له علاقة بعلم الاجتماع، وتختلف هذه العلاقة بحسب طبيعة النظرة إلى علم الاجتماع، فإذا كان موضوع علم الاجتماع أعم؛ لكونه علما بالمجتمعات الحاضرة والسابقة، فإن التاريخ العلمي يكون فصلا من علم الاجتماع؛ باعتباره علم المجتمعات السابقة، وإذا كان موضوع علم الاجتماع يختص بالمجتمعات الحاضرة؛ فيكون التاريخ العلمي مستقلا عنه، ولكن رغم ذلك تبقى العلاقة بينهما وثيقة وقائمة.

القسم الثالث: ويصطلح عليه « فلسفة التاريخ»:

هو العلم الذي يبحث في الوقائع التاريخية بنظرة فلسفية؛ فيسعى لاكتشاف العوامل الأساسية التي تؤثر في سير الوقائع التاريخية، ويعمل على استنباط القوانين العامة التي تتطور بموجبها الأمم والدول، على مر القرون والأجيال[٨٥]، فهو يهتم باكتشاف السنن والقوانين التي تحكم تحولات و متبدلات الأمم والشعوب عبر الماضي والحاضر والمستقبل.

وبعبارة أخرى، فإن « فلسفة التاريخ تبحث في تحديد الاتجاه العام لتطور الإنسانية، وإيجاد قانون لحركة الحياة البشرية»[٨٦].

«وقد أعتاد الباحثون أن ينسبوا وضع فلسفة التاريخ إلى الإيطالي «جيوفاني باتيستا فيكو» (١٦٦٨.١٧٤٤م) بكتابه «مبادئ علم جديد» (١٧٢٥م) الذي ترجمه إلى الفرنسية، الفرنسي

الشهير «ميشله»، على أننا نرى مع بعض الباحثين أن «ابن خلدون» الذي عاش في القرن الرابع عشر الميلادي، أي قبله بكثير، أولى منه بهذا الفضل» [٨٧]، فهو أول من نظر إلى التاريخ في حقيقته، هو «خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال» [٨٨]، وهو أول من بحث جمعا وتفصيلا في عوامل العمران المختلفة، ودخل في فلسفة التاريخ بمضمونها الواقعي الدنيوي [٨٩].

ويتصف هذا الفرع من علوم التاريخ بالصفات التالية [٩٠]:

١. هو من العلوم الكلية لا الجزئية، حيث تكون نقطة البدء في فلسفة التاريخ، تكاملا بين الأجزاء، وترابطا بين الوقائع، ويتشكل من ذلك كله ما يسمى بالتاريخ العالمي الذي يصبح مادة الفيلسوف، وبذلك تكون فلسفة التاريخ «بما أنها فلسفة، فهي لا تتقيد بالتحقيب التاريخي المعروف الذي يقيم فواصل شبه نهائية؛ بل نهائية، بين الماضي والحاضر والمستقبل؛ بل تنظر إلى كلية التجربة التاريخية؛ إلى منطقها الداخلي؛ إلى نزوعها الواعي واللاواعي» [٩١].

٢. هو من العلوم العقلية وليس النقلية، لأن فيلسوف التاريخ يختزل العلل الجزئية للحوادث الفردية إلى علة واحدة أو علتين على أكثر تقدير،يفسر في ضوئها التاريخ العالمي،وهذا يقتضي منه بطبيعة الحال،إعادة تشكيل وقائع التاريخ ليقدم منها صورة عقلية.

٣. وإن كانت مسائل موضوع هذا العلم تبتدئ من الماضي، ولكنها تستمر إلى الحال والمستقبل، ففلسفة التاريخ تتجاوز مقولتي الزمان والمكان، إلى ما وراء الزمان والمكان.

«وغني عن البيان أن فلسفة التاريخ التي استحدثت في القرن الثامن عشر والتي عني بها التماس قوانين عامة للتطور الإنساني لقيت رواجا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ثم قل التأليف فيها بعد ذلك لأن قسما من بحوثها بقي تابعا لعلم التاريخ، وقسما آخر دخل في نطاق علم الاجتماع» [٩٢].

ولعل أخطر ما واجهه هذا الفرع من علوم التاريخ، في مجال البحث في «فلسفة التاريخ»، هي تلك النظرة الأحادية لحركة التاريخ، والتي أدت إلى ظهور نظريات مشهورة تمنح صفة الفاعلية لعامل واحد في تفسيرها، وتلغي العوامل الأخرى، والتي يعبر عنها «بنظريات العامل الواحد في تفسير التاريخ»، ومن هذه النظريات التي طرحت:

١.نظرية عامل الجنس البشري[٩٣].

٢.نظرية عامل البيئة الطبيعية والجغرافية[٩٤].

٣.نظرية الغريزة الجنسية[٩٥].

٤.نظرية العامل الاقتصادي[٩٦].

٥.نظرية البطل أو دور الفرد[٩٧].

ومن الأهمية بمكان القول: إن كل هذه المحاولات في فلسفة حركة التاريخ،لا تتفق مع الواقع ولا يقرها الإسلام؛ لأنها تنطلق في تفسير الحياة البشرية كلها على أساس العامل الواحد. والمهم أن ينطلق تفسير التاريخ من فهم موضوعي شامل، يربط بين كل العناصر والمؤثرات التي تصنع حركة الإنسانية كلها، روحية ومادية، بشكل متوازن، تضع مسار حركة التاريخ في موقعها الصحيح المنسجم مع واقع الحياة البشرية، ولن يتأتى ذلك إلا في خلال الرؤية القرآنية الصادقة، التي تمثل«رؤية الذات الإلهية التي وسعت كل شيء علما، والتي صنعت الواقعة التاريخية، ووضعتها في مكانها المرسوم من خارطة التاريخ البشري والكوني على السواء»[٩٨].

علاقة التأريخ النقلي بدراسة حركة التاريخ:

يعتبر التأريخ النقلي، المادة الأساسية في معرفة ودراسة التاريخ البشري، حيث يمثل المادة الخام التي يعتمدها الباحث في اكتشاف وتحليل السنن والقوانين والعناصر التي تعمل على تحريك وتوجيه مسيرة التاريخ. وليس بإمكان أي باحث في الساحة التاريخية، أن يستغني عن التأريخ النقلي بعد تحقيقه والتثبت منه.

لكن هناك عدة إشكاليات يواجهها التأريخ النقلي، وتثار أمام الباحث في حركة التاريخ؛ للطعن في صحة ما يتوصل إليه من نتائج علمية. ومن أهم تلك الإشكاليات:

الاختلاق والتزوير .الانتقائية .الذاتية والإسقاط .

١. الاختلاق والتزوير:

هناك اتجاه يبالغ في إساءة الظن بالتأريخ النقلي، وينظر إليه بتشاؤم شديد، «فيعتقد أن

جميع ما ينقل منه، هو من مجعولات الناقلين الذين حرفوا الحوادث وقلبوها، ونقصوا وزادوا فيها، وجعلوا الأكاذيب على أساس الأغراض والمقاصد الشخصية، أو العصبيات القومية والطائفية والعنصرية، أو الروابط الاجتماعية، فصنعوا التأريخ حسب أهوائهم»[٩٩]. حتى وصل الأمر بخصوص التاريخ إلى القول: «إن التاريخ خرافة وأسطورة من أساطير الأولين»[١٠٠].

وهناك من لم تصل به الحالة إلى هذا الحد من التطرف، من اعتبار التأريخ كله اختلاقا من وضع الناقلين، ولكنه آثر فلسفة الشك في التأريخ، كما هو اعتقاد «البروفيسور سير جورج كلارك» الذي يعكس صدى الارتباك و الشكوكية المحيرة للجيل الوجودي، عندما قال في مقدمته العامة للكتاب الثاني من تأريخ كمبريدج الحديث: «...إن المؤرخين من الجيل الأخير يظنون بأن معرفة الماضي قد وصلت إلى عقل أو أكثر من العقول البشرية، وأنه جرى تصنيعها من قبل هؤلاء وبالتالي لا يمكن أن تتكون من ذرات جوهرية مجردة لا يقوى شيء على تغييرها....ثم يتابع قوله: ولا توجد حقيقة تاريخية موضوعية»[١٠١].

٢. الانتقائية:

هناك من يتهم التأريخ النقلي، بأنه تأريخ «انتقائي»، «فأي مؤرخ معين لا يستطيع تركيز انتباهه إلا في ناحية أو طائفة محددة من النواحي الخاصة بالماضي»[١٠٢].

فالمؤرخ وإن ابتعد عن الكذب، فإنه يعتمد أسلوب الانتقاء في تدوين الحوادث، حيث ينقل ما لا يتعارض مع أهدافه وعقائده، ويمتنع عن تدوين مالا ينسجم معها.

«فهؤلاء .المؤرخون .وإن لم يزيدوا على الحوادث التاريخية من عند أنفسهم، ولم يجعلوا الأكاذيب، إلا أنهم بانتخابهم حسب الأهواء خرجوا التاريخ بالصورة التي تعجبهم. مع أن الحادثة أو الشخصية إنما يمكن أن يبحث عنها بدقة إذا كان كل ما يتعلق بها واصلا إلى المحقق، وأما إذا عرض عليه قسم وكتم عنه قسم آخر تختفي عليه الصورة الواقعية، وتتجلى له صورة أخرى»[١٠٣].

٣. الذاتية والإسقاط:

من بين الاتهامات التي توجه إلى التأريخ النقلي، هو خطر تسرب «الذاتية والإسقاط» الذهني على العملية التأريخية من قبل المؤرخين، الأمر الذي «يجعل من المؤلفات التاريخية معبرة عن وجهات نظر مؤلفيها» [١٠٤] وليست سجلا أمينا للوقائع والأحداث عن الماضي.

أما خطر تسرب الذاتية، فهو عبارة عما يضيفه المؤرخ من أشياء من ذاته، خلال كتابة التاريخ، وفهم الوقائع والأحداث. وبذلك تفقد عملية التأريخ أمانتها وموضوعيتها، وبالتالي لا بد من ضرورة الفصل بين المؤرخ والتاريخ، حيث «إن الوقائع لا يمكن أن توجد في صورة خالصة، ولكنها دائما تكون منعكسة في عقل من قام بتسجيلها، وعلى ذلك فعندما ننظر إلى شيء من مصنفات التاريخ فإن أول ما يهمنا يجب ألا ينصب على الوقائع التي يحتويها المصنف؛ بل على المؤرخ الذي قام بكتابته! على انه ينبغي ألا تغيب عن الذهن هنا، أن المؤرخ بدوره هو نتاج البيئة والمجتمع» [١٠٥].

أما خطر تسرب الإسقاط الذهني، فهو عبارة عن الموقف الخاص إزاء حركة التاريخ، الذي يتأتى من الإتجاه النفسي للمؤرخ، ويترك أثره الكبير على كتابة التاريخ، وفهم الوقائع والأحداث. حيث إن هذا الموقف الخاص الذي ينبع من الاعتياد الذهني على صورة خاصة للتاريخ، وطريقة معينة لفهمه؛ يجعل المؤرخ ينظر .دائما .إلى التاريخ في خلال وجهة محددة، ويحيد عن باقي الوجهات الأخرى. وبذلك يفقد التأريخ أمانته وموضوعيته. وهذا ما أشار إليه «ولش» بأن التأريخ غير المنحاز ليس مثلا أعلى فحسب؛ بل هو مستحيل استحالة مطلقة؛ «لأن كل مؤرخ ينظر إلى الماضي من وجهة نظر معينة، فهو لا يستطيع أن يتجنبها، وتجنبها يشبه مطالبته بتغيير طبيعته» [١٠٦].

في مقابل هذه النظرية التي تعتمد مذهب الشك في التأريخ النقلي وتعتبره لا يعكس مجاري الواقع وليس بإمكانه أن يوصلنا إلى معرفة الحقيقة، توجد هناك نظرية يتبناها البعض، تدعو إلى الإفراط في تقدير التأريخ النقلي وتقديسه، وهو عندهم كل شيء، بحيث يأخذون بكل ما جاء في المصنفات التأريخية، أخذ المسلمات، دون تأمل وروية.

لكن القول الفصل في معالجة كل هذه الإشكاليات، وحالتي الإفراط والتفريط في التأريخ، هو في خلال اتباع منهج «النظر والتحقيق» أو «فن التمحيص» للوصول إلى الحقائق

التاريخية لأنه «وإن لم يكن الاعتماد وبصورة مطلقة على ما ينقل، حتى ولو كان الناقل ثقة، إلا أن التاريخ يشتمل على مجموعة من المعلومات القطعية التي تعد من نوع البديهيات في سائر العلوم. ومن الممكن إجراء التحقيق العلمي بالنسبة إلى تلك القطعيات، هذا مضافا إلى أن المحقق بإمكانه الاستناد إلى اجتهاده ونقده، واستنتاج صحة النقل التاريخي وعدم صحته. فنجد اليوم أن هناك بعض المنقولات التي اشتهرت شهرة واسعة في بعض الأزمنة قد وقعت تحت نقد المحققين، وبعد عدة قرون تبين عدم اعتبارها بوضوح. فقد شاع على الألسنة منذ القرن السابع الهجري، قصة حرق المكتبة في الإسكندرية، حتى نفذت تدريجيا في أكثر كتب التاريخ، ولكن نقد المحققين في القرن الأخير أثبت أنها كذب محض، وقد جعلها بعض المسيحيين المغرضين. كما أن بعض الحقائق تبقى مدة قيد الكتمان، ثم تظهر بعدها بوضوح. إذن فلا يمكن إساءة الظن بالمنقولات التاريخية بوجه عام»[١٠٧].

ومن الأهمية بمكان القول: إن سلب الثقة من التأريخ النقلي، وعدم الوثوق به يؤدي إلى تعذر الوصول إلى نتائج علمية دقيقة في اكتشاف ومعرفة طبيعة حركة التاريخ؛ باعتبار أن النتائج التي يتوصل إليها ستكون غير دقيقة ولا يعول عليها؛ لأن النتيجة دائما تتبع مقدماتها، وبقدر ما تكون مقدماتها صحيحة وصادقة تكون النتائج التابعة لها كذلك[١٠٨]. ولا سبيل إلى معرفة القواعد والأحكام التي تتحكم في حركة التاريخ والتي لا تختص بالماضي فحسب؛ بل يمكن تعميمها على الحاضر والمستقبل أيضا، إلا بالرجوع إلى الوقائع والأحداث في الماضي، وهذا يستلزم منا أن نقطع بوجود شخصية حقيقية للتاريخ، وهذه الناحية هي التي تجعل من التاريخ مصدرا من مصادر المعرفة الإنسانية، وبذلك فليس من المنطقي بتاتا أن نشكك في التاريخ ونسلب منه شخصيته، فإن ذلك يؤدي إلى شلل البحث العلمي في حركة التاريخ.

ومهما كانت الإشكاليات التي تثار حول التاريخ النقلي من حيث وجودها وعدمها، فإن التاريخ يبقى حاملا بين جوانحه الكثير من الحقائق التي يمكن التوصل إلى معرفتها بعد الجهد وتعميق النظر.

ثالثا: أثر القرآن الكريم في التاريخ

كان للقرآن الكريم شأن عظيم في حياة المسلمين، فقد اهتموا بحفظه وتدوينه وجمعه، منذ بزوغ فجر الإسلام، لتوقف أمور دينهم ودنياهم عليه، فانطبعت أوامره و نواهيه وتوجيهاته في قلوبهم، وارتسمت كلماته وآياته على ألسنتهم. وأصبح إلى جانب سنة الرسول الأكرم (صلوات الله وسلامه عليه) هو المرجع في كل شيء عندهم.وكان موضع اهتمامهم وعنايتهم الفائقتين، حتى أثر في وعيهم وأفكارهم وأحاسيسهم، وفتح أمامهم كل سبل الوعي والمعرفة. ومن جملة ما أفاضه القرآن الكريم، هو ذلك الأثر الكبير في تحفيز الوعي التاريخي، لدى المسلمين بشكل عام والعرب بشكل خاص. وقد التفت كثير من الكتاب الغربيين إلى هذا الأثر الذي أحدثه القرآن المجيد لدى المسلمين، يقول ولفرد كانتول سميث: «إن المسلم يحس إحساسا جادا بالتاريخ» على نحو يختلف عن فهم البوذي والمسيحي والماركسي[١٠٩]. فقد كان القرآن يمثل المصدر الأول لدراسة التاريخ عندهم؛ بل أقدم وأصدق المصادر المدونة له على الإطلاق[١١٠]. فهو التنزيل الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، حيث تكفل الله تعالى بحفظه من التحريف والزيادة والنقصان، كما جاء في قوله عز وجل:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[١١١]

وقد أعطى القرآن الكريم للتاريخ مساحة كبيرة بين آياته المباركة؛ ليؤكد مدى اهتمامه ورعايته لحركة التاريخ البشري. فقد استخدم أكثر من تعبير عند التحدث عن الماضي: كالأخبار، والقصص، والأنباء، كما في قوله تعالى:

﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم و سيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾[١١٢]،

﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾[١١٣]

أخباركم: أي أحوالكم التي نخبر عنها[١١٤]، وهي إشارة واضحة إلى ما يصدر عن الناس من أفعال، وما تضمهم من أحوال عبر الزمان، وهو معنى التاريخ.

وقال تعالى:

﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾[١١٥]

﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾[١١٦]

القص: تتبع الأثر، والقصص:الأخبار المتتبعة[١١٧]، وهي التي تحمل روايات التاريخ.

وقال تعالى:

﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾[١١٨]

﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد﴾[١١٩]

النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة[١٢٠]، وهو تعبير بين عن معنى التاريخ.

هكذا أفرغ القرآن الكريم في آياته المباركة أبعادا واسعة ومتنوعة عن مفهوم التاريخ، أهمها:

١. تأصيل مفهوم التاريخ
٢. توثيق وتحقيق التاريخ
٣. الرؤية الحضارية للتاريخ

ويمكن الحديث عنها بإيجاز:

١. تأصيل مفهوم التاريخ:

في الوقت الذي عاش فيه العرب ـ خصوصا في أرض الحجاز ونجد ـ قبل الإسلام، حالة واضحة من غياب الوعي التاريخي، جعلتهم يفقدون عنصر الإحساس بقيمة التاريخ، وأهميته في حركة الحياة الإنسانية ويتعاملون معه كلون من ألوان الترف الأدبي؛ لقضاء الوقت بالمسامرة والمتعة. حتى غدا التاريخ، لم يشكل لديهم، أية مرجعية علمية في وعيهم،

تدفعهم بالعودة إليه، والرجوع إلى مجريات وقائعه وأحداثه؛ ليتعرفوا على ما فيه، ويتزودوا من خبراته وتجاربه، ويتعلموا من دروسه وعطاءاته، الأمر الذي جعلهم ينظرون إليه، دون أن تكون له أية وظيفة هامة في حياتهم، وهذا ما أشرنا إليه في الفصل السابق.

إلا أن الحال قد تغيرت بعد ظهور الإسلام تغيرا كاملا، حيث إن القرآن الكريم والسنة الشريفة، قد كشفا للإنسان العربي خطورة الدور الذي يلعبه التاريخ في الحياة الإنسانية. فالقرآن الكريم خلال فترة نزوله، أخذ يؤصل مفهوم التاريخ في ذهن الإنسان المسلم، ويغذي وعيه، وإحساسه بمرجعية التاريخ، عندما وجه فكره «نحو التقاط ‹الحوادث› بوصفها ‹عبرا›. وذلك هو أعظم تجديد فكري من ناحية النظر إلى التاريخ، أي إلى ما يدور في الزمن»[١٢١]. قال تعالى:

﴿يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾[١٢٢]

واستمر القرآن الكريم ينمي هذا الوعي والإحساس بأصالة ومرجعية التاريخ عند الإنسان المسلم؛ بتعميق شعوره «بوظيفة التاريخ» و «هدفية التاريخ» و «نفعية التاريخ»، خلال الحشد الهائل من الآيات الكريمة التي أكدت هذه الحقيقة، وطلبت من الجماعة المؤمنة أن تسير في الأرض؛ لتقلب النظر، وتمعن التأمل، في صفحات الغابرين؛ «لتتعلم» من تجاربهم، عناصر الخطأ والصواب التي رفعت أو حطت من شأنهم:

﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين(١٣٧)هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين(١٣٨)ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين(١٣٩)إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين(١٤٠)وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾[١٢٣]

﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾[١٢٤]

﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾[١٢٥]

إن فكرة «تسخير التاريخ»بما يتصل وبناء شخصية الإنسان المسلم، والأمة الإسلامية بناء

رساليا متكاملا، قد تجلت في القرآن الكريم بوضوح، عندما جعل للماضي قيمة كبيرة في نظر المؤمنين، ارتبطت بفكرة «العبرة» و «الاتعاظ» بأحداثه وتجاربه[١٢٦]. بحيث جعلت من التاريخ، قوة متحركة، ومصدرا حيويا، يمد المسلمين بالقوة والإبداع والثبات؛ ليصنعوا لهم تأريخا جديدا، منفتحا على رسالة الإسلام الخاتمة لكل الرسالات، وذلك ما نستوحيه من قوله تعالى في حديثه عن بعض أهداف القصص القرآني، التي تحدثت عن تاريخ الأنبياء (عليهم السلام):

﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾[١٢٧]

كما تمظهرت فكرة «تسخير التاريخ» لنفع حركة الرسالة، في القرآن الكريم بشكل واضح، في خلال إحدى سياقاته التوجيهية الشريفة التي تقول: «وذكرهم بأيام الله» هذا التوجيه القرآني الذي شكل بعدا أساسيا في تأصيل مرجعية التاريخ في الفكر الإسلامي، والذي جاء ضمن الآيات الكريمة التي تكفلت بيان تربية وتوجيه نبي الله موسى بن عمران (عليه السلام) لقومه بني إسرائيل؛ لهدايتهم إلى الإيمان الصحيح، ورفع مستوى وعيهم وإدراكهم، من حالة التخلف والجهالة إلى مستوى الرقي والحضارة[١٢٨]:

﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾[١٢٩]

فقوله تعالى: «وذكرهم بأيام الله»، يحمل مفهومين هامين:

الأول: مفهوم التذكير الذي يختزن حالة العودة والرجوع إلى الماضي بوعي؛ لاستحضاره في النفس بشكل يمكن الإنسان من حفظ ما يقتنيه من المعرفة؛ أو لاستحضاره في النفس لا عن نسيان؛ بل عن إدامة الحفظ[١٣٠].

الثاني: أيام الله، وهي وقائع الله في الأمم السالفة[١٣١]. وتعني الأحداث الكبرى التي تهز تاريخ كل أمة، سواء كانت نجاحات و انتصارات باهرة، أو نكبات وانهيارات مأساوية.

ومن الواضح أن الأيام كلها لله تعالى، إلا أن إضافة «أيام» إلى «الله» تعالى، فيها خصوصية الإشارة والتنبيه إلى الأيام المصيرية والهامة في حياة الأمم والشعوب، التي تمثل انعطافات حادة في حركة التاريخ، والتي يجب أن تبقى حية في ذاكرة الأجيال اللاحقة؛

لتحرك فيها وعيها ويقظتها باستمرار (١٣٢).

من زاوية أخرى فقد ساهم القرآن الكريم مساهمة فعالة في تأصيل مفهوم التاريخ، عندما نبه وأشار خلال آياته المباركة إلى موضوعات فروع علم التاريخ الثلاثة:

أ. التأريخ النقلي أو التاريخ العام

ب. التاريخ العلمي

ج. فلسفة التاريخ

أ. من ناحية التاريخ النقلي، فقد تضمن القرآن المجيد كثيرا من القصص والأخبار عن الماضي، وإن كان لم يأت بها من أجل التحدث عن أحوال الماضين وتسجيل أخبارهم وما يتعلق بحياتهم، كما يفعل المؤرخون، وإنما كانت له أغراضه الدينية الهادفة نحو تغيير الناس وبنائهم إسلاميا (١٣٣). غير أن احتواء القرآن لمثل تلك القصص والأخبار وفق ضوابط ومعايير محددة، ساهم بشكل كبير، في تشيد وتطوير الأصول العامة التي قام عليها «التأريخ النقلي».

ب . من ناحية التاريخ العلمي، فقد كان القرآن الكريم أول من نبه إلى وجود سنن عامة تحكم حركة الإنسان «والأقوام والحوادث والمواقف التاريخية، لتترك أثرها في النفوس، وليفسر التاريخ في ضوئها. وقد سبق القرآن إلى هذا الاعتبار بعض علماء التاريخ الذين يرون أن للتاريخ قوانين تدور بموجبها حوادثه، أو تتطور على ضوئها الأمم والشعوب والحضارات» (١٣٤). فقد قال تعالى في بيان تلك السنن العامة السائدة على البشرية:

﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا﴾ (١٣٥)

﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾ (١٣٦)

﴿فلن تجد لسنة الله تبديلا﴾ (١٣٧)

وجاءت هذه التنبيهات القرآنية إيذانا بأن عصر المعجزات الذي تحولت فيه النار بردا وسلاما، وتحولت فيه العصا إلى ثعبان، وتفجر الماء من الصخر، وانفلق البحر أمام موسى (عليه السلام) وبني إسرائيل، قد تصرم، وحل محله طور جديد من تاريخ الإنسانية، يحمل فيه الإنسان مسؤولية، عمله، ويخطط له على هدى وبصيرة. فقد جاءت المرحلة الفعلية

لتجسيد «الأمانة» التي تحملها الإنسان، وتميز بها عن غيره من المخلوقات، كما فهمنا ذلك من الآية المباركة:

﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾(١٣٨)

والأمانة التي قصدتها الآية المباركة، هي المسؤولية التي يصنع بها الإنسان تاريخه بنفسه، في حين أن غيره لا تاريخ له؛ لأنه ليس لديه أمانة، وليس عليه مسؤولية.

ولم يلبث القرآن المجيد حتى أعطى للمسلمين نموذجا تطبيقيا؛ لتوثيق الارتباط والصلة بين الأسباب والنتائج، تحقق بشكل عملي ملموس في واقعة أحد، حين انقلب سير الحوادث فيها من الانتصار إلى الانكسار، في لحظة يسيرة من لحظات الضعف الإنساني، التي عرضت لفريق من جند المسلمين، فأوقعت الارتباك في صفوف الجيش كله عندما خالف الرماة وصايا الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) ألا يبرحوا أماكنهم أبدا ولو رأوا الجيش تتخطفه الطير؟ ولكن ما أن رأى الرماة الهزيمة حلت بقريش، والغنائم تزحم الوادي... حتى غادروا مواقعهم هابطين إلى الميدان، يبغون انتهاب أنصبتهم من الأسلاب والأموال.فانكشفت مؤخرة المسلمين، وانتهز المشركون الفرصة، وانقض فرسانهم بقيادة (خالد بن الوليد) واستطاعوا النفوذ إلى قلب المسلمين ،إلى أن حلت الهزيمة(١٣٩).ووقعت في المسلمين مقتلة عظيمة، استشهد فيها سبعون، وجرح سبعون، ثم تماسك المسلمون، و التفوا حول الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) واستطاعوا صد العدوان.

وعندما أخذ المسلمون يتساءلون عن سبب ذلك الانكسار الذي حل بهم، وكيف استطاع المشركون أن يحققوا ما تحقق ضدهم، والرسول الكريم (صلوات الله وسلامه عليه) قائم بينهم، وعلى رأس معسكرهم.نزل قوله تعالى محددا سنن النصر والهزيمة:

﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير﴾(١٤٠)

فعلم المسلمون، أن النصر له أسباب، والهزيمة لها أسباب، ومن الممكن أن ينالهم ما نالهم، ولو كان الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) حاضرا معهم، وقائدا لهم؛ لأنهم خالفوا وصاياه، بعد أن كانت في جملة أسباب وشروط النصر المرتقب.

بذلك يكون القرآن الكريم، منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، هو أول من أشار إلى مبدأ التعليل للحوادث والوقائع في التاريخ، ودعا إلى ربط الأسباب بالمسببات، وذلك هو المنطلق الذي قام عليه «التاريخ العلمي» أخيرا.

ج. **أما فلسفة التاريخ**، التي تنظر إلى مسار حركة التاريخ البشري كوحدة واحدة، «بغية الوصول إلى قوانين كلية تفسر لنا التاريخ الإنساني... وتتجاوز العلل الجزئية التي يفسر بها المؤرخون الوقائع الفردية المحصورة في زمان ومكان محدودين، إلى محاولة العثور على علة عامة أو أكثر لتفسير مجمل حوادث التاريخ الإنساني»[(١٤١)]، والتي على ضوئها يتم تفسير قيام وسقوط الحضارات الإنسانية. فإن القرآن المجيد له قصب السبق في هذا المضمار.عندما وسع وعمق من أفق النظرة إلى حركة التاريخ، برؤية تأملية، حولت الاهتمام بها من أحداث واقعية، و صيرورة فعلية، إلى معرفة شاملة بهذه الأحداث والصيرورة، والربط فيما بينها ضمن مسيرة ممتدة تثبت أنها وحدة واحدة تمثل مسارا كليا واحدا.فالقرآن الكريم عندما يقول: «سنة الله التي خلت من قبل» يعني وجود قانون أو نظام، تجري وفقه مجريات الأحداث في هذه الحياة الدنيا.وهي دعوة جادة إلى اكتشاف هذه السنة؛ لمعرفة الرؤية الصحيحة؛ لتوجيه الحاضر نحو المستقبل المنشود.

كما نجد في القرآن الكريم مزجا واضحا بين النظرة الفلسفية والنظرة التاريخية للموجودات، تطرحه هذه الآية المباركة:

﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير﴾[(١٤٢)]

فهي تدعو إلى معرفة كيف بدأ الخلق، إذ إن هذه المعرفة يحصل فيها تصور لمصير الخلق، بمعنى المستقبل، وإن بين البداية والمصير تحصل عملية التغير.ومن دون معرفة هذا التغير وآلياته لا يمكن معرفة حركة التاريخ.ولا يمكن فهم أحداث الماضي؛ بل و لا تصورها، دون وجود نظرة فلسفية محددة، بإمكانها أن تفلسف بناء حركة التاريخ، من الماضي إلى الحاضر والمستقبل.

لقد ربط القرآن المجيد بين الفلسفة وحركة التاريخ، عندما جعل «النافع» هو العاقبة من حركة الأشياء، وفق المنهج التاريخي السنني الذي جاءت به الآية المباركة:

﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾[١٤٣]

فالآية المباركة تؤكد بأن سنة الله في التاريخ، تبقي ما هو نافع بين الناس، وهو الذي يمكث راسخا في الأرض، بينما يكون مصير «غير النافع» سيذهب جفاء، دون أن يقر له قرار في الأرض.وهذه نظرة فلسفية، تحدق في حركة التاريخ، فتربط بين الماضي والحاضر والمستقبل، كوحدة واحدة.

وقدم القرآن الكريم رؤيته الواضحة، حول فلسفة التاريخ، المستمدة من رؤية البارئ سبحانه وتعالى .الذي أبدع الكون، وهيمن على حركة التاريخ .التي اختلفت مع سائر الاتجاهات الرؤيوية الوضعية. فوضعت الإنسان في موضعه اللائق والصحيح من حركة التاريخ، وأنه صاحب الفعل والإرادة فيها، وبينت وفق منهج دقيق، طبيعة المبادئ العامة التي ترتكز عليها هذه الحركة، كما نبهت إلى دور العقيدة أو الدين في مسارها، واعتبرته الروح المحركة والسارية التي «تخلق في قلوب المجتمع .بحكم الغائية المعينة .الوعي بهدف معين، تصبح معه الحياة ذات دلالة ومعنى، وهي حينما تمكن لهذا الهدف من جيل إلى جيل، ومن طبقة إلى أخرى، فإنها حينئذ تكون قد مكنت لبقاء المجتمع و دوامه»[١٤٤]. بذلك تكون فكرة «الدين الحق» محور حركة التاريخ وفلسفته في القرآن الكريم، كما قال تعالى:

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[١٤٥]

﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون﴾[١٤٦]

﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[١٤٧]

من ناحية أخرى، فتح القرآن المجيد آفاقا واسعة أمام فلسفة التاريخ، بما قدمه من موضوعات متنوعة، دلت على سعة وعمق التشابك والتداخل بين مفردات الفعل الإنساني في الساحة التاريخية، ما يدفع بالعقل المسلم إلى تأمل ما وراء الأحداث وصيرورتها، بشكل ينتزع منها رؤية موحدة واتجاها كليا عن مسار حركة التاريخ.فبالإضافة إلى عرض الأحداث التاريخية استهدف بيان عناصر هامة في حركة التاريخ، كالزمان والمكان و الأحداث والأشخاص والأبطال، وربط فيما بينها، بنظم متتابع امتد بين الماضي والحاضر

صوب المستقبل، بين هذه الآفاق جميعا، متخذا منها حركة صانعة للتاريخ، واضعا المسؤولية الأساسية على عاتق الإنسان في عمله؛ ليسلك طريقه على الإيمان والمعرفة.و بذلك لم يقبل القرآن أن يتخذ فكرا أو موقفا أو عنصرا أحاديا في تفسير حركة التاريخ، الأمر الذي يؤكد بأن القرآن جاء بفلسفة متميزة عن هذه الحركة.

ومن الأهمية بمكان القول: إن القرآن الكريم لم يكن كتابا تأريخيا، ولم يأت بفلسفة كاملة الصياغة عن التاريخ، ولكنه قدم معطيات ومبادئ هامة وأساسية، يمكن أن تمهد السبيل نحو نظرات أعمق، ودراسات أكثر سعة وشمولية عن التاريخ في مختلف مجالاته. وعلى ضوء هذه الإشعاعات القرآنية الناصعة، استطاع العلامة «ابن خلدون»، أن ينظر للتاريخ بوعي وتبصرة، ويبرع في دراسته، ويضع نظرياته القيمة لتفسيره وفلسفته. فقد كان «عميقا في قراءته للقرآن، واعتماده عليه، وانطلاقه منه، وقد حرص وهو يبسط نظرية العمران، على تدعيم كلامه بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية»(١٤٨).

إذن تأصيل القرآن الكريم لمفهوم التاريخ، عبر آليات وأساليب مختلفة، هو الذي جعل الإنسان المسلم يدرك مرجعية التاريخ، ووظيفته التربوية والأخلاقية الكبيرة، ودوره الخطير في تكامل وعيه وبناء معارفه، وتشكيل عقله الإسلامي الجديد، حتى غدا التاريخ في نظره «مصدرا حضاريا تستمد منه قيم الأخلاق مضمونها الروحي، كما يستمد منه المجتمع الإسلامي أسباب التفاؤل والاطمئنان إلى مستقبل الإنسانية»(١٤٩).

٢. توثيق التاريخ وتحقيقه:

من جملة ما جاء به القرآن الكريم من إعجازات عظيمة، مسألة توثيقه وضبطه لبعض الروايات التأريخية ،التي تحدثت عن أخبار سابقة، لم يعاصرها الرسول الأكرم (صلوات الله وسلامه عليه)، كأخبار بدء الخليقة، وما جرى لأبينا آدم (عليه السلام) وما حصل للأنبياء والمرسلين السابقين، وأخبار الأمم الغابرة، كبني إسرائيل وما جرى لهم على يد فرعون، وأخبار عاد، وثمود، وأصحاب الأخدود، وأهل الكهف، وذي القرنين، وقوم لوط، وغيرهم. مع أن معظم هذه الأخبار قد ورد ذكرها في الكتب السماوية الأخرى، إلا أن يد التحريف والتزوير قد غيرت وبدلت فيها. وكان اليهود والنصارى يعلمونها.

وعندما جاء القرآن الكريم، تناول ذكر تلك الأخبار بأسلوب، تميز بالفصاحة والبلاغة في البيان، واتصف بالصدق والدقة في النقل.

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي: «فإذا قرأنا القرآن وجدنا أنه يمزق حاجز الزمن الماضي. فيخبرنا بما حدث للأمم السابقة، ويروي لنا قصص الرسل السابقين، ويحكي لنا أشياء لم يكن أحد يعرفها، وعلى لسان نبي أمي، لا يقرأ ولا يكتب، ويتحدى الذين يكذبون، ويكفي أن نقرأ في القرآن: (وما كنت، وما كنت، وما كنت) لتعرف كم أخبر الله رسوله بأنباء من غيب الماضي:

﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾[١٥٠]

﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾[١٥١]

﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك﴾[١٥٢]

أي إنك لم تكن هناك يا محمد.. ولكن الله هو الذي أخبرك...

هكذا نرى أن القرآن مزق حجاب الزمن الماضي في أكثر من مناسبة؛ ليخبر محمدا (صلوات الله وسلامه عليه) بالأخبار الصحيحة عمن سبقوه من الرسل والأنبياء، و يصحح ما حرف من الكتب السماوية التي أنزلها الله وحرفها الرهبان والأحبار»[١٥٣].

ومن جملة ما مارسه القرآن الكريم من توثيق تأريخي، تسجيله لمعظم الأحداث والوقائع التي مرت بها الرسالة الإسلامية، منذ بدء الدعوة المباركة، حتى رحيل الرسول الأكرم (صلوات الله وسلامه عليه) إلى الرفيق الأعلى، فكان نزوله مقرونا بتلك الأحداث والوقائع، مسجلا لها تسجيلا دقيقا من لدن حكيم خبير. فترك بين أيدي المسلمين ثروة تاريخية ضخمة دفعتهم إلى البحث والتحليل في كافة أبعاد حركة التاريخ.

كما دعا القرآن الكريم، إلى اتباع منهج علمي دقيق في توثيق الأخبار والروايات التأريخية، فوضع أهم قاعدة من قواعد النقد التاريخي ، عندما بين في آيات كثيرة، ضرورة إعمال العقل في ما يرى الإنسان ويسمع، وأكد على مفهوم البينة، والحجة، والبرهان، ووجوب «التثبت من الخبر»، والتدقيق في أمر الشهادة والشهود، وكلها أمور توجه الفكر إلى النقد ألعقلائي للأمور، وتبين الصدق من الكذب، والحقيقي من المزيف[١٥٤]. قال تعالى:

﴿ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾[١٥٥]

﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾[١٥٦]

﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾[١٥٧]

﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾[١٥٨]

وقد أفاد المسلمون إفادة عظيمة من هذه القاعدة القرآنية ـ القائمة على مبدأ تمحيص الأخبار، والتثبت منها، عند النقل والتدوين ـ وطبقوها على رواة الأحاديث النبوية. وكان تطبيق المنهج ـ الوارد في آية التبين ـ على رواة الأحاديث النبوية، هو الذي تطورت عنه بالتدريج قواعد النقد التاريخي[١٥٩]. فكان المؤرخ الكافيجي (توفي: ٨٧٩هـ) يشدد كثيرا في النقل التأريخي، حيث يقول: «وينبغي أن يشترط في المؤرخ ما يشترط في راوي الحديث من أربعة أمور، العقل، والضبط، والإسلام، والعدالة؛ ليكون كل واحد منها معتمدا في أمر الدين، وأمينا فيه، ولتزداد الرغبة في تاريخه، و للاحتراز عن المجازفة والإفتيات، فيحصل له الأمن من الوقوع في الضلالة والإضلال»[١٦٠].

لقد أثمر الالتزام بهذه الآلية القرآنية المتشددة في التعامل مع الأخبار ـ مهما كان نوعها ـ إلى إظهار كثير من الحقائق التاريخية، وتمييز الصحيح من المزيف منها.

كما باشر القرآن الكريم ـ من الناحية التأريخية، وبشكل عملي ـ آلية التثبت، والتحقيق، والأمانة، في النقل والتدوين عندما:

أ. نفى عن نفسه ما عرفت به الأساطير من صفات، وهو ما حاول المشركون اتهام القرآن به، حيث إن الأساطير في اللغة، تنصرف إلى الأباطيل والأقاويل، وهي أحداث غريبة عجيبة، تشبه الباطل[١٦١]:

﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا(٥)قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما﴾[١٦٢]

مؤكدا ـ أي القرآن ـ بذلك أنه يتحرى الحق والصدق في ذكر الأخبار والأنباء، والأحاديث:

﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾[١٦٣]

﴿ومن أصدق من الله حديثا﴾[١٦٤]

ب. نبه إلى أساليب التحريف التي مارسها الآخرون في التأريخ، «فالقرآن الكريم

قدم للمسلمين فكرة النقد التاريخي لأخبار الماضي، إذ وردت فيه معلومات تاريخية عما يدعي اليهود وجوده في التوراة، ولم يكتف بإيراد المعلومات الصحيحة المقتضبة؛ بل نبه صراحة إلى تحريفهم لكتاب الله الذي أنزله على موسى (عليه السلام) بقوله»[165]:

﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾[166]

﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به﴾[167]

﴿ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾[168]

ومن أمثلة ما حرفه أهل الكتاب من الروايات التأريخية عن الماضي:

قصة آدم (عليه السلام) في نهي الله تعالى له عن الأكل من الشجرة وما فيها من الخرافات والكفر، بنسبة الكذب والخداع إلى الله جل وعلا وسائر شؤون القصة على ما جاء في الإصحاح الثالث من سفر التكوين[169]، ومن ذلك ما جاء في الإصحاح الخامس عشر[170] من شك إبراهيم في وعد الله له بإعطائه الأرض في سورية ومن ذكر العلامة في ذلك، ومن ذلك ما جاء في الإصحاح الثامن عشر[171] والتاسع عشر[172] في مجيء الملائكة إلى إبراهيم بالبشرى بإسحاق وإخباره بأمر هلاك قوم لوط، ومن حكاية ذهابهم إلى لوط وخطابهم معه، ومن ذلك ما جاء في الإصحاح الثالث من سفر الخروج[173] في خطاب الله لموسى من الشجرة، وفي أواخره ما حاصله أن الله جل شأنه افتتح الرسالة لموسى بالتعليم بالكذب، ومن ذلك ما جاء في الإصحاح الثاني والثلاثين في سفر الخروج[174]، في أن هارون هو الذي عمل العجل ليكون إلها لبني إسرائيل ودعا لعبادته، وبنى له رسوم العبادة. والقرآن الكريم أورد القصة الأولى في سورتي الأعراف وطه، والثانية في أواخر سورة البقرة، والثالثة في سورتي هود والذاريات، والرابعة في سور طه والنمل والقصص، والخامسة في سورتي طه والأعراف، فجاءت هذه القصص بكرامة الوحي الإلهي منزهة عن كل خرافة وكفر، وعن كل ما ينافي قدس الله وقدس أنبيائه، جارية على المعقول، منتظمة الحجة، شريفة البيان[175].

إذن أعظم أثر حضاري أفرغه القرآن الكريم على العملية التأريخية، هذه المعيارية القائمة على «الحق» و «الصدق»، الكفيلة بتحقق الدقة والأمانة التأريخية، خلال عملية نقد وتقويم التأريخ البشري عموما والإسلامي بصفة خاصة.

ومن الأهمية بمكان، القول: إن علم التأريخ يعتبر فرعا من علم مصطلح الحديث النبوي الشريف، وبذلك يكون وثيق الصلة بأحكامه وضوابطه. «فالتاريخ دراية أولا ثم رواية، كما أن الحديث دراية ورواية»[١٧٦].

يقول «هرنشو»: «ابتدأ التاريخ عند العرب فرعا من علم الحديث، فكان حريا أن يتأثر بطريقة المحدثين في جمع الرواية التاريخية ونقدها»[١٧٧].

وقد ظهرت العلاقة واضحة بين علم مصطلح الحديث وبين علم التأريخ، «عندما اهتم المحدثون بنقد السند بخطوات أهمها: البحث عن مصدر الخبر. من الذي نقله؟ من أين سمع الراوي الخبر، وكيف نقل إليه؟ ولذلك اهتم المحدثون بالراوي اهتماما كبيرا وظهر عندهم «تاريخ الرواة» و «علم الجرح والتعديل» وكلاهما يهتمان بتاريخ وعلم الرجال الذين هم أساس السند، واهتموا بالتحقيق من نسبة الخبر إلى قائله»[١٧٨].

هكذا دفع القرآن الكريم المسلمين إلى توأمة التأريخ بالتوثيق والتحقيق والنقد على أساس الصدق والعدل.

٣ـ الرؤية الحضارية للتاريخ:

أعطى القرآن الكريم بعدا حضاريا جديدا للتاريخ، عندما أخرجه من إطاره الضيق المحدود، ونظر إليه بشمولية عالمية واسعة، تجاوز فيها ذكريات الإنسان العربي عن الماضي المحدود. فطرح فكرة «وحدة الرسالات الإلهية»، التي ربطت بين تاريخ الإسلام وبين تاريخ الأنبياء والرسل السابقين. حيث قال تعالى:

﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾[١٧٩].

وقد عبر الرسول الأكرم (صلوات الله وسلامه عليه) عن هذه الصلة الوشيجة بين دعوته

المباركة، وسائر دعوات الأنبياء والرسل الذين سبقوه، عندما قال:

«مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتا، فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»[١٨٠].

وكان لهذه الفكرة أثر واضح في تفجير الوعي التاريخي لدى العرب المسلمين، حيث جعلهم ينظرون إلى التاريخ، بمنظار عالمي شامل تبلور «إلى تواريخ عالمية لم تقتصر في مادتها على التاريخ الإسلامي، وإنما تناولت أنبياء وأمما عديدة، كبني إسرائيل والفرس والروم، ثم السودان والصين وغيرهم من الأمم، مما يعكس فاعلية النظرة القرآنية وعمقها في الوعي التاريخي في عصر الرسالة من خلال فكرة وحدة الرسالات التي جاء بها القرآن الكريم»[١٨١].

كما عمل القرآن الكريم على إثارة الوعي التاريخي لديهم، عندما بدل رؤيتهم للتاريخ إلى رؤية شمولية جديدة، امتدت مع امتداد آفاق الزمن والوجود والعمل الإنساني عبر الماضي البعيد ، منذ بدء الخليقة وحتى عصر نزول القرآن المجيد، بعرضه أخبارا عدة، وقصصا متنوعة، منها على سبيل المثال:

.قصة الحوار بين الله تعالى وبين الملائكة حول خلق آدم (عليه السلام)، وإسكانه الجنة، وكيفية خروجه منها، ودور إبليس في ذلك[١٨٢].

.قصة إبراهيم وإسماعيل ويعقوب وكيفية بناء الكعبة[١٨٣].

.قصة المواجهة بين نبي الله موسى (عليه السلام) وبين فرعون مصر، وما جرى لهما، ولبني إسرائيل[١٨٤].

.قصة مريم وولادة عيسى (عليه السلام)، ودعوته لبني إسرائيل، وما ظهر على يديه من معجزات لهم[١٨٥].

.قصة أهل الكهف[١٨٦].

.قصة دعوة نبي الله صالح (عليه السلام) لقومه ثمود، وما جرى لهم[١٨٧].

.قصة أصحاب الفيل وما جرى عليهم[١٨٨].

إن عرض القرآن الكريم للوقائع والأحداث التي سبقت عصر الإسلام، وترغيبه في

معرفتها، دفع المسلمين إلى الانفتاح على الأعمال التأريخية للآخرين، في سبيل تقصي حقائق وأبعاد ما جرى للأمم السالفة، ليتمكنوا من الإحاطة بتفسير ما جاء به القرآن الكريم من روايات تاريخية، لم تتعد كونها مجرد إشارات، تحتاج إلى مزيد من البحث والتفصيل. الأمر الذي حفز المسلمين إلى الاستعانة بتراث اليهود والنصارى لمعرفة تفاصيل ذلك، فترك أثره الواضح والخطير على تراث المسلمين في التفسير والحديث والتاريخ والأدب وغيره[١٨٩]، بما أطلق عليه اسم «الإسرائيليات» و «المسيحيات» التي لا زال يعاني المسلمون من أعبائها الثقيلة عليهم[١٩٠]. وهكذا نجد أن حركة التفسير للقرآن الكريم قد وسعت من نشاط الأعمال التأريخية عند المسلمين.

كما أعطى القرآن المجيد للتاريخ شمولية أكثر، عندما وسع من نطاق البحث في حركة التاريخ أكثر فأكثر، باعتنائه بتواريخ الأمم، كاعتنائه بقصص الأفراد، بل أكثر، في الوقت الذي كان اهتمام المؤرخين منصبا على ضبط أحوال المشاهير من الملوك والعظماء، ولم يشتغلوا بتواريخ الأمم والمجتمعات إلا بعد نزول القرآن[١٩١]. فقد تضمنت آياته الكثير من الإشارات إلى الأمم والمجتمعات الغابرة، أمثال عاد وقوم تبع وثمود وغيرهم:

﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون﴾[١٩٢]

﴿أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين﴾[١٩٣]

﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم﴾[١٩٤]

ولم يقتصر القرآن الكريم على ذكر أخبار الماضي فحسب؛ بل أعطى بعدا مستقبليا للتاريخ، عبر غيب المستقبل القريب والبعيد، في خلال نبوءاته التاريخية التي أفاضها الله تعالى على نبيه الكريم في آيات كتابه العزيز، والتي فتحت آفاقا مستقبلية كبيرة أمام المسلمين[١٩٥]:

﴿الم(١)غلبت الروم(٢)في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون(٣)في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون(٤)بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾[١٩٦]

نزلت هذه الآيات المباركات في الحادثة التي أجمع عليها الرواة والمفسرون،

«وملخصها، أن فارس كانت على دين المجوسية، لا كتاب لها كالمشركين، وكانت الروم على دين النصارى، والنصارى أهل كتاب كالمسلمين، وفي عهد رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه) وقعت الحرب بين فارس والروم بأذرعات وبصرا من أرض الشام، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم في الشرك سواء، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأن الطائفتين من أهل الكتاب، وجاءت الأخبار بانتصار الفرس على الروم، فشق ذلك على المسلمين، وفرح المشركون، وقالوا للمسلمين: إن الفرس الذين لا كتاب لهم غلبوا الروم أصحاب الكتاب، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبون بالكتاب الذي انزل على نبيكم، فنحن لا كتاب لنا، وسنغلبكم كما غلبت الفرس الروم، فنزلت هذه الآيات، وما مضت تسع سنين حتى أظهر الله الروم على الفرس، ففرح المسلمون، وحزن المشركون. وهنا يكمن سر الإعجاز حيث أخبر القرآن الكريم بشكل قاطع جازم عن استئناف الحرب بين الروم وفارس، وحدد وقتها في بضع سنين، وأنها تنتهي بانتصار الروم على فارس، فكان كما قال. وهذا الغيب المحجوب لا يعلمه إلا الله وحده»[١٩٧].

هذه التنبؤات القرآنية وسعت من الرؤية التاريخية للمستقبل لدى المسلمين، ودفعتهم إلى التفكير والعمل الجاد في سبيل صنع التاريخ ليرسموا للعالم حياة أفضل مفعمة بالخير والعطاء، في خلال الرؤية المحيطة بمجريات الزمان كله ماضيا وحاضرا ومستقبلا.

و قد عمق القرآن الكريم هذا البعد المستقبلي للتاريخ أكثر فأكثر، خلال طرحه فكرة «المصير»[١٩٨] للإنسان والبشرية، التي تبلورت عبر مسألة الإيمان بالآخرة، والحساب و الجزاء في يوم القيامة، كما في قوله تعالى:

﴿وبئس المصير ﴾[١٩٩]

﴿وإلى الله المصير﴾[٢٠٠]

﴿وساء ت مصيرا ﴾[٢٠١]

فتاريخ الإنسان لا ينتهي بالنهاية المحزنة المأساوية التي يطويها العدم والفناء، وإنما يستمر في عالم آخر بعد الموت، حتى تحصى أعمال الإنسان، وكل ما جنت يداه في الحياة الدنيا، دون إغفال لأي منها صغيرة كانت أم كبيرة[٢٠٢]. كما قال تعالى:

﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم(٦) فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره(٧)ومن

يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾(٢٠٣)

لذلك أصبحت هذه المرحلة .مرحلة الحياة الدنيا .عملا تاريخيا ممتدا تتلاقى فيه كل الأبعاد الزمانية الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل. وهي مرحلة اختبار دقيق لمحتوى أعمال الإنسان، بانتظار تقويمها يوم القيامة، فينال بها الخلود والنعيم، أو تكون سيئة فيدخل بها الجحيم(٢٠٤).

من جهة أخرى، فقد أحدث القرآن الكريم ثورة تاريخية هائلة بين المسلمين عندما نص على أن أقوال الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) وحي إلهي، وأن سيرته المباركة أسوة وقدوة:

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾(٢٠٥)

الأمر الذي دعاهم إلى حفظ ودراسة سنته الشريفة، وسيرته العطرة، وكان له بالغ الأثر في نمو وتطور الأعمال التاريخية اللاحقة، كما أن القرآن الكريم قد حسس العرب، أنهم أصحاب رسالة عالمية، وأنهم يمرون بمرحلة خطيرة في حياتهم، أضف إلى ذلك أن الفتوحات الإسلامية التي حصلت على أيديهم، جعلتهم يحسون بخطورة دورهم التاريخي، فحبب إليهم العمل على تدوين ماضيهم وحاضر هم خدمة لمستقبل الرسالة التي آمنوا بها وجاهدوا من أجلها(٢٠٦).

الهوامش

١) د. شوقي الجمل : علم التاريخ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٢، ص٦٨.
٢) هرنشو : علم التاريخ، ص١.
٣) د. محمد فتحي عثمان : المدخل إلى التاريخ الإسلامي، ص٣٠.
٤) د. حسن عثمان : منهج البحث التاريخي ، ص١٦.
٥) جوزف هورس : قيمة التاريخ، ترجمة: نسيم نصرة، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٧٤، ص١٠٧ . ١٠٨.
٦) كولنجوود : فكرة التاريخ ، ص٤١ . ٤٢.
٧) هرنشو : علم التاريخ ، ص٦ . ٧.
٨) هرنشو : المرجع نفسه، ص١١ . ١٢.
٩) لويس جوتشلك :كيف نفهم التاريخ . مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخي ، ترجمة:د. عائدة سليمان عارف، د. أحمد مصطفى أبو حاكمة، دار الكاتب العربي، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة

والنشر، بيروت . نيويورك، ١٩٦٦م، ص ٢٠.

١٠) د. أسد رستم : مصطلح التاريخ، منشورات المكتبة العصرية، صيدا . بيروت، ط٣، ١٩٥٥ م، المقدمة، ص ح.

١١) د. عبد الرحمن مرحبا : الموجز في تاريخ العلوم عند العرب، ص٦٨.

١٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص١٣.

١٣) الكافيجي : المختصر في علم التاريخ ، بتحقيق نص روزنثال ، ص٣٣٣ . ٣٣٤.

١٤) نخبة من الباحثين العراقيين : حضارة العراق، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ج٢، ص ٢٦٩.

١٥) د. حسان حلاق : مناهج الفكر والبحث التاريخي ، ص٦٥.

١٦) انظر : د. محمد حسين الذهبي؛ التفسير والمفسرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، (١٣٩٦هـ . ١٩٧٦م)، ج١، ص ٢٦٥ . ٢٧٢.

١٧) د. حسن عثمان : منهج البحث التاريخي ، ص٢٥.

١٨) ابن خلدون : المقدمة ، ص١٧.

١٩) لأنجلو أوسينوبوس وآخرين: النقد التاريخي، ص ٣٠.

٢٠) د. عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص٥.

٢١) د. أسد رستم : مصطلح التاريخ ، ص ١٠.

٢٢) د. حسان حلاق : مناهج الفكر والبحث التاريخي ، ص٦٩.

٢٣) د. أسد رستم : المرجع السابق، المقدمة ، ص ز .

٢٤) انظر : د. ليلى الصباغ ؛ دراسة في منهجية البحث التاريخي ، ص١٥٣.

٢٥) د. محمود الطناحي : مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة، (١٤٠٥هـ . ١٩٨٥م)، ص٢٢٧ . ٢٢٨.

٢٦) مونتجمري وات : محمد في المدينة، تعريب: شعبان بركات، المكتبة العصرية، صيدا . لبنان، (د.ت)، ص٤٣٦.

٢٧) سورة النور ، من الآية :٣١.

٢٨) د. عاصم الدسوقي : البحث في التاريخ، دار الجيل، بيروت، (١٤١١هـ . ١٩٩١م)، ص ٥٠ . ٥١.

٢٩) سورة هود ، من الآية :٦١.

٣٠) سورة الأعراف ، من الآية :٤.

٣١) سورة القصص ، من الآية :٥٩.

٣٢) د. عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ، ص٢٦٥.

٣٣) السيد محمد رشيد رضا : تفسير المنار، دار المعرفة، بيروت، ط٢، (د.ت)، المجلد التاسع، ص١٤.

٣٤) د. ليلى الصباغ : دراسة في منهجية البحث التاريخي ، ص ١٢٠.

٣٥) عبد اللطيف شرارة : الفكر التاريخي في الإسلام ، ص ٤٥.

٣٦) سورة الأعراف ، الآية :٣٤.

٣٧) سورة الحجر ، الآيتان:٤ . ٥.

٣٨) سورة فاطر ، الآية :٤٥.

٣٩) د. حسن عثمان : منهج البحث التاريخي ، ص ٣٢ . ٣٣.

٤٠) د. عفت محمد الشرقاوي : أدب التاريخ

عند العرب ، ص٢٨١.

٤١) انظر : المسعودي ؛ مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١، ص٦-٧ من مقدمة الطبعة الفرنسية.

٤٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٦٠.

٤٣) ابن خلدون : المصدر نفسه ، ص٦٣.

٤٤) ابن خلدون : المصدر السابق، ص ٦٤.

٤٥) انظر : جوردن شايلد : التاريخ، ترجمة: عدلي برسوم عبد الملك، الدار المصرية للكتب، القاهرة، (د.ت)، ص٨٦

جوردن ايست : الجغرافية توجه التاريخ، ترجمة: جمال الدين سرور، الألف كتاب، القاهرة.(د.ت).

٤٦) د. شوقي الجمل : علم التاريخ ، ص٨٦

٤٧) د. حسن عثمان : منهج البحث التاريخي ، ص٣٣ . ٣٤.

٤٨) د. ليلى الصباغ : دراسة في منهجية البحث التاريخي ، ص ١٨١.

٤٩) د. حسان حلاق : مناهج الفكر والبحث التاريخي ، ص٩٥.

٥٠) د. حسن عثمان : منهج البحث التاريخي ، ص٣٧.

٥١) انظر : السيد محمد باقر الصدر : اقتصادنا ، ص ٤٣.

٥٢) سورة التوبة ، الآيتان :٣٤ . ٣٥.

٥٣) الشيخ مرتضى المطهري : بحوث اقتصادية، ترجمة: جعفر صادق الخليلي، مؤسسة البعثة، طهران .إيران، (١٤٠٩هـ)، ص ٢٠ .

٥٤) هيوغ أتكن : دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ترجمة: د. محمود زايد، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٨٢، ص ٢٦ . ٢٧.

٥٥) د. حسان حلاق : مناهج الفكر والبحث التاريخي ، ص٩٩.

٥٦) د. محمد سعيد فرح : ما علم الاجتماع، الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، (د.ت)، ص٣٣.

٥٧) د. ليلى الصباغ : دراسة في منهجية البحث التاريخي ، ص١٨٤.

٥٨) د. عاصم الدسوقي : البحث في التاريخ ، ص٤٥.

٥٩) سورة الرعد ، من الآية :١١.

٦٠) سورة الأنفال ، من الآية :٥٣.

٦١) د. محمد سعيد فرح : ما علم الاجتماع ، ص ٢٠٨.

٦٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٣.

٦٣) د. عبد الحليم عويس : التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون، كتاب الأمة، (العدد ٥٠)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية . قطر، (ذو القعدة / ١٤١٦هـ)، ص ٩٠.

٦٤) د. غوستاف لوبون : فلسفة التاريخ، تعريب: عادل زعيتر، دار المعارف،مصر، ١٩٧٤م، ص١٦.

٦٥) د. ليلى الصباغ : دراسة في منهجية البحث التاريخي ، ص١٨٩.

٦٦) سورة القصص ، من الآية :٧٦.

٦٧) سورة العلق ، الآيتان :٦ . ٧.

٦٨) سورة النمل ، الآيات :٥٤ . ٥٨.

٦٩) د. شحادة الناطور..و آخرون : مدخل إلى

تاريخ الحضارة، دار الكندي للنشر والتوزيع، عمان .الأردن، ط٢، (١٤١١هـ. ١٩٩١م)، ص ٨٢

٧٠) د. غوستاف لوبون : فلسفة التاريخ، ص ١٠١.

٧١) سورة الأنعام ، الآية :١١.

٧٢) سورة غافر ، الآية :٢١.

٧٣) انظر : السيد محمد حسين فضل الله : حركة النبوة في مواجهة الانحراف، إعداد وتنسيق: شفيق محمد الموسوي، دار الملاك، بيروت، (١٤١٧هـ. ١٩٩٧م)، ص٣٦٣.

٧٤) سورة ق ، الآية :٣٧.

٧٥) شوقي جلال : التراث و التاريخ ، ص٣٠٧.

٧٦) هرنشو : علم التاريخ ، ص٩.

٧٧) د. حسن سلمان : النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ، مؤسسة الوفاء، بيروت، (١٤٠٦هـ. ١٩٨٦م)، ص٢١.

٧٨) د. حسان حلاق : مناهج الفكر والبحث التاريخي، ص١٧.

٧٩) للتعرف باختصار على تدوين التاريخ عند المسلمين، انظر : محمد عبد الغني حسن ؛ التاريخ عند المسلمين، سلسلة كتابك، رقم ٣٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م.

٨٠) انظر : د. حسن سلمان : النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ، ص٢٦.

٨١) الشيخ مرتضى المطهري : المجتمع والتاريخ، دار المرتضى، بيروت، (١٤٠٨هـ. ١٩٨٨م)، ص٦٣.

٨٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص١٣.

٨٣) لويس جوتشلك : كيف نفهم التاريخ ، ص ٢٥١.

٨٤) انظر : الشيخ مرتضى المطهري : المجتمع والتاريخ، ص٦٤.

٨٥) ساطع الحصري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، (١٣٨٧هـ. ١٩٦٧م)، ص١٧٠. ١٧١.

٨٦) د. حسن سلمان: النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ، ص ٣٨، نقلا عن: د. عزت عبد العزيز؛ فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع، ص ٧-٨ .

٨٧) د. عبد الكريم اليافي : تمهيد في علم الاجتماع، مطبعة جامعة دمشق، ط٤، (١٣٨٣ هـ. ١٩٦٤م)، ص١٤٩.

٨٨) ابن خلدون : المقدمة ، ص٣٣.

٨٩) د. ليلى الصباغ : دراسة في منهجية البحث التاريخي ، ص٧٥.

٩٠) انظر : د. أحمد محمود صبحي ؛ في فلسفة التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٤م، ص١٢٤. ١٢٥.

٩١) د. محمد عابد الجابري : إشكاليات الفكر العربي المعاصر،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٩٠م، ص١١٦.

٩٢) د. عبد الكريم اليافي : تمهيد في علم الاجتماع ، ص١٥٣.

٩٣) انظر : نيقولا تيماشيف؛ نظرية علم الاجتماع، ترجمة: محمد عودة وآخرين، دار المعارف، مصر، ١٩٧٤م، ص٩١.
غوستاف لوبون: فلسفة التاريخ، ص١٦ـ ٨٧
.

٩٤) انظر : ول ديورانت؛ مباهج الفلسفة،

ترجمة: د. أحمد الإهواني، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م، ج٢، ص١٦.

جوردان ايست : الجغرافية توجه التاريخ.

٩٥) انظر : أحمد الشحاتي؛ تفسير التاريخ «أو فلسفة التاريخ»، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، مطابع الثورة العربية، طرابلس . ليبيا، (د.ت)، ص١١.

٩٦) انظر : عبد الحميد صديقي؛ تفسير التاريخ، ترجمة: د. كاظم الجوادي، دار القلم، بيروت، (١٤٠٠هـ . ١٩٨٠م)، ص٨٧ وما بعدها. د. شحادة الناطور، وآخرون؛ مدخل إلى تاريخ الحضارة، دار الكندي للنشر والتوزيع، عمان، ط٢، (١٤١١هـ . ١٩٩١م)، ص٨١ . ٨٢.

٩٧) انظر : د. أحمد محمود صبحي؛ في فلسفة التاريخ، ص٦٣ . ٧٥.

د. محمد فتحي عثمان : المدخل إلى التاريخ الإسلامي، ص٤٦٥ وما بعدها.

٩٨) د. عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ، ص١٣.

٩٩) الشيخ مرتضى المطهري : المجتمع والتاريخ ، ص٧١.

١٠٠) د. نور الدين حاطوم، وآخرون : المدخل إلى التاريخ، مطبعة الإنشاء بدمشق، (١٣٨٤هـ . ١٩٦٥م)، ص١٢.

١٠١) إدوارد كار : ما هو التاريخ، ترجمة: ماهر كيالي، بيار عقل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١٩٨٠،٢، ص٦.

١٠٢) د. محمد فتحي عثمان : المدخل إلى دراسة التاريخ الإسلامي ، ص٣٨.

١٠٣) الشيخ مرتضى المطهري : المجتمع والتاريخ ، ص١٧.

١٠٤) د. أحمد محمود صبحي : في فلسفة التاريخ، ص٥٣.

١٠٥) د. محمد فتحي عثمان : المدخل إلى دراسة التاريخ الإسلامي ، ص٤٤.

١٠٦) و.هـ.ولش : مدخل لفلسفة التاريخ، ترجمة: أحمد حمدي محمود، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ٢١ .

١٠٧) الشيخ مرتضى المطهري : المجتمع و التاريخ ، ص٧٢ . ٧٣.

١٠٨) د. حسن سلمان : النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ، ص ٣٠، بتصرف.

١٠٩) أنور الجندي : الإسلام وحركة التاريخ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٨ ١٩٨٦، ص ٤٨١.

١١٠) د. السيد عبد العزيز سالم : مناهج البحث في التاريخ الإسلامي والآثار الإسلامية، ص ١٦٩.

١١١) سورة الحجر ، الآية :٩.

١١٢) سورة التوبة ، الآية :٩٤.

١١٣) سورة محمد ، الآية :٣١.

١١٤) الراغب الأصفهاني : معجم مفردات ألفاظ القرآن، (خ ب ر)، ص١٤٢.

١١٥) سورة يوسف ، الآية :٣.

١١٦) سورة الأعراف ، من الآية : ١٧٦.

١١٧) الراغب الأصفهاني : معجم ألفاظ القرآن، (ق ص ص)؛ ص٤١٩.

١١٨) سورة هود ، الآية :١٢٠.

١١٩) سورة هود ، الآية :١٠٠.

١٢٠) الراغب الأصفهاني : معجم ألفاظ القرآن، (ن ب أ)، ص ٥٠٠.
١٢١) عبد اللطيف شرارة : الفكر التاريخي في الإسلام ، ص١١.
١٢٢) سورة النور ، الآية :٤٤.
١٢٣) سورة آل عمران ، الآيات :١٣٧ . ١٤١.
١٢٤) سورة محمد ، الآية :١٠.
١٢٥) سورة النحل ، الآية :٣٦.
١٢٦) د. سالم أحمد محل : المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب ، ص٥١.
١٢٧) سورة هود ، الآية :١٢٠.
١٢٨) الشيخ محمد مهدي شمس الدين : حركة التاريخ عند الإمام علي ، ص٩١.
١٢٩) سورة إبراهيم ، الآية :٥.
١٣٠) الراغب الأصفهاني : معجم مفردات ألفاظ القرآن، (ذ ك ر)، ص١٨١.
١٣١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤٠٨هـ . ١٩٨٨م)، ج٩، ص٢٢٤.
١٣٢) سيد قطب : في ظلال القرآن ، المجلد ٤ ، ص٢٠٨٨.
١٣٣) انظر : سيد قطب ؛ التصوير الفني في القرآن، منشورات دار الأضواء، قم .إيران، ١٣٦٣هـ.ش، ص١١٢.
١٣٤) عبد الرحمن النحلاوي : التربية بالآيات، دار الفكر المعاصر، بيروت، (١٤٠٩هـ . ١٩٨٩ م)، ص٢٢٦.
١٣٥) سورة الكهف ، الآية :٥٥.
١٣٦) سورة الأحزاب ، من الآية :٦٢.
١٣٧) سورة فاطر ، من الآية :٤٣.
١٣٨) سورة الأحزاب ، الآية : ٧٢.
١٣٩) انظر : د. محمد الغزالي ؛ فقه السيرة، دار القلم، دمشق، ط٤، (١٤٠٩هـ . ١٩٨٩م)، ص ٢٥٥.
١٤٠) سورة آل عمران ، الآية : ١٦٥.
١٤١) د. سالم أحمد محل : المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب ، ص١٤٢.
١٤٢) سورة العنكبوت ، الآية : ٢٠.
١٤٣) سورة الرعد ، من الآية : ١٧.
١٤٤) د. عبد الحليم عويس : تفسير التاريخ علم إسلامي ، ص٢٣٢.
١٤٥) سورة الذاريات ، الآية :٥٦.
١٤٦) سورة آل عمران ، الآية :٨٣.
١٤٧) سورة آل عمران ، الآية :٨٥.
١٤٨) د. عبد الحليم عويس : التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون ، ص٤٧.
١٤٩) د. عفت محمد الشرقاوي : أدب التاريخ عند العرب ، ص٢٢٥.
١٥٠) سورة القصص ، من الآية : ٤٤.
١٥١) سورة آل عمران ، من الآية : ٤٤.
١٥٢) سورة القصص ، من الآية : ٤٦.
١٥٣) الشيخ محمد متولي الشعراوي : المنتخب من تفسير القرآن الكريم، منشورات دار النصر، بيروت، (د.ت)، ج١، ص١٤ . ١٥.
١٥٤) د. ليلى الصباغ : دراسة في منهجية البحث التاريخي ، ص٥٨.
١٥٥) سورة الحجرات ، الآية : ٦.
١٥٦) سورة الطلاق ، من الآية : ٢.
١٥٧) سورة المائدة ، من الآية : ٨
١٥٨) سورة هود ، من الآية : ٨٥

١٥٩) انظر : محمد إقبال : تجديد الفكر الديني في الإسلام ، ص ١٦١.
١٦٠) الكافيجي : المختصر في علم التاريخ ، بتحقيق نص روزنثال ، ص٣٣٦ . ٣٣٧.
١٦١) الأساطير: الأباطيل، أحاديث لا نظام لها. يقال: سطر فلان على فلان، إذا زخرف له الأقاويل ونمقها. انظر: ابن منظور؛ لسان العرب، (س ط ر)، ج٣، ص٢٠٠٧.
١٦٢) سورة الفرقان ، الآيتان : ٥ . ٦.
١٦٣) سورة الكهف ، من الآية : ١٣.
١٦٤) سورة النساء ، من الآية : ٨٧
١٦٥) د. نشأت الخطيب : التاريخ و المؤرخون العرب ، ص١٠٣.
١٦٦) سورة البقرة ، الآية : ٧٩.
١٦٧) سورة المائدة ، من الآية : ١٣.
١٦٨) سورة المائدة ، من الآية : ٤١.
١٦٩) انظر : الكتاب المقدس (كتب العهد القديم والعهد الجديد)، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، (د.ت)، ص٦.
١٧٠) انظر : الكتاب المقدس ، ص ٢٢.
١٧١) انظر : الكتاب المقدس، ص ٢٥.
١٧٢) انظر : الكتاب المقدس، ص ٢٧.
١٧٣) انظر : الكتاب المقدس، ص ٨٩
١٧٤) انظر : الكتاب المقدس ، ص ١٢٩.
١٧٥) الشيخ الطبرسي : مجمع البيان في تفسير القرآن، تصحيح وتحقيق وتعليق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، والسيد فضل الله اليزدي الطباطبائي، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، ج١، ص١٠ من مقدمة الحجة محمد جواد البلاغي.
١٧٦) د. أسد رستم: مصطلح التاريخ ، ص ز من المقدمة.
١٧٧) هرنشو : علم التاريخ ، ص ٦٥.
١٧٨) د. حسان حلاق : مناهج الفكر والبحث التاريخي ، ص ٧١.
١٧٩) سورة الشورى ، الآية : ١٣.
١٨٠) رواه أبو هريرة : صحيح مسلم؛ تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، ج٤، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه (صلوات الله وسلامه علية) خاتم النبيين، ص١٧٩١، حديث رقم: ٢٢٨٦.
١٨١) د. سالم أحمد محل : المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب ، ص ٧٠ . ٧١.
١٨٢) انظر : سورة البقرة ، الآيات : ٣٠ . ٣٩. سورة الأعراف ، الآيات : ١١ . ٢٥. سورة الحجر ، الآيات : ٢٨ . ٤٤. سورة الإسراء ، الآيات : ٦١ . ٦٥. سورة طه ، الآيات : ١١٥ . ١٢٧.
١٨٣) انظر : سورة البقرة ، الآيات : ١٢٤ . ١٣٤. سورة الأنعام ، الآيات : ٧٤ . ٨١ سورة إبراهيم ، الآيات : ٣٥ . ٤١. سورة الحجر ، الآيات : ٥١ . ٧٦. سورة الأنبياء ، الآيات : ٥١ . ٧٣.
١٨٤) انظر : سورة البقرة ، الآيات : ٤٩ . ٧٤. سورة المائدة ، الآيات : ٢٠ . ٢٦. سورة الأعراف ، الآيات : ١٠٣ . ١٧١. سورة الإسراء ، الآيات : ١٠١ . ١٠٤. سورة النمل ، الآيات : ٧ . ١٤. سورة القصص ، الآيات : ٣ . ٤٤.

غافر ، الآيات : ٢٣ . ٤٥. سورة الزخرف ، الآيات : ٤٦ . ٥٦. سورة الدخان ، الآيات : ١٧ . ٣٣. سورة القمر ، الآيتان : ٤١ . ٤٢. سورة المزمل ، الآيتان : ١٥ . ١٦. سورة النازعات ، الآيات : ١٥ . ٢٦.

١٨٥) انظر : سورة آل عمران ، الآيات : ٣٣ . ٦٢ . سورة المائدة ، الآيات : ١١٠ . ١١٩. سورة مريم ، الآيات : ١ . ٣٣. سورة الصف ، الآيات : ٥ . ٧.

١٨٦) انظر : سورة الكهف ، الآيات : ٩ . ٢٦.

١٨٧) انظر : سورة الشعراء ، الآيات : ١٤١ . ١٥٩ . سورة الشمس ، الآيات : ٥ . ٧.

١٨٨) انظر : سورة الفيل ، الآيات : ١ . ٥.

١٨٩) د. حسين نصار : نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي ، ص١٧٣.

١٩٠) انظر : محمود أبو رية ؛ أضواء على السنة المحمدية أو دفاع عن الحديث، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط٣، (د.ت)، ص ١٤٥ و ص١٨١.

١٩١) السيد محمد حسين الطباطبائي : الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط٣، (١٣٩٣هـ. ١٩٧٣ م)، ج ٤، ص٩٦.

١٩٢) سورة فصلت ، الآية : ١٥.

١٩٣) سورة الدخان ، الآية : ٣٧.

١٩٤) سورة يونس ، من الآية : ٩٣.

١٩٥) د. عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ١٠٣.

١٩٦) سورة الروم ، الآيات : ١ . ٥.

١٩٧) محمد جواد مغنية : التفسير الكاشف، دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٨١م، ج٦، ص١٢٩ . ١٣٠.

١٩٨) وردت كلمة «مصير» في القرآن الكريم ٢٨ مرة. و هي تعني النهاية و العاقبة. انظر: لسان العرب لابن منظور، (ص ي ر)، ج٤، ص٢٥٣٥.

١٩٩) سورة البقرة ، من الآية : ١٢٦.

٢٠٠) سورة النور ، من الآية : ٤٢.

٢٠١) سورة النساء ، من الآية : ٩٧.

٢٠٢) روزنثال : علم التاريخ عند المسلمين ، ص٣٨.

٢٠٣) سورة الزلزلة ، الآيات : ٦ . ٨.

٢٠٤) د. عفت محمد الشرقاوي : أدب التاريخ عند العرب ، ص ١٩٢.

٢٠٥) سورة الأحزاب ، الآية : ٢١.

٢٠٦) د. عبد العزيز الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، دار المشرق، بيروت، ط٢ ، ١٩٩٣م، ص١٨ . ١٩.

الفصل الثالث

ثقافة حركة التاريخ في القرآن الكريم

ذكرنا ـ فيما سبق ـ أن للقرآن الكريم الأثر الأكبر في تفجير الوعي التاريخي لدى المسلمين، بما تضمنه من مادة ثقافية واسعة وعميقة حول حركة التاريخ، حملت الكثير من الحقائق والتصورات الأساسية عنها. فقد غطت آيات القرآن المجيد «جميع جوانب الحياة ومجالاتها، مؤيدة بالبراهين والأدلة العملية الميدانية، من حياة الأمم السابقة، على اطرادها، وخضوع الأمم لسننها وقوانينها، في السقوط والنهوض...وقدمت النماذج والعينات التطبيقية في شتى المجالات »[(١)].

وأوضح ما تميز به العرض التاريخي في القرآن الكريم، هو الصدق والواقعية و الحركية، في الطرح والأداء،بشكل يبين في خلاله « أن الحياة الدنيا .فعل. تاريخي مستمر، يتشكل من الماضي ويرتبط بمستقبل يوم الحساب، الذي هو بمثابة المصير النهائي لفاعلية الإنسان في العالم، ولهذا يقدم لنا القرآن الكريم وصفا رائعا، يتميز بالحيوية والتدفق لمجرى التاريخ البشري »[(٢)].

إن هذا الأسلوب القرآني المتميز في عرض مجريات التاريخ، يهدف إلى إظهار طبيعة التشابك والتداخل بين جميع القوى الفاعلة التي تحكم حركة التاريخ البشري، مفندا كل المحاولات الوضعية التي تحاول تفسير التاريخ بنظرة أحادية ضيقة فحسب.

ويمثل القرآن الكريم ـ في اعتقادنا ـ الأساس المتين للتصور الإسلامي حول (شكل وتفسير) حركة التاريخ البشري؛ باعتباره الوحي الإلهي المنزل من لدن حكيم خبير:

﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾[(٣)]

وقد فعل مادة التاريخ بشكل حيوي وإيجابي لصالح الإنسان في خلال:

١.نظرته الشمولية للتاريخ البشري، القائمة على الفهم الموضوعي العميق «بكل العوامل المؤثرة في الحركة التاريخية من فكر واقتصاد وعلاقات اجتماعية وعقيدية وسياسية وعسكرية وكل ما له صلة بالحياة»[٤]. ليقدم تصورا واضحا، يستطيع الباحث التاريخي خلاله، أن يكتشف المنهج القرآني في أساس نظرته وتعامله مع فكرة حركة التاريخ.

٢.عرضه الواقعي والحركي للأجواء الموضوعية والنفسية التي عاشتها الوقائع والأحداث التاريخية؛ من أجل إظهار معالم الفكرة التي يقصدها ـ النص القرآني ـ من وراء طرحه تلك المادة التأريخية.

٣.تحريكه وتأثيره في الوجدان الإنساني والمشاعر النفسية، في خلال ما يستخدمه من أسلوب وأدوات فنية، في عرضه لمشاهد التاريخ، فالقرآن« يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية، بلغة الجمال الفنية»[٥]؛ من أجل إثارة العقل الإنساني، ودفعه إلى التساؤل الدائم والبحث المستمر لاستخلاص العبرة و الاتعاظ بما جرى للماضين.

وأهم مكونات مادة ثقافة حركة التاريخ في القرآن الكريم هي كما يأتي:

أولا: أخبار الأمم السالفة

تعرض القرآن الكريم في آيات عديدة إلى أوضاع الأمم والأقوام السالفة، منذ بدء الخليقة حتى عهد الرسول الأكرم (صلوات الله وسلامه عليه)، «كأفراد» و «جماعات» لعبت دورا كبيرا في حركة التاريخ. فقص «أخبار بعض الأمم التي سبقت الإسلام، فذكر قوم نوح وثمود ومدين، وقوم إبراهيم وموسى وعيسى ويونس (عليهم السلام)»، إضافة إلى إشارات مقتضبة عن «سبأ» و «ذي القرنين»[٦].

إن الأفعال والأحداث والقيم الاجتماعية والأخلاقية التي مارسها الأفراد والجماعات سلبا أو إيجابا، كان لها الأثر الكبير في توجيه حركة الأحداث التاريخية، يقول تعالى:

﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾[٧]

كما تحدث القرآن الكريم عن نموذجين من الفعل الإنساني الصانع للتاريخ:

النموذج الأول: الذي يمثل «المثل الأعلى» أو «النموذج الصالح» المتفاني في خط الإصلاح والدعوة إلى الإيمان بالله تعالى، في سبيل رقي وتقدم الحضارة الإنسانية.

النموذج الثاني: الذي يمثل «المثل المنحط» أو «النموذج السيئ» الغارق في الإنحراف و الضلال، الداعي إلى الفساد والدمار، والمعرقل لحركة التاريخ ومسيرة الإنسانية.

كان الأنبياء والرسل (عليهم السلام) في طليعة الذين مثلوا «النموذج الصالح والمثل الأعلى»؛ كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وهود وشعيب وخاتمهم رسول الله محمد (صلوات الله وسلامه عليه)، يقول تعالى:

﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا

داوود زبورا(١٦٣)ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما(١٦٤)رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما﴾[٨]

فالأنبياء (عليهم السلام)، شكلوا النموذج الصالح في تاريخ البشرية، حيث مثلوا«نقطة البدء في بناء المحتوى الداخلي للجماعة البشرية، وهذا المثل الأعلى يرتبط في الحقيقة بوجهة نظر عامة إلى الحياة والكون»[٩] ؛ باعتبارهم يدعون إلى عقيدة إلهية شاملة تربط الإنسان بالمبدأ والمعاد، كما قال تعالى:

﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم(٥٩) قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين(٦٠)قال ياقوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين (٦١) أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون﴾[١٠]

﴿وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون (٥٠) ياقوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون(٥١) وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين﴾[١١]

﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط(٨٤) وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين(٨٥) بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ﴾[١٢]

كما تحدث القرآن الكريم عن «النموذج السيئ والمثل المنحط» الذي جسده قابيل ونمرود و فرعون وهامان وقارون وأصحاب الفيل ومن تابعهم من الذين جروا البشرية إلى الخراب والدمار، بفعل ظلمهم وكفرهم وطغيانهم في الأرض، كما تحدث القرآن الكريم:

﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾[١٣]

﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين(٧٦)وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين(٧٧)قال إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون(٧٨)فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم(٧٩)وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون(٨٠) فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين(٨١)وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾[١٤]

كما بين القرآن الكريم،طبيعة العلاقة الجدلية بين القادة الطغاة وبين شعوبهم التي تابعتهم، في تحمل مسؤولية الهلاك والدمار الذي حل بها، فهو « لا يعلق المسؤولية على القيادات التاريخية فحسب، وهي تمارس جرمها وفجورها وترفها و طغيانها وأخلاقياتها الهابطة، وتلعب لعبة الازدواج تلك...إنما هي ـ القواعد ـ التي أعانتها في البدء على الوصول، هي تعينها الآن بتأييدها المعلن أو الضمني على مواصلة المسير بالجماعة صوب البوار».[١٥]

يقول تعالى عن فرعون وقومه:

﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين(٥٤) فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين(٥٥) فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين﴾[١٦]

ونجد في القرآن المجيد استعراضا وافيا للعواقب المأساوية وأنواع العذابات التي لقيتها الجماعات البشرية، بعد أن تنكبت عن الطريق القويم، بغض النظر عن حجم تلك الجماعات ومدى قدراتها وإنجازاتها الحضارية المادية والمعنوية:

﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد(٤٥) أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها

فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[١٧]

إن عذاب الله تعالى وعقابه للأمم لا يختص بنوع واحد ولا لون معين؛ بل جرت سنة الله تعالى في تنويعه على ألوان مختلفة ومتنوعة. فهو قد يكون صاعقة، أو غرقا، أو فيضانا، أو ريحا، أو خسفا، أو قحطا ومجاعة وارتفاعا في الأسعار، أو أمراضا، أو ظلما وجورا، أو فتنا بين الناس واختلافا أو مسخا في الصور كما فعل ببني إسرائيل.[١٨]

ولم تلبث عروض القرآن التأريخية، حتى تذكر مختلف الأسباب التي أدت إلى دمار و هلاك الأمم والأقوام السالفة، وهي أسباب عديدة، منها:

١. هلاك الأمم بسبب ظلمها:

الظلم في مصطلح القرآن لا يختص باعتداء فرد أو جماعة على حقوق فرد أو جماعة آخرين؛ بل يشمل ظلم الفرد لنفسه،وظلم المجتمع لنفسه. فكل فسق أو فجور أو خروج عن الطريقة الإنسانية المستقيمة يعد ظلما[١٩]. وعاقبة الظالمين إلى الهلاك والدمار، قال تعالى:

﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين﴾[٢٠]

يقول الإمام الزمخشري في قوله تعالى «وكم قصمنا من قرية»: «واردة عن غضب شديد، ومنادية على سخط عظيم؛لأن القصم أفظع الكسر،وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء، بخلاف الفصم»[٢١].

إن أنواع الظلم التي تشهدها المجتمعات البشرية، كالظلم السياسي،والظلم الاقتصادي، والظلم الاجتماعي،لابد أن تؤدي بها إلى الهلاك و الدمار. كما أخبرنا القرآن الكريم:

﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين﴾[٢٢]

﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾[٢٣]

٢. هلاك الأمم بسبب كفرها وشركها بالله تعالى:

إن الكفر بالله هو العامل الرئيس في انهيار المجتمعات باعتباره القاعدة الفاسدة التي تنبت كل المفاسد وعوامل التخريب الأخرى، ذلك أن سلوكيات الناس،في مجتمع الكفر بالله، وعلاقاتهم ببعض ،وعلاقاتهم بالمجتمعات الأخرى، وعلاقاتهم بالطبيعة، ستكون كلها ـ وبحد ذاتها ـ عوامل هدم وتخريب للمجتمع؛ لأنها سلوكيات وعلاقات خاطئة، ومنحرفة، ومخربة، وظالمة، إضافة إلى كونها سببا لنزول العقاب الإلهي بشكل مباشر أو غير مباشر[٢٤].

يقول تعالى:

﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾[٢٥]

﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾[٢٦]

﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾[٢٧]

٣. هلاك الأمم بسبب تكذيبها الرسل:

إن تكذيب الرسل، من الأسباب الموجبة لعذاب الله تعالى، وهي السنة التي أهلك الله بها أمما كثيرة لم تغن عنها كثرة ثرواتها، وقوة أفرادها، يقول تعالى:

﴿كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد(١٢)وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب(١٣)إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب(١٤)وما ينظر هؤلآء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق﴾[٢٨]

فالهزيمة والدمار مصير المتجبرين الظالمين الذين يكذبون رسل الله وأولياء ه على مدار القرون الماضية واللاحقة:

﴿كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود(١٢)وعاد وفرعون وإخوان لوط(١٣)

وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد﴾[٢٩]

فهذا كتاب ربنا ينطق بالحق ليرينا نهاية المكذبين وعاقبة المنحرفين وهذا هو دور آثار التكذيب في تقويض صروح الحضارات وفي إذهاب مجد الأمم و الأجيال، ولقد كان هذا الدور الخطير للتكذيب؛ لأن أهله يبطلون دور الرسل في إصلاح أحوال الأمم[٣٠].

٤. هلاك الأمم بسبب ارتكابها الذنوب والمعاصي والفساد الاجتماعي:

تلعب الذنوب والمعاصي دورا كبيرا في دمار المجتمعات البشرية؛ لأن« الذنوب تعامل خاطئ مع الأشياء والأشخاص والقضايا فيما حول الإنسان. وكل تعامل خاطئ لابد أن يؤدي إلى نتائج خاطئة»[٣١]، تؤدي إلى إفساد المجتمع واضطراب أحواله،وبالتالي تستنزل غضب الله تعالى وانتقامه الرهيب عليه، وفي ذلك يقول جل شأنه:

﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا و جعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين﴾[٣٢]

﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم و ماكان لهم من الله من واق﴾[٣٣]

ومن أسباب هلاك الأمم وسقوط حضارتها، ظهور الفساد الاقتصادي، كالنقص والتطفيف في المكيال والميزان، ذلك ما مارسه أهل مدين، قوم شعيب (عليه السلام)، فاستحقوا غضب الله وعذابه الذي حل بهم، قال تعالى:

﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولاتنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط(٨٤)وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾[٣٤]

﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين(٩٤)كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود﴾[٣٥]

ويقول تعالى:

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[٣٦]

قال الفخر الرازي في هذه الآية: «إن كلام جميع المفسرين يدل على أن المراد لا يغير ما هم فيه من النعم بإنزال الانتقام منهم، إلا بأن تكون منهم المعاصي والفساد»[٣٧].

٥. هلاك الأمم بسبب بطر النعمة وكفرانها:

يعني بطر النعمة، الطغيان عند النعمة وعدم القيام بشكرها[٣٨]. وكفر النعمة أوكفرانها يعني سترها بترك أداء شكرها[٣٩].

من سنة الله تعالى في البطرين تخريب ديارهم وإهلاكهم كما قال تعالى:

﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين﴾[٤٠]

كذلك تعرضهم إلى عقوبة الجوع والخوف:

﴿وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾[٤١]

٦. هلاك الأمم بسبب اختلافها وتفرقها:

يقول تعالى:

﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾[٤٢]

فقد مضت سنة الله تعالى في الأمم التي خلت، أن الاختلاف من أسباب هلاكها ودمارها، كما أخبر بذلك رسولنا الأكرم (صلوات الله وسلامه عليه) بقوله:

(لا تختلفوا،فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا)[٤٣].

يقول السيد محمد رشيد رضا حول هذه الآية المباركة: «العذاب في هذا الوعيد يشمل خسران الدنيا والآخرة...أما عذاب الدنيا فهو أن المتفرقين المختلفين الذين اتبعوا أهواء هم، وحكموا في دينهم آراء هم،يكون بأسهم بينهم شديدا فيشقى بعضهم ببعض

ثـم يبتلون بالأمم الطامعة في الضعفاء فتذيقهم الخزي والنكال، وتسلبهم عزة الاستقلال، و أما عذاب الآخرة فقد بين الله في كتابه أنه أشد من عذاب الدنيا وأبقى»[٤٤]، وهذا ما حذر منه القرآن الكريم هذه الأمة:

﴿وأطـيعوا الله ورسـوله ولا تـنازعوا فتفشـلوا وتذهـب ريحكـم واصـبروا إن الله مـع الصابرين﴾[٤٥]

من ناحية أخرى لم يغفل القرآن الكريم الحديث عن أسلوب وطريقة هلاك الأمم و دمارها، فيذكر لها:

١ـ طريقة الاستدراج في هلاك الأمم: وهو السقوط والانحلال التدريجي.

قال تعالى:

﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون(١٨٢)وأملي لهم إن كيدي متين﴾[٤٦]

معنى الاستدراج في اللغة:

جاء في المعجم الوسيط: «استدرج الله العبد:أمهله ولم يباغته»[٤٧].

وفي مفردات الراغب الأصفهاني: «سنستدرجهم معناه، نأخذهم درجة فدرجة، وذلك إدناؤهم من الشيء، شيئا فشيئا كالمراقي والمنازل في ارتقائها ونزلها»[٤٨].

وجاء في تفسير القرطبي: «الاستدراج هو الأخذ بالتدريج منـزلة بعد منزلة»[٤٩].

٢ـ طريقة المباغتة في هلاك الأمم: وهو السقوط و الدمار الدفعي بشكل مفاجئ.

قال تعالى:

﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾[٥٠]

معنى بغتة في اللغة:

جاء في لسان العرب: «البغت والبغتة: الفجأة، وهو أن يفجأك الشيء»[٥١].

وفي مفردات الراغب الأصفهاني: «البغت مفاجأة الشيء من حيث لا يحتسب»[٥٢].

وجاء في تفسير القرطبي: «بغتهم الأمر، يبغتهم بغتا وبغتة إذا أتاهم فجأة»[٥٣].

يريد القرآن المجيد، خلال هذا العرض الوافي لأخبار الأمم والأقوام السالفة، أن يشير إلى أن حركة أي جماعة أو أمة أو كيان سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي، إنما تتشكل ضمن حركة التاريخ البشري، بشكل دقيق، وفق معادلات محكمة، وليس بشكل عفوي، يقول تعالى:

﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾[٥٤]

إن حركة التاريخ، تجري برصد محكم،ضمن منظومة السنن والقوانين الخاضعة لإرادة الله،كما أشارت الآية المباركة إلى ذلك عند حديثها عن طغيان عاد وثمود وفرعون:

﴿إن ربك لبالمرصاد﴾[٥٥]

جاء في تفسير القرطبي،حول هذه الآية: «أي يرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه به»[٥٦]فربك راصد لهم ومسجل لأعمالهم...يرى ويحسب ويحاسب ويجازي، وفق ميزان دقيق، لا يخطئ ولا يظلم،ولا يأخذ بظواهر الأمور، لكن بحقائق الأشياء[٥٧].

إن هذه النصوص القرآنية تدلل على أن حركة التاريخ التي ترعاها إرادة المهيمن تعالى، ترصد للأمم والجماعات والشعوب أعمالها، وتحصي عليها أفعالها، حتى إذا طفح الفساد، وزاد الانحراف، انقلبت أعمالهم عذابا لاذعا، يغمرهم عن بكرة أبيهم، جزاء وفاقا بما كسبوا:

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾[٥٨]

يقول الشيخ محمد جواد مغنية في هذه الآية: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا﴾ وأحيوا شريعة العدل والمساواة بلا دكتاتورية عمال أو أصحاب أعمال،ولا احتكار واستغلال،ولا حرب ولا نهب ﴿لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ وعاشوا جميعا حياة طيبة، وادعة، لا شقاء ولا أدواء. ﴿ولكن كذبوا فأخذناهم بماكانوا يكسبون﴾ أهملوا شريعة العدل والحياة، وأخذوا بشريعة البغي والضلال، فشربوا من منهلها.[٥٩]

هكذا تصبح دراسة حركة التاريخ في ظلال الآيات التي حملت أنباء الأمم الغابرة والحضارات الدابرة، لها بالغ الأثر في تعميق الوعي الحضاري لدى الإنسان، بما تحمله من

عظيم المواعظ والعبر في تقويم الانحرافات التي تقع فيها الأمم اللاحقة، كما «تربي العقل على التفكير المنهجّي والبحث عن الأسباب والغايات؛ لوجود الإنسان، وعن مهمته وأهدافه، فيصبح واعيا لما يعمل مستقيما على الحق، يعمل لما خلق له جادا في كل أموره، يوظف كل سلوكه وتصرفاته»(٦٠)، وذلك ما دعانا إليه القرآن الكريم، عندما أمرنا بالسير في الأرض للنظر في أحوال الماضين.

ثانيا: القصص القرآني

للقصة في القرآن العزيز أغراضها المتنوعة بما ينسجم وأهداف الرسالة التي نزل من أجلها. فكل « قصة قرآنية إنما هي (تجربة تاريخية) تحتاج إلى تفسير، وربما يختلف تفسير كل قصة عن أختها، فتجتمع من ذلك حصيلة من الدلالات والإشارات والسنن الاجتماعية، تصلح ـ لو وقف وراء ها عقل مسلم ـ لاستخلاص جوانب مفيدة للتفسير الإسلامي في التاريخ»(٦١).

وجاء اختيار القرآن الكريم، لأحسن القصص التاريخي،عناية منه في عرض النماذج المثيرة والمعبرة من الأحداث والوقائع الغابرة، وما تحمله من إسرار، غابت عن عقول البشر و استنتاجاتهم، لتؤدي وظيفتها الحيوية في كشف أبعاد حركة التاريخ بما يخدم مصلحة المجتمعات البشرية في الحياة:

﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾(٦٢)

﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾(٦٣)

﴿إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين﴾(٦٤)

لم يكتف القرآن الكريم «بتوجيه المسلم صوب التاريخ،وأمره بالتوغل فيه، واكتشاف السنن الناظمة للحركة الاجتماعية، وتسخيرها، والوقاية الحضارية من إصابتها، وتركه يمارس الاكتشاف بنفسه، وإنما زوده بهدايات الوحي، كما زوده بأدلة، ونماذج تاريخية، في القصص القرآني، تفتح بصيرته، وتقدم له القدر الذي يشكل الأنموذج، وسراج الهداية، ودليل العمل، وبوصلة التوجه»(٦٥).

إن القصص القرآني، بما يقدمه من خلاصات عن التجارب البشرية السابقة، فيه إيقاظ للوعي، و إثارة للفكر البشري، وتحريك للمشاعر الإنسانية بما يحويه من عبر ودروس، وثيقة الصلة بحياة الإنسان.

ندرج فيما يلي نماذج من القصص القرآني المجيد، حملت صورا تاريخية واجتماعية متنوعة، من حيث الزمان والمكان والشخوص؛ لتكشف عن جوانب هامة من أوجه حركة التاريخ:

١.قصة آدم (عليه السلام) مع إبليس[٦٦]:

اختصرت قصة البشرية الكبرى، في وجودها ومصيرها، وعلاقتها بالخالق العظيم، وما حولها من تحديات؛ لتلامس طبيعة الدور التاريخي الذي يمارسه الإنسان في الأرض، خلال حركة الصراع التي يواجهها بين الخير والشر و أقطابهما[٦٧].كما أن المشاهد المتعددة التي عرضها القرآن الكريم حول خلق آدم (عليه السلام)، بما هو تركيب متكامل من عقل وجسد وروح وعاطفة، والأمر الإلهي بسجود الملائكة له،وامتناع إبليس عن ذلك، وما أعقبه من صراع بين آدم وإبليس، أسفر عن هبوط الجميع إلى الأرض لتكون مستقرا ومتاعا لهم إلى حين، لها عدة دلالات هامة بالنسبة لحركة التاريخ، منها:

أ ـ إن إحداثيات حركة التاريخ تمتد إلى ما قبل آدم (عليه السلام)..إنها كل فعل تمتزج فيه إرادة الله وروحه وكلمته بالمادة، فتصوغها كتلا كونية أو نظما طبيعية أو خلائق تحمل بصمات الحياة الأولى من نبات أو حيوان..أو تخلقها بشرا سويا[٦٨].

ب ـ إن الإنسان يمثل خليفة الله تعالى في الأرض:

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾[٦٩]

الذي اختاره لصناعة التاريخ وبناء الحضارة؛ بإعمار الأرض التي أنزل إليها، وقد سلحه بكامل المؤهلات والعدة اللازمة لذلك:

﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾[٧٠]

ج ـ إن الإنسان ليس بإمكانه أن يسهم في صناعة تاريخه،بأي فعل إيجابي فعال،ما لم يجسد عبوديته وطاعته لله تعالى،بالسير على نهجه وهداه المنزل إليه،وذلك ما خاطب به تعالى هذا الإنسان منذ هبوطه على الأرض:

﴿قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا

هم يحزنون(٣٨)والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النارهم فيها خالدون﴾[٧١]

د ـ إن دور الأرض في الإبداع الحضاري،له قيمة لا تنكر في بناء حركة التاريخ،فهي مهد البشرية ومسرح فعالياتها.وهي مناط الزراعة،ومناط الرعي،وهي ـ بدرجة ما ـ مرتبطة بالتصنيع.وبقدر ما يستطيع الإنسان استغلال الأرض الاستغلال الأمثل،وتطوير عطائها وتوجيهه،بقدر ما يستطيع إبداع حضارة إنسانية موجهة.[٧٢]

٢. قصة البقرة الصفراء[٧٣]:

جاءت في سياق الحديث عن تمرد المجتمع الإسرائيلي أمام الأمر الإلهي،وحالة اللجاجة والتعقيد التي عاشتها نفوسهم،التي جعلتهم يحولون مهمة النبي في قيادته الفكرية والعملية إلى مهمة صعبة[٧٤].وفي هذه القصة عدة دلالات ترتبط بحركة التاريخ:

أ ـ تدلل على قدرة الله اللامتناهية، وكذلك على مسألة المعاد، لذلك وردت في الآية عبارة﴿كذلك يحي الله الموتى﴾[٧٥] إشارة إلى مسألة المعاد،

وعبارة ﴿ويريكم آياته﴾[٧٦] تأكيدا على قدرة الله و عظمته.[٧٧]

ب ـ تعلمنا،أن لا نتزمت ولا نتشدد في الأمور كي لا يتشدد الله معنا.

ج ـ تتحدث عن سنة من سنن الله تعالى،وهي أن الأمة تستوجب غضب الله حين تصر على عنادها ولجاجتها واستهتارها بكل شيء.[٧٨] وإن الأمم والمجتمعات التي تحمل سمة اللجاجة والتعنت والتلكؤ في الاستجابة،وتمحل المعاذير[٧٩]ليس بإمكانها أن تصنع التاريخ و تبني الحضارة الإنسانية لأنها فاقدة للإرادة وعاجزة عن حسم القرار.

٣. قصة طالوت وجالوت[٨٠]:

كشفت عن طبيعة اصطراع القوى،وتنافس الطاقات في ساحة الحياة المترامية الأطراف،وهي في تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات...كما جعل الله تعالى إرادة الإنسان ـ فردا أو جماعة ـ قانونا يحرك الحياة، ومن ورائها جميعا تلك اليد الحكيمة المدبرة التي تقود الموكب المتزاحم المتصارع المتسابق إلى الخير والصلاح والنماء،في نهاية المطاف.[٨١]

وما أشارت إليه هذه القصة كما في الآية المباركة التي تلتها:

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾[٨٢]

هي إشارة إلى إحدى سنن التاريخ(سنة التدافع)بين البشر،التي جعلها الله تعالى شرعا لدفع الظلم،وإعلاء الحق، ورد العدوان.فلولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض ويكف بهم فسادهم لغلب المفسدون وفسدت الأرض...أو لو لم يدفعهم بهم لعم الكفر ونزلت السخطة فاستؤصل أهل الأرض[٨٣].

٤. قصة قابيل وهابيل[٨٤]:

تحكي عملية الصراع بين قوى الخير وقوى الشر التي تؤدي إلى إثارة النوازع الشريرة والإرادات الخبيثة التي طالما تؤدي إلى الفساد بين الناس[٨٥].

ومن أهم دلالات هذه القصة،المتواشجة مع حركة التاريخ:

أ ـ أثر النوازع الذاتية المنحرفة،في التصدع الاجتماعي والانهيار الحضاري،فالدافع الذي جنح بالأخ لأن يقتل أخاه،هو «الحسد» تلك الرذيلة الأخلاقية التي تفسد السلوك الإنساني،وتشعل فتيل الحروب والمنازعات بين الأخوة داخل الأسرة الواحدة،فضلا عن ارتكاب الجرائم الخطيرة،وإثارة الأحداث الاجتماعية التي تعكر حركة التاريخ.قال الإمام الرازي في تفسيره معقبا على هذه القصة: «لما كفر أهل الكتاب بمحمد(صلوات الله و سلامه عليه) حسدا،أخبرهم الله تعالى بخبر ابن آدم،وأن الحسد أوقعه في سوء العاقبة،و المقصود منه التحذير من الحسد»[٨٦].

ب ـ تعبر بشكل واضح عن حالة التنافس والتدافع المستمر،الذي يطغى على المجتمعات البشرية حيث يقف في أحد جانبيه أناس عاشوا على الطهارة والصفاء والإيمان و العمل الصالح المقبول عند الله،وفي الجانب الآخر يقف أفراد تدنسوا بالانحراف وعاشوا على الحقد والحسد والضغينة والبغضاء والعمل الشرير.وكم هو العدد الكبير من أولئك الأبرار الأخيار الذين ذاقوا حلاوة الشهادة على أيدي هؤلاء الأشرار[٨٧].

ج ـ إن الفرد في نظر الإسلام يمثل ظاهرة إنسانية له مالها من الحرمة والكرامة،وإن

العدوان عليه،عدوان على الإنسانية التي تتمثل به وبالناس جميعا،وإن الإحسان إليه إحسان إلى الناس جميعا[٨٨]. كما صرحت الآية المباركة التي أعقبت قصة ابني آدم فقالت:

﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون﴾[٨٩]

إن كل فرد من أفراد الإنسان يجسد حقيقة النوع الإنساني الذي استخلفه الله تعالى في الأرض:

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾[٩٠]

فالاعتداء على أي فرد منهم،يمثل اعتداء على الإرادة الإلهية لهذه الحقيقة الإستخلافية. وليس هذا تضخيما لذات الفرد على حساب الجماعة، فليس المراد بمصلحة الفرد،المصلحة التي تطغى على مصلحة الجماعة،وتتنافى معها..إنما المراد بمصلحة الفرد التي تستمد كيانها من مصلحة الجماعة،وترى حياة الفرد من حياتها،وكرامته من كرامتها، فالجماعة التي يوجد فيها ضعيف واحد يخاف على حق من حقوقه فهي ضعيفة في كيانها،فاسدة في أوضاعها،تماما كالجسم إذا فسد بعض أعضائه،أو البيت إذا انهدم ركن من أركانه.وعلى هذا تكون مصلحة الفرد والجماعة متكاملتين،يملأ بعضهما بعضا،ولا تنفلت إحداهما عن الأخرى.[٩١]

٥. قصة بني إسرائيل وعبادة العجل[٩٢]:

جسدت صورة المجتمع الذي لازال يعيش الطفولة الفكرية،على الرغم من صراعه العنيف الذي خاضه مع مضطهديه، خلال الرسالة الصالحة، التي حررته من الظلم والطغيان،ونفخت فيه روح الخلاص والحرية، ووضعته على طريق الإيمان الصحيح،في ظل قيادة إلهية تاريخية حكيمة.[٩٣]

أما أهم الدلالات الحركية التي سجلتها حركة التاريخ حول هذه القصة فهي:

أ ـ إن حالة الاستضعاف والقهر والاضطهاد التي تعيشها المجتمعات على أيدي الطغاة الظالمين تترك أثرها السيئ على النفوس،رغم استصلاحها وتطهيرها.فهي تبقى تواجه

الحرية بكل رواسب الذل، وتواجه الرسالة بكل رواسب الجاهلية،كما واجه بنو إسرائيل موسى (عليه السلام) بكل الإلتواءات والانحراف و الإنحلالات و الجهالات التي ترسبت فيها على الزمن الطويل...وكأنها تأبى أن تنهض من الوحل الذي تمرغت فيه طويلا، وقد حسبته الأمر العادي الذي ليس غيره.[٩٤]

ب - إن عملية «التطهير الشاملة» للمجتمعات الجديدة لا يمكن أن تتم بشكل مفاجئ حتى لو اتخذت بنفسها قرارا صارما بتغيير واقعها،وآمنت بضرورة ذلك التغيير،و إنما تجري عمليات التطهير بشكل تدريجي وبطيء.لأن الموروث الاجتماعي الذي يستبطنه الفرد في اللاشعور يكون عائقا كبيرا نحو التغيير الجديد.فبنو إسرائيل الذين آمنوا بدعوة موسى (عليه السلام) وتحملوا الكثير من العناء في سبيل الدعوة الجديدة،ولكنهم بمجرد أن مروا على أناس يعبدون حجارة صنعوها بأيديهم حتى استثار ذلك المنظر كل موروثهم الاجتماعي المدفون في أعماق نفوسهم فاقترحوا على نبيهم الجديد أن يجعل لهم آلهة محسوسة يعبدونها كما لهؤلاء القوم آلهة،وقد حكى سبحانه وتعالى قضيتهم[٩٥] هذه في قوله عز شأنه:

﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون (١٣٨) إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون (١٣٩) قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين﴾[٩٦].

ج - إن المجتمعات البشرية يتأثر بعضها بالآخر،بسبب العدوى التي تصيب العقول والأرواح،كما تصيب الأجسام، عندما تكون لديها القابلية والاستعداد لتلقي ذلك، وهو ما يعبر عنه بالاصطلاح الحديث «التبادل الثقافي والمعرفي بين الشعوب».

٦. قصة يوسف (عليه السلام)[٩٧]:

باختصار: ظهرت فيها صورة الاصطراع الدائم بين بني البشر،واضحة بواقعية كاملة من خلال ذلك الحشد من الشخصيات،والبيئات،و المواقف،والمشاهد،حيث الإنسان الصالح الذي يواجه كل أنواع الكيد والابتلاءات بصبر و ثبات،دون حقد أو بغي في الأرض، في مقابل الآخرين الذين تتمثل فيهم حالة الاستسلام لعوامل الضعف

البشري،فيقعون فريسة المخططات الشيطانية،وتلك هي حقيقة الأفعال الإنسانية التي تتشكل منها حركة التاريخ.[٩٨]

٧. قصة أهل الكهف[٩٩]:

باختصار: تلخص عملية التمرد على الواقع الفاسد بسبب الإيمان الصادق بالله تعالى، ولو أدى إلى اعتزال القوم،وهجر الديار،ومفارقة الأهل،والتجرد عن متاع الدنيا،طلبا لمرضاة الله عز وجل.[١٠٠] كما تبين أن الأعمار التاريخية للكيانات والحضارات الإنسانية مهما طالت فهي محدودة وقصيرة، وما هي إلا أيام معدودات.فهؤلاء الفتية الذين ضاقت صدورهم جراء الوضع القائم فهربوا منه، قد أماتهم الله ثلاثمائة سنة وتسع سنين في ذلك الكهف، ثم أحياهم ليريهم كيف أن ذلك الكيان الظالم الذي أخافهم وأرعبهم قد أصبح في خبر كان، وقد أبدله الله تعالى بكيان آخر.

٨. قصة سليمان (عليه السلام) وملكة سبأ[١٠١]:

باختصار: تصور طبيعة الشخصية الإيمانية التي سخر الله لها جميع وسائل القوة؛ لتحركها في خدمة الرسالة،لا في خدمة الذات؛ ولتكسب كل العقول والقلوب المنفتحة على الحق؛ ولتدعو كل الآخرين للانضواء تحت ظلال الرسالة، فتلتقي بتلك المرأة التي تزعمت قومها من موقع العقل والحكمة، وتدعوها إلى الإسلام، فتسير معه و لا تسير وراء ه ؛ لأن الإسلام لله تعالى يسوي بين القائد وبين التابعين[١٠٢].

٩. قصة مؤمن آل فرعون[١٠٣]:

باختصار: جسدت النموذج الإيماني للإنسان الناصح لقومه، العارف بمصير الأمم السالفة التي حاربت أنبياءها، جراء وعيه لحركة التاريخ، والذي يكتم إيمانه، لا خوفا من الطاغوت الفرعوني؛ بل يمثل دور المحايد وغير المباشر في نصرة الرسالة، لعل كلامه يبعث حالة اليقظة داخل أروقة السلطان، وبالتالي يستطيع أن يمنع قومه من التجاوب مع الطاغية في قتله للرسول موسى (عليه السلام) المنقذ لهم[١٠٤].

١٠. قصة أصحاب الفيل[١٠٥]:

باختصار: أكدت بأن الله تعالى، لن يترك عباده تحت سطوة الطغاة، عندما يتجاوزون كل الحدود، ويستهترون بكل المقدسات؛ بل إنه تعالى قادر على فعل كل شيء في اللحظة الحاسمة، وعبر الخوارق الغيبية التي لا يعلمها إلا هو، وحده تعالى[١٠٦]:

﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾[١٠٧]

وهناك العديد من القصص الأخرى في القرآن الكريم التي تحمل صورا عن الواقع الإنساني الغابر، المتجدد مع الزمن؛ لتزودنا بالوعي الصحيح لمواكبة حركة التاريخ في الحاضر والمستقبل.

ثالثا: الأمثال القرآنية

من بين المواد التي تناولها القرآن الكريم في حديثه حول حركة التاريخ، هي مادة الأمثال:

﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون﴾[١٠٨]

﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾[١٠٩]

﴿ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا﴾[١١٠]

الأمثال جمع مثل: وهو عبارة عن قول في شيء يشبه قولا في شيء آخر بينهما مشابهة، ليبين أحدهما الآخر، ويصوره،...وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال[١١١].

وتصريف الأمثال:ردها وتكرارها، وتحويلها من بيان إلى بيان، ومن أسلوب إلى أسلوب... ليوضح لهم سبيل الحق ويمهد لهم طريق الإيمان والشكر[١١٢].

فالأصل في المثل قائم على تمثيل شيء بشيء لوجود عنصر أو أكثر من عناصر التشابه بينهما[١١٣].

والقرآن المجيد عندما يصرف الأمثال للناس، إنما يذكرهم بسنن الله تعالى،التي يخضع لها كل هذا الوجود، بما في ذلك حركة التاريخ البشري، التي لا تخرج عن مسار سنن الله تعالى ونواميسه، المطردة بقضائه وقدره العام، لا يتخلف منها شيء إلا بإرادته خاصة، أو لحكمة منه تقتضي ذلك.

إن ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير، والوعظ، والحث، و الزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره بصورة المحسوس، فإن الأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص؛ لأنها أثبت في الأذهان؛ لاستعانة الذهن فيها بالحواس[١١٤].

قد وردت كلمة «مثل» و«أمثال» بمعانيها المختلفة، وأغراضها المتعددة، في مواضع

كثيرة من القرآن الكريم، تضمنت دروسا وعبرا مختلفة، أشارت إلى بعض الحقائق التاريخية - بشكل مباشر أو غير مباشر - نذكر بعضا منها:

١- مثل الحق والباطل:

قال تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأماما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾[١١٥]

ضرب سبحانه في هذه الآية مثلا للصراع بين الحق وبين الباطل، وللصراع بين أتباع الحق وبين جنود الباطل. فقد يطفو الباطل ويعلو ويبدو رابيا منتفخا، ولكنه سرعان ما يذهب جفاء، مطروحا لا حقيقة له. بينما يظل الحق هادئا مستقرا، ربما يحسبه البعض قد انزوى أو مات، ولكنه باق في الأرض. «كذلك يضرب الله الأمثال»، كذلك يقرر مصائر الدعوات،ومصائر الاعتقادات، ومصائر الأعمال والأقوال[١١٦].

وقد يكون الغرض من ضرب هذا المثل للإقناع بأن الغلبة في النتيجة للحق والمحقين،وبأن البقاء والدوام للأصح النافع،أما الباطل والمبطلون والزبد الذي لا ينفع الناس فغرض زائل[١١٧]. وتلك هي سنة الله عبر التاريخ، إن الباطل لا يقوى أمام قوة الحق؛ بل هو مغلوب مضمحل زاهق:

﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾[١١٨]

٢- مثل أعمال الذين كفروا كرماد أوكسراب:

قال تعالى: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد﴾[١١٩]

يكشف هذا المثل عن أن مصير الأعمال والجهود التي يقوم بها الذين كفروا؛ لتدعيم سلطانهم، ومحاربة دين الله، كالرماد الخفيف الوزن، الذي اشتدت به الريح في يوم عاصف، فجعلته مفككا كالهباء، لا يقدر أصحابها على الإمساك بشيء منها، والانتفاع بها؛ باعتبارها لا تستند على قاعدة من الإيمان بالله تعالى، «فليس المعول عليه هو العمل، ولكن باعث العمل. فالعمل حركة آلية لا يفترق فيها الإنسان عن الآلة، إلا بالباعث والقصد

والغاية...فالأعمال التي لا تبنى على قاعدة من الإيمان، ولا تمسكها العروة الوثقى التي تصل العمل بالباعث، وتصل الباعث بالله، لا قيمة لها عند الله ولا وزن لها يوم الحساب»[١٢٠]، يقول تعالى:

﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾[١٢١]

يؤكد هذا المثل القرآني، أن ما يقوم به أهل الكفر من أعمال وممارسات، مثلها كالسراب الخادع، لا تجديهم نفعا يوم الحساب،لأنها لا تساوي عند الله تعالى شيئا.

والهدف من ضرب هذه الأمثال، تربية الإنسان على الإخلاص في الأعمال، فالقيم الحقيقية التي توزن بها الأعمال في ميزان العقيدة الإسلامية، ليست هي المال ولا الجاه ولا السلطان، وما هي باللذائذ والمتاع في هذه الحياة، ولا هي بإرضاء الناس ولا ابتغاء الشهرة عندهم أو الثناء الطيب...إنها الإيمان بالله، وابتغاء مرضاته، وموافقة شريعته في كل عمل وكل سلوك[١٢٢].

هذه حال المنحرفين عن خط الهدى والاستقامة، فهم ما داموا يملكون القوة والسلطان، ويقدرون على الكد والعمل،فإنهم يضعون لأنفسهم آمالا ومطالب، بأوهامهم وظنونهم، ويتخذون للوصول إليها مختلف الأساليب والأعمال من معصية الله والإضرار بالناس، ويكدحون طوال حياتهم للبلوغ إلى أمانيهم، ولكنهم يموتون في حسرة الوصول إليها، وهم ظامئون. تلك هي الحقيقة التي نتعلمها من سياق حركة التاريخ.

٣ـ مثل العبد المملوك:

قال تعالى: ﴿ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾[١٢٣]

ينطلق هذا المثل من صميم الواقع الإنساني، حيث يقارن بين صورة الإنسان الفاقد لحريته، التابع للآخرين، المشلول الإرادة، وبين صورة الإنسان الحر، المالك لإرادته والمتحكم بكل ما منحه الله تعالى من إمكانات في نفسه وماله؛ ليعيش البذل والعطاء مع الآخرين. وتلك هي إحدى مشكلات التاريخ البشري في جانبيها الفكري والعقائدي، «مشكلة الذين لا يعلمون ولا يريدون أن يخرجوا من دائرة الجهل إلى دائرة العلم، تحت

تأثير العصبية العمياء التي تقدس الخطأ، وتحترم الخرافة، وتستسلم للجهل؛لأنها لا تريد أن تخرج من حالة الاسترخاء الفكري إلى حالة الجهد الذي يبحث فيه الإنسان عن الجديد في العقيدة وفي الشريعة وفي الحياة»[١٢٤]. فالإنسان عندما يكون حرا في تفكيره، وفي إرادته، يستطيع أن يبذل ما عنده من أجل بناء الحضارة...وصناعة التاريخ المجيد.

٤ - مثل القرية الآمنة التي كفرت بأنعم الله:

قال تعالى: ﴿وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون(١١٢)ولقد جاء هم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون﴾[١٢٥]

في هذا المثل تذكير بسنن الله في الأمم الغابرة لأخذ العبرة منها، فما أنزله تعالى من عقاب في بعض الأمم الماضية، بعد أن كانت تعيش في رفاهية العيش والأمان ولكنها كفرت بأنعم الله تعالى، فلاقت جزاء كفرها فسادا اقتصاديا تمثل بقلة الإنتاج، الذي أدى بها إلى الجوع،واضطرابا أمنيا تمثل بالخوف، وفي ذلك إشارة إلى العلاقة بين قلة الإنتاج والخوف، وبين الكفر بالله سبحانه،من أجل توجيه السلوك الاجتماعي نحو الإيمان بالله تعالى والشكر لنعمه. فجاء المثل هنا بمعنى سنة الله وعقوبته، وبمعنى العبرة التي تذكر لتعتبر بها هذه الأمة حين تقرأ القرآن وتعتبر بأمثاله[١٢٦].أما المراد من القرية التي ذكرتها الآية المباركة،فقد قال ابن عباس (رضي الله عنه): إنها مكة، كانت آمنة مطمئنة يجبى لها ثمرات كل شيء، فكذب أهلها - وهم مشركو قريش ومن تبعهم - رسول الله محمداً (صلوات الله وسلامه عليه) وكفروا بأنعم الله عليهم، فدعا الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) عليهم بسبع من السنين شديدة كسبع يوسف، فذاقوا جوعا شديدا، وقويت شوكة المسلمين في المدينة، فكانوا منهم في قلق دائم، وخوف من غزو مداهم[١٢٧].

٥ - مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء:

قال تعالى: ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون(٤١)إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم(٤٢)وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾[١٢٨]

إنه تصوير عجيب للذين تخدعهم قوة الحكم والسلطان، أو قوة المال أو السلاح، فيركنون إليها،ويتهافتون عليها، متناسين وغافلين عن أن «قوة الله وحدها هي القوة.وولاية الله وحدها هي الولاية. وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل؛ مهما علا واستطال، ومهما تجبر وطغى، ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل»[١٢٩]. وفي المثل إشارة واضحة إلى حال الذين يلجأون إلى غير الله تعالى في الاستعانة وطلب النجدة والحماية، إلا أن ملجأهم لا ينفعهم ولا يدفع عنهم شيئا، فتكون عاقبتهم الوهن والسقوط في منحدرات حركة التاريخ.

٦- مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها:

قال تعالى: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾[١٣٠]

وضرب الله مثلا للذين حملوا التوراة من بني إسرائيل ثم لم يحملوها (أي: تعلموا الألفاظ وحفظوها، ثم لم يفهموا دلالاتها ولا عملوا بها، أو تعلموها وفهموا معانيها ولم يعملوا بها) بالحمار الذي يحمل على ظهره أسفار العلم، وهو لا يفقه ما فيها من دلالات، و لا يعمل بشيء منها[١٣١].

ويهدف هذا المثل إلى تربية الإنسان على العمل بالعلم والوحي الذي أنزله الله على النبي (صلوات الله وسلامه عليه)، فالإنسان صاحب رسالة في الأرض، يقوم بإعمارها بالخير و العدل، وسبيل ذلك العلم والعمل به؛ من أجل إصلاح السلوك الفردي والاجتماعي، وخدمة قضايا الحق والإنسانية، ولا قيمة للإنسان إذا حجب عقله عن التفكير في آيات الله و سننه،ولم يتفقه في أهدافها؛ بل يستحق التشبيه بالحمار كما استحقه بنو إسرائيل من قبل؛ لأن حمل الكتاب أو الشريعة التي أوحاها الله تعالى إلى نبيه الكريم «يبدأ بالإدراك والفهم والفقه، وينتهي بالعمل؛ لتحقيق مدلوله في عالم الضمير و عالم الواقع . . .لذلك مثلهم الله بالحمار يحمل الكتب وليس له منها إلا ثقلها..فهو ليس صاحبها»[١٣٢].

رابعا: تأريخ حركة النبوءات والرسالات

وردت في القرآن المجيد، توثيقات تأريخية هامة للعديد من جوانب حركة الأنبياء والرسل، مع أقوامهم وأممهم،بحيث غطت مساحات زمنية طويلة امتدت مع امتداد حركة التاريخ،منذ آدم (عليه السلام) وحتى عصر الرسول الأكرم(صلوات الله وسلامه عليه)، قدمها بعروض تأريخية متنوعة،وضحت الكثير من الأحداث والوقائع التي تضمنتها هذه المسيرة النبوية الطويلة على ظهر هذا الكوكب؛ لإتمام الحجة على البشرية جمعاء:

﴿ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون﴾(١٣٣)

قال الطبرسي في قوله تعالى« ثم أرسلنا رسلنا تترى»: «أي متواترة يتبع بعضهم بعضا عن ابن عباس ومجاهد،وقيل متقاربة الأوقات،وأصله الاتصال لاتصاله بمكانه من القوس،ومنه الوتر وهو الفرد عن الجمع المتصل،قال الأصمعي:يقال واترت الخبر أتبعت بعضه بعضا،وبين الخبرين هنيهة» (١٣٤).

إن أول من حمل راية الثورة والتغيير في المجتمع الإنساني،هم الأنبياء العظام،منذ نوح (عليه السلام)وانتهاء بالنبي محمد(صلوات الله وسلامه عليه) لتربية الإنسان وتثقيفه وهدايته :

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾(١٣٥)

فالنبوة ظاهرة ربانية تمثل رسالة ثورية وعملا تغيريا وإعدادا ربانيا للجماعة لكي تستأنف دورها الصالح وتفرض ضرورة هذه الثورة أن يتسلم شخص النبي الرسول الخلافة العامة لكي يحقق للثورة أهدافها في القضاء على الجاهلية والاستغلال.(١٣٦)

﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾(١٣٧)

وكان عملهم من أجل أن يمارس الإنسان دوره الصحيح في الأرض،ويسير نحو

التكامل الحضاري، وبذلك مثلت حركة الأنبياء فعلا ثوريا فريدا على امتداد حركة التاريخ، فقد «تميزت عن أي ثورة اجتماعية أخرى في التاريخ تميزا نوعيا؛ لأنها حررت الإنسان من الداخل وحررت الكون من الخارج في وقت واحد، وأطلقت على التحرير الأول اسم الجهاد الأكبر، وعلى التحرير الثاني اسم الجهاد الأصغر؛ لأن هذا الجهاد لن يحقق هدفه العظيم إلا في إطار الجهاد الأكبر»[١٣٨].

والأنبياء والرسل كثيرون،أما الذين ذكرهم القرآن فعددهم (خمسة وعشرون):

(آدم - إدريس - نوح - هود - صالح - إبراهيم - لوط - إسماعيل - إسحاق - يعقوب - يوسف - شعيب - أيوب - ذو الكفل - موسى - هارون - داود - سليمان - إلياس - اليسع - يونس - زكريا - يحيى - عيسى - محمد) (صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين).

وهناك رسل آخرون لم يذكرهم،وقد أشار الله إليهم بخطابه لرسوله الأكرم:

﴿ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما﴾[١٣٩]

وما تجدر الإشارة إليه: إن حركة الأنبياء والرسل، مثلت الفعل الإلهي المباشر في حركة التاريخ[١٤٠]، ذلك الفعل الذي جسد حقيقة الوعد الرباني بالهداية لآدم وذريته في الأرض عندما أخرج من الجنة بعد أن تاب الله عليه:

﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم(٣٧) قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون(٣٨) والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[١٤١]

فالأنبياء والرسل قد اصطفاهم الله من عباده لهداية البشر، وزودهم بالمنهج الصالح للحياة:

﴿الله يصطفي من الملآئكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير﴾[١٤٢]

﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾[١٤٣]

والملاحظ عند تتبع عروض الوقائع التاريخية في القرآن المجيد حول حركة النبوات و الرسالات ما يلي:

١. إن هذه الحركة الإلهية الرائدة،جاءت لترسم للبشرية طريقها المضيء، المتسق مع

فطرة الإنسان وحقيقة هذا الكون؛ حتى لا تخطئ ولا تضل الطريق:

﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾[١٤٤]

﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنامعهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾[١٤٥]

٢. إن هذه الحركة الرسالية الخالدة، جاءت لتدعو البشر جميعا إلى عبادة الله الواحد الأحد:

﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾[١٤٦]

﴿وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون﴾[١٤٧]

٣. إن هذه الحركة الضاربة في عمق التاريخ البشري، جاءت لتؤكد وحدة المصدر و المنهج والأهداف، والدعوة إلى التفاهم والتعاون بين أبناء البشر، ووصل حاضرهم بالماضي والمستقبل:

﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾[١٤٨]

﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾[١٤٩]

٤. إن هذه الحركة كانت تدعو وتعمل من أجل إقامة الحق ونشر العدل بين الناس:

﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾[١٥٠]

﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديدومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾[١٥١]

﴿ياداوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى

فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾[152]

٥. إن هذه الحركة الثورية الإلهية جاءت لتحارب الظلم والاستبداد، وترفع من مستوى الطبقات المحرومة في المجتمع، والحد من امتيازات الطبقة الحاكمة أو المترفة بين الناس:

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون(٧٥)قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾[153]

﴿كذبت قوم نوح المرسلين(١٠٥)إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون(١٠٦)إني لكم رسول أمين(١٠٧)فاتقوا الله وأطيعوني(١٠٨)وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين(١٠٩)فاتقوا الله وأطيعوني(١١٠)قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون(١١١)قال وما علمي بما كانوا يعملون(١١٢)إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون(١١٣)وما أنا بطارد المؤمنين(١١٤)إن أنا إلا نذير مبين﴾[154]

﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾[155]

٦. إن حركة النبوات والرسالات، تهدف إلى تخليص المجتمعات من فساد المشكلات التي عصفت بها، وأدت إلى سقوطها ودمارها:

أ ـ فقد سعى إبراهيم (عليه السلام) إلى تخليص قومه من الانحراف والفساد العقائدي المتمثل في عبادة الأوثان والأصنام[156]:

﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون(١٦)إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾[157]

ب ـ سعى لوط (عليه السلام) إلى تخليص قومه من الفساد الأخلاقي الاجتماعي الذي تمثل في الشذوذ الجنسي «اللواط»[158]:

﴿ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين(٢٨

›أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾[١٥٩]

ج ـ وكان سعي شعيب (عليه السلام) إلى تخليص قومه من الفساد الاقتصادي المتمثل بالتطفيف بالمكيال والميزان وبخس حقوق الناس[١٦٠]:

﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾[١٦١]

د ـ كانت مهمة موسى (عليه السلام)، تخليص قومه (بني إسرائيل) من ذل الاستضعاف الذي عاشوه تحت طغيان واستكبار فرعون مصر[١٦٢]، فقد جاء في خطابه تعالى إلى موسى وهارون:

﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى(٤٣)فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى(٤٤)قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى(٤٥)قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى(٤٦)فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى(٤٧)إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى﴾[١٦٣]

وقال تعالى:

﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين(٣٠)من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين(٣١)ولقد اخترناهم على علم على العالمين﴾[١٦٤]

﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾[١٦٥]

٦.اتبع الأنبياء والرسل في حركتهم كل الأساليب السلمية الهادئة،وطرق الحوار الصادقة،لتحريك العقول والقلوب،في سبيل دعوة الناس وكسبهم إلى موكب الإيمان:[١٦٦]

﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾[١٦٧]

﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى(٤٣)فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾[١٦٨]

﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾[١٦٩]

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾[١٧٠]

﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾[١٧١]

٨ تعرض الأنبياء والرسل عبر جهادهم المرير،لمختلف أساليب الأذى والمواجهات الحادة ـ المعنوية والمادية ـ على أيدي الطغاة والمستكبرين من أبناء قومهم[١٧٢]،ومنها:

أ .التكذيب، قال تعالى:

﴿فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات و الزبر و الكتاب المنير﴾[١٧٣]

﴿كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون﴾[١٧٤]

﴿كذبت قوم لوط المرسلين﴾[١٧٥]

﴿وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد﴾[١٧٦]

ب .الاستهزاء والسخرية، قال تعالى:

﴿وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون﴾[١٧٧]

﴿وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾[١٧٨]

ج .الاتهام بالباطل، قال تعالى:

﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين(١٣) وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾[١٧٩]

﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون﴾[١٨٠]

﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا﴾[١٨١]

﴿إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين﴾[١٨٢]

﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾[١٨٣]

د. الأذى والتعذيب الجسدي، قال تعالى:

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾(١٨٤)

وقد أشار الرسول الكريم (صلوات الله وسلامه عليه) إلى ما كابده حملة الرسالة وأعوانهم من التعذيب والتقتيل على أيدي الطغاة عبر التاريخ، فعن خباب بن الأرت (رضي الله عنه) قال: «شكونا إلى رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه) وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم، يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها،فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه، وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه...»(١٨٥)

وقال تعالى:

﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولامبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين﴾(١٨٦)

﴿قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾(١٨٧)

﴿قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم﴾(١٨٨)

﴿ياقوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾(١٨٩)

هـ. الهجرة والملاحقة الأمنية، قال تعالى:

﴿فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم﴾(١٩٠)

﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون﴾(١٩١)

﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا﴾(١٩٢)

﴿لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا﴾(١٩٣)

و. القتل والتصفية الجسدية، قال تعالى:

﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق﴾(١٩٤)

﴿فريقا كذبوا وفريقا يقتلون﴾(١٩٥)

﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه﴾[١٩٦]

﴿قتل أصحاب الأخدود﴾[١٩٧]

٩. كان الأنبياء والرسل يواجهون الأذى والاضطهاد بالصبر والثبات، قال تعالى:

﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾[١٩٨]

﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا﴾[١٩٩]

﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾[٢٠٠]

﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾[٢٠١]

﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين﴾[٢٠٢]

١٠.كانوا هم المنصورين والغالبين، بفضل إيمانهم بالله وجهادهم المتواصل في سبيله، قال تعالى:

﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين(١٧١)إنهم لهم المنصورون(١٧٢)وإن جندنا لهم الغالبون﴾[٢٠٣]

﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾[٢٠٤]

﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾[٢٠٥]

خامسا: تأريخ الدعوة الإسلامية في عصر الرسول

من أبرز الخصائص المميزة لتاريخ الدعوة الإسلامية المباركة، أنه لخص كل أبعاد و معطيات «حركة التاريخ البشري». لذا فإن دراسته تعني دراسة أهم جزء من تاريخ أمتنا بصورة خاصة وتاريخ البشرية بصورة عامة. لأن المنهج النبوي في التغيير،والبناء الحضاري.. قد استوعب، ومر بالحالات والمراحل كلها، التي يمكن أن تعرض لها المجتمعات البشرية بشكل عام، والإسلامية بشكل خاص، نهوضا وسقوطا، وحركة وركودا،وامتلك الحلول والإجابات الكاملة، لأصول المشكلات الإنسانية والاجتماعية، وكيفيات التعامل معها[٢٠٦].

إن حركة الرسول الأكرم (صلوات الله وسلامه عليه) مثلت حلقة التكامل في سلسلة حركة النبوات والرسالات الإلهية، كما أكده الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) بقوله: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي،كمثل رجل بنى بنيانا،فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»[٢٠٧].إن حركة الدعوة الإسلامية قد استوعبت كل العناصر الأساسية والسنن والقوانين المؤثرة في حركة التاريخ، حتى أصبحت «دراسة سيرة الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) وحركته، في مدة ثلاثة وعشرين عاما، هي في جوهرها دراسة في تشكيل حضارة، وبناء نموذج حياتي جديد»[٢٠٨]؛ ليتحول إلى منهج يمتد في عالم المجتمع، ويبني الحياة الإنسانية، عبر الاهتداء والعمل بالسنن الإلهية،قال تعالى:

﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم﴾[٢٠٩]

و يعد القرآن الكريم المصدر الأول في توثيق الكثير من أحداث حركة الدعوة الإسلامية المباركة، وأخبار عصرها،وأنصارها،وأعدائها،والكثير من المشاكل والعقبات التي واجهتها في صدرها الأول، وما حققته من إنجازات رائعة، وانتصارات باهرة، وجاء

العرض القرآني لتاريخ الدعوة الإسلامية، بشكل مثل فيه «تأريخ حياة» وليس «تأريخ مرحلة» فصوره تأريخا حركيا للرسالة وللرسول القائد (صلوات الله وسلامه عليه) يحمل بين جوانحه منهجا متكاملا يمثل القدوة في البناء والتغيير الحضاري للبشرية كلها. كما قال تعالى:

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلآم دينا﴾[٢١٠]

ومن الأهمية بمكان القول: إن التعرف على الأبعاد التاريخية لمدلولات النصوص القرآنية التي أرخت لحركة الدعوة الإسلامية، يستلزم المعرفة الدقيقة بعلم «أسباب النزول» باعتبار أن كثيرا من السور والآيات المباركة ارتبط نزولها بحوادث ومشاكل وأجواء وقعت أيام الدعوة الإسلامية. فمثلا،سورة البقرة التي نزلت في السنة الأولى من الهجرة جاء كثير من آياتها لتقرع جماعة اليهود الذين وقفوا بوجه حركة الدعوة، وسورة «المنافقون» التي نزلت في خصوص حركة النفاق التي عملت على عرقلة وتخريب عمل الدعوة المباركة منذ أن دخلت المدينة المنورة، فهذه القضايا التي سببت نزول السور أو الآيات القرآنية، تسمى «أسباب النزول»[٢١١].

إن معرفة إحداثيات الزمان والمكان،وعناصر الأشخاص،وسائر مشاهد وظروف «قصة» نزول الآية أو السورة، له أكبر الأثر في فهم أبعادها وسبر أغوارها، كما أشار الواحدي إلى ذلك بقوله: «لامتناع معرفة الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها و بيان نزولها»[٢١٢].

إن أهم التوثيقات القرآنية لحركة الدعوة الإسلامية، التي ينبغي التأمل فيها عند دراستنا لحركة التاريخ البشري، يمكن تلخيصها فيما يلي:

١.جاء الإسلام على فترة من الرسل،عاشت البشرية فيها ألوانا من الضياع، و اندفعت في أجواء من الغفلة عن الله تعالى، بعد أن انحرفت كل الديانات السماوية عن خطها الأصيل، واستنفدت أغراضها في كل العالم، وعانت شبه جزيرة العرب ـ بالذات ـ حالة من الفراغ الديني، سادتها الوثنية التي تمثلت في عبادة المخلوقات من الكواكب و أصناف الحيوان والأشجار والأحجار، وهي وثنية جامدة بليدة في شكلها وموضوعها، لا تتفلسف ولا تتعالم، ولكنها تقوم على التقليد الأبله والوراثة المتعصبة.[٢١٣]

كما قال تعالى عنهم:

﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾[٢١٤]

وشاءت الحكمة الإلهية أن تكون البيئة التي بعث فيها عليه الصلاة والسلام أيضا بيئة أمية بالنسبة للأمم الأخرى التي من حولها أي لم يتطرق إليها شيء من الحضارات المجاورة لها، ولم تتعقد مناهجها الفكرية بشيء من تلك الفلسفات التائهة من حولها[٢١٥].

كما أوضح القرآن الكريم هذه الحكمة بقوله تعالى:

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[٢١٦]

﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾[٢١٧]

واستطاع الإسلام بمنهجه الشامل الكامل أن ينقذ العرب من الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويجمع شملهم، ويحرر بهم بقية شعوب الأرض، ويجعل منهم أعظم هدية للإنسانية، جاء بها الإسلام؛ لخدمة المجتمع البشري، هي حضارة الخلق، أو حضارة الإبداع والابتكار[٢١٨]. كما قال تعالى:

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا(٢٨)محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفاروعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما﴾[٢١٩]

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[٢٢٠]

فالإسلام هو الذي أخرج إنسان شبه جزيرة العرب من جموده وجاهليته التي قبع فيها فترات طويلة من الزمن، وأطلقه في أجواء الحضارة المفعمة بالحركة والحياة. بذلك يكون «الدين» سببا أساسيا في نشوء وبناء الحضارة الإنسانية، وتحسين حركة التاريخ.

٢.عندما انطلقت الدعوة الإسلامية في حركتها التبليغية الأولى في المجتمع المكي،

واجهت موجة شديدة من الغضب والاستنكار، والمعارضة والمقاومة، من قبل الكفار المشركين، فتعرض المسلمون الأوائل إلى أنواع شتى من الإيذاء والعذابات القاسية، ابتدأت برمي النبي (صلوات الله وسلامه عليه) وصحابته بتهم هازلة، وشتائم سفيهة، وتألفت جماعة للاستهزاء بالإسلام ورجاله[٢٢١]. تصعدت إلى الحرب المادية الجسدية، حيث التعذيب و التنكيل بالمسلمين، والتفنن بإلحاق صنوف من العذاب، تتصف بالقسوة، وعدم الرحمة، وشدة الإيلام بدءا بقائد الدعوة (صلوات الله وسلامه عليه) وإنهاء بالأرقاء، والضعفاء من المسلمين[٢٢٢].

وقد سجل القرآن الكريم تلك الأساليب والممارسات القمعية التي استخدمها الأعداء في مواجهة الدعوة الإسلامية الجديدة خلال آيات عديدة:

﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾[٢٢٣]

﴿وقالوا ياأيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾[٢٢٤]

﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب﴾[٢٢٥]

﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون(٢٩)وإذا مروا بهم يتغامزون(٣٠) وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين(٣١) وإذا رأوهم قالوا إن هؤلآء لضالون(٣٢) وما أرسلوا عليهم حافظين﴾[٢٢٦]

وعندما انتقلت الدعوة الإسلامية إلى المجتمع المدني بعد هجرة الرسول (صلوات الله و سلامه عليه)، بدأت مرحلة الحرب الدفاعية[٢٢٧]؛ لصد العدوان الذي أخذ يشنه المشركون على المسلمين، في معركة بدر، وأحد،والأحزاب، وما بعدها. ومكن الله تعالى المسلمين من دحر فلول الشرك والانتصار عليهم:

﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾[٢٢٨]

إن هذا العرض القرآني وغيره من الآيات الكريمة، يؤكد على حقيقة تاريخية قائمة في كل زمان ومكان تقول:ما من داعية إلى فكرة حديثة، أو دعوة جديدة يترتب عليها تحول اجتماعي جذري أو قيام نظام اجتماعي جديد إلا وتعرض أصحابها إلى شتى أنواع المقاومة من الاستنكار والاضطهاد والإيذاء والحبس والتشريد والتقتيل[٢٢٩]:

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾[٢٣٠]

﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين﴾[٢٣١]

ثم لم تلبث عروض القرآن التأريخية، أن تذكر الأسباب التي دعت الكفار والمشركين إلى معارضة ومقاومة الدعوة الإسلامية الجديدة، واستخدامهم كافة الوسائل والأساليب في مواجهتها، ملخصة تلك الأسباب بما يلي:

أ ـ الخوف على مصالحهم وامتيازاتهم التي يتمتعون بها في ظل الوضع القائم:

﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون(٣٤)وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين(٣٥)قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[٢٣٢]

﴿وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون(٥٧)وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين(٥٨)وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون(٥٩) وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون﴾[٢٣٣]

ب ـ حالة الشعور بالاستعلاء والاستكبار على الآخرين:

﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألآ إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾[٢٣٤]

﴿قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون(١١١) قال وما علمي بما كانوا يعملون(١١٢) إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون(١١٣) وما أنا بطارد المؤمنين(١١٤) إن أنا إلانذير مبين﴾[٢٣٥]

ج ـ نتيجة التمسك بالقديم، والاعتزاز بنظمه وأعرافه وتقاليده:

﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون﴾[٢٣٦]

﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون(٢٢)وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون(٢٣)قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾[٢٣٧]

٣.إن الثبات والإصرار على حمل مبادئ الحق يؤدي إلى النصر والغلبة:

﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين﴾[٢٣٨]

هذه الآية المباركة تثبت قلب رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه)، فتحدثه عن التجارب السابقة، وتربطه بقانونها،فتوضح له أن هناك سنة تجري عليه وتجري على الأنبياء الذين مارسوا هذه التجربة الرسالية من قبله وأن النصر سوف يأتيه ولكن للنصر شروطه الموضوعية: الصبر، والثبات، واستكمال الشروط الأخرى[٢٣٩].

قال تعالى:

﴿ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾[٢٤٠]

فالصبر ومصابرة الأعداء والمرابطة في ثغور بلاد الإسلام وتقوى الله باجتناب معاصيه وفعل ما يرضيه كلها من عوامل النصر على الأعداء في الدنيا كما أنها مع حسن النية وقصد إقامة الحق والعدل ودين الله ـ الإسلام ـ الذي هو شأن المسلم في قتاله وجهاده من أسباب الفوز والفلاح في الآخرة[٢٤١].

وقد حشد القرآن الكريم كثيرا من الآيات المباركة التي دعت المسلمين إلى الصبر و الثبات والإصرار على حمل المبادئ والقيم الإلهية في مواجهة المحن والابتلاءات والشدائد؛ لأن أصحاب الدعوات الحقة،الذين يريدون أن يحسنوا حركة التاريخ،لم يكن بمقدورهم تحقيق الغلبة والنصر على العقبات والأعداء إلا بذلك.

﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين(١٥٥)الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون(١٥٦)أولئك عليهم

صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾[٢٤٢]

﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين(١٤٦)وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين(١٤٧)فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾[٢٤٣]

﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل(١٧٣)فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾[٢٤٤]

﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما﴾[٢٤٥]

﴿ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون﴾[٢٤٦]

٤.رغم الانتصارات الساحقة والنجاحات الباهرة التي حققها المسلمون الأوائل، على مختلف الأصعدة،وإقامتهم الحكومة الإسلامية العادلة في المدينة المنورة، بقيادة الرسول الأكرم (صلوات الله وسلامه عليه) فإن حركة الإعاقة والتخريب لمسيرة بناء الحضارة الإسلامية لم تنته؛ بل اتخذت شكلا آخر ـ في الخفاء ـ تجسد في خلال عمل المنافقين، الذين شكلوا خطرا كبيرا على الإسلام والمسلمين من داخلهم، بما يتمثلونه من أساليب ماكرة، وحيل خبيثة كان لها الأثر الواضح في توجيه الأحداث التاريخية خلال تلك المرحلة وبعدها.فتصدى لهم القرآن، وشن حملة عنيفة في كثير من آياته على حركتهم ودسائسهم وأراجيفهم، حتى نزلت فيهم سورة حملت اسمهم الخاص،ورسمت صورتهم، ووضحت معالمهم، وكشفت حقيقتهم للمسلمين عموما:

﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا﴾[٢٤٧]

﴿ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾[٢٤٨]

﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن

المنافقين لكاذبون﴾[٢٤٩]

إن هذا العرض القرآني للواقع التاريخي لحركة النفاق، يؤكد وجود المعوقات التي تعترض وتبطئ حركة التاريخ، رغم استقرارها في مسارها الصحيح، فقوى الشيطان المضادة للإنسانية، والتي «تصارع» و «تضاد» و «تقابل» كل قوى الخير، لابد أن تعمل عملها وتمارس دورها السلبي في الحياة:

﴿قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم(١٦)ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾[٢٥٠]

﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾[٢٥١]

﴿ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين(٦٠) وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم(٦١) ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون﴾[٢٥٢]

نستخلص من كل ما سلف:أن القرآن الكريم قدم صورة متكاملة الخطوط عن أوجه مختلفة من حركة التاريخ البشري، منذ بدء الخليقة وحتى عصر الرسالة الخاتمة، بكل ما شهدته من نجاح وإخفاق، وعلو وهبوط، وخير وشر. مثلت أفكارا أساسية، يمكن أن تساهم بشكل بارز في تشكيل الثقافة التاريخية للعقل المسلم، نحو إدراك تاريخيته في الحياة. إذ لا يمكن لنا أن نتصور تاريخا بلا ثقافة، والذي يفقد ثقافته يفقد حتما تاريخه[٢٥٣].

الهوامش

١) عمر عبيد حسنه : في النهوض الحضاري، بصائر و بشائر ، ص٤٦ .

٢) د. عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ ،ص١٤ ـ ١٥ .

٣) سورة فاطر ، من الآية :١٤ .

٤) محمد هيشور : سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص١٥٢.

٥) سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ، ص ١٣٢ .

٦) د. سالم أحمد محل، المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب، ص٦٢.

٧) سورة الروم ، الآية :٩.

٨) سورة النساء ، الآيات : ١٦٣ ـ ١٦٥ .

٩) السيد محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية ، ص١٤٦ .

١٠) سورة الأعراف ، الآيات :٥٩ ـ ٦٢ .

١١) سورة هود ، الآيات : ٥٠ ـ ٥٢.
١٢) سورة هود ، الآيات : ٨٤ ـ ٨٦.
١٣) سورة القصص ، الآية : ٤ .
١٤) سورة القصص ، الآيات : ٧٦ ـ ٨٢ .
١٥) د. عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ ،ص ٢٨٢ .
١٦) سورة الزخرف ، الآيات : ٥٤ ـ ٥٦ .
١٧) سورة الحج ، الآيات : ٤٥ ـ ٤٦ .
١٨) الشيخ عبد الله التليدي : أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين، دار البشائر الإسلامية، بيروت، (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م)، ص٤٣.
١٩) الشيخ مرتضى المطهري : المجتمع والتاريخ ، ص ٢٠٤.
٢٠) سورة الأنبياء ، الآية : ١١ .
٢١) الزمخشري: تفسير الكشاف، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت)، ج٣، ص١٠٥.
٢٢) سورة يونس ، الآية :١٣.
٢٣) سورة هود ، الآية :١٠٢.
٢٤) محمد عبد الجبار : المجتمع،بحوث في المذهب الاجتماعي القرآني،دار الأضواء،بيروت،ط٢،(١٤٠٨ هـ ــ ١٩٨٧ م)،ص١٣٥.
٢٥) سورة محمد ، الآية : ١٠ .
٢٦) سورة الأحقاف ، الآية : ٢٦ .
٢٧) سورة الحج ، من الآية : ٣١ .
٢٨) سورة ص ، الآيات : ١٢ ـ ١٥ .
٢٩) سورة ق ، الآيات : ١٢ ـ ١٤ .
٣٠) محمد هيشور : سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها ، ص٢٦١ .
٣١) محمد عبد الجبار : المجتمع ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧ .
٣٢) سورة الأنعام ، الآية : ٦ .
٣٣) سورة غافر ، الآية : ٢١ .
٣٤) سورة هود ، الآيتان : ٨٤ ـ ٨٥ .
٣٥) سورة هود ، الآيتان : ٩٤ ـ ٩٥ .
٣٦) سورة الرعد ، من الآية : ١١ .
٣٧) الفخر الرازي : التفسير الكبير ، ج١٩ ، ص٢٢ .
٣٨) ابن منظور : لسان العرب، (ب ط ر)، ج ١، ص ٣٠٠.
٣٩) الراغب الأصفهاني : معجم مفردات ألفاظ القرآن ، (ك ف ر)، ص٤٥١ .
٤٠) سورة القصص ، الآية : ٥٨.
٤١) سورة النحل ، الآية : ١١٢ .
٤٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٥ .
٤٣) رواه : عبد الله بن مسعود ، انظر : ابن حجر العسقلاني:فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ج٥،ص ٧٠، كتاب الخصومات ،رقم الحديث ـ ٢٤١٠ .
٤٤) السيد محمد رشيد رضا : تفسير المنار ، المجلد٤ ، ص٥١ .
٤٥) سورة الأنفال ، الآية : ٤٦ .
٤٦) سورة الأعراف ، الآيات : ١٨٢ ـ ١٨٣.
٤٧) المعجم الوسيط: ج١، ص٢٧٧ .
٤٨) الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن، (د ر ج)، ص١٦٩.
٤٩) تفسير القرطبي: ج٧،ص٢٠٩.

٥٠) سورة الأنعام ، الآية : ٤٧.
٥١) ابن منظور: لسان العرب،(ب غ ت)، ج١، ص٣١٧.
٥٢) الراغب الأصفهاني : معجم مفردات ألفاظ القرآن ، (ب غ ت)، ص٥٢ .
٥٣) تفسير القرطبي: ج٦ ، ص٢٧٦.
٥٤) سورة الأحزاب ، الآية : ٦٢ .
٥٥) سورة الفجر ، الآية : ١٤ .
٥٦) تفسير القرطبي: ج ٣٠، ص٤٨.
٥٧) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد ٦، ص٣٩٠٤ ـ ٣٩٠٥ .
٥٨) سورة الأعراف ، الآية : ٩٦ .
٥٩) محمد جواد مغنية: التفسير المبين، نشر توحيد، طهران ، ط٢ ، (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م) ، ص٢٠٨ .
٦٠) عبد الرحمن النحلاوي : التربية بالآيات، ص ٢٣٨ .
٦١) د. عبد الحليم عويس : تفسير التاريخ علم إسلامي ،ص١٠٤ .
٦٢) سورة يوسف ، من الآية : ١١١ .
٦٣) سورة هود ، الآية : ١٢٠ .
٦٤) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٦ .
٦٥) عمر عبيد حسنه : في النهوض الحضاري ، ص١٨ .
٦٦) وردت في (البقرة:٣٠ـ٣٩)، (الأعراف:١١ ـ ٢٥)، (الإسراء:٦١ ــ ٦٥)، (طه:١١٥ ــ ١٢٧)، (ص:٦٩ ـ ٨٥).
٦٧) للتوسع أكثر في معرفة أبعاد وحوادث القصة، يراجع: أحمد فائز الحمصي؛ قصص الرحمن في ظلال القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥)، ج١، ص٣٣٣.
٦٨) د. عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ، ص١٧٥ .
٦٩) سورة البقرة ، من الآية : ٣٠ .
٧٠) سورة الإسراء ، الآية : ٧٠ .
٧١) سورة البقرة ، الآيتان : ٣٨ـ ٣٩ .
٧٢) د. عبد الحليم عويس: تفسير التاريخ علم إسلامي،ص١٦٦.
٧٣) وردت في سورة البقرة، الآيات: ٦٧ـ٧٣.
٧٤) للتوسع أكثر في معرفة أبعاد وحوادث القصة، يراجع: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم،دار المعرفة،بيروت،(١٤١٣هـ ــ ١٩٩٣م)، ج١، ص١١٢. السيد محمد حسين فضل الله؛ تفسير من وحي القرآن،مؤسسة الملاك، ط٢ ، (١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م) ، بيروت،ج٢،ص٨٥
٧٥) سورة البقرة ، من الآية : ٧٣ .
٧٦) سورة البقرة ،من الآية : ٧٣ .
٧٧) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، مؤسسة البعثة ، بيروت ، (١٤١٣هـ ـ١٩٩٢م)،ج١،ص٢٣٥.
٧٨) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: المرجع نفسه، ص٢٣٦.
٧٩) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد١، ص٧٧.
٨٠) وردت في سورة البقرة، الآيات:٢٤٦ـ٢٥٢

٨١) للتوسع أكثر في معرفة أبعاد وأحداث القصة يراجع: السيد محمد رشيد رضا ؛ تفسير المنار، المجلد الثاني، ص٤٧٥. سيد قطب؛ في ظلال القرآن، المجلد١، ص ٢٧٠.

٨٢) سورة البقرة ،من الآية : ٢٥١ .

٨٣) الزمخشري : تفسير الكشاف، ج١، ص ٢٩٦ .

٨٤) وردت في سورة المائدة، الآيات:٢٧-٣٢.

٨٥) للتوسع أكثر في معرفة أبعاد وأحداث القصة يراجع:

- الآلوسي: تفسير روح المعاني، دار الفكر، بيروت، (١٤١٤هـ-١٩٩٤)، ج٦، ص ١٦٣.

- عفيف عبد الفتاح طبارة: مع الأنبياء في القرآن الكريم، إنتشارات الشريف الرضي،قم - إيران، ١٤١٣هـ ص٥٥.

٨٦) الفخر الرازي : التفسير الكبير ، ج١١، ص ٢٠٣.

٨٧) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي : تفسير الأمثل ،ج٣، ص٦٠٦.

٨٨) الشيخ محمد جواد مغنية : تفسير الكاشف، ج٣، ص٤٨.

٨٩) سورة المائدة ، الآية : ٣٢ .

٩٠) سورة البقرة ، من الآية : ٣٠ .

٩١) الشيخ محمد جواد مغنية : تفسير الكاشف ، ج٣، ص٤٨.

٩٢) وردت في: (الأعراف:١٣٨- ١٥٦)، (طه: ٩٣- ٩٨)، (البقرة:٥٤).

٩٣) للتوسع أكثر في معرفة أبعاد وحوادث القصة يراجع: السيد محمد حسين فضل الله؛ تفسير من وحي القرآن، ج١٠، ص٣٢٠ و ما بعدها. عفيف عبد الفتاح طبارة: مع الأنبياء في القرآن الكريم، ص٢٤٢و ما بعدها.

٩٤) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد٣، ص١٣٦٥.

٩٥) كامل الهاشمي: أركون ومشروع نقد العقل الإسلامي ، في قضايا إسلامية معاصرة ، السنة الأولى (العدد الثالث/ ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م) ، ص٢٥٠ .

٩٦) سورة الأعراف ، الآيات : ١٣٨ - ١٤٠ .

٩٧) وردت في (سورة يوسف).

٩٨) للتوسع أكثر في معرفة أبعاد وأحداث القصة يراجع: تفسير ابن كثير؛ ج٢، ص ٤٨٥. أحمد فائز الحمصي ؛ قصص الرحمن، ج٢، ص٣٢٥ .

٩٩) وردت في سورة الكهف، الآيات: ٩- ٢٦.

١٠٠) للتوسع أكثر في معرفة أبعاد وأحداث القصة يراجع : الآلوسي؛ تفسير روح المعاني، ج١٥، ص٣٠١ وما بعدها. سيد قطب ؛ في ظلال القرآن، المجلد٤، ص ٢٢٦١.

١٠١) وردت في سورة النمل، الآيات:٢٠-٤٤.

١٠٢) للتوسع أكثر لمعرفة أبعاد و حوادث القصة يراجع : السيد محمد حسين فضل الله ؛ تفسير من وحي القرآن، ج١٧، ص١٩٣ وما بعدها. أحمد فائز الحمصي ؛ قصص

الرحمن، ج٤، ص٥٦.

١٠٣) وردت في سورة غافر، الآيات: ٢٨ـ٣٣.

١٠٤) للتوسع أكثر في معرفة أبعاد وأحداث القصة يراجع :تفسير ابن كثير؛ ج٤، ص٨٤ السيد محمد حسين فضل الله؛ تفسير من وحي القرآن، ج٢٠، ص٣٣.

١٠٥) وردت في (سورة الفيل).

١٠٦) للتوسع أكثر في معرفة أبعاد وأحداث القصة يراجع: سيد قطب؛ في ظلال القرآن، المجلد٦، ص٣٩٧٧. الشيخ ناصر مكارم الشيرازي؛ تفسير الأمثل،ج٢٠ ،ص٤١٩.

١٠٧) سورة المدثر ، من الآية : ٣١.

١٠٨) سورة الزمر ، الآية : ٢٧ .

١٠٩) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٣ .

١١٠) سورة الإسراء ، الآية : ٨٩ .

١١١) الراغب الأصفهاني : معجم مفردات ألفاظ القرآن ،(م ث ل)، ص٤٨٢ .

١١٢) السيد محمد حسين الطباطبائي : الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط٣، (١٣٩٣هـ ــ ١٩٧٣م)، ج١٣ ،ص٢٠٢ .

١١٣) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع ، دار القلم، دمشق، ط٢، (١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م)، ص ٢٢ .

١١٤) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن، دار إحياء العلوم، بيروت، (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م)، ج٢، ص٣٦٥.

١١٥) سورة الرعد ، الآية : ١٧ .

١١٦) سيد قطب : في ظلال القرآن ،المجلد ٤ ،ص٢٠٥٤ .

١١٧) عبد الرحمن حبنكة الميداني: أمثال القرآن، ص٦٥.

١١٨) سورة الإسراء ، الآية : ٨١ .

١١٩) سورة إبراهيم ، الآية : ١٨ .

١٢٠) سيد قطب : في ظلال القرآن ، المجلد٤ ، ص٢٠٩٤ .

١٢١) سورة النور ، الآية : ٣٩ .

١٢٢) عبد الرحمن النحلاوي : التربية بضرب الأمثال، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٨ ، ص٩٢ .

١٢٣) سورة النحل ، الآية : ٧٥.

١٢٤) السيد محمد حسين فضل الله : تفسير من وحي القرآن، ج١٣، ص٢٦٥ .

١٢٥) سورة النحل ، الآيات : ١١٢ ـ ١١٣.

١٢٦) عبد الرحمن النحلاوي : التربية بضرب الأمثال ، ص١٠٤.

١٢٧) عبد الرحمن حبنكة الميداني : أمثال القرآن ، ص٩٤ .

١٢٨) سورة العنكبوت ، الآيات : ٤١ ـ ٤٣ .

١٢٩) سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد الخامس، ص٢٧٣٧ .

١٣٠) سورة الجمعة ، الآية : ٥ .

١٣١) عبد الرحمن حبنكة الميداني : أمثال القرآن ، ص١٠١ .

١٣٢) سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد٦، ص٢٥٦٧ .

١٣٣) سورة المؤمنون ، الآية : ٤٤ .

١٣٤) الطبرسي : مجمع البيان في تفسير القرآن ، ج٧ ، ص١٧٢ .

١٣٥) سورة الجمعة ، الآية : ٢ .

١٣٦) السيد محمد باقر الصدر : خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء ،دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ،ط٢، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) ،ص٤١ .

١٣٧) سورة الأعراف ، من الآية : ١٥٧ .

١٣٨) السيد محمد باقر الصدر : صورة عن اقتصاد المجتمع الإسلامي، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط٢، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، ص١١ .

١٣٩) سورة النساء ، الآية : ١٦٤ .

١٤٠) انظر : د. عماد الدين خليل ؛ التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص١٢٥.

١٤١) سورة البقرة ، الآيات :٣٧-٣٩.

١٤٢) سورة الحج ، الآية : ٧٥ .

١٤٣) سورة النحل ، من الآية : ٣٦ .

١٤٤) سورة البقرة ، الآية : ٢١٣ .

١٤٥) سورة الحديد ، من الآية : ٢٥.

١٤٦) سورة النحل ، من الآية : ٣٦.

١٤٧) سورة الأعراف ، الآية : ٦٥ .

١٤٨) سورة الشورى ، من الآية : ١٣.

١٤٩) سورة البقرة ، الآية : ١٣٦ .

١٥٠) سورة البقرة ، من الآية : ٢١٣.

١٥١) سورة الحديد ، الآية : ٢٥ .

١٥٢) سورة ص ، الآية : ٢٦ .

١٥٣) سورة الأعراف ، الآيتان : ٧٥ - ٧٦.

١٥٤) سورة الشعراء ، الآيات : ١٠٥ - ١١٥ .

١٥٥) سورة هود ، الآية : ٢٧ .

١٥٦) انظر : عفيف عبد الفتاح طبارة: مع الأنبياء في القرآن الكريم، ص١٠٧ وما بعدها .

١٥٧) سورة العنكبوت ، الآيتان :١٦-١٧ .

١٥٨) السيد محمد حسين فضل الله :خطوات على طريق الإسلام،دار الملاك، بيروت،ط ٥،(١٤٠٦هـ-١٩٨٦م)،ص٤٥٣.

١٥٩) سورة العنكبوت ، الآيتان : ٢٨-٢٩ .

١٦٠) انظر : السيد محمد حسين فضل الله ؛ حركة النبوة في مواجهة الانحراف ، دار الملاك ، بيروت ، (١٤١٧هـ ١٩٩٧م)، ص ١٩٥.

١٦١) سورة الأعراف ، الآية : ٨٥ .

١٦٢) انظر : سيد قطب ؛ في ظلال القرآن، المجلد٣، ص٢٣٣٣ - ص٢٣٤٠ .

١٦٣) سورة طه ، الآيات : ٤٣-٤٨.

١٦٤) سورة الدخان ، الآيات : ٣٠-٣٢.

١٦٥) سورة الأعراف ، الآية : ١٣٧.

١٦٦) انظر: السيد محمد حسين فضل الله ؛ الحوار في القرآن، دار الملاك، بيروت، ط ٥، (١٤١٧هـ - ١٩٩٦)، ص٢٢٩ وما بعدها.

١٦٧) سورة إبراهيم ، الآية : ٤.

١٦٨) سورة طه ، الآيتان : ٤٣- ٤٤.

١٦٩) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٩.

١٧٠) سورة النحل ، الآية : ١٢٥.

١٧١) سورة فصلت ، الآية : ٣٤.

١٧٢) انظر :عبد اللطيف الراضي ؛ المنهج الحركي في القرآن الكريم، دار المنتدى، بيروت، ط٢، ١٩٩١م، ص ٣٥٠ وما بعدها.

١٧٣) سورة آل عمران ، الآية:١٨٤.
١٧٤) سورة المؤمنون ، الآية : ٤٤.
١٧٥) سورة الشعراء ، الآية :١٦٠.
١٧٦) سورة ق ، الآية : ١٤ .
١٧٧) سورة الزخرف ، الآية : ٧ .
١٧٨) سورة الحجر ، الآية : ١١.
١٧٩) سورة النمل ، الآيتان : ١٣ ـ ١٤.
١٨٠) سورة الفرقان ، الآية : ٤.
١٨١) سورة الفرقان ، الآية :٥.
١٨٢) سورة المؤمنون ، من الآية :٢٥ .
١٨٣) سورة الطور ، الآية : ٣٠.
١٨٤) سورة البقرة ، الآية : ٢١٤ .
١٨٥) العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج١٢، ص٣١٥، كتاب الإكراه، رقم الحديث ـ ٦٩٤٣ـ.
١٨٦) سورة الأنعام ، الآية :٣٤.
١٨٧) سورة الأنبياء ، الآية :٦٨.
١٨٨) سورة يس ، الآية :١٨.
١٨٩) سورة الصف ، من الآية :٥.
١٩٠) سورة العنكبوت ، الآية :٢٦.
١٩١) سورة النمل ، الآية :٥٦.
١٩٢) سورة إبراهيم ، من الآية :١٣.
١٩٣) سورة الأعراف ، من الآية :٨٨
١٩٤) سورة البقرة، من الآية :٦١.
١٩٥) سورة المائدة، من الآية :٧٠.
١٩٦) سورة العنكبوت، من الآية :٢٤.
١٩٧) سورة البروج، الآية :٤.
١٩٨) سورة الأحقاف، من الآية :٣٥.
١٩٩) سورة الأنعام، من الآية :٣٤.
٢٠٠) سورة السجدة، الآية :٢٤.
٢٠١) سورة يوسف، الآية :١٨.
٢٠٢) سورة الأنبياء، الآية :٨٥.
٢٠٣) سورة الصافات، الآيات :١٧١-١٧٣.
٢٠٤) سورة المجادلة ، الآية :٢١.
٢٠٥) سورة غافر ، الآية :٥١.
٢٠٦) برغوث عبد العزيز مبارك : المنهج النبوي والتغيير الحضاري،كتاب الأمة، رقم ـ ٤٣ ـ وزارة الأوقاف، دولة قطر، (رمضان ١٤١٥ هـ ـ شباط ١٩٩٥م)، المقدمة، ص١٠.
٢٠٧) رواه أبو هريرة، صحيح مسلم، ج٤، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه (صلوات الله وسلامه عليه) خاتم النبيين، ص١٧٩١، رقم الحديث ـ٢٢٨٦ـ.
٢٠٨) برغوث عبد العزيز مبارك: المرجع السابق، ص٤٣.
٢٠٩) سورة النساء ، الآية :٢٦.
٢١٠) سورة المائدة ، من الآية :٣.
٢١١) انظر : السيد محمد حسين الطباطبائي : القرآن في الإسلام، ترجمة : السيد أحمد الحسيني، منظمة الإعلام الإسلامي، طهران ـ إيران، ١٤٠٤هـ ، ص١٥٥.
٢١٢) علي بن أحمد الواحدي : أسباب النزول، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت) ، ص٤.
٢١٣) محمد الصادق إبراهيم عرجون : محمد رسول الله، دار القلم، دمشق، ط٢، (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م) ، ج١، ص٤٥.
٢١٤) سورة البقرة ، من الآية :١٧٠.

٢١٥) د. محمد سعيد رمضان البوطي : فقه السيرة ،دار الفكر ،دمشق ،ط٢ ،(١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م) ،ص٤٠ ـ ٤١.
٢١٦) سورة الجمعة ، الآية :٢.
٢١٧) سورة آل عمران ، الآية :١٠٣.
٢١٨) د. أحمد شلبي : موسوعة الحضارة الإسلامية ـ رقم (١) ـ المناهج الإسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط٨ ، (١٩٩٢) ، ص٢٣.
٢١٩) سورة الفتح ، الآيتان :٢٨ـ٢٩.
٢٢٠) سورة الأنبياء ، الآية :١٠٧.
٢٢١) محمد الغزالي : فقه السيرة ،دار القلم ،دمشق ،ط٤، (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م) ، ص١٠٢ .
٢٢٢) د. إبراهيم علي محمد أحمد : في السيرة النبوية ،قراءة لجوانب الحذر والحماية ،كتاب الأمة ،رقم ـ٥٤ـ وزارة الأوقاف ، دولة قطر ، (رجب ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م) ، ص ٧٢.
٢٢٣) سورة فصلت ، الآية :٢٦.
٢٢٤) سورة الحجر ، الآية :٦.
٢٢٥) سورة ص ، الآية :٤.
٢٢٦) سورة المطففين ، الآيات :٢٩ـ٣٣.
٢٢٧) انظر : د. محمد سعيد رمضان البوطي ؛ فقه السيرة ، ص٢١٣.
٢٢٨) سورة التوبة ، الآية :٢٥.
٢٢٩) انظر: د. راشد البراوي: التفسير القرآني للتاريخ، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٣، ص٢١٩.
٢٣٠) سورة البقرة ، الآية :٢١٤.
٢٣١) سورة آل عمران ، الآية :١٤٦.
٢٣٢) سورة سبأ ، الآيات :٣٤ـ٣٦.
٢٣٣) سورة القصص ، الآيات :٥٧ـ٦٠.
٢٣٤) سورة البقرة ، الآية :١٣.
٢٣٥) سورة الشعراء ، الآيات :١١١ـ١١٥.
٢٣٦) سورة المائدة ، الآية : ١٠٤.
٢٣٧) سورة الزخرف ، الآيات :٢٢ـ٢٤.
٢٣٨) سورة الأنعام ، الآية :٣٤.
٢٣٩) السيد محمد باقر الصدر : المدرسة القرآنية ، ص٦٣.
٢٤٠) سورة آل عمران ، الآية :٢٠٠.
٢٤١) د. عبد الكريم زيدان : السنن الإلهية، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣ م)، ص٦٩.
٢٤٢) سورة البقرة ، الآيات :١٥٥ـ١٥٧.
٢٤٣) سورة آل عمران ، الآيات :١٤٦ـ١٤٨.
٢٤٤) سورة آل عمران ، الآيتان :١٧٣ـ١٧٤.
٢٤٥) سورة النساء ، الآية :١٠٤.
٢٤٦) سورة الأنفال ، الآية :٤٥.
٢٤٧) سورة النساء ، الآية :١٤٢.
٢٤٨) سورة التوبة ، من الآية :١٠١.
٢٤٩) سورة المنافقون ، الآية :١.
٢٥٠) سورة الأعراف ، الآيتان :١٦ـ١٧.
٢٥١) سورة فاطر ، الآية :٦.
٢٥٢) سورة يس ، الآيات :٦٠ـ٦٢.
٢٥٣) مالك بن نبي : مشكلة الثقافة، ترجمة:عبدالصبور شاهين، دارالفكر، دمشق، ط ٤، (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م)، ص٧٦.

الفصل الرابع

القرآن يوظف حركة التاريخ

بما أن القرآن الكريم يمثل «دستور نهضة إنسانية شاملة» لذا فإنه استخدم عنصر التاريخ في كثير من آياته المباركة، كمادة أساسية في تشكيل البنية الثقافية للعقل المسلم؛ لترشيد حركته في عمليات البناء والإبداع الحضاري. فعمل على توظيف أحداث ووقائع الماضي، بشكل يؤدي إلى نتائج تطبيقية تتصل بسلوكنا في الحياة؛ لتحدد مواقفنا أمام الأحداث، وبالتالي أمام المشكلات التي تنجم منها[١].

مارس القرآن الكريم عملية التوظيف لحركة التاريخ عبر مرحلتين[٢]:

الأولى: مرحلة العرض والتجميع للأحداث والوقائع التاريخية المختلفة، وفق صور و أساليب متنوعة، كما مر في الفصل السابق.

الثانية: مرحلة استخلاص القوانين والسنن التي تحكم الظواهر الاجتماعية التاريخية، مستمدة من صميم الأحداث والوقائع للتاريخ.

ولا يهدف القرآن الكريم من توظيف التاريخ، إلى استرجاع الماضي، وإحياء النزعة التاريخية، التي تحاول اختزال الحاضر والمستقبل وتجميدهما في الماضي؛ بل يهدف إلى تعميق الرؤية العملية للإنسان وإغناء تجربته، بتجارب الماضي؛ لجعله أكثر قدرة على ممارسة الدور الحضاري في بناء الحاضر، والإعداد للمستقبل.بذلك جاء القرآن المجيد؛ ليحفل بمئات الآيات التي تعالج قضايا التاريخ، وتستخلص منها القيم الإنسانية، والتوجيهات الحضارية التي تفيدها رحلة الأمم السابقة في مراحل قوتها وضعفها[٣].

إن فكرة «تسخير التاريخ» لدى القرآن المجيد، انطلقت من الحقيقة القائلة: بأن الإنسان هو الإنسان في كل زمان .. في نوازعه وميوله، في مشاعره وأحاسيسه. إذ هناك

مجموعة من القيم الخلقية والحقوقية التي هي كلية ومطلقة ودائمة وثابتة، وقابلة للسراية والانتقال إلى جميع المجتمعات، وتكون هذه القيم ناشئة من وجوه الاشتراك التكويني بين الناس[٤].

يقول تعالى:

﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[٥]

يقول السيد الطباطبائي في هذه الآية الكريمة:للإنسان فطرة خاصة تهديه إلى سنة خاصة في الحياة، وسبيل معينة ذات غاية مشخصة، ليس له إلا أن يسلكها خاصة، وهو قوله تعالى: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾، وليس الإنسان الذي يعيش في هذه النشأة إلا نوعا واحدا لا يختلف ما ينفعه وما يضره بالنظر إلى هذه البنية المؤلفة من روح وبدن، فما للإنسان من جهة أنه إنسان إلا سعادة واحدة وشقاء واحد، فمن الضروري حينئذ أن يكون اتجاه عمله سنة واحدة ثابتة يهديه إليها هاد واحد ثابت[٦].

فالقرآن الكريم عندما يوظف التاريخ للاتعاظ والاعتبار بما جرى للمجتمعات السالفة:

﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾[٧]

﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾[٨]

إنه يعترف بأن الحياة الإنسانية لجميع الناس على امتداد الزمان و المكان، واحدة في أصولها ومكوناتها الأساسية، وهذا ما يمكن التاريخ من الإجابة على كثير من الأسئلة التي تثار حول مشكلات الحاضر والمستقبل.

مجالات التوظيف القرآني للتاريخ

انطلق القرآن العزيز في توظيفه لحركة التاريخ، من الغايات الأخلاقية التربوية التي جاءت بها الرسالة الإسلامية، في بناء الإنسان والحياة، بناء صالحا.فتعامل مع التاريخ بنظرة إيجابية حركية شمولية، دون أن يتوقف عند جزئيات الوقائع والأحداث إلا بمقدار ما تكون شواهد ورموزا تخدم تلك الأغراض التربوية الإنسانية.وشمل التوظيف القرآني للتاريخ مجالات مختلفة من الحياة.نشير إلى أهمها بإيجاز:

أولا: مجال الاتعاظ والعبرة:

وردت مفردات «العبرة» و «الموعظة» و «الذكرى» و «الهدى» في الآيات القرآنية التي تحدثت عن وقائع التاريخ، لتكشف عن طبيعة المغزى والمعنى القرآني من وراء ذلك، فقال تعالى:

﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ (٩)

﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ (١٠)

﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾ (١١)

اتخذ القرآن عنصر التاريخ في آياته؛ لغايات أخلاقية تربوية، تتصل بطبيعة بناء الإنسان والمجتمع، بناء صالحا. وبما أن هوية ورسالة الإنسان المسلم والمجتمع الإسلامي، هوية ورسالة أخلاقية تربوية،فالتاريخ ينبغي أن يخدم الرسالية والأخلاقية في علاقات المسلم الداخلية والخارجية، كما ينبغي أن يخدم الرسالة والروح الرسالية في العالم. وكلما حدث في سلوك المسلم أو سلوك الجماعة الإسلامية انحراف عن الأخلاقية أو انحراف عن الروح الرسالية في ممارسة الحياة والتعامل مع الآخرين، فإن التاريخ يستعمل، إلى جانب الوسائل التربوية الأخرى والتنظيمية لتصحيح النظرة الخاطئة، وتقويم مسار الفرد والمجتمع (١٢).

وقد تنبه كل مؤرخي الإسلام لهذه الوظيفة التاريخية «الموعظة والاعتبار»:

قال علي بن الحسين المسعودي (ت : ٣٤٦هـ) عن التاريخ: إنه علم يستمتع به العالم والجاهل، ويستعذب موقعه الأحمق والعاقل، فكل غريبة منه تعرف، وكل أعجوبة منه تستظرف، ومكارم الأخلاق ومعاليها منه تقتبس، وآداب سياسة الملوك وغيرها منه تلتمس[(١٣)].

قال أبو علي، مسكويه الرازي (ت: ٤٢١هـ): إني لما تصفحت أخبار الأمم، و سير الملوك، وقرأت أخبار البلدان، وكتب التواريخ، وجدت فيها ما تستفاد منه، تجربة في أمور لا تزال يتكرر مثلها، وينتظر حدوث شبهها وشكلها...ورأيت هذا الضرب من الأحداث، إذا عرف له مثال مما تقدم، وتجربة لمن سلف، فاتخذ إماما يقتدى به، حذر مما ابتلي به قوم، تمسك بما سعد به قوم. فإن أمور الدنيا متشابهة، وأحوالها متناسبة، وصار جميع ما يحفظه الإنسان من هذا الضرب كأنه تجارب له، وقد دفع إليها، واحتنك بها، و كأنه قد عاش ذلك الزمان كله، وباشر تلك الأحوال بنفسه[(١٤)].

قال شمس الدين السخاوي (ت:٩٠٢هـ) عن التاريخ: وهو غزير النفع كثير الفائدة بحيث يكون من عرفه كمن عاش الدهر كله، وجرب الأمور بأسرها وباشر تلك الأحوال بنفسه، فيغزر عقله، ويصير مجربا غير غر و لا غمر[(١٥)].

أما في العصر الحديث، فقد ذهب «لورد آكتون» في رسالة له إلى كريبتون إلى المعنى نفسه بقوله: «إن القانون الخلقي هو سر سلطة التاريخ و هيبته و فائدته، وأن التاريخ يجب أن يكون حكما بين المتخاصمين ودليلا للحائرين»[(١٦)].

الملاحظ أن القرآن الكريم، عندما يقدم تعاليمه وتوجيهاته الأخلاقية التربوية للإنسان والمجتمع، يستعين بدروس و شواهد من أحوال الماضين، وما جرى عليهم من طوارق الدهر ونوازل الأيام، وما تعرضوا له من النكبات والآلام، وما أصابهم من الهلاك و الدمار، ولعل هذا الجانب هو السمة البارزة من سمات القرآن، و إن لم تكن أثمن سماته، و لا آصلها[(١٧)].

ثانيا: مجال الفكر والثقافة:

أحدث القرآن الكريم ثورة هائلة في عالم الفكر والثقافة الإنسانية، في خلال إثارته الكثير من الموضوعات التي كان يجهلها الإنسان؛ ما دفعه نحو البحث والعلم والمعرفة، و أخرجه من الجهل والخرافة؛ لأن «الجهل الذي لا يعترف به تتولد منه في الغالب ضلالات»[١٨]. و هو ما عاشه الناس قبل الإسلام، خصوصا عرب الحجاز وبدو نجد، كما قال تعالى:

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[١٩]

والفكر في المفهوم الحضاري: هو المعلومات والشرائع والمناهج والقيم التي تقوم شخصية الأمة الثقافية والحضارية، وتعطيها سمتها المميزة لها عن الأمم الأخرى، ويرسم لها دورها في حركة التاريخ[٢٠].

أما الثقافة: فهي السلوك أو نمط الحياة وطريقة العمل والتفكير والشعور التي تميز مجتمعا من المجتمعات[٢١].

ويحرض القرآن المجيد العقل البشري نحو التفكير الهادف والمنتج عند إجالة النظر والتأمل في آيات الله تعالى المنبثة في الآفاق و الأنفس:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[٢٢]

﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾[٢٣]

﴿قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾[٢٤]

وقد تنوعت أدوات ووسائل التفكير في القرآن الكريم، ومنها التفكير في التاريخ، و في حياة ومصير الأمم السابقة[٢٥]. قال تعالى:

﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾[٢٦]

كما أثار القرآن الفكر البشري، نحو البحث والمعرفة؛ لتشخيص السنن والقوانين التي تحكم حركة التاريخ؛ بالنظر والمراجعة والتأمل في سيرة الماضين، يقول تعالى:

﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾[٢٧]

﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾[٢٨]

«وعاقبة الذين من قبلهم» هي من صميم الدراسة التاريخية، و «عاقبة» ربط بين سبب ونتيجة، لا مجرد رصد لواقع تاريخي.هذه العاقبة تحدث إذا توفرت مقدماتها.وهذا الترابط هو «سنن» أو قوانين الحياة[٢٩].

وكما يقول محمد إقبال: «التاريخ، أو بتعبير القرآن، أيام الله، وهو ثالث مصادر المعرفة الإنسانية بناء على ما جاء في القرآن»[٣٠]. لهذا تعددت الآيات التي ترددت فيها عبارات الحث والترغيب في السير في الأرض والنظر في أحوال الماضين، وما أصابهم، و كثيرا ما تختتم بعبارات: «لعلهم يتفكرون» «أفلا يعقلون» «لعلهم يفقهون»...الخ.

إن الهدف من السير في الأرض هو اكتشاف السنن مادام الواقع المعاش، لا يتيح للمرء أن يرى الصورة كاملة بكل أبعادها.والسير في الأرض ليس سيرا في المكان فقط؛ ولكنه أيضا سير في الزمان حتى نرى قصة البشرية كاملة في رشدها وغيها، والعواقب التي آلت إليها[٣١].

وقد غاص القرآن المجيد بالفكر الإنساني نحو أعماق التاريخ وبداياته الأولى، عندما نقله إلى النظر والتأمل في الصفحات الأولى لخلق الإنسان، والظروف والعمليات التي رافقته:

﴿أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير(١٩)قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير﴾[٣٢]

فقص القرآن مشاهد خلق الإنسان الأول، وما مر به من صراع حاد مع عدوه إبليس، ذلك الصراع الذي شكل بداية الانعطاف الحضاري في حركة التاريخ:

﴿وإذ قال ربك للملآئكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون(٣٠)وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملآئكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلآء إن كنتم صادقين(٣١)قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم(٣٢)قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون(٣٣)وإذ قلنا للملآئكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين(٣٤)وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا

حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين(٣٥)فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين(٣٦) فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم(٣٧)قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون(٣٨)والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[٣٣]

وحيثما تنقلنا في أرجاء القرآن الفسيحة؛ لقراءة الآيات والمقاطع الخاصة بحركة التاريخ البشري، وجدناها ترتبط ارتباطا عضويا أصيلا بالنظرة العقيدية للإسلام، فهي تحمل بين طياتها أفكارا و مفاهيم، تدخل في تأسيس المنظومة العقائدية لهذا الدين، و تؤسس ثقافة المسلم الشاملة للكون والحياة.بذلك تكون العروض التأريخية في القرآن، قد أعطت العقيدة الإسلامية تصورا تاريخيا واضحا للكون منذ الخلق حتى يوم القيامة، و ربطت بين المبدأ والمنتهى بحلقات الأنبياء، وأعطت لمبدأ الخلق صورة لا تقل عنها وضوحا صورة الآخرة.وجعلت ما بين الطرفين، فترة عبور[٣٤].

إذن الفتح القرآني الجليل القائل بأن للساحة التاريخية سننا وضوابط هو الذي مهد إلى تنبيه الفكر البشري[٣٥]، أن يتعمق في دراسة حركة التاريخ؛ ليخرج بالعقل الإنساني من نظرته السطحية الظاهرة للتاريخ إلى النظرة العميقة الواعية التي تربط بين الأسباب و المسببات، فجعلت من العقل البشري «عقلية تركيبية، تملك القدرة على الرؤية الاستشرافية التي تطل من فوق على حشود الظواهر بحثا عن العلائق و الارتباطات، ووصولا إلى الحقيقة المرجاة»[٣٦].

ثالثا: مجال السياسة والحكم:

يحتل الفكر السياسي والمفاهيم السياسية، مساحة واسعة من الفكر الإسلامي...فالإسلام دين سياسة وعمل سياسي..ويعتبر العمل والجهاد السياسي في الإسلام، في طليعة مهام ومسؤوليات الإنسان المسلم، قال تعالى:

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾[٣٧]

وكثيرا ما تحدث القرآن المجيد عن الفكر والعمل السياسي الإسلامي، خلال عروضه التاريخية، حيث العلاقة الوثيقة بين أحداث التاريخ والعلوم السياسية، فقد بين البروفيسور (سيلي) مدى الارتباط الوثيق بينهما بقوله: «إن علوم السياسة هي ثمرة التاريخ، وإن التاريخ هو جذر علم السياسة»[٣٨]. إن استرداد وقائع التاريخ التي وردت في القرآن، ودراستها وتحليلها وفقا لمناهج الاستقراء والاستدلال والمقارنة، يكشف عن طبيعة وجهة التاريخ السياسي الذي عاشته البشرية منذ بدء الخليقة حتى يومنا الحاضر، كما يضع بين أيدينا تجربة سياسية هائلة كفيلة بأن تمنحنا ثقافة ووعيا سياسيا، يمنعنا من السقوط في أحضان الضلال ومرديات الهوى. بذلك يصبح التاريخ هو المربي الشريف للمدنيات الحديثة، ولكنه يقوم بالنسبة للمدنيات المتقادمة بمهمة ثانية كذلك، فهو يحفظ العلاقة واضحة بين الأفكار اللاحقة و حالاتها البدائية[٣٩].

إن معنى السياسة في اللغة: إدارة شؤون الناس وتدبير أمورهم بما يصلحهم، كما نصت على ذلك معاجم اللغة.

جاء في لسان العرب: السوس: الرياسة...وساس الأمر سياسة: قام به. و السياسة: القيام على الشي بما يصلحه[٤٠].

وقال الفيومي: «ساس زيد الأمر، يسوسه، سياسة: دبره وقام بأمره»[٤١].

وأوضح أبو البقاء معنى السياسة فقال: «هي استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل والآجل، وهي من الأنبياء على الخاصة والعامة في ظاهرهم وباطنهم، و من السلاطين والملوك على كل فهم في ظاهرهم لا غير، ومن العلماء ورثة الأنبياء على الخاصة في باطنهم لاغير، والسياسة الدينية تدبير المعاش مع العموم على سنن العدل والاستقامة»[٤٢].

كما عرف ابن عقيل السياسة الإسلامية بقوله: السياسة ما كان فعلا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح، وأبعد من الفساد[٤٣].

بذلك يتضح أن السياسة في الإسلام، تعني تحمل مسؤولية الرئاسة لإدارة شؤون الناس، وإصلاح أوضاعهم، وتحقيق سعادتهم، وهي من مهام الأنبياء، وخلفائهم الذين يحملون رسالتهم.

لقد مارس الأنبياء عملهم وفق «سياسة منهجية» عملت على إشاعة العدل ونشر الحق، وإحلال الوفاق الاجتماعي بين الناس:

﴿فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين﴾[٤٤]

﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾[٤٥]

إن وظيفة الأنبياء هي إنقاذ المجتمعات من الضلال، واستصلاحها من الفساد، كما جاء على لسان النبي شعيب (عليه السلام) مخاطبا قومه:

﴿قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾[٤٦]

ولا تتحقق سلامة المجتمع من الضلال والفساد، إلا بسلامة فكره وعمله السياسي، الذي هو الحاضن لما دونه، فهو الذي يؤمن البيئة المناسبة للإنسان كي يرتاح بعبادته لله عز وجل، وهو الذي يفسح المجال أمام العقل كي ينفتح ويخترع ويستخدم كل طاقات الكون في سبيل خدمة وسعادة الإنسان[٤٧].

ويقرر القرآن المجيد ما للفساد السياسي من أثر كبير في تدمير المجتمع، بفعل الدور الذي تلعبه السلطة السياسية الغاشمة في حياة الشعوب والأمم، كما في قوله تعالى:

﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون﴾[٤٨]

ويؤكد القرآن بأن فعل القوى الحاكمة المجرمة في مجتمعاتها، يقوم على أساس التسلط والاستكبار والقهر والاستبداد، إرضاء لمصالحهم وأهوائهم ونزواتهم المجنونة، فيؤدي إلى تدمير هذه المجتمعات وتمزيقها، كما يحصل لأغلب السلطات الديكتاتورية التي تتسلط على الشعوب بالقوة والبطش، وهذا ما أشارت إليه «بلقيس» ملكة سبأ، فيما حكاه القرآن على لسانها:

﴿قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون﴾[٤٩]

لذا كان في طليعة أهداف السياسة النبوية عبر التاريخ،إطلاق حريات الناس،و

تخليصهم من كل الأغلال،والقيود التي يفرضها الطغاة والمستكبرون عليهم،بسياساتهم الجائرة:

﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾[٥٠]

كما بدأ موسى (عليه السلام) نهجه النبوي، بدعوة فرعون إلى تحرير بني إسرائيل من ربقة عبوديته، وإفساح المجال أمامهم؛ ليمارسوا حقوقهم الفكرية والعملية، بعيدا عن الاضطهاد والاستضعاف الذي كان يمارسه فرعون وجنوده معهم.فنقرأ قوله تعالى:

﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى(٤٣)فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى(٤٤)قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى(٤٥)قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى(٤٦)فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى﴾[٥١]

﴿وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين(١٠٤)حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل﴾[٥٢]

فخلال المفاوضات بينهما، طرح موسى موضوعا سياسيا اجتماعيا، وهو إخراج الناس من تحت سلطة حاكم ظالم ليعيشوا في مكان آخر بحرية واستقلال[٥٣].

يميز القرآن العزيز في عروضه التاريخية، بين نوعين من السلطات الحاكمة:

النوع الأول: السلطة المستبدة، التي تكون وظيفتها الأساسية تغذية نفسها و تدعيم مركزها؛ لتكون وظيفتها خدمة شخص المتسلط ومصالحه، فتصبح السلطة هنا مطلبا ذاتيا للحاكم، وهي مطلوبة لذاتها، والنموذج التاريخي لهذا النوع من السلطة هو النموذج الفرعوني الطاغوتي الذي ذكره الله تعالى في القرآن الكريم، ونص على أبرز ملامحه التي أشرنا إليها، منها قوله تعالى[٥٤]:

﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري﴾[٥٥]

﴿قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾[٥٦]

﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾[٥٧]

﴿وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين﴾[٥٨]

النوع الثاني: السلطة الراعية للمجتمع، بحيث تكون السلطة وسيلة ووظيفة، و ليس مطلبا ذاتيا، بالنسبة إلى السلطان، وهي مطلوبة لما تؤديه من وظيفة الرعاية والحفظ و ليست مطلوبة لذاتها[٥٩]...وهو النموذج الذي جسده نبي الله داود (عليه السلام)، الذي آتاه الله مع النبوة، الملك والسلطان، فكان ملكه قويا عزيزا، وكان يسوسه بالحكمة والحزم جميعا، وفصل الخطاب: قطعه والجزم فيه برأي لا تردد فيه. وذلك مع الحكمة ومع القوة، غاية الكمال في الحكم والسلطان في عالم الإنسان[٦٠].

مثال السلطة النموذجية التي جسدت مفهوم الرعاية للأمة، والحفاظ على مصالحها، هي سلطة الرسول الأكرم (صلوات الله وسلامه عليه)، التي عبر عنها القرآن الكريم أجمل تعبير فقال:

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾[٦١]

فالحاكم في الإسلام، أخ للرعية، وأمين على مصالحها، وقد بلغ من إنسانية هذا الحاكم أنه لم يكن يتميز في مظهر، أو زي، أو مجلس، أو مسكن، أو نمط حياة، عن سائر الناس، بحيث كان يلتبس الأمر على من لا يعرفه بعينه، وكما روي عن التباس الأمر في حالات كثيرة على بعض الوفود والوافدين، فلم يميزوا النبي، أو عمر بن الخطاب،أو علي بن أبي طالب، حال خلافتهما[٦٢].

وفي معرض ذكره لقصص الأمم السالفة، ذكر القرآن المجيد، نماذج للفكر والعمل السياسي الواعي.منها ما مارسته تلك المرأة «بلقيس» ملكة سبأ، عندما وصلها كتاب سليمان (عليه السلام) يدعوها فيه إلى الدخول في طاعته، التي هي من طاعة الله تعالى، و الخضوع لسلطانه الذي هو من سلطان الله عز وجل:

﴿قالت ياأيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم(٢٩)إنه من سليمان وإنه باسم الله الرحمان الرحيم(٣٠)ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين(٣١)قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري

ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدوني(٣٢)قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين(٣٣)قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون(٣٤) وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون﴾[٦٣]

إنها قصة الحاكم الذي يفكر بمصالح شعبه ومستقبل مجتمعه، فيدعوهم إليه، ويشاورهم في الأمر قبل أن يتخذ أي قرار.إلى آخر قصة هذه المرأة في القرآن، التي أسلمت مع قومها لله تعالى، وقررت الانضمام تحت لواء سليمان (عليه السلام).

ونجد في العروض التاريخية التي تضمنتها آيات القرآن العزيز، حديثا موسعا حول موقف «الملأ» ـ كل ملأ في التاريخ ـ وهم الحاشية أو الطبقة المحيطة بالملك أو صاحب السلطان، وهي بمثابة هيئة المستشارين في نظم السياسة المعاصرة[٦٤].حيث كانوا و لا يزالون يمثلون الموقف السلبي أمام كل دعوات الحق و الإصلاح التي تعترض مسيرة الحاكم...فذكرهم تعالى في آيات عديدة:

﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم(٥٩)قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين﴾[٦٥]

﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾[٦٦]

﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾[٦٧]

هكذا يوظف القرآن المجيد كثيرا من أخبار الماضي، نحو التثقيف والتوعية السياسية، لأثرها في مسيرة حركة التاريخ.

رابعا: مجال المرابطة والجهاد:

في البدء لابد من التنويه إلى أن منهج السلام العالمي في الإسلام، هو من طبيعة هذا الدين.وقد عملت جميع الرسالات الإلهية عبر التاريخ، على إشاعة السلم، ونشر روح السلام بين بني البشر.فالله تعالى هو السلام، ويدعو عباده كافة إلى الدخول فيه، قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾[٦٨]

تبين هذه الآية الكريمة؛ أن الإيمان وحده، هو القادر على إحلال السلام في النفس الإنسانية، بعد أن يحل تناقضاتها الداخلية، وعلى إحلال السلام في المجتمع البشري بعد أن يقيم القاعدة الإنسانية الفطرية القويمة التي تقوم عليها علاقات الأفراد في جميع مجالات الحياة(٦٩).

وقد يأتي السؤال الذي يقول: إذا كان منهج الأديان الإلهية داعيا إلى السلام، فلماذا المرابطة والجهاد؟ ولماذا تشريع القتال؟ ولم إعداد العدة؟.

إن القرآن المجيد يحشد العديد من آياته نحو فريضة المرابطة والجهاد، قال تعالى:

﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين﴾(٧٠)

﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾(٧١)

﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾(٧٢)

﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾(٧٣)

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾(٧٤)

من دراسة آيات المرابطة والجهاد الواردة في القرآن، التي تحدثت عن مختلف الصراعات بين الحق وبين الباطل، وما حصل بين أتباعهما عبر التاريخ، نستنتج أن مشروعية المرابطة والجهاد، نابعة من أصل مبدأ السلم والسلام العالمي.فالسلام غير قادر على حماية نفسه، وتثبيت وجوده، من كيد المعتدين إلا بالمرابطة والجهاد، يقول تعالى في قصة طالوت وجالوت:

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾(٧٥)

أي لولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض، ويكف بهم فسادهم لغلب المفسدون، وفسدت الأرض...بعبث الكفار فيها...،ونزل السخط فاستؤصل أهل الأرض.(٧٦)

فالجهاد تدافع بين بني البشر، يحرك الحياة، ويدفع بها نحو الغايات النبيلة.ولولا هذا التدافع لتعفنت الحياة وسادها الخمول والكسل، كما يمنح للناس استقرارهم ويصلح

أوضاعهم و أحوالهم، وفي ذلك يقول تعالى:

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾(٧٧)

فالجهاد سبيل لإخماد كل أنواع الفتنة، التي تثيرها القيادات الشيطانية المتآمرة على الإنسان؛ لإغوائه وجره نحو منحدرات الشر والفساد:

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير﴾(٧٨)

ويؤكد القرآن العزيز، أن ترك الجهاد، والفرار من الزحف، مدعاة إلى تعرض المجتمع إلى العذاب والإذلال، قال تعالى:

﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير﴾(٧٩)

إن العذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده، فهو كذلك عذاب الدنيا؛ عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح، والغلبة عليهم للأعداء، والحرمان من الخيرات واستغلالها للمعادين...وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله عليها الذل فدفعت مرغمة صاغرة لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء(٨٠). وقد قدم القرآن الكريم عبر حركة التاريخ، نموذج الشعب الجبان في وقت الكريهة، الفرار في ساعة الشدة، المتمرد على أنبيائه(٨١). هم بنو إسرائيل الذين دعاهم نبيهم موسى (عليه السلام) إلى التضحية والجهاد، عندما أمرهم بالدخول إلى الأرض المقدسة «فلسطين» فجبنوا وتثاقلوا، حيث قال لهم:

﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين(٢١)قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون(٢٢)قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين(٢٣) قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون(٢٤)قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين(٢٥)قال فإنها محرمة عليهم أربعين

سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين﴾[٨٢]

قال ابن عباس (رضي الله عنه): «فتاهوا في الأرض أربعين سنة، يصبحون كل يوم، يسيرون ليس لهم قرار»[٨٣]. فأي أمة امتنعت عن الجهاد، ابتليت في حياتها بالذل، والفقر، و الهزيمة.وعلى العكس، فإن الأمم المجاهدة، تكون صاحبة مجد وعزة، وسيادة، وهذا ما أوضحه الإمام علي (عليه السلام) في خطبة قال فيها:

«أما بعد؛ فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة. فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء، وديث بالصغار والقماءة، وضرب على قلبه بالإسهاب، وأديل الحق منه بتضييع الجهاد، وسيم الخسف، ومنع النصف »[٨٤].

وقد برهن التاريخ على أن الشعوب التي تنتصر في معركة البقاء هي الشعوب التي تتصف بالشجاعة والجد و الصبر والذكاء وقوة الاحتمال.أما الشعوب التي تتصف بالخمول والهلع والجزع، فمالها إلا الاندحار والفناء[٨٥].

وأوضح القرآن أهداف وغايات الجهاد، بدقة اختياره لمصطلح (الجهاد)، «فقد تجنب استخدام لفظة ـ الحرب ـ وغيرها من الكلمات التي تؤدي معنى القتال...واستبدل بها كلمة ـ الجهاد ـ التي تؤدي معنى:بذل الجهد والسعي...والذي أراه و أجزم به ـ على قول المودودي ـ أنه ليس لذلك إلا سبب واحد وهو أن لفظة (الحرب) كانت ولا تزال تطلق على القتال الذي يشب لهيبه وتستعر ناره بين الرجال و الأحزاب والشعوب لمآرب شخصية وأغراض ذاتية...لا تكون فيها رائحة لفكرة أو انتصار لمبدأ»[٨٦]. فالعنوان الكبير الذي تندرج فيه حركة المرابطة والجهاد في القرآن هو «سبيل الله» حيث ينادي القرآن بأعلى صوته :

﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾[٨٧]

إنهما الخطان المتوازيان، أو بالأحرى الخطان المتعاكسان، فلكل منهما اتجاه يختلف عن اتجاه الآخر[٨٨]. فالمؤمنون يقاتلون في خط الله تعالى، وهو خط صلاح البشرية ونهوضها الحضاري، أما الذين كفروا فيقاتلون في خط الفساد وعرقلة حركة التاريخ.هكذا تنحصر دوافع القتال في سبيل الله بالباعث الأسمى، وهو الإيمان بالله

والتصديق برسله، وبالمطلب العاجل وهو العمل على إعلاء كلمة الله و نشر دينه، وبناء الحضارة الإسلامية المجيدة، و بالغاية القصوى وهي ابتغاء مرضاة الله، ونيل ثوابه الذي أعده للمحسنين[٨٩].

خامسا: مجال الاجتماع والحضارة:

لم ترد كلمة «مجتمع» في القرآن المجيد، بل جاءت بديلا عنها كلمات أخرى مثل «الأمة» و «القرية» و «القوم» للدلالة على مفهومها، كما في قوله تعالى:

﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾[٩٠]

﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾[٩١]

﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾[٩٢]

﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون﴾[٩٣]

يعني مصطلح «المجتمع»: جماعة من الناس يعيشون معا في منطقة معينة، وتجمع بينهم ثقافة مشتركة، ومختلفة عن غيرها، وشعور بالوحدة، كما ينظرون إلى أنفسهم ككيان متميز[٩٤]. فالمجتمع إذا عبارة عن جماعة من الناس يعيشون في كيان اجتماعي واحد، ويتأثرون بعامل مشترك في العقائد والأهداف، ويتلاحمون ضمن حياة اجتماعية واحدة، لها أعرافها وتقاليدها، ووسيلتهم في ذلك التفاعل والعلاقات المتبادلة[٩٥].

ولكي يكون المجتمع بالمعنى الدقيق للكلمة، ويضمن ديمومته في الاستقلال والبقاء، لابد أن يحمل في داخله صفات ذاتية، تحفظ شخصيته، وتميز دوره عبر التاريخ.وفي ذلك يقول مالك بن نبي واصفا المجتمع: هو ليس مجرد مجموعة من الأفراد؛ بل هو تنظيم معين ذو طابع إنساني يتم طبقا لنظام معين[٩٦]. هذا النظام ذو الطابع الإنساني، الذي يتشكل بفعل تأثيره النموذج الأكمل للمجتمع البشري.مثاله المجتمع الإسلامي الذي أسسه الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) في صدر الإسلام، والذي ساده نظام معين له طابعه الإنساني الأصيل، فاستحكمت بفعله شبكة الولاء بين أفراده، كما قال تعالى:

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾[٩٧]

ووصفه الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) بقوله الشريف:

«المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا»[(٩٨)].

فالمجتمع تعبير عن جماعة إنسانية، تتحرك في مسار تاريخي معين، تبدأ من نقطة محددة في الزمان، يمكن أن نطلق عليها مصطلح «ميلاد»، وفيها يباشر وظيفته التاريخية ضمن حركة التغيير الاجتماعي، وفق خصائص ووسائل معينة، قد تؤدي بالجماعة إلى شكل راق من أشكال الحياة الاجتماعية، أو تسوقها على عكس ذلك إلى وضع متخلف.

منه يتضح أن فكرة المجتمع تتقوم من ثلاثة عناصر أساسية هي:

١ـ حركة تتفاعل مع الزمن، يتسم بها المجموع الإنساني.

٢ـ إنتاج دائم لأسباب هذه الحركة.

٣ـ غاية واضحة تحدد اتجاه هذه الحركة.

هذه العناصر الثلاثة، هي التي تحدد وجهة المجتمع في الحياة، وتفرق بين المجتمع المتحرك الذي يندفع في تقدمه إلى الحضارة، وبين المجتمع الساكن الذي ينتهي إلى الانهيار[(٩٩)].

أما مصطلح «الحضارة»، ففي معاجم اللغة، مشتق من الفعل «حضر»، وكلمة «حضارة» تقابل كلمة «بداوة»، وكذلك كلمة «حاضرة» تقابل كلمة «بادية».و الحضارة: الإقامة في الحضر.والحضر والحاضرة: هي المدن والقرى والريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار[(١٠٠)]. فالحضر ـ على هذا المعنى ـ هم سكان المدن، والبدو هم سكان الصحراء[(١٠١)]. فالحضارة: تعني ضد البداوة، وهي مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني، كما تعني مظاهر الرقي العلمي والفني و الأدبي والاجتماعي في الحضر[(١٠٢)].

وقد عالج «ابن خلدون» مفهوم الحضارة في مقدمته، فاعتبر «الحضارة غاية في البداوة»[(١٠٣)]، وأن الحضارة تحصل في الأمصار، «والسبب في ذلك أن الحضارة، هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران، زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه»[(١٠٤)]وذلك عندما تتوسع أحوال البدو ويتفننون في ترفهم وصنائعهم فيقول: «ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك إلى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثروا من الأقوات

والملابس والتأنق فيها، وتوسعة البيوت، واختطاط المدن والأمصار للتحضر، ثم تزيد أحوال الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج القوت وإستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك، ومعالاة البيوت والصروح، و إحكام وضعها في تنجيدها، والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوة إلى الفعل إلى غايتها، فيتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه، ويعالون في صرحها، ويبالغون في تنجيدها،و يختلفون في إستجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون، وهؤلاء هم الحضر ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان» [١٠٥].

منه يتضح أن أصل الحضارة في اللغة هو الإقامة و الاستقرار في المدن، حيث يكون الإنسان أكثر قدرة على التفكير والعطاء عما في البادية، بحكم حالة الاستقرار، التي تبعث فيه الشوق نحو تعلم مختلف الفنون والعلوم، والبحث عن سبل العيش الرغيد، فتدفعه إلى سن القوانين، ووضع الخطط والبرامج لتحقيق تقدمه وتطوره في الحياة.

واستخدم القرآن المجيد مصطلح «القرية» و«القرى» في حديثه عن إرسال الأنبياء (عليهم السلام) إلى المجتمعات البشرية، فقال تعالى:

﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون﴾ [١٠٦]

﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا﴾ [١٠٧]

﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى﴾ [١٠٨]

واستخدمه ـ أيضا ـ عندما تحدث عن سقوط الأمم والحضارات السالفة، قال تعالى:

﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة﴾ [١٠٩]

﴿قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية﴾ [١١٠]

﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ [١١١]

وبما أن القرية، اسم يطلق على المدينة الكبيرة [١١٢]، وهي المدينة الجامعة لزعماء الأمة و رؤسائها، وهي التي تسمى في عرف مصطلحات العصر الحديث بالعاصمة؛ لأن الأنبياء يبعثون في هذه القرى الجامعة؛ لأن سائر البلاد والشعوب تتبع الكبار وأهل العواصم، و إن هم آمنوا كان ذلك فتحا كبيرا [١١٣]. ومنه نستوحي أن القرآن العزيز، يرى

أن الحضارة تبدأ من القرى ثم تعم ما حولها، وبعث الأنبياء يكون فيها، والهلاك والدمار يحل بها. ما يدلل على أن معناها اللغوي، قريب لمفهومها القرآني.

في مجال الدراسات الحضارية الحديثة، اكتسبت كلمة الحضارة بعدا أشمل مما كانت عليه في معاجم اللغة، فغدت بمدلولها الجديد، ليست صفة خاصة يتصف بها مجتمع إنساني دون آخر، أو بيئة إنسانية دون أخرى، وإنما هي صفة عامة يتصف بها كل مجتمع إنساني ربطت بين أفراده مجموعة من القيم الروحية وقواعد السلوك[١١٤].

واختلف الباحثون في تحديدهم لمفهوم الحضارة، كل بحسب الوجهة التي يلحظها فيها، فنجد أحدهم يقول: «نوع من أنواع الحياة البشرية المتقدمة، عمادها بصفة أساسية معيشة الحضر، ما تتطلبه من تنظيم وما تسفر عنه من نتائج وتدابير، تتمثل في الكتابة والتشريع ونظم الحكم وأساليب التجارة والتدين، والحضارة على الأساس المتقدم لا يمكن تصورها إلا في رحاب المدن»[١١٥]، وهنا يركز الباحث على المظهر المادي للحضارة. بينما نجد آخر يهتم بالجانب الروحي منها فيقول: «الحضارة في جوهرها تقوم على الكائن البشري لا على الأشياء المادية، والناس متحضرون أو غير متحضرين وفقا لبعض مزاياهم القلبية والروحية. وتدل كلمة الحضارة على جودة عقلية وروحية كما تدل كلمة صحة على جودة طبيعية أو جسدية»[١١٦]. مع ذلك نرى من يركز على الجانبين المادي و المعنوي معا، فيقول: «الحضارة هي التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماهير على حد سواء»[١١٧].ولسنا في صدد التحديد الدقيق لمفهوم الحضارة وفق الرؤية الإسلامية، بقدر ما نرمي الإشارة لمفهومها العام، الذي حدده الدكتور حسين مؤنس قائلا: «الحضارة ـ في مفهومنا العام ـ هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودا أم غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية»[١١٨]. ثم أشار بعد ذلك إلى جدلية العلاقة بين الحضارة وبين التاريخ، معللا ذلك بقوله: «لأن التاريخ كما سنرى هو الزمن، والثمرات الحضارية التي ذكرناها تحتاج إلى زمن لكي تطلع، أي أنها جزء من التاريخ، أو نتاج جانبي للتاريخ...فإن ثمار الحضارة لا تظهر إلا بإضافة الزمن إلى جهد الإنسان»[١١٩].

وأوضح مالك بن نبي طبيعة التداخل بين حركة المجتمع في التاريخ وبين حركة

الحضارة الإنسانية بقوله: تكسب الجماعة الإنسانية صفة «المجتمع» عندما تشرع في الحركة، أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها.وهذا يتفق من الوجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة...ثم استخلص قائلا: إن الطبيعة توجد النوع، ولكن التاريخ يصنع المجتمع.وهدف الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية، وهو ما نطلق عليه اسم الحضارة(١٢٠).

الملاحظ من خلال العروض التاريخية الواردة في القرآن المجيد، عمق الترابط بين حركة المجتمع الإنساني وبين حركة الحضارة، إذ إن الحضارة تشتمل على النشاط الاجتماعي من كافة جوانبه الروحية والمادية وفق حركة الزمن.ما يكشف عن الصلة الوثيقة ما بين دراسة التاريخ، ودراسة الحضارة؛ من حيث الاهتمام بالحياة الإنسانية في ماضيها، والعناية بواقع الأجيال السالفة في مختلف أحداثه وظواهره(١٢١).

إن دراسة القرآن الكريم من منظور اجتماعي دقيق، تقودنا إلى أن هذا الكتاب العظيم قد بين منهج الحضارة الإنسانية، ودل على سنن إقامتها، وبين عوامل أو أسباب هلاك الأمم ودمار الحضارات، وألزم الناس باتباعها، ليسعدوا في الدنيا والآخرة، ومن ذلك قوله تعالى عن قوم هود:

﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾(١٢٢)

أي كلفكم بعمارتها بالحق والعدل والعمل الصالح.(١٢٣)

والخلاصة، أن القرآن الكريم يؤكد الترابط الوثيق بين حركة هذه الأبعاد الثلاثة «المجتمع ـ الحضارة ـ التاريخ».فحركة التاريخ تتحدد تقدما وازدهارا أو تخلفا وتراجعا في خلال حركة الحضارة للمجتمعات الإنسانية، في الوقت الذي تلعب حركة المجتمع دورا بارزا في عملية النهوض أو الانحطاط الحضاري.

حركة المجتمع في القرآن

لحركة المجتمع في الحياة أثر فاعل في تحديد وتوجيه مسيرة حركة التاريخ، إذ هي نتيجة نشاط المجتمع الإنساني وفعله في الزمن، وقد أعطى القرآن الكريم للمجتمع كيانه و شخصيته ودوره المسؤول في التاريخ، حيث اعتبر له وجودا وأجلا وكتابا وشعورا وفهما و عملا وطاعة ومعصية[١٢٤]. ولو لم يكن للمجتمع وجود حقيقي، لا يصح نسبة كل هذه الفعاليات الحركية له. فالقرآن يقرر لكل مجتمع كيانه وشخصيته التي تميزه عن غيره من المجتمعات الأخرى، وفق خصوصيات معينة منها:

١.كل مجتمع له عمر محدود يعبر عنه القرآن بـ«الأجل» قال تعالى:

﴿ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾[١٢٥]

﴿لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾[١٢٦]

الأجل: أمد مضروب لحياتها ـ الأمة ـ، مقدر فيما وضع الخالق سبحانه من السنن لوجودها[١٢٧].ونلاحظ في هاتين الآيتين الكريمتين، أن الأجل أضيف إلى الأمة، أي إلى الوجود الاجتماعي للناس، وليس لهذا الفرد بالذات أو ذاك، إذن هناك وراء الأجل المحدود المحتوم لكل إنسان بوصفه الفردي، أجل آخر وميقات آخر للوجود الاجتماعي لهؤلاء الأفراد، للأمة بوصفها مجتمعا ينشئ ما بين أفراده العلاقات و الصلات القائمة على أساس مجموعة من الأفكار والمبادئ المسندة بمجموعة من القوى والقابليات. هذا المجتمع الذي يعبر عنه القرآن الكريم بالأمة، له أجل، له موت، له حياة، له حركة، كما أن الفرد يتحرك فيكون حيا ثم يموت، كذلك الأمة تكون حية ثم تموت، وكما أن موت الفرد يخضع لأجل ولقانون ولناموس، كذلك الأمم أيضا لها آجالها المضبوطة.وهناك نواميس تحدد لكل أمة هذا الأجل[١٢٨].

وقد سبق وأن طرح «ابن خلدون» نظريته بالنسبة للدول والأمم وأحوال العالم التي لا

تدوم على وتيرة واحدة، وإنما هناك تبدل مستمر في الأشخاص والدول والأمصار.و أشار إلى أسباب هذا التبدل والضعف والاضمحلال، وهذا ما يمكن تسميته بقانون التطور والتبدل[١٢٩]. فرأى أن للدول أعمارا طبيعية كما هي للأشخاص أعمار طبيعية، حيث يقول: «إلا أن الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال، والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط، فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته»[١٣٠]. ويعلل «ابن خلدون» محدودية عمر الدولة، وانتهاء أجلها، بسبب أطوارها واختلاف أحوال وخلق أهلها، فيقول: «إعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة وحالات متجددة، ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقا من أحوال ذلك الطور، لا يكون مثله في الطور الآخر؛ لأن الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه»[١٣١].

ويؤكد القرآن الكريم حتمية هذا الأجل بالساعات، كواقع لا مفر منه، بالنسبة للأمم التي حادت عن جادة الحق، وارتكبت الضلالات والمفاسد المهلكة، فلاقت مصيرها المحتوم دون تأخير:

﴿وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم(٤)ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾[١٣٢]

لكن من رحمة الله تعالى ولطفه تأخير نزول العذاب واستئصال الأمم الظالمة، غير أن الكافرين لجهلهم بسنن الله، يتساءلون إذا ما أخر عنهم إلى أمة من السنوات أو الأيام، ما يحبسه؟ وما يؤخره؟ فلا يدركون حكمة الله ولا رحمته.وهو يوم يأتيهم لا يصرف عنهم؛ بل يحيط بهم[١٣٣]:

﴿وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا(٥٨)وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا﴾[١٣٤]

٢.كل مجتمع له كتاب يحصي عليه حياته، قال تعالى:

﴿وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم﴾[١٣٥]

﴿وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون(٢٨)هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾[١٣٦]

قال القرطبي في قوله تعالى «كل أمة تدعى إلى كتابها»:أي «الذي كان يستنسخ لها

فيه ما عملت من خير وشر»[١٣٧]. وقال ابن كثير: «يعني كتاب أعمالها»[١٣٨]. ويظهر من هذه الآية الكريمة، أن لكل مجتمع كتابا ـ صحيفة أعمال ـ تسجل فيه كل أعماله وتصرفاته، التي يمارسها. كما أن لكل فرد من الأفراد كتابا يختص به، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من أعماله وتصرفاته إلا أحصاها:

﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا(١٣)اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾[١٣٩]

وجود هذا الكتاب الجامع لإعمال المجتمع، يعني أن الفعل التاريخي للمجتمع هو الذي يحرك التاريخ وليس فعل الفرد، وبذلك يتحمل المجتمع نفسه نتائج أعماله ويحاسب عليها، دون تمييز بين من يستحق أو لا يستحق، يقول تعالى:

﴿واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾[١٤٠]

قال ابن عباس (رضي الله عنه): «أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر فيما بينهم فيعمهم الله بالعذاب»[١٤١].لأنه إذا وقعت الواقعة أخذت مجراها وأثرت أثرها، طبيعية كانت أو اجتماعية، ولا تدخل في حسابها الأتقياء والأبرياء[١٤٢].

٣. كل مجتمع له عمله وسلوكه الخاص به:

ينسب القرآن المجيد لكل أمة عملا خاصا وسلوكا معينا، فيقول تعالى:

﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾[١٤٣]

﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾[١٤٤]

قال السيد محمد رشيد رضا: «أي ومن قوم موسى ـ أيضا ـ جماعة عظيمة يهدون الناس بالحق الذي جاءهم به من عند الله تعالى ويعدلون به دون غيره، إذا حكموا بين الناس، لا يتبعون فيه الهوى، ولا يأكلون السحت و الرشى، فالظاهر المتبادر أن هؤلاء ممن كانوا في عصره وبعد عصره حتى بعدما كان من ضياع أصل التوراة ثم وجود النسخة المحرفة بعد السبي، فإن الأمم العظيمة لا تخلو من أهل الحق والعدل.وهذا من بيان القرآن للحقائق، وعدله في الحكم على الأمم»[١٤٥].

وإذا كان لكل أمة عملها وسلوكها الخاص بها، فذلك يعني أن لها تاريخها الخاص

بها. ولم تكن أي أمة أخرى مسؤولة عن تاريخ غيرها إلا إذا حملت نفس روح تلك الأمة، و ذلك ما يؤكده قوله تعالى:

﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾[١٤٦]

فالآية المباركة تشير إلى أن هذا التاريخ هو تاريخ الأمم السابقة في ما عملت وفي ما كسبت، ولستم مسؤولين عن كل أعمالهم في قليل أو في كثير؛ بل هم المسؤولون عن كل أعمالهم...أما أنتم فلكم تاريخكم المستقل المتمثل في أعمالكم التي تكسبون بها الجنة أو النار، فعليكم أن تواجهوا مصيركم في خلال ذلك وتحددوا خطواتكم العملية في خلال دراستكم للنتائج المصيرية لخطوات الآخرين[١٤٧].

٤.كل مجتمع له شعوره وذوقه الذي يتميز به عن غيره، قال تعالى:

﴿كذلك زينا لكل أمة عملهم﴾[١٤٨]

إن تزيين الأعمال للأمم عبارة عن سنة الله تعالى في أعمالها وعاداتها وأخلاقها المكسوبة والموروثة[١٤٩].وتدل هذه الآية على أن كل أمة لها شعور واحد، ومقاييس خاصة، وأسلوب خاص للتفكير، وأن الإدراك والشعور الاجتماعي لكل أمة يختص بها، وأن كل أمة لها مقاييسها الخاصة في الحكم، خصوصا في المسائل المربوطة بالإدراكات العملية، ولكل أمة ذوق إدراكي خاص، وربما تستحسن أمة عملا بينما تستقبحه أمة أخرى، فالجو الاجتماعي الخاص للأمة يصنع ذوقها الإدراكي[١٥٠]. وعندما يكون للأمة شعور واحد، يسود كل أفرادها، فمعنى ذلك إذا صدر فعل عن أي فرد من أفرادها، كأنما صدر ذلك الفعل عن الجميع.لذا فإن القرآن الكريم ـ أحيانا ـ ينسب الفعل الصادر عن الفرد إلى مجتمعه، وعندما ينزل العذاب الإلهي فإنه يعم الجميع، كما هو الحال في قصة ثمود، حيث أن الذي عقر الناقة، شخص واحد، لكن القرآن اعتبرهم جميعا مذنبين، ونسب الفعل إليهم، فقال تعالى:

﴿كذبت ثمود بطغواها(١١)إذ انبعث أشقاها(١٢)فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها (١٣) فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها(١٤)ولا يخاف عقباها﴾[١٥١]

يقول سيد قطب: «الذي عقرها هو هذا الأشقى.ولكنهم جميعا حملوا التبعة و عدوا

أنهم عقروها؛ لأنهم لم يضربوا على يده؛ بل استحسنوا فعلته.وهذا مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسية في التكافل في التبعة الاجتماعية في الحياة الدنيا»[١٥٢].

٥.كل مجتمع يتلقى جزاء أعماله بنفسه:

كما أن القرآن المجيد، ينسب الطاعات والمعاصي لكل فرد من الأفراد، ويحمله جزاء أعماله التي اكتسبها بنفسه؛ ليلاقي جزاءه العادل. قال تعالى:

﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾[١٥٣]

﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾[١٥٤]

﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾[١٥٥]

كذلك ينسب الطاعة والعصيان لكل أمة من الأمم، ويحملها مسؤولية أعمالها؛ لتتلقى جزاء ما اكتسبته بنفسها في الدنيا قبل الآخرة بعد إتمام الحجة عليها. قال تعالى:

﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾[١٥٦]

﴿فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون﴾[١٥٧]

﴿فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا[١٥٨] ومنهم من أخذته الصيحة[١٥٩] ومنهم من خسفنا به الأرض[١٦٠] ومنهم من أغرقنا[١٦١] وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾[١٦٢]

يتضح من ذلك أن عقاب الله للأفراد وللأمم ـ على حد سواء ـ لا يقتصر على يوم الحساب؛ بل يتنزل عليهم في الدنيا قبل الآخرة، فكل فعل يقوم به الفرد أو الجماعة، لا بد أن ترتد عاقبته عليهم، إن خيرا فخير وإن شرا فشر،فسنة الله في الخلق،تحتم أن يكون حصاد الإنسان من جنس ما يزرع:

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره(٧)ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾[١٦٣]

بعبارة أخرى، إن المصير الفردي والجماعي، الذي ينبثق عن الاختيار، سرعان ما يتشكل هنا أولا وفي السماء بعد ذلك، وفقا لتسلسله الزمني، ربما كان الفرق بين المصيرين في الدرجة والنوع لا في الكينونة[١٦٤].وبهذا هلكت أقوام نوح ولوط وعاد وثمود

وفرعون و غيرهم، بما استحقوه من العذاب، جزاء ما اقترفوه من سيئات، وما ينتظرهم في الآخرة أكبر وأعظم، وقد صرحت آيات القرآن المجيد بهذين المصيرين:

﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين﴾[١٦٥]

﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾[١٦٦]

﴿كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون(٢٥)فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾[١٦٧]

﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾[١٦٨]

حركة الحضارة في القرآن

تنتظم مكونات الحضارة ثلاثة عناصر أساسية لا غنى لواحد منها عن الآخر، وهي[١٦٩]:

١ ـ **إنسان**...«كينونة و زمان»، وهو الكائن المعد لتحمل المسؤولية، المؤهل للقيام بالدور الحضاري، الذي يدخل الزمان في كينونته؛ باعتبار الإنسان حقيقة زمانية، لا تنفصل عن الزمان.

٢ ـ **فكـــر**...«عقيدة وثقافة»، وهو الموجه المعنوي لخطوات الإنسان نحو بناء الحضارة.

٣ ـ **أشياء**...«التراب ورأس المال وشتى العوامل المادية»، ويدعى بالجانب المادي من الحضارة أو ما يسمى «بالمدنية».

وما ينبغي التأكيد عليه، أن هذه العناصر الثلاثة، لا تتصنع منها حضارة صالحة، ما لم تتوافر صلات ضرورية، متوازنة النسب فيما بينها، لتربط أجزاءها في نطاقها الخاص، لتشكل كيانها العام، من أجل عمل مشترك[١٧٠]. كما أن هذه العناصر لا تنتج حضارة إلا بتدخل «مركب» يمكن أن نطلق عليه «مركب الحضارة» وهو الفكرة الدينية التي رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ[١٧١]. فالدين هو الروح الفاعلة في تحريك و توجيه أضلاع المثلث الحضاري، والإطار الأصلح للربط بينها بشكل متوازن ومحكم.

وقد أقر تيار عريض من المفكرين الغربيين ضمنا أو صراحة بما للدين من تأثير بالغ في البناء الحضاري وتوجيه البشرية، فقد قال نيتشة: «والدين والحياة الدينية الخصبة القوية الحية من مميزات الحضارة، تجدها في كل مظاهرها من فن وعلم ونظم اجتماعية وسياسية لأن حياة الفرد الداخلية ثرية بينما المدنية تكاد تخلو من الروح الدينية، نقصد روح الدين الغنية»[١٧٢]. فالدين بمناهجه السامية، هو الذي يربي العلاقة الروحية بين الإنسان وربه، و التي بدورها تغذي علاقة الإنسان بالآخرين والأفكار والأشياء، وعندها

يؤدي المجتمع فعله التاريخي والحضاري.لأن الحضارة، ليست في جوهرها وحقيقتها أكثر من ثمرة التفاعل الذي يتم على نحو ما، بين الإنسان والكون والحياة، تصورا أولا، سلوكا ثانيا[١٧٣].

وقد غذى القرآن الكريم العناصر الحضارية الثلاثة ـ الإنسان، الفكر، الأشياء أو الموجودات ـ بشكل فاعل، في سبيل تحقيق الإنجاز الحضاري للإنسانية:

أولا: الإنسان، صانع الحضارة في القرآن:

حظي الإنسان باحترام بالغ، وتقدير لا يوصف في ظل القرآن، حيث شرفه تعالى بمقام شامخ ومسؤولية عظيمة، حين جعله خليفة له في الأرض،وأمر الملائكة بالسجود له:

﴿وإذ قال ربك للملآئكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾[١٧٤]

﴿إذ قال ربك للملآئكة إني خالق بشرا من طين(٧١)فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾[١٧٥]

وتحدث القرآن عن أعباء وخطورة هذه الخلافة للإنسان بوصفها أمانة عظمى أشفق الكون كله عن حملها:

﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾[١٧٦]

وكرم الله تعالى هذا الخليفة أحسن تكريم:

﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾[١٧٧]

كل ذلك حتى يؤدي الإنسان حق استخلافه في الأرض كدحا متواصلا طوال مسيرته في الحياة:

﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه﴾[١٧٨]

فهذه الآية المباركة تؤكد: أن هذه الخلافة حركة دائبة نحو قيم الخير والعدل والقوة، و هي حركة لا توقف فيها لأنها متجهة نحو المطلق وأي هدف آخر للحركة سوى المطلق ـ سوى الله سبحانه وتعالى ـ سوف يكون هدفا محدودا وبالتالي سوف يجمد

الحركة، و يوقف عملية النمو في خلافة الإنسان[179].لذا كرس الأنبياء جهودهم عبر التاريخ، على صقل الإنسان وتهذيبه؛ ليتحرك بوعي ومسؤولية في خط الخلافة؛ ليكون صالحا، منتجا للعمل الصالح.فبناء الإنسان الصالح هو فاتحة العمل الحضاري، كما أن الذبول الذي يصيب الحضارة يبدأ به[180].والإنسان الصالح، هو الإنسان العامل الذي يقوم (بالعمل الصالح) ويتقنه؛ لأن العمل الصالح المتقن هو علة الخلق، ومادة الابتلاء والاختبار، في الدنيا، ومقياس النجاة في الآخرة[181].

﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾[182]

ويستطيع الإنسان الصالح أن يحقق بسعيه حياة طيبة، تكون سبيلا إلى حضارة مزدهرة:

﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾[183]

فالحضارة مظهر لجمال الطبيعة في خلال فعل الإنسان الصالح في الأرض.الذي وجوده مفتاح كل سعادة وخير، وحل كل أزمة ومشكلة، وإن تقويمه إذا زاغ، وتهذيبه إذا فسد، وتكثيره إذا عز وندر، وإعادته إذا ضاع وفقد، موضوع كل نبوة، ومهمة كل نبي في عصره[184].فقد خاطب النبي هود (عليه السلام) قومه:

﴿ وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين﴾[185]

وكذلك جاء في خطاب نوح (عليه السلام) لقومه:

﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا(١٠)يرسل السماء عليكم مدرارا(١١)ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا﴾[186]

فالإنسان سيد الأرض، وبصلاحه تصلح الحياة وتندفع نحو الرقي والازدهار، وعلى العكس فإن فساده وخراب شخصيته، يجر هذا العالم إلى ظلام دامس، ويجعله على شفير الهاوية.إذ عندما ينحل الإنسان ويفقد الرؤية يتحول هو نفسه (بالظلم أو الترف أو بهما) إلى عامل هدم لنفسه ولمجتمعه وحضارته[187].وبهذا السبب استحقت بعض المجتمعات لعنات وغضب الله تعالى عليها:

﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون(٧٨)كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾[١٨٨]

فالإنسان بظلمه وفساده يجني على مجتمعه وحضارته:

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾[١٨٩]

ونجد مدخلا واضحا إلى سقوط الأمم وانهيار الحضارة، بفعل سقوط الإنسان وانهياره، في الحديث النبوي الشريف:

قال رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه): «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها» فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء[١٩٠] كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن» فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت».[١٩١]

إن مشكلة الوهن الحضاري تكمن عندما يتحول «عالم الأشخاص» إلى غثاء كغثاء السيل، وهي أقصى حالة يعيشها مجتمع إنساني معين؛ فمليار من البشر لا يستطيعون توفير شروط حياتهم واستمرارهم الحضاري[١٩٢].لا لأنهم لا يريدون الحياة؛ بل لأنهم يكرهون الموت الذي يسبغ عليهم العزة والشموخ، وما ذلك إلا لأنهم استحبوا الحياة الدنيا من أجل الدنيا.

ثانيا: الفكر، الموجه للحضارة في القرآن:

وهو ما يصطلح عليه بالمقوم الثقافي للحضارة، ونقصد به، ذلك النشاط الفكري والفني، وما يصدر عنه من ضروب المعرفة والتصورات الجمالية، وبهذا يدخل في نطاق المقوم الثقافي للحضارة جميع الفنون والفلسفات على اختلاف مذاهبها وألوانها[١٩٣]. إذ إن الحضارة، هي كل معقد ومركب، نسيج متشابك، من معتقدات الإنسان ومبادئه وأفكاره ونشاطاته وفعالياته وإنجازاته التقنية التي تطبع الحياة الاجتماعية وتمدها بالمعاني والقيم، و تجعل لحياة الإنسان معنى اجتماعيا ـ حضاريا، أي إنسانيا، تميزه عن باقي الكائنات الحية[١٩٤].

وفي القرآن المجيد دعوة جادة إلى تنشيط العقل والروح نحو بناء هذا الموجه الحضاري، بتحريك الذات الإنسانية نحو وعي ذاتها وما يجري حولها.فقد حثت آياته الكريمة الإنسان بشكل موسع إلى التبصر بحقيقة نفسه ووجوده، وارتباطه بالكون والحياة؛ ليتعرف عن وعي على آيات الله تعالى في الآفاق والأنفس:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾(١٩٥)

﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾(١٩٦)

﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه(٢٤)أنا صببنا الماء صبا(٢٥)ثم شققنا الأرض شقا(٢٦)فأنبتنا فيها حبا(٢٧)وعنبا وقضبا(٢٨)وزيتونا ونخلا(٢٩)وحدائق غلبا(٣٠)وفاكهة وأبا﴾(١٩٧)

ودعاه إلى النظر العميق، والتأمل المتأني في ملكوت السماوات والأرض:

﴿أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض﴾(١٩٨)

ودعاه إلى دراسة حركة التاريخ، وكيف بدأ الله الخلق، والنواميس الاجتماعية، و التعرف على آيات الله في خلقه:

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة﴾(١٩٩)

﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾(٢٠٠)

﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾(٢٠١)

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت(١٧)وإلى السماء كيف رفعت(١٨)وإلى الجبال كيف نصبت(١٩)وإلى الأرض كيف سطحت﴾(٢٠٢)

﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها﴾(٢٠٣)

﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾(٢٠٤)

إن الغفلة عن إدراك آيات الله تعالى في هذا الوجود، تفقد الإنسان ميزته الأساسية، و أمانته التي حمله الله إياها، والسلطان الذي أعطاه الله تعالى له؛ لتسخير ما خلق الله له.و يصير هذا الإنسان المكرم في أسفل سافلين(٢٠٥):

﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾(٢٠٦)

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا

يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾[207]

وخطا القرآن العزيز خطوة أبعد من عملية «التفكر» و «التثقيف»، عندما دعا إلى «توجيه» هذا الفكر، وهذه الثقافة، توجيها حركيا، بشكل تتوجه خلالها حركة الإنسان داخل المجتمع على كل المستويات الروحية والأخلاقية والطبيعية نحو تشييد البناء الحضاري.لأن مشكلة الثقافة في بناء الحضارة الإنسانية، هي مشكلة توجيه الأفكار، التي عرفها مالك بن نبي قائلا: «هي بصفة عامة قوة في الأساس، وتوافق في السير، ووحدة في الهدف. ثم بين ـ موضحا ـ أثرها في البناء الحضاري بقوله: كم من طاقات وقوى لم تستخدم؛ لأننا لا نعرف كيف نكتلها، وكم من طاقات وقوى ضاعت فلم تحقق هدفها حين زحمتها قوى أخرى صادرة عن المصدر نفسه،متجهة إلى الهدف نفسه»[208]. والتوجيه الثقافي المقصود في المصطلح القرآني هو «الحكمة» التي منحها الله تعالى أنبياءه العظام؛ ليعلموها للناس، كما قال تعالى:

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[209]

قال الإمام مالك بن أنس: «الحكمة، الفقه في الدين»[210]. وقال الفخر الرازي: «الكتاب، آيات القرآن.والحكمة، وجه التمسك بها»[211].فالحكمة هي: توظيف وتوجيه للكتاب نحو التمسك به في الخط العملي في الحياة، بعده منبعا ومجمعا للفكر والثقافة. أما الحكمة فهي القدرة على توجيه الأفكار والثقافة، وتحريكها الصحيح في خط الاستخلاف. من هنا جاء معناها في اللغة من الإحكام، وهو وضع الشيء في موضعه، وصواب الأمر وسداده[212]. فوضع الأشياء و الأمور في مواضعها الصحيحة يمثل قمة اندماج الإنسان مع الثقافة في الحياة، قال تعالى:

﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾[213]

ولما تحدث القرآن المجيد عن ملك داود (عليه السلام) قرن معه الحكمة؛ باعتبارها عنصرا أساسيا في مسيرة الحكم والملك، وهما أساس بناء الحضارة الإنسانية، قال تعالى:

﴿ وقتل داوود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾[٢١٤]

﴿ وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾[٢١٥]

فالأفكار أو الثقافة الحضارية، هي الأفكار والثقافة المنتجة وليست المستهلكة، فإذا فقدت قدرتها على الإبداع والإنتاج تحولت إلى تراث من الماضي.لأنها ليست كتلة جامدة من المعارف أو القيم أو المعاني أو الرموز أو العادات أو القواعد؛ بل هي الآليات والفعاليات المعقدة والمتباينة التي تسمح بنشوء هذه المعارف وتخلقها، ومتى ما فقدت الثقافة ذلك تحولت إلى تراث، أي أثر من آثار الماضي[٢١٦].

وعمل القرآن الكريم على توجيه الفكر والثقافة الإسلامية في اتجاه البناء الحضاري، عندما حدد للمسلم رؤيته للعالم وتاريخه ومستقبله خلال أصول الدين المتمثلة بالركائز العقيدية -الوحدانية، النبوة، المعاد -:

١ ـ **الوحدانية:** التي تجلت في شهادة، لا إله إلا الله، وهي أصل التوحيد الذي دعا إليه مجموع الأنبياء لكل البشر:

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[٢١٧]

٢ ـ **النبوة:** هي الوحي المتجلي خلال الرسالات الإلهية، التي مثلت خط الشاهد و الشهيد والشهادة للبشرية:

﴿فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين﴾[٢١٨]

٣ ـ **المعـاد:** يمثل مصير الإنسان بعد الموت، وغاية كل من في هذا الوجود، في خط يسير نحو الخالق العظيم:

﴿ وأن إلى ربك المنتهى﴾[٢١٩]

إن هذه الأصول الثلاثة، تشكل أساس التصور الفكري والثقافي لدى الإنسان المسلم، وفي خلالها تتم عملية تفسير علاقته:

أ ـ بالخالق العظيم.

ب ـ بأخيه الإنسان.

ج ـ بالكون والحياة.

الحضارة الإنسانية تتشكل قاعدتها الثقافية من تفاعل هذه العلاقات الثلاث. و بذلك

تصلح الحضارة أو تفسد أو تتردد بين طرفي الصلاح و الفساد، بمقدار ما يكون ذلك التفاعل الثلاثي سديدا أو غير سديد.أي بمقدار ما يكون فهم الإنسان لتلك العناصر الثلاثة والعلاقة القائمة بينها فهما صحيحا أو غير صحيح(٢٢٠).

أما «الأخلاق» فتمثل الأرضية الصالحة التي تستقر عليها «الثقافة الحضارية»، وبها تنهض صروح الحضارة الإنسانية، ومن دونها تبقى جاثية على التراب؛ لأن الأخلاق هي الباعث الحقيقي، والموجه الفعال لكل الأنشطة الفكرية والثقافية في داخل جسد الحضارة. بذلك مثلت الأخلاق عنصرا بارزا لدى معظم المفكرين عند بحثهم وتحديدهم لماهية الحضارة وعناصرها.يقول الفيلسوف الأخلاقي والمؤرخ الألماني،ألبرت أشفيتسر(١٨٧٥_١٩٦٥م): «ولما بحثت في ماهية الحضارة وطبيعتها تبين لي في ختام المطاف أن الحضارة في جوهرها أخلاقية»(٢٢١). ولهذا يرى إمكانية إعادة بناء الحضارة بيقظة روحية وإرادة للخير الأخلاقي في جماهير الإنسانية(٢٢٢).

ومن أولى مهام الأنبياء (عليهم السلام)، بناء الأخلاق وتشييدها في النفوس، وهو الهدف الأسمى الذي جاء الإسلام من أجل تحقيقه، كما ورد عن الرسول (صلوات الله وسلامه عليه): «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»(٢٢٣).

ويشير غوستاف لوبون،إلى أهمية التربية الأخلاقية في رقي الأمة وبناء الحضارة قائلا: «تعليم الأخلاق من مسائل التربية الأساسية.ومستوى الأمة الخلقي هو الذي يعين مكانها في سلم الحضارة كما يعين قوتها فإذا ما انحلت أخلاقها انحلت عرى بنائها الاجتماعي»(٢٢٤).

ثالثا: الأشياء أو الموجودات، وأثرها الحضاري في القرآن:

يؤكد القرآن الكريم في آيات عديدة، أن الله تعالى قد سخر ما في الكون لخدمة الإنسان؛ ليقوم بدوره الحضاري في خط الاستخلاف في الأرض:

﴿الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار(٣٢)وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار(٣٣)وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله

لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾[٢٢٥]

﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[٢٢٦]

﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها﴾[٢٢٧]

وتفسير ذلك؛ أن الله تعالى قد وضع للبشر كنوزا في السماء والأرض والبحار و الأنهار، وفي الأشجار والنباتات والحشائش، وفي الدواب والزواحف والطيور.وعلى الإنسان أن يبذل جهده وفق القواعد والأسس العلمية الصحيحة؛ حيث إن الله تعالى لم يضع هذه الكنوز وضعا عشوائيا؛ بل حسب معادلات وقواعد علمية محددة، وسنن كونية ثابتة.فقد خلق الله هذا الكون خادما مطيعا للإنسان، ولكن شرط على الكون ألا يطيع الإنسان إلا إذا دعاه عن طريق معين، فإذا دعاه من غير هذا الطريق فلا يستجيب الكون، ويظل معرضا صامتا أمام الإنسان[٢٢٨].

إن علاقة الإنسان بعالم الأشياء في هذا الكون تقوم على فكرة «الاستثارة». فالإنسان بما أودع الله فيه من قدرات عقلية، وقابليات عملية خلاقة، يستطيع خلال بذل الجهد واستخدام التقنيات العالية، أن يستثير كامن الطاقات المخزونة في خيرات الأشياء؛ لكي تعطي وتثمر وتتحول إلى خيرات حضارية تساهم في الإنجاز الحضاري. فالطبيعة بالنسبة للإنسان هي مجاله، وهي بيئته، وهي مخلوقة من أجله، وإن جمالها وأهميتها وعطاء ها الحق لن يتجلى إلا إذا سخرها الإنسان وأعمل فيها عقله ويده[٢٢٩]. ويبين القرآن المجيد في خلال التاريخ، نماذج للعلاقة الفذة بين الإنسان والطبيعة، وكيفية استثارتها وتسخيرها؟ بشكل متوازن.كما حصل لداود وسليمان (عليهما السلام)، فاستطاعا أن يبنيا حضارة سامقة، وذلك ما حدثنا به القرآن العزيز:

﴿ولقد آتينا داوود منا فضلا ياجبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد(١٠)أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير(١١)ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير(١٢)يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داوود شكرا وقليل من عبادي الشكور﴾[٢٣٠]

فهذه الآيات المباركة وغيرها، تبين لنا قمة الاندماج الحضاري الفاعل بين الإنسان الكامل والقوى غير المرئية والطبيعية، في حوارها الخلاق مع الله سبحانه أخذا وعطاء... إن طاقات الكون كله تنسجم هنا وتتناغم وتعمل بتوافق رائع في خدمة الإنسان الذي يتوجه إلى الله في أصغر فاعلياته وأكبرها[٢٣١].فما لم يكن التفاعل بين الإنسان وعالم الأشياء في الطبيعة قائما بالحق، وموجها نحو الخير، لا يعطي ثماره ونتاجه الصالح.والملاحظ أن إنسان الحاضر، أثبت قدرته على استثارة الطبيعة وتفجير كنوزها بشكل لم يسبق له مثيل، ولازال مستمرا في حركته دون توقف، إلا أن المسألة الملحة اليوم، هي مسألة كيفية توجيه هذه الحركة نحو الخير، بحيث تصبح نعمة على البشرية لا نقمة[٢٣٢].

منه يتضح أن التوجيه الصحيح لعالم الأشياء إذا زامنه توجيه مماثل لعالمي الأشخاص والأفكار، بشكل متوازن، فإنه ينتج حضارة إنسانية زاهرة.

ويؤكد القرآن الكريم؛ بأن هذه النتيجة الحاسمة التي توصلنا إليها، لا يمكن أن تحقق و تؤدي ثمارها الطيبة، إلا في ظل رسالة الإسلام.وذلك ما تصرح به الآية المباركة:

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾[٢٣٣]

وتمثل مسألة «الإيمان بالله تعالى» في حركة الدين، المعامل الحضاري الأساسي، الذي يدفع بإرادة الإنسان المؤمن؛ لأن تمتزج مع الزمن والتراب؛ لتوجه بهم نحو الاتجاه الصحيح في الحياة.لأن العقائد والمبادئ تنزل إلى أعماق الأمة، وتخالط وجدان الإنسان، وبالتالي تغدو القوة الحقة المحركة للتاريخ الاجتماعي والحضاري للأمم، ولذلك كانت مناهج الأنبياء تركز على العقيدة قبل غيرها، وهذا ما اعتمده القادة المصلحون والثوار الاجتماعيون و المحاربون عبر التاريخ لتحقيق أغراضهم ونيل أهدافهم[٢٣٤].

نهوض المجتمعات والحضارات وانحطاطها في القرآن

المجتمعات والحضارات كيانات حية، قابلة للنهوض والانحطاط، وللحياة والموت.و تحدث القرآن الكريم عن دور الرسول الأكرم (صلوات الله وسلامه عليه) في إحياء و نهوض المجتمع.قال تعالى:

﴿يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾[٢٣٥]

إنها دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة، وبكل معاني الحياة...إنه يدعوهم إلى عقيدة تحيي القلوب والعقول...يدعوهم إلى شريعة من عند الله، تعلن تحرر «الإنسان» وتكريمه...يدعوهم إلى منهج للحياة، ومنهج للفكر، ومنهج للتصور؛ يطلقهم من كل قيد إلا ضوابط الفطرة...يدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم...يدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله؛ لتقرير إلوهيته في الأرض...إن هذا الدين منهج حياة كاملة، لا مجرد عقيدة مستسرة، منهج واقعي تنمو الحياة في ظله وتترقى[٢٣٦].

كما تحدث عن انحطاط المجتمعات وسقوط الحضارات:

﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك في الكتاب مسطورا﴾[٢٣٧]

فالقرآن المجيد يطرح على البشرية ـ خلال عروضه التاريخية ـ أهم الأسباب و العوامل لقضية نهوض المجتمعات والحضارات وانحطاطها، نذكر منها:

أولا: العدل والظلم:

يشكل العدل أحد العناصر الأساسية في تركيبة البناء الإجتماعي، وله تأثيره الكبير على بقية العناصر الأخرى، التي يتألف منها البناء الاجتماعي، فالعدل في مختلف مجالات الحياة، هو امتداد للعدل الكوني ، مما يتعين معه أن يكون الإنسان عادلا في سلوكه، منسجما مع البيئة الكونية، وإلا كان غريبا وشاذا[٢٣٨].

والأمة التي يسودها العدل هي الأمة الراقية والحضارية المتقدمة، التي يشعر فيها كل إنسان بكرامته وحريته ويطمئن على حقوقه المحفوظة، وينعم بالأمان الذي يعم الأمة كلها[٢٣٩].

والظلم ضد العدل، وهو أكبر عوامل فساد المجتمعات وانهدام الحضارات.قال تعالى:

﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾[٢٤٠]

قال الفخر الرازي: «إن المراد من الظلم في هذه الآية، الشرك.والمعنى أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم، يعامل بعضهم بعضا على الصلاح، وعدم الفساد»[٢٤١]. فالآية المباركة تفيد، أن المجتمع إذا كان عادلا، بمعنى أن الناس لا يظلمون أنفسهم، ولا يتظالمون فيما بينهم؛ فهذا المجتمع مع كفره بالله تعالى، يبقى قائما، إذ ليس من سنة الله تعالى إهلاك الناس بكفرهم فقط، ولكن إذا مارسوا الظلم إلى جانب كفرهم، فإن عاقبتهم ستؤول إلى الدمار والهلاك.وفي هذا السياق يقول القرطبي في تفسيره للآية المذكورة: «إن الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط، و دل هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك»[٢٤٢].

كما بين القرآن العزيز في قصة فرعون وبني إسرائيل؛ كيف أن أهل مصر من آل فرعون، بعد أن وصلوا إلى مستوى الرقي والازدهار الحضاري، حل بهم الدمار والعذاب، بسبب الظلم والطغيان الذي مارسه فرعون وجنوده بحق بني إسرائيل.قال تعالى:

﴿إن فرعون علاّ في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾[٢٤٣]

فالآية المباركة تعتبر طغيان فرعون واستعلائه على بني إسرائيل وظلمه لهم بأشكال مختلفة؛ بإثارة النعرات الطائفية بينهم، وقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم، كان السبب في إفساد مجتمع أهل مصر وانهدام حضارتهم.كما يؤكد القرآن في آيات أخرى، أن الظلم سبب محق المجتمعات الغابرة:

﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾[٢٤٤]

﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾[٢٤٥]

وقد أوضح «ابن خلدون» في مقدمته، سنن سقوط الحضارات، وانهدام المجتمعات، وذهاب الدول، فرأى أن الظلم مؤذن بخراب العمران، كما أشار إلى ذلك تحت عنوان «في أن الظلم مؤذن بخراب العمران» فقال: «واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه،وذلك بانقطاع النوع البشري»[٢٤٦]. ويقول الإمام الماوردي عن أثر الجور في خراب العمران ودمار المجتمعات: «ليس شيء أسرع في خراب الأرض، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور؛ لأنه ليس يقف على حد، و لا ينتهي إلى غاية، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل»[٢٤٧].

ثانيا: الاتحاد والتفرق:

الوحدة والتآلف والتحابب والتعاون...عناوين كلها تصب في وحدة البناء الاجتماعي والحضاري للإنسانية.وقد جاءت الآيات القرآنية المباركة تؤكد على ذلك:

﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾[٢٤٨]

﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾[٢٤٩]

وقال تعالى:

﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾[٢٥٠]

إنما كان الاختلاف أو التنازع أو التفرق سببا من أسباب انحطاط الأمم وسقوطها؛ باعتباره علة في تشتتها، فيؤدي إلى ضعفها.لأن قوتها وهي مجتمعة أكبر من قوتها وهي متفرقة؛ لتفرق قوتها على الفرق كلها، وقوة كل فرقة هي أضعف من قوة الأمة مجتمعة، و هذا الضعف العام الذي يصيب الأمة بمجموعها يجرئ العدو عليها فيطمع فيها، فيهاجمها و يحتل أرضها، ويستولي عليها ويستعبدها، ويمسخ شخصيتها، وفي ذلك انقراضها وهلاكها[٢٥١].

إن سقوط بغداد وانهيار الدولة العباسية كان من أسبابه المهمة، الخلاف والتفرقة بين الخليفة ووزرائه، وبين طوائف الشعب ومذاهبه، بحيث يتفق بعضهم مع هولاكو ضد الحكم العباسي، الأمر الذي أسرع في عملية السقوط المرعب لبغداد[٢٥٢].

ويذكرنا القرآن المجيد بما جرى للأمم السابقة من عذاب ودمار بسبب تفرقها و اختلافها، قال تعالى:

﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾[٢٥٣]

المراد بالذين تفرقوا، أهل الكتاب، حيث افترقت اليهود بعد نبيهم موسى إلى إحدى وسبعين فرقة، والنصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة بعد نبيهم عيسى...أما السر لهذا التأكيد والاهتمام باجتماع الأمة واتحادها، فلأن الشقاق مادة الفساد، ولأن الأمة المتفرقة لا تصلح للحياة[٢٥٤].

ثالثا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعدمهما:

يمثل هذا المبدأ فرضا من الفرائض الثابتة في جميع الشرائع التي جاء بها الأنبياء جيلا بعد جيل. يقول تعالى:

﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون (١١٣) يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾[٢٥٥]

في هذه الآية يبين تعالى؛ أنه ليس كل أهل الكتاب على حد سواء؛ بل منهم مجتمعات صالحة مؤمنة بالله تعالى، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. حيث مدحهم بوعيهم و عملهم بهذه الفريضة. كما مدح الله تعالى المسلمين ـ كأمة ومجتمع ـ لوعيهم وعملهم بها، قال تعالى:

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[٢٥٦]

فعدم الالتزام بهذا المبدأ يمثل عاملا كبيرا في فساد المجتمع وانهيار الحضارة.

فالمجتمعات التي يمارس أفرادها المنكرات، كالظلم والبغي والعدوان والتمرد على الله تعالى في حلاله و حرامه وأكل أموال الناس بالباطل ونحو ذلك، ولا يتناهى أفرادها عنه، سوف تقع في قبضة النتائج السلبية المطلقة، من ذلك كله[٢٥٧].فتؤدي إلى هدم المجتمع وسقوطه. كما يقول تعالى:

﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون(٧٨)كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾[٢٥٨]

يبين هذا النص الشريف؛ أن سبب اللعنة التي حلت بالمجتمع الإسرائيلي، كانت نتيجة لعدم التزامهم بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أي كان لا ينهى أحد منهم أحدا عن ارتكاب المآثم والمحارم[٢٥٩]. اللعن هنا ليس عقابا روحيا وأخرويا فقط، إنه هنا يأخذ معنى سياسيا، إن اللعن هو البعد عن رحمة الله ورعايته، وهذا يعني أن الملعون يتعرض للنكبات السياسية والاجتماعية التي تؤدي به في النهاية إلى الانحطاط و الانهيار[٢٦٠].

وجاء في تعليق الرسول الأكرم (صلوات الله وسلامه عليه) على هذا النص المبارك، أنه قال: «كلا والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدي الظالم، و لتأطرنه على الحق أطرا[٢٦١]، ولتقصرنه على الحق قصرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعننكم كما لعنهم»[٢٦٢].

أيضا قال (صلوات الله وسلامه عليه): «ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي، يقدرون على أن يغيروا عليه فلا يغيروا إلا أصابهم الله بعذاب من قبل أن يموتوا»[٢٦٣].

كلما تمسك المجتمع في حضارة ما، أكثر فأكثر بمبادئ القيم والأخلاق؛ الصدق، الأمانة، الصبر، الإخلاص، الشجاعة، الصمود، التضحية، الإيثار، مقاومة الإغراءات والشهوات، العمل بمقاييس الحق والعدل بموضوعية، كلما تقدم ذلك المجتمع أكثر فأكثر في سلم الرقي و الحضارة، وعاش التماسك، وديمومة الاستمرار في البقاء. وعلى العكس فإن افتقاد هذه الأسس الأخلاقية، تؤدي إلى تفككه وانحطاطه، وأخيرا إلى سقوطه.ويذكر القرآن الكريم مصير الأمم التي جنحت بأخلاقها وسلوكها عن سواء

السبيل، وارتكبت الفواحش والذنوب والرذائل، فكانت عاقبتها وخيمة، مثل قوم لوط وشعيب وغيرهما، كما قال تعالى:

﴿ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين(٨٠)إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون(٨١)وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون(٨٢)فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين(٨٣)وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾[٢٦٤]

﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾[٢٦٥]

﴿إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون﴾[٢٦٦]

هكذا فإن المصير الذي لاقته المجتمعات السالفة يؤكد، بأن السلوك الأخلاقي المنحرف هو طريق الانهيار الحضاري[٢٦٧]. كما ذكر غوستاف لوبون، من أسباب سقوط الأمم وانحطاطها، هو الانحطاط الأخلاقي، فقال: «ونحن إذا بحثنا في الأسباب التي أدت بالتتابع إلى انهيار الأمم، وجدنا أن العامل الأساسي في سقوطها، هو تغير مزاجها النفسي تغيرا نشأ عن انحطاط أخلاقها»[٢٦٨].

إن غياب الفضائل والقيم الأخلاقية الفاضلة عن المجتمع، يدفعه إلى الانغماس بالترف والشهوات، وممارسة الرذائل والركوس في الفساد، فيجعل ذلك المجتمع محاربا لكل مساعي الخير والصلاح في الحياة، وهذا ما كان يفعله المترفون في المجتمعات الغابرة، في خلال معارضتهم للأنبياء (عليهم السلام)، قال تعالى:

﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون(٣٤)وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين﴾[٢٦٩]

﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾[٢٧٠]

في سياق هذه الآية المباركة، يقول «ابن خلدون»: إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة، حملهم على ارتكاب المذمومات، وانتحال الرذائل وسلوك طرقها، فتفقد الفضائل

السياسية منهم جملة، ولا تزال في انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم، ويتبدل به سواهم؛ ليكون نعيا عليهم في سلب ما كان الله قد آتاهم من الملك وجعل في أيديهم من الخير[٢٧١].

هكذا تنهار المجتمعات وتسقط الحضارات بسبب الفساد الأخلاقي ، وهذا ما قرره المؤرخ المشهور (أدوارد جيبون) في تحليله لأسباب سقوط الإمبراطورية الرومانية ، حيث أرجع ذلك إلى الانغماس في الرذيلة والترف وحياة الدعة والكسل والخيانة والغدر والتناحر من أجل السلطة، وما إلى ذلك من الأسباب الأخلاقية الأخرى[٢٧٢].

يقول السيد جمال الدين الأفغاني(١٨٣٨-١٨٩٧م): «هكذا جعل الله بقاء الأمم، ونماءها في التحلي بالفضائل التي أشرنا إليها، وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها، سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم، ولا تتبدل بتبدل الأجيال»[٢٧٣].

وما ينبغي أن يقال هنا: إن ما حاق بالمجتمعات السالفة، وكان سببا في هلاكها، و سقوط حضاراتها، وذهاب مجدها، سيكون هو السبب نفسه في تدمير حضارات الظالمين في كل العصور. وبذلك سينتهي دور الحضارات القائمة بنفس السنن الربانية؛ لأن أهلها حادوا عن سواء السبيل، كما حادت عاد وثمود ومدين، وفرعون وهامان، فكان مصيرهم الهلاك والدمار؛ لأنها سنة الله الباقية في العالمين:

﴿سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾[٢٧٤]

فقد باتت الحضارة الغربية المعاصرة، تعاني - منذ زمن ليس بقريب - من تحديات هائلة، وأزمات أخلاقية وثقافية واجتماعية طاحنة، تهددها بالخراب والدمار. وقد أطلق بعض قادة الغرب و مفكريه - منذ بداية القرن التاسع عشر وحتى اليوم - عدة صرخات مدوية، مثلت أجراس خطر، ونذر شؤم لمستقبل هذه الحضارة.

فقد رأى شبنجلر (١٨٨٠- ١٩٣٦م)، أن هذه الحضارة الغربية تسير نحو «مصيرها المحتوم، وهو التدهور، والهلاك مرتقب في المستقبل المنظور»[٢٧٥].

إن المجتمعات الغربية والأمريكية، أخفقت في ميادين الأخلاق والاجتماع، فعصفت فيها مشكلات عدة، أخذت تنخر في أعماقها، فحولتها إلى كيانات بشرية، تتحرك دون إرادة أو وعي منها إلى أين تسير، وما هو مصيرها المرتقب؟ الأمر الذي دفع برئيس

الولايات المتحدة الأمريكية «جون كندي» (١٩١٧ - ١٩٦٣م)، في سنة ١٩٦٢م، أن يقول: «إن لأمريكا مستقبلا مؤلما، إذ الشباب انحلاليون وغارقون في الشهوات، وغير مستعدين لأن يقوموا بما يحول عليهم من تكاليف. فمثلا من كل سبعة من الشباب يدخلون في الجندية يخرج ستة منهم ضعفاء غير لائقين، ذلك أن إفراطهم في شهواتهم قد استنفد منهم استعداداتهم النفسية والجسدية»[٢٧٦].

كذلك صرح «خروتشيف» (١٨٩٤- ١٩٧١م)، رئيس الاتحاد السوفيتي المنهار، في سنة ١٩٦٢م قائلا: «إن مستقبل روسية في خطر، وليس للشباب مستقبل مؤمل، إذ أصبحوا انحلاليين إباحيين عبيدا لشهواتهم»![٢٧٧].

هكذا انهار الاتحاد السوفيتي - الذي كان يسمى بالقوة العظمى - وتقطعت أوصاله، وتحول إلى دويلات متناحرة، يعصف فيها الدمار والفساد، كنتيجة حتمية للانحراف عن خط الوحي الإلهي. ولابد أن تحل النتيجة نفسها بالمجتمعات الأمريكية، و يفتك فيها الخراب والدمار، جزاء لما تكسبه من أعمال وممارسات ظالمة، في حق نفسها، و في حق شعوب العالم المستضعفة. وذلك قول الله تعالى:

﴿ استكبارا في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا(٤٣)أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا﴾[٢٧٨].

الهوامش

١) مالك بن نبي: تأملات، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٥، (١٤١٢هـ - ١٩٩١ م)، ص١٣٠.

٢) د. عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، ص٨

٣) د. عبد الحليم عويس: فقه التاريخ، دار الصحوة للنشر، القاهرة، (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م)، ص١١.

٤) محمد تقي مصباح: النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ، تعريب: محمد عبد المنعم الخاقاني، دار الروضة، بيروت، (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م)، ص١٧٢.

٥) سورة الروم، الآية: ٣٠.

٦) الميزان في تفسير القرآن: ج١٦، ص١٧٩.

٧) سورة يوسف ، الآية :١١١.
٨) سورة النازعات ، الآية :٢٦.
٩) سورة يوسف ، الآية :١١١.
١٠) سورة هود ، الآية :١٢٠.
١١) سورة النحل، الآية :٨٩.
١٢) الشيخ محمد مهدي شمس الدين : حركة التاريخ عند الإمام علي،ص٩١.
١٣) السخاوي : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص١٧.
١٤) أبو علي، مسكويه : تجارب الأمم، تحقيق ؛ الدكتور : أبو القاسم إمامي، دار سروش، طهران ـ إيران، (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م)، ج١، ص١ـ٢.
١٥) السخاوي : المصدر السابق، ص١٤.
١٦) د. أحمد محمود صبحي : في فلسفة التاريخ، ص١٠٦.
١٧) د. محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، (١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م)، ص٨
١٨) جان فور آستيه : معايير الفكر العلمي، ترجمة : فايز كم نقش، منشورات عويدات، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م، ص٣٧.
١٩) سورة الجمعة ، الآية :٢.
٢٠) الشيخ محمد مهدي شمس الدين : حركة التاريخ عند الإمام علي، ص٦٤.
٢١) إبراهيم الحيدري : الحضارة و المدنية، أطروحات في النظرية الاجتماعية و المجتمع، منشورات جامعة عنابة، رقم ٨، ١٩٨٣م، ص٤٤.
٢٢) سورة فصلت ، من الآية :٥٣.
٢٣) سورة البقرة ، الآية :٢٤٢.
٢٤) سورة الحديد ، من الآية :١٧.
٢٥) الشيخ مرتضى المطهري : التربية والتعليم في الإسلام، دار الهادي، بيروت، (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م)، ص٢٢٥.
٢٦) سورة الأعراف ، من الآية :١٧٦.
٢٧) سورة محمد ، الآية :١٠.
٢٨) سورة آل عمران ، الآية :١٣٧.
٢٩) عبد العزيز كامل : القرآن والتاريخ، مجلة عالم الفكر، المجلد١٢، يناير ـ فبراير- مارس١٩٨٢، ص٤٤.
٣٠) محمد إقبال : تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، مطبعة لجنة التأليف والترجمة في القاهرة، ط٢، ١٩٦٨م، ص١٥٩.
٣١) د. عبد الكريم بكار : فصول في التفكير الموضوعي، الدار الشامية، بيروت، ط٢، (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م)، ص٢٣.
٣٢) سورة العنكبوت ، الآيات :١٩ـ٢٠.
٣٣) سورة البقرة ، الآيات :٣٠ـ٣٩.
٣٤) شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، (١٩٨٣م)، ج١، ص٥٨.
٣٥) سميح عاطف الزين: حركة التاريخ في المفهوم الإسلامي،دارالكتاب اللبناني، بيروت،(١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م)، ص٢١.

٣٦) د. عماد الدين خليل : حول إعادة تشكيل العقل المسلم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ ، ص٤٩.
٣٧) سورة آل عمران ، الآية :١٠٤.
٣٨) باقر شريف القرشي : النظام السياسي في الإسلام، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط٣، (١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م)، ص٥١.
٣٩) د. ملحم قربان: المنهجية والسياسة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط٤، (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م)، ص٣٥.
٤٠) ابن منظور : لسان العرب، (س و س)، ج ٣، ص٢١٤٩.
٤١) الفيومي : المصباح المنير، منشورات دار الهجرة، قم ـ إيران، ١٤٠٥هـ (س و س)، ص٢٩٥.
٤٢) أبو البقاء : الكليات ، ص٥١٠.
٤٣) ابن قيم الجوزية : الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق : بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، دمشق، (١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م)، ص١٢.
٤٤) سورة البقرة ، من الآية :٢١٣.
٤٥) سورة الأنعام ، من الآية :٩٠.
٤٦) سورة هود ، الآية :٨٨.
٤٧) د. علي لاغا : مدخل إلى العلوم السياسية، دار بيروت المحروسة، بيروت، ط٢، (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م)، ص٧.
٤٨) سورة الأنعام ، الآية :١٢٣.
٤٩) سورة النمل ، الآية :٣٤.
٥٠) سورة الأعراف ، الآية :١٥٧.
٥١) سورة طه ، الآيات :٤٣ـ٤٧.
٥٢) سورة الأعراف ، الآيتان :١٠٤ـ١٠٥.
٥٣) محمد تقي مصباح : معارف القرآن، تعريب : محمد عبد المنعم الخاقاني، الدار الإسلامية، بيروت، (١٤١٠هـ ـ١٩٨٩م)، ج٤ ، ص٢٦.
٥٤) انظر : الشيخ محمد مهدي شمس الدين ؛ نظام الحكم والإدارة في الإسلام، دار الثقافة للطباعة والنشر، قم ـ إيران، ط٣، (١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢م)، ص٤٤ـ٤٥.
٥٥) سورة القصص ، من الآية :٣٨.
٥٦) سورة غافر ، من الآية :٢٩.
٥٧) سورة القصص ، الآية :٤.
٥٨) سورة يونس ، من الآية :٨٣.
٥٩) أنظر : الشيخ محمد مهدي شمس الدين : نظام الحكم والإدارة في الإسلام، ص٤٦.
٦٠) سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد الخامس، ص٣٠١٧.
٦١) سورة التوبة ، الآية :١٢٨.
٦٢) الشيخ محمد مهدي شمس الدين : نظام الحكم والإدارة في الإسلام،ص٤٨.
٦٣) سورة النمل ، الآيات :٢٩ـ٣٥.
٦٤) محمد هيشور :سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص٧٦.
٦٥) سورة الأعراف ، الآيتان :٥٩ ـ٦٠.
٦٦) سورة الأعراف ، الآية :٦٦.
٦٧) سورة الأعراف ، الآية :١٢٧.

٦٨) سورة البقرة ، الآية :٢٠٨.

٦٩) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، ج٢، ص٤٩.

٧٠) سورة آل عمران ، الآية :١٤٦.

٧١) سورة البقرة ، الآية :١٩٠.

٧٢) سورة التوبة ، من الآية :٣٦.

٧٣) سورة التوبة ، من الآية : ٧٣.

٧٤) سورة الأنفال ، من الآية :٦٠.

٧٥) سورة البقرة ، من الآية :٢٥١.

٧٦) الزمخشري: تفسير الكشاف ج١، ص ٢٩٦.

٧٧) سورة الحج ، من الآية :٤٠.

٧٨) سورة الأنفال ، الآية:٣٩.

٧٩) سورة التوبة ، الآية :٣٩.

٨٠) سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد الثالث، ص١٦٥٥.

٨١) د. يوسف القرضاوي : ثقافة الداعية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، ص٣٠.

٨٢) سورة المائدة ، الآيات :٢١-٢٦.

٨٣) تفسير ابن كثير : ج٢، ص٤٢.

٨٤) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج٢، ص٧٤.

٨٥) محمود الشرقاوي : التفسير الديني للتاريخ، كتاب الشعب، القاهرة، ١٩٧٥، ج١، ص٢٥٩.

٨٦) أبو الأعلى المودودي : الجهاد في سبيل الله ، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، ص١١.

٨٧) سورة النساء ، من الآية :٧٦.

٨٨) السيد محمد حسين فضل الله: الإسلام ومنطق القوة، الدار الإسلامية، بيروت، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، ص١٧٨.

٨٩) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها ، د.ن، دمشق، ١٩٧٠م، ص٣٩٥.

٩٠) سورة البقرة ، من الآية :١٤١.

٩١) سورة فاطر ، من الآية :٢٤.

٩٢) سورة القصص ، من الآية :٥٨.

٩٣) سورة الأعراف ، الآية :٨٢.

٩٤) طلعت همام : سين وجيم عن علم الاجتماع ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط٣، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م)، ص٥.

٩٥) د. حسين عبد الحميد أحمد رشوان : ميادين علم الاجتماع ومناهج البحث العلمي، طبع المكتب الجامعي الحديث بالاسكندرية، ط٥، ١٩٨٩، ص٣.

٩٦) مالك بن نبي : ميلاد مجتمع، ترجمة : عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، (١٤١٠هـ - ١٩٨٩م)، ص١٧.

٩٧) سورة التوبة ، من الآية :٧١.

٩٨) حديث مشهور .

٩٩) انظر : مالك بن نبي ؛ ميلاد مجتمع ، ص ١٦-١٨.

١٠٠) انظر : لسان العرب ؛ (ح ض ر)، ج٢، ص٩٠٧.

١٠١) د. أحمد إبراهيم الشريف : دراسات في

الحضارة الإسلامية، دار الفكر العربي، ط٢ ، ١٩٨١، ص١١.

١٠٢) انظر : المعجم الوسيط ، (ح ض ر)، ج ١، ص١٨٧ .

١٠٣) ابن خلدون : المقدمة، ص٢٣٥.

١٠٤) ابن خلدون : المصدر نفسه، ص٢٣٣.

١٠٥) ابن خلدون : المقدمة ، ص٨٣

١٠٦) سورة الأعراف ، الآية :٩٤.

١٠٧) سورة الفرقان ، الآية :٥١.

١٠٨) سورة يوسف ، من الآية :١٠٩.

١٠٩) سورة الأنبياء ، من الآية :١١.

١١٠) سورة العنكبوت ، من الآية :٣١.

١١١) سورة هود، الآية : ١١٧.

١١٢) سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد، ص٢٠٢٥.

١١٣) محمد هيشور : سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص٢٣٢.

١١٤) د. أحمد إبراهيم الشريف : دراسات في الحضارة الإسلامية، ص١٢.

١١٥) د. عبد المنعم نور : الحضارة و التحضر، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٧٠م، ص٥ـ٦.

١١٦) الثقافة الإنسانية وفلسفة التربية في الشرق والغرب: مباحث دولية، ترجمة : انطوان خوري، دار النشر للجامعيين، بيروت، (د.ت)، ص٩٠.

١١٧) ألبرت أشفيتسر: فلسفة الحضارة، ترجمة:د.عبدالرحمن بدوي،دار الأندلس،بيروت،ط٢،(١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م)، ص٣٤.

١١٨) د. حسين مؤنس : الحضارة ، ص١٥.

١١٩) د. حسين مؤنس : المرجع نفسه، ص١٥.

١٢٠) مالك بن نبي : ميلاد مجتمع ، ص١٨ـ١٩.

١٢١) د. أحمد إبراهيم الشريف : دراسات في الحضارة الإسلامية، ص٢١.

١٢٢) سورة هود ، من الآية :٦١.

١٢٣) د. محمد سعيد رمضان البوطي : منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر، دمشق، (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م)، ص٢٦.

١٢٤) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج٤ ، ص٩٦.

١٢٥) سورة الأعراف ، الآية :٣٤.

١٢٦) سورة يونس ، من الآية :٤٩.

١٢٧) السيد محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج ٨ ، ص٤٠٢.

١٢٨) السيد محمد باقر الصدر : المدرسة القرآنية ، ص٥٦ ـ٥٧.

١٢٩) د. حسان حلاق: مناهج الفكر والبحث التاريخي، ص٤٩٠.

١٣٠) ابن خلدون: المقدمة، ص١١٨.

١٣١) ابن خلدون: المصدر نفسه، ص١٢١.

١٣٢) سورة الحجر ، الآيات :٤ـ٥.

١٣٣) سيد قطب : في ظلال القرآن ، المجلد ٤ ، ص١٨٥٩.

١٣٤) سورة الكهف ، الآيتان :٥٨ـ٥٩.

١٣٥) سورة الحجر ، الآية :٤.

١٣٦) سورة الجاثية ، الآيتان :٢٨-٢٩.
١٣٧) تفسير القرطبي : ج١٦ ، ص١١٦.
١٣٨) تفسير ابن كثير : ج٤، ص١٦٤.
١٣٩) سورة الإسراء ، الآيتان :١٣-١٤.
١٤٠) سورة الأنفال ، الآية :٢٥.
١٤١) تفسير القرطبي : ج٧، ص٢٤٨.
١٤٢) الشيخ محمد جواد مغنية: التفسير المبين، ص ٢٣٠.
١٤٣) سورة الأعراف ، الآية :١٨١.
١٤٤) سورة الأعراف ، الآية :١٥٩.
١٤٥) السيد محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج٩، ص٣٦٣-٣٦٤.
١٤٦) سورة البقرة ، الآية :١٣٤.
١٤٧) السيد محمد حسين فضل الله : تفسير من وحي القرآن، ج٣، ص٤٤.
١٤٨) سورة الأنعام ، من الآية :١٠٨.
١٤٩) السيد محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج ٧، ص ٦٧٠.
١٥٠) الشيخ مرتضى المطهري : المجتمع و التاريخ ، ص ٣٠.
١٥١) سورة الشمس ، الآيات :١١-١٥.
١٥٢) سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد ٦، ص٣٩١٩ .
١٥٣) سورة البقرة ، من الآية :٢٨٦.
١٥٤) سورة الطور ، من الآية :٢١.
١٥٥) سورة المدثر ، الآية :٣٨.
١٥٦) سورة الروم ، الآية :٤١.
١٥٧) سورة فصلت ، من الآية :١٧.
١٥٨) قوم عاد .
١٥٩) قوم ثمود .
١٦٠) قارون .
١٦١) إشارة إلى فرعون و هامان .
١٦٢) سورة العنكبوت ، الآية :٤٠.
١٦٣) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧-٨.
١٦٤) د. عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص٣٠٨.
١٦٥) سورة النحل ، من الآية :٣٠.
١٦٦) سورة آل عمران ، الآية :١٤٨.
١٦٧) سورة الزمر ، الآيتان :٢٥-٢٦.
١٦٨) سورة القصص ، الآية :٤٢.
١٦٩) انظر: د. عبد الحليم عويس؛ تفسير التاريخ علم إسلامي، ص ١٦٠-١٦١.
١٧٠) مالك بن نبي : ميلاد مجتمع، ص٢٧ .
١٧١) د. محمود الشرقاوي : التفسير الديني للتاريخ ، ص٢٦٨.
١٧٢) د. عبد الرحمن بدوي : نيتشه، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٥، ص١٤٧-١٤٨.
١٧٣) د. محمد سعيد رمضان البوطي : حوار حول مشكلات حضارية، الدار المتحدة، دمشق، ط٣، (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م)، ص٧٢.
١٧٤) سورة البقرة ، من الآية :٣٠.
١٧٥) سورة ص ، الآيتان:٧١-٧٢.
١٧٦) سورة الأحزاب ، الآية : ٧٢.
١٧٧) سورة الإسراء ، الآية : ٧٠.
١٧٨) سورة الانشقاق ، الآية :٦.

١٧٩) السيد محمد باقر الصدر : خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء ، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط ٢، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) ، ص ٢٢.

١٨٠) د. عبد الكريم بكار : من أجل إنطلاقة حضارية شاملة، الدار الشامية، بيروت، (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)، ص ٩٨.

١٨١) د. ماجد عرسان الكيلاني : مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح ، كتاب الأمة، رقم -٢٩- قطر، شوال ١٤١١هـ ، ص ٤١ .

١٨٢) سورة الملك ، من الآية :٢.

١٨٣) سورة النحل ، الآية :٩٧.

١٨٤) أبو الحسن الندوي: النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، دار القلم، دمشق، ط ٥، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م)، ص ١٥٢.

١٨٥) سورة هود ، الآية :٥٢.

١٨٦) سورة نوح ، الآيات :١٠-١٢.

١٨٧) د. عبد الحليم عويس : تفسير التاريخ علم إسلامي ، ص ١٦٩.

١٨٨) سورة المائدة ، الآيتان :٧٨-٧٩.

١٨٩) سورة الإسراء ، الآية :١٦.

١٩٠) ما يحمله السيل من وسخ. ويضرب به المثل فيما يضيع ويذهب غير معتد به. انظر: الراغب الأصفهاني؛ معجم مفردات ألفاظ القرآن، (غ ث ا)، ص ٣٧٠.

١٩١) رواه ثوبان،سنن أبي داود : دار الجنان، بيروت، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م)، ج ٢، رقم الحديث - ٤٢٩٧- ص ٥١٤.

١٩٢) برغوث عبد العزيز بن مبارك : المنهج النبوي والتغيير الحضاري، ص ٨٨

١٩٣) د. أحمد إبراهيم الشريف : دراسات في الحضارة الإسلامية ، ص ٦٤.

١٩٤) انظر : إبراهيم الحيدري ؛ الحضارة و المدنية ، ص ٤٢.

١٩٥) سورة فصلت ، من الآية :٥٣.

١٩٦) سورة الطارق ، الآية :٥.

١٩٧) سورة عبس ، الآيات :٢٤-٣١.

١٩٨) سورة الأعراف ، من الآية :١٨٥.

١٩٩) سورة غافر ، من الآية :٨٢.

٢٠٠) سورة العنكبوت ، من الآية :٢٠.

٢٠١) سورة الإسراء ، من الآية :٢١.

٢٠٢) سورة الغاشية ، الآيات :١٧-٢٠.

٢٠٣) سورة الروم ، من الآية :٥٠.

٢٠٤) سورة الأنعام ، من الآية :٩٩.

٢٠٥) جودت سعيد : حتى يغيروا ما بأنفسهم، مطبعة زيد بن ثابت الأنصاري، دمشق، ط ٦ ، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م)، ص ١٨٣ -١٨٤.

٢٠٦) سورة الأنفال ، الآية :٢٢.

٢٠٧) سورة الأعراف ، الآية :١٧٩.

٢٠٨) مالك بن نبي : مشكلة الثقافة ، ص ٦٧.

٢٠٩) سورة الجمعة ، الآية :٢.

٢١٠) تفسير القرطبي : ج ١٨ ، ص ٦١.

٢١١) الفخر الرازي : التفسير الكبير ، ج ٣٠، ص ٣.

٢١٢) الشرتوني: أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد؛ (ح ك م)، ج ١، ص ٢١٩.

٢١٣) سورة البقرة ، الآية :٢٦٩.

٢١٤) سورة البقرة ،من الآية :٢٥١.

٢١٥) سورة ص ، الآية :٢٠.

٢١٦) برهان غليون : اغتيال العقل، ص٣٥٢.

٢١٧) سورة الأنبياء ، الآية :٢٥.

٢١٨) سورة البقرة ، من الآية :٢١٣.

٢١٩) سورة النجم ، الآية :٤٢.

٢٢٠) د. محمد سعيد رمضان البوطي : حوار حول مشكلات حضارية ، ص٧٢.

٢٢١) ألبرت أشفيتسر : فلسفة الحضارة ، ص٣.

٢٢٢) ألبرت أشفيتسر : المرجع نفسه ، ص٦٦.

٢٢٣) حديث مشهور.

٢٢٤) د. غوستاف لوبون : روح التربية، ترجمة : عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة،(١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م)، ص٣٣٧.

٢٢٥) سورة إبراهيم ، الآيات :٣٢-٣٤.

٢٢٦) سورة الجاثية ، الآية :١٣.

٢٢٧) سورة النحل ، من الآية :١٤.

٢٢٨) جودت سعيد: العمل قدوة وإرادة، مطبعة زيد بن ثابت الأنصاري، دمشق، ط٢ ، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م)، ص٥٦.

٢٢٩) د. عبد الحليم عويس : تفسير التاريخ علم إسلامي ، ص٢٢٠.

٢٣٠) سورة سبأ ، الآيات :١٠ - ١٣.

٢٣١) د. عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص٢١٩.

٢٣٢) د. تيسير شيخ الأرض : بحث بعنوان «الحضارة وبناء العالم الإنساني» في كتاب: الحضارة الإنسانية ، ج١، ص٢٣٥.

٢٣٣) سورة الأعراف ، الآية :٩٦.

٢٣٤) محمد هيشور : سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص١٨٨-١٨٩.

٢٣٥) سورة الأنفال ، من الآية :٢٤.

٢٣٦) سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد الثالث، ص١٤٩٤.

٢٣٧) سورة الإسراء ، الآية :٥٨.

٢٣٨) د. أنيس الأبيض : بحوث في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، جروس برس ، طرابلس - لبنان ، (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م) ، ص ٩٤.

٢٣٩) كريم جبر الحسن : عملية النهوض الحضاري، دار الهادي، بيروت، (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م) ، ص٢٠٨.

٢٤٠) سورة هود ، الآية :١١٧.

٢٤١) الفخر الرازي: التفسير الكبير : ج١٨ ، ص٧٦.

٢٤٢) تفسير القرطبي : ج٩ ، ص٧٦.

٢٤٣) سورة القصص ، الآية : ٤.

٢٤٤) سورة إبراهيم ، من الآية :١٣.

٢٤٥) سورة هود ، الآية :٦٧.

٢٤٦) ابن خلدون: المقدمة، ص١٨٦.

٢٤٧) الماوردي: أدب الدنيا والدين، تحقيق: مصطفى السقا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م)، ص١٤١.

٢٤٨) سورة آل عمران ، الآية :١٠٣.

٢٤٩) سورة المائدة ، من الآية :٢.

٢٥٠) سورة الأنفال، من الآية :٤٦.

٢٥١) د. عبد الكريم زيدان : السنن الإلهية ، ص١٣٩.

٢٥٢) كريم جبر الحسن : عملية النهوض الحضاري، ص ٢٠٠.

٢٥٣) سورة آل عمران ، الآية :١٠٥.

٢٥٤) الشيخ محمد جواد مغنية : تفسير الكاشف ، ج٢ ، ص١٢٧.

٢٥٥) سورة آل عمران ، الآيتان :١١٣ـ١١٤.

٢٥٦) سورة آل عمران ، من الآية :١١٠.

٢٥٧) السيد محمد حسين فضل الله: تفسير من وحي القرآن : ج٨ ص٢٩١.

٢٥٨) سورة المائدة ، الآيتان :٧٨ـ٧٩.

٢٥٩) تفسير ابن كثير : ج٢ ، ص٨٥

٢٦٠) الشيخ محمد مهدي شمس الدين : حركة التاريخ عند الإمام علي ، ص١٢٨.

٢٦١) معناه : تعطفوه عليه، انظر؛ لسان العرب، (أ ط ر)، ج١،ص٩١.

٢٦٢) رواه، عبدالله بن مسعود ؛ سنن أبي داود ، ج٢، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم الحديث: ٤٣٣٧، ص٥٢٥.

٢٦٣) رواه ، جرير ؛ سنن أبي داود ، ج٢، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم الحديث ـ ٤٣٣٩ ـ، ص٥٢٦.

٢٦٤) سورة الأعراف ، الآيات :٨٠ ـ٨٤.

٢٦٥) سورة الأعراف ، من الآية :٨٥.

٢٦٦) سورة العنكبوت ، الآية :٣٤.

٢٦٧) د. عبد الحليم عويس : تفسير التاريخ علم إسلامي ، ص١٧٩.

٢٦٨) د. غوستاف لوبون : السنن النفسية لتطور الأمم ، ترجمة : عادل زعيتر، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٥٧م، ص١٧٢.

٢٦٩) سورة سبأ ، الآيتان :٣٤ـ٣٥.

٢٧٠) سورة الإسراء ، الآية :١٦.

٢٧١) ابن خلدون : المقدمة، ص٩٩.

٢٧٢) أدوارد جيبون : الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة : محمد علي أبو درة، دار الكاتب العربي، القاهرة، (د.ت)، ج١، ص ٢٣٠ـ٢٥٩.

٢٧٣) محمد عمارة : الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، (د.ت) ، ص٣٣٨.

٢٧٤) سورة الفتح ، الآية :٢٣.

٢٧٥) د. حسين مؤنس : الحضارة ، ص ٣٥٩.

٢٧٦) مجتبى الموسوي اللاري : الإسلام والحضارة الغربية، تعريب: محمد هادي اليوسفي الغروي، مطبعة الهادي، قم ـ إيران، ١٤١١هـ ص٤٧.

٢٧٧) مجتبى الموسوي اللاري : المرجع نفسه ، ص٤٧.

٢٧٨) سورة فاطر ، الآيتان : ٤٣ ـ ٤٤.

الفصل الخامس

العناصر الأساسية لحركة التاريخ في القرآن الكريم

من يستقرئ واقع الحياة، ومجريات الأحداث اليومية، يجد أن حركة التاريخ البشري، دائما في «صيرورة حية، وتفاعل مستمر»[1].وحينئذ لابد أن تكون لهذه الصيرورة عناصرها الأساسية، من علل وأسباب وعوامل فاعلة ومؤثرة فيها. وقد اعتقد «ابن خلدون» تمام الاعتقاد، بأن المتغيرات الحاصلة في المجتمع والتاريخ لابد أن تأتي من «علل وأسباب»، حيث أشار إلى ذلك في عنوان الكتاب الأول من مقدمته فقال: «في طبيعة العمران في الخليقة، وما يعرض فيها من البدو والحضر، والتغلب، والكسب والمعاش والصنائع، والعلوم ونحوها، وما لذلك من العلل والأسباب»[2]. فالتاريخ عنده تفسير لأحوال العمران والتمدن والاجتماع، وهو دراسة للأسباب والمسببات وللقوانين، وهو ما يمكن تسميته بقانون السببية[3]. لأن التاريخ في الواقع يشتمل على نظام يتعدى مجرد التتالي في الزمان[4].

إن الوعي التاريخي لا يمكن أن يكون فاعلا ومنتجا، ما لم ينفذ إلى أعماق الوقائع والأحداث التاريخية، ليتعرف عن كثب، على طبيعة العلل المسببة لها، والعوامل المباشرة وغير المباشرة من ورائها، وما حجم العلاقة والتأثير بينها وبين الفرد والمجتمع، حتى يتمكن الإنسان بمقدار وعيه وجهده، أن يسجل حضورا إيجابيا في صنع التاريخ. لأن أسباب الأحداث التاريخية ونتائجها كثيرة ومعقدة يصعب حصرها، بعضها ظاهر وبعضها خفي، بعضها مذكور لابد من تلمسه، وهي من أروع وأصعب ما في الدراسة التاريخية[5].غير أن المشكلة التي عانت منها عملية تعليل أو تفسير حركة التاريخ بعد عصر النهضة العلمية في أوروبا، هي تلك النزعة المادية المتطرفة، التي جاءت محكومة

بكثير من ردود الفعل ضد سلطة الكنيسة التي كانت تضطهد رجال الفكر، وتناهض الحركة العلمية. وردود الفعل هذه صبغت الاتجاهات الفكرية لدى معظم العلماء الغربيين بالصبغة المادية التي ترفض أي سند من الروح أو أي صلة بالدين، وبالتالي فإن معظم من تعرضوا لتفسير التاريخ من هؤلاء العلماء الغربيين وجدوا أنفسهم أسرى التفسير المادي للتاريخ[٦].وقد سبب هذا الاتجاه المادي في تعليل التاريخ، الذي ساد أكثر الكتابات التاريخية، تشويشا وإرباكا في فهم التاريخ، لدى الكثير من أبناء المسلمين الذين تأثروا بهذا الفكر الغربي.

لكن إذا أردنا الاهتداء إلى فقه حركة التاريخ، والتوصل إلى تفسيرها وتعليلها، ومعرفة عناصرها الأساسية، بعلمية وموضوعية، فإن القرآن الكريم، خير سبيل إلى ذلك، كما أخبرنا الحق سبحانه:

﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم﴾[٧]

وعند التأمل في آيات القرآن المجيد، نجد أن العناصر الأساسية لحركة التاريخ، تتمثل بما يلي:

أولا: السنن أو «القواعد والقوانين» في حركة التاريخ

يبين القرآن المجيد خلال آيات عدة أن حركة التاريخ ليست بدعا من الأمور في حركة هذا الكون الفسيح؛ بل هي تسير وفق نظام دقيق، تحكمه قواعد وقوانين تجري بحكمة ومشيئة إلهية عادلة. ويسمي هذه القواعد والقوانين «بالسنن»، كما في قوله تعالى:
﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾[٨]

معنى السنة:

١.في اللغة :

السنة في اللغة جمعها سنن، وهي: الطريقة والسيرة[٩]، حسنة كانت أو قبيحة[١٠].

قال الطبرسي: «أصل السنة، الاستمرار في جهة، يقال: سن الماء، إذا صبه حتى يفيض

من الإناء، وسن السكين بالمسن: إذا أمره عليه لتحديده، ومنه السن واحد الأسنان لاستمرارها على منهاج، والسنان لاستمرار الطعن به، والسنن: استمرار الطريق»[11].

قال الإمام الرازي: «السنة، الطريقة المستقيمة والمثال المتبع»[12].

وقال السيد محمد رشيد رضا: «السنن جمع سنة، وهي الطريقة المعبدة والسيرة المتبعة أو المثال المتبع»[13].

٢.في الاصطلاح :

السنة عند المحدثين: تطلق على سيرة رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه) من قول أو فعل أو صفة خلقية راجعة إلى طبائعه النفسية في حالة الرضا والغضب، سواء كانت قبل البعثة أو بعدها، وزاد بعضهم أو إشارة منه أو ما هم به، وبهذا ترادف السنة الحديث في المضمون والمنزلة[14]. تعد السنة في التشريع الإسلامي، المصدر الثاني بعد القرآن الكريم في الاستدلال على الأحكام الشرعية، كما يقول الشوكاني: «والحاصل أن ثبوت حجية السنة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية، ولا يخالف في ذلك إلا من لاحظ له في دين الإسلام»[15].

أما السنة في اصطلاح الفقهاء: فترد بمعان كثيرة بحسب استعمالها في فروع الفقه، فقد تطلق على ما كان من العبادات نافلة منقولة عن النبي (صلوات الله وسلامه عليه)[16]، أي ما ليس بواجب منها[17].

قال الجرجاني: «السنة في الشريعة، هي الطريقة المسلوكة في الدين من غير افتراض ولا وجوب»[18].

لكن المستفاد من كتب فروع الفقه: أنها تطلق عند الفقهاء على ما هو مندوب من العبادات وغيرها، وقد تطلق كلمة «السنة» في كلام بعض الفقهاء على ما يقابل «البدعة»، فيقال: فلان على سنة، إذا عمل وفق عمل النبي (صلوات الله وسلامه عليه) وفلان على بدعة، إذا عمل على خلاف ذلك[19].

أما السنة في الفكر: هي مجموعة القوانين التي يسير وفقها الوجود كله، وتتحرك بمقتضاها الحياة. وتحكم جزئياتها ومفرداتها فلا يشذ عنها مخلوق وما في الكون ذرة أو

حركة إلا ولها قانون وسنة[٢٠]. ويطلق عليها «سنة الله في الخلق»؛ لأنها تمثل حكم الله ومشيئته في خليقته.

٣. في القرآن الكريم :

وردت لفظة «سنة» في القرآن الكريم في آيات عديدة، منها قوله تعالى:

﴿وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين﴾[٢١]

﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا﴾[٢٢]

﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾[٢٣]

﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولين﴾[٢٤]

﴿سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾[٢٥]

فهذه الآيات المباركات وغيرها، تؤكد بأن الحياة البشرية تجري بمقتضى سنن أجراها الله في خلقه، وثبتها سبحانه وتعالى لتنتظم الحياة البشرية على نسق واضح؛ ليعرف الإنسان فيها خطواته، من أين مبتداه وإلى أين منتهاه؛ لكي يسير على هدى ولا يتخبط في سيره[٢٦].

تنقسم السنن الإلهية الواردة في الكتاب العزيز إلى:

أ ـ سنن كونية: وهي التي تتعلق بالكون وما يجري فيه، ومن هذه السنن الكونية «نظام الزوجية»، قال تعالى:

﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾[٢٧]

﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾[٢٨]

في الكشاف عن الحسن ، في قوله تعالى ﴿و من كل شيء﴾ ، أي : السماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبر والبحر، والموت والحياة؛ فعدد أشياء وقال: كل اثنين منها زوج[٢٩]. فالمادة والنبات والحياة، وأمور لا نعلمها، كلها من الأزواج[٣٠].

فالزوجية نظام عجيب، شامل مطرد في كل شيء، نباتا كان أو حيوانا أو إنسانا... وغيرها، هذا القانون الذي ذكره القرآن الكريم في آيات كثيرة ليدل على القصد والإرادة والحكمة في الخلق[٣١].

من السنن الكونية، التي أجراها الله تعالى بأمره «قانون الموت»، يقول تعالى:

﴿كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون﴾[٣٢]

﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾[٣٣]

إنه الموت، الناموس الذي يحكم الحياة، والسنة التي ليس لها استثناء، وهو نهاية كل حي، وعاقبة المطاف للرحلة القصيرة على الأرض، وإلى الله يرجع الجميع، فكل حادث فهو فان، وكل ماله بدء فله نهاية[٣٤].

ب ـ سنن نفسية: هي التي تتعلق بالنفس البشرية، وما يجري في خلجاتها.ومن هذه السنن النفسية، سنة «التعجيل» كما تشهد الآيات التالية على هذا المعنى:

﴿خلق الإنسان من عجل﴾[٣٥]

﴿وكان الإنسان عجولا﴾[٣٦]

أي إن الإنسان عجول إلى درجة كأنه خلق من العجلة، فالعجلة في طبعه وتكوينه.وهو يمد ببصره دائما إلى ما وراء اللحظة الحاضرة، يريد ليتناوله بيده، ويريد ليحقق كل ما يخطر له بمجرد أن يخطر بباله[٣٧].إنها سنة الله في النفس البشرية.

من السنن النفسية، سنة «حب المال والتملك» وفيها يقول تعالى:

﴿وتحبون المال حبا جما﴾[٣٨]

﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾[٣٩]

يقول القرطبي في تفسير الآية الثانية: «الخير، هو ‹المال›؛ فيكون معناها، أي لقوي في حبه للمال»[٤٠].

إن حب المال يمثل نزعة أصيلة في الإنسان، قد جبلت عليه نفسه.بحيث يملك على الإنسان كل كيانه في ما تمثله كلمة الحب الشديد من حالة الذوبان الوجداني في المال[٤١].

ج ـ سنن اجتماعية: هي التي تتعلق بالاجتماع البشري وما يدور فيه، ومن هذه السنن الاجتماعية، سنة «التعارف» بين الناس، كما قال تعالى:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾[٤٢]

فالآية المباركة تفيد، أن الله تعالى حينما خلق البشر، جبلهم على التمدن والعيش الاجتماعي، فأراد لهم أن يلتقوا ـ رغم اختلاف انتماءاتهم للشعوب والقبائل المتعددة ـ ليتعارفوا. فالتعارف سنة إلهية، وهي شرط أساسي نحو بناء الحياة الاجتماعية.وهذا ما أشار إليه «ابن خلدون» في مقدمته عندما قال: إن الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدني بالطبع، أي لابد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العمران[٤٣].

من السنن الاجتماعية التي ذكرها القرآن المجيد، سنة «الفتنة والابتلاء » كما في قوله تعالى :

﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾[٤٤]

﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون(٢)ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾[٤٥]

فمن سنة الله تعالى ،أنه يمتحن عباده بالشر كما يمتحنهم بالخير، وأيضا بالحلال والحرام، والطاعة والمعصية، وهنا يعرف الأصيل من الدخيل والتقي من الدعي؛ لتجزى كل نفس بما كسبت[٤٦].

د ـ **سنن تاريخية:** هي التي تتعلق بحركة التاريخ مع الزمن، وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ الحديث عنها مفصلا.

إن أهم الخصائص التي تميز بها القرآن الكريم، هي صرخته الداعية إلى الإيمان بالله تعالى الذي خلق كل ما في هذا الكون من مخلوقات، وأخضعها لسنن وقوانين، تحكم كل شيء فيها. كما تضمن العديد من آياته، دعوة إلى النظر في الآفاق والأنفس؛ لمعرفة هذه السنن والقوانين الإلهية، وفهم العلاقة الصحيحة التي تربط بينها وبين حياتنا. فكلما تعمق الإنسان في فهم سنن الله في الخلق، يصبح أقدر على فهم العالم، الذي يعيش فيه، كما يصبح أقدر على تسخير الكون في صالحه[٤٧].

إن فقه سنن الله تعالى جزء من معرفة الدين، وأن هذه المعرفة ضرورية، وتعد من الواجبات الدينية؛ لأنها تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في الحياة[٤٨]. فقد أدى إغفال هذه السنن، والتقصير المعرفي بها، وعدم التعامل معها بشكل صحيح، إلى هدر الكثير من

طاقات ومساعي المسلمين، وتعثر خطواتهم في طريق البناء الحضاري، حتى صاروا غرضا للغزاة ومطمعا للإعداء.

والسنن في القرآن كثيرة لا تحصى،غير أن حديثنا في هذه الدراسة،يقتصر- تحديدا - على السنن التاريخية منها لصلتها المباشرة بحركة التاريخ البشري.

السنن التاريخية (خصائصها - طبيعتها - أنواعها):

يؤكد القرآن العزيز في آيات عديدة، أن الساحة التاريخية تتحرك وفق سنن إلهية، تحكم سيرها وتطورها وانتقالها من حال إلى أخرى، كما هو حال سائر الساحات الكونية الأخرى، يقول تعالى:

﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾[٤٩]

﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾[٥٠]

إن الإلحاح القرآني بالسير في الأرض، هدفه التعرف على تلك النواميس التي تتعلق بحركة الزمان، وتتحكم في مسيرة الواقع الإنساني في خطوات التقدم والتأخر، والعمران والخراب، والرقي والهبوط[٥١]. ويعبر عنها «بالسنن التاريخية »، التي اختلفت حولها آراء الفلاسفة والمفكرين.

ويمكن أن تعرف السنن التاريخية: «بأنها تلك الضوابط والقوانين والنواميس التي تتحكم في عملية التاريخ»[٥٢]. أو بتعبير آخر، هي « القانون العام الذي وضعه الله لحكم سلوك البشر وأفعالهم وما يصيبهم »[٥٣].

خصائص السنن التاريخية :

حرص القرآن الكريم على طرح «السنن التاريخية» بمنظور علمي دقيق، يبين صفتها، وطبيعة أثرها في حركة التاريخ ، وما هو موضعها من معادلة «الحرية أو الاختيار»،« الجبر أو الإكراه» في حياة الفرد والمجتمع، وما هي علاقتها بمبدأ «الحتمية» الذي اعتمدته كثير من المدارس الفكرية في فهمها وتفسيرها لحركة المجتمع والتاريخ[٥٤].

ولكي تتوضح الرؤية القرآنية في هذا المجال، تقتضي الإشارة إلى أهم ما تتميز به

السنن التاريخية من خصائص ـ الاطراد،والربانية،والإنسانية ـ كما يلي:

أولا: الاطراد:

في اللغة يعني: التتابع والتسلسل[٥٥]، أي متابعة الشيء بعضه بعضا[٥٦]. بمعنى أن السنة التاريخية مطردة، ليست علاقة عشوائية قائمة على أساس الصدفة والاتفاق، وإنما هي علاقة ذات طابع موضوعي، لا تتخلف في الحالات الاعتيادية التي تجري فيها الطبيعة والكون على السنن العامة[٥٧]. فكلما توافرت شروطها، وانتفت الموانع التي تحول دون تحققها تكون قابلة للإعادة وتكرار آثارها ـ بإذن الله تعالى ـ على الوتيرة نفسها.لأنها لا تختلف من زمن إلى زمن، ومن مكان إلى مكان[٥٨].وهذا ما يعطي للسنن التاريخية طابعها العلمي، إذ من صفات القانون العلمي، الثبات، والشمولية، وعدم التخلف، يقول تعالى:

﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾[٥٩]

﴿ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾[٦٠]

﴿ولا تجد لسنتنا تحويلا﴾[٦١]

﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾[٦٢]

فهذه الآيات المباركة تقدم الدليل الواضح ، على أن السنن التاريخية مطردة ، تتصف بالعموم، أي أنها عامة يسري حكمها على الجميع دون محاباة ولا تمييز[٦٣].كما أكد القرآن الكريم ذلك في خلال خطابه للجماعة المؤمنة في صدر الإسلام، بما فيهم الرسول الأكرم (صلوات الله وسلامه عليه)، حينما قال تعالى:

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾[٦٤]

فهذه الآية المباركة تبين بشكل واضح، أن لا استثناء لأي جماعة أو أمة من سنن التاريخ؛ بل حتى الجماعة المؤمنة، تخضع لحكمها؛ لأن سنة الله تعالى ماضية في عباده، دون تبديل.

ثانيا: الربانية:

بمعنى أن السنن التاريخية مرتبطة بالله؛ لأنها تمثل مشيئته المطلقة وتدبيره الحكيم لما في الكون.فكل قانون من قوانين التاريخ، أو سنة من سننه، هي كلمة من الله تعالى، وقرار رباني منه، لا يمكن أن تكون إلا رهنا بأمر الله تعالى؛ فالله سبحانه يظهر لنا قدرته خلال هذه القوانين والسنن. لكن ذلك لا يعني نزع الحادثة التاريخية عن الأسباب والمسببات، ولا عن العلاقات والروابط المتعلقة بها على الساحة التاريخية؛ بل إن هذه الروابط والعلاقات بين الحوادث التاريخية، هي في الحقيقة تعبير عن حكمة الله وبنائه التكويني للساحة التاريخية[٦٥].كما يمثله الأسلوب القرآني في كثير من آياته المباركة، حينما ينسب الأفعال التاريخية إلى الله تعالى، نقرأ في آياته الكريمة:

﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن﴾[٦٦]

﴿وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين﴾[٦٧]

﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات﴾[٦٨]

﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾[٦٩]

هذا يعني : أن القرآن العزيز يضفي على الظواهر والتحولات التاريخية والاجتماعية جميعا، الصيغة التوحيدية، ويربطها بالله ،ليقرر هذه الحقيقة وهي: أن الله هو المؤثر الحقيقي في الوجود فحسب[٧٠]. ولكي لا يتوهم البعض، بأن القرآن الكريم يحاول خلال هذه الهيمنة الربانية على سنن التاريخ، أن يفسر حركة التاريخ بالتفسير الإلهي الذي تبنته المدرسة اللاهوتية ـ التي تمثلت بالقديس سان أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠م)، وغيره من المفكرين اللاهوتيين[٧١] ـ لإخراج حركة التاريخ عن إطارها العلمي الموضوعي. فهناك فرق كبير بين الاتجاه اللاهوتي في تفسير حركة التاريخ وبين الاتجاه القرآني، وحاصل هذا الفرق «أن الاتجاه اللاهوتي في تفسير حركة التاريخ، يربط الحادثة بالله سبحانه وتعالى، قاطعا صلتها وروابطها عن بقية الحوادث والعلاقات الأخرى، التي تزخر بها الساحة التاريخية، والتي تمثل السنن والقوانين الموضوعية لها. أما القرآن الكريم فلا يسبغ الطابع الغيبي على الحادثة التاريخية، ولا ينتزعها من سياقها الموضوعي؛ ليربطها مباشرة بالله تعالى؛ بل يقرر وجود روابط وعلاقات بين الحوادث التاريخية. إلا أن هذه الروابط

والعلاقات بين الحوادث التاريخية، هي في الحقيقة تعبير عن حكمة الله سبحانه وتعالى، وحسن تقديره، وبنائه التكويني للساحة التاريخية»[٧٢].

ومن حرص القرآن المجيد على تجنب الوقوع في أوهام التفسير الغيبي لحركة التاريخ، فقد جعل كثيرا من عمليات «الإمداد الإلهي الغيبي» ـ وهي عمليات غيبية محضة، تجسد تدخلا إلهيا مباشرا في مسيرة التاريخ والمجتمع لحكمة يراها الله[٧٣] ـ منوطة بشروط موضوعية. كما في قوله تعالى:

﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملآئكة منزلين(١٢٤)بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملآئكة مسومين(١٢٥)وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾[٧٤]

فالرسول الكريم (صلوات الله وسلامه عليه) قد أبلغ المؤمنين يوم بدر، أن شرط هذا المدد الإلهي الغيبي...إنه الصبر والتقوى، الصبر على تلقي صدمة الهجوم، والتقوى التي تربط القلب بالله في النصر والهزيمة[٧٥].

يقول الفخر الرازي: «فجعل مجيء خمسة آلاف من الملائكة مشروطا بثلاثة أشياء، الصبر والتقوى ومجيء الكفار على الفور، فلما لم توجد هذه الشرائط لا جرم لم يوجد المشروط»[٧٦].وهو مجيء المدد الإلهي الغيبي.

وهكذا نجد، أن الهيمنة الربانية على السنن التاريخية، لا تشكل دليلا على غيبية حركة التاريخ، وإنما هي لتجسير التفسير الموضوعي لحركة التاريخ بالله تعالى؛ من أجل تحقيق الانسجام التام بين العلم وبين الإيمان، في سبيل تربية المسلمين تربية إيمانية صالحة، تقودهم إلى عقيدة التوحيد الصحيحة.

ثالثا: الإنسانية:

تعني أن السنن التاريخية، تأتي من خلال النشاط الإنساني، فهي لا تتم بمعزل عن إرادة الإنسان وفعله. غير أن البحث في سنن التاريخ، قد خلق توهما لدى كثير من المفكرين، بشأن وجود تعارض بين حرية الإنسان وبين سنن التاريخ. فقد ظن البعض أنهم

أمام خيارين: أما أن يقولوا بسنن وقوانين التاريخ، وبذلك يتنازلون عن حرية الإنسان وإرادته، وأما أن يسلموا بحرية الإنسان واختياره، وبهذا يجب أن تلغى سنن التاريخ وقوانينه[٧٧].

غير أن القرآن الكريم قد عالج هذه الإشكالية بشكل إيجابي متوازن، عندما أعطى للإرادة الإنسانية دورها الفاعل والمتناسق مع المشيئة الإلهية، في عمل السنن التاريخية، واعتبرها محورا في تسلسل الوقائع والأحداث. فالإنسان بما آتاه الله من القدرة على الاختيار والإرادة، يمسك بزمام ناصية التاريخ، فتخضع هذه الحركة لاختياره وإرادته[٧٨]. كما نقرأ ذلك في الآيات التالية:

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[٧٩]

﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم﴾[٨٠]

﴿وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا﴾[٨١]

﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا﴾[٨٢]

لقد بين القرآن المجيد بشكل واضح أن الأفعال الإلهية في حركة التاريخ، تأتي عبر أفعال الإنسان، الذي منحه الله تعالى الحرية ابتداء؛ لكي يصنع تاريخه الفردي والجماعي؛ ولكي يشكل مصيرهما معا، اعتمادا على ما ركب في وجوده من قوى العقل والإرادة والانفعال والحس والحركة[٨٣]. بذلك يتضح أن عمل السنن التاريخية، لا يجري بعيدا عن إرادة الإنسان؛ بل يمر في خلالها، وبحسب ما تكسب يداه؛ ليصبح للإنسان دور أساسي وفاعل في حركة التاريخ.

هكذا تبدو السنن التاريخية، ذات طابع علمي، تتسم بالاطراد، والربانية، والإنسانية.

ومثال ذلك نجده في قوله تعالى:

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[٨٤]

هذه الآية تقرر سنة تاريخية تحمل الخصائص الثلاث:

١ - إنها تأتي خلال نشاط إنساني، يمثل السلوك الإيجابي الذي يقوم به القوم.

٢ - إنها تأتي مرتبطة بالله تعالى؛ لأنها تمثل مشيئته الحكيمة، في تحسين أوضاع

القوم، استنادا إلى ما قاموا به من تغيير إيجابي في سلوكهم.

٣ ـ الاطراد بين التغييرين، الذي يجسد قانونا لا يتخلف، على أساس وعد الله تعالى الذي لا يخلف الميعاد، وسنته التي لن تجد لها تحويلا[٨٥].

طبيعة عمل السنن التاريخية :

أهم ما يميز عمل السنن التاريخية في حركة التاريخ، في المفهوم القرآني، ثلاثة أبعاد ـ السببية، والغائية، والاجتماعية ـ على النحو التالي:

أولا : السببية، بمعنى أن السنن التاريخية في عملها بعيدة عن العشوائية والعفوية، وإنما ترتبط بأسبابها الموضوعية، طبقا لمبدأ العلية في الوجود. «وقد تبدى من البحث، أن أكبر القواعد في منهج البحث التاريخي، هي أن الحوادث يرتبط بعضها ببعض ارتباط العلة بالمعلول »[٨٦]. وهي صفة مشتركة بين جميع السنن الإلهية الحاكمة على كل ما في الوجود بالمشيئة الإلهية.

ثانيا: الغائية، وتعني أن عملها عمل هادف، ينتهي إلى غاية، سواء كانت هذه الغاية صالحة أو طالحة. فمبدأ الغاية يقضي «أن كل نظام مركب متناسق مستقر لا يمكن أن يحدث عن غير قصد، وأن كل قصد لابد أن يهدف إلى غاية»[٨٧]. وبما أن حركة التاريخ نظام دقيق، فلابد أن تكون لها غاية تتجه صوبها.

يقول العالم الإنجليزي كارل بوبر : «يهدف علم الطبيعة إلى التفسير العلي، أما علم الاجتماع فيهدف إلى إدراك الأغراض والمعاني. وفي علم الطبيعة تفسر الحوادث تفسيرا كميا محكما، ويكون هذا التفسير بواسطة الصيغ الرياضية. أما علم الاجتماع فيحاول فهم التطورات التاريخية بواسطة يغلب عليها الطابع الكيفي»[٨٨].

وبعبارة أكثر وضوحا، يذكر السيد محمد باقر الصدر : أن الظواهر الكونية أو الطبيعية علاقتها بالسنن الكونية، علاقة سببية، أو علاقة نتيجة بمقدمات، كما هي علاقة تمدد الحديد بالحرارة، أو علاقة غليان الماء بدرجة حرارة معينة. بينما نجد بين الظواهر التاريخية وسننها، علاقة من شكل آخر، هي علاقة ظاهرة بهدف أو علاقة نشاط بغاية مستقبلية[٨٩]؛ لأنها تمر خلال الجهد البشري، الذي أكدت النصوص القرآنية على دوره،

عندما اعتبرت أن حركة التاريخ لن تتم إلا عن طريق الحرية الإنسانية ذاتها، والتي هي في مداها البعيد جزء من إرادة الله في خلق الأفعال والأحداث[(٩٠)]. الأمر الذي يفسر بشكل لا لبس فيه، أن عمل السنن التاريخية، عمل هادف، يسير بخطوات واعية نحو المستقبل، منطبع بنوعية الفعل الإنساني وغايته، وليس مجرد حركة سببية فقط، مشدودة إلى سببها؛ بل مشدودة إلى غاية هادفة مستقبلية، تتحرك خلال الوجود الذهني للإنسان، ومن هنا كان دور الإنسان في صناعة حركة التاريخ دورا حاسما[(٩١)]. بذلك تكون «حركة التاريخ دائما هي حركة مستقبلية، حركة نحو هدف»[(٩٢)].

ثالثا: الاجتماعية، وهي البعد الثالث للظواهر التاريخية، بمعنى أن عمل السنن التاريخية ينطلق من أرضية اجتماعية، فالآيتان المباركتان عندما تقولان:

﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[(٩٣)]

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[(٩٤)]

لا يفهم منهما، قصد فرد معين، بدليل أن الله تعالى لم يقل: (بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على إنسان)، ولم يقل: (إن الله لا يغير ما بإنسان حتى يغير ما بنفسه)... وإنما الحديث عن قوم، عن مجتمع، له خصائصه بما يشمل الرجال والنساء؛ الصغار والكبار، بكل محتويات القوم أو المجتمع المعين أو الأمة، فهي سنة مجتمع لا سنة فرد[(٩٥)].

إذن هناك فرق بين عمل الفرد وعمل المجتمع، ولا يمكن أن يكون الفعل تاريخيا، ما لم يتعد حدود الفرد، ويمر في خلال الجماعة. فقد يأكل الإنسان إذا جاع، وقد يشرب إذا عطش، وقد ينام إذا أحس بحاجته إلى النوم. لكن هذه الأعمال، على الرغم من أنها أعمال هادفة، إلا أنها تحقق غايات محدودة، لا يمتد موجها إلى أكثر من الفرد نفسه. بينما تكون الأعمال التجارية والقيادية والحربية والسياسية والفكرية ـ وإن قام بها فرد واحد ـ لها موج يتعدى حدود ذلك الفرد، وهي تتخذ من المجتمع أرضية لها . فيعتبر العمل في مثل هذه الحالة عملا تاريخيا؛ لأنه يمر خلال الأمة والمجتمع، وإن كان الفاعل المباشر له في جملة الأحيان فرد واحد أو عدد من الأفراد[(٩٦)].

وهنا يتضح، أن عمل السنن التاريخية يختلف عن طبيعة عمل السنن الكونية أو

الطبيعية، فالأولى تتميز بالهدفية والاجتماعية في علاقتها مع الظواهر التاريخية، بينما الثانية تكون علاقتها بالظواهر الكونية أو الطبيعية علاقة سببية أو علاقة الماضي بالحاضر.

نستنتج من ذلك أن إرادة الإنسان وفعله لها أثر موجه في حركة التاريخ نحو المستقبل؛ لنكون على بينة من الأمر في تصرفاتنا، ونقدر مسؤليتنا في كل تصرف، فلا نكون في تصرفاتنا عفويين، ولا فوضويين، ولا قصار النظر[٩٧].

أنواع السنن التاريخية :

تمثل حركة التاريخ الميدان الحقيقي الذي تعمل فيه سنن التاريخ، والتي تتخذ صيغا وأشكالا متنوعة، بحسب طبيعة فعلها وأثرها التاريخي الاجتماعي. وقد ميز القرآن الكريم بين ثلاثة أنواع مختلفة من السنن التاريخية ـ شرطية، وفعلية، واتجاهية ـ، يمكن ملاحظة الفروق فيما بينها كما يلي:

أولا: السنن الشرطية:

هي السنن التي تتخذ شكل «القضية الشرطية»، التي تربط بين حادثتين أو مجموعتين من الحوادث على الساحة التاريخية، فتؤكد العلاقة الموضوعية بين الشرط والجزاء، بحيث متى ما تحقق الشرط، تحقق الجزاء.وهذه صياغة نجدها في كثير من القوانين والسنن الطبيعية والكونية في مختلف الساحات الأخرى[٩٨].وعلاقة الجزاء بالشرط في هذه السنن، هي من العلاقة السببية غير المحسوسة وغير المفهومة بالرؤية المادية للتاريخ[٩٩].ومن جملة هذه السنن في حركة التاريخ، نذكر على سبيل المثال:

سنة التغيير الاجتماعي، كما في قوله تعالى:

﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[١٠٠]

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[١٠١]

فالآيتان المباركتان تربطان بين تغييرين، يمثلان الشرط وجزاءه. في الآية الثانية،الجزاء يمثل قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم﴾، والشرط يمثل قوله تعالى: ﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾، فمتى ما تحقق الشرط، وهو حصول التغيير في نفوس القوم، تبعه

الجزاء، وهو حصول التغيير العام في واقعهم. فما يقع على القوم يترتب على ما يكون منهم، ويجيء لاحقا له في الزمان بالقياس إليهم[١٠٢].

سنة الازدهار الحضاري القائم على الإيمان، كما في قوله تعالى:

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾[١٠٣]

في هذه الآية الشريفة، نجد سنة تاريخية تربط بين طرفين: هما الشرط وجزاؤه. فالشرط هو الإيمان والتقوى وتحكيم منهج الله في الأنفس والمجتمعات، المتمثل في قوله تعالى: «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا». أما الجزاء فهو الازدهار الحضاري، بانفتاح الخيرات والبركات من السماء والأرض، المتمثل بقوله تعالى: «لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض». فالآية المباركة تبين أن هناك قانونا ربانيا تجري عليه حياة البشر المادية والروحية، ويتحرك عليه تاريخ الأمم في الأرض... وهي سنة الإيمان الذي يعد وسيلة لفتح بركات السماء والأرض[١٠٤].

٣. سنة الفساد الاجتماعي القائم على الكفر بأنعم الله، كما في قوله عز وجل:

﴿وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾[١٠٥]

في هذه الآية المباركة، نجد إشارة واضحة إلى سنة تاريخية، تتألف من شرط وجزائه. فالشرط هو قوله تعالى: ﴿فكفرت بأنعم الله﴾ وجزاؤه قوله تعالى: ﴿فأذاقها الله لباس الجوع والخوف﴾، وهو الابتلاء بالفقر والخوف. فأي أمة تكفر بأنعم الله ولم تؤد شكره، يأخذها الله بالجوع والخوف بصنيعها وسوء فعالها[١٠٦]. وفي آية أخرى، يؤكد القرآن عمل هذه السنة التاريخية بقوله تعالى:

﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾[١٠٧]

إذن سلب النعمة من الكافرين ونزول العذاب عليهم، يشبه تماما القانون التجريبي في كون النار محرقة، فله شروط[١٠٨]. فإذا ما توافرت هذه الشروط حصل الجزاء.

وعند التأمل في طبيعة هذا النوع من السنن التاريخية، يظهر- بشكل واضح - أنها

مرتبطة بإرادة الإنسان وفعله، وبالتالي فهي تلعب دورا كبيرا في توجيه نتائج أفعاله وحركته في الحياة.

إن معرفة الإنسان الدقيقة بهذه السنن، تمكنه من التحكم في نوع الجزاء الناتج عنها. فعندما يكون جزاء أي سنة أو قانون لا يتفق مع مصالحه وأهدافه، يستطيع الحيلولة دون وقوعه بالامتناع عن توفير شروطه. كما هو الحال بالنسبة لظاهرة غليان الماء، فمتى ما كان غليان الماء مقصودا للإنسان، يستطيع توفير شروط قانونه، فيغلي الماء، أما إذا لم يكن مقصودا له، فيبتعد عن تطبيق شروط قانونه، فلا يحصل الغليان. إذن القانون الموضوع بنهج القضية الشرطية موجه عملي للإنسان في حياته[١٠٩].

ثانيا : السنن الفعلية :

هي السنن التاريخية التي تتخذ شكل القانون الصارم المتحقق الوجود، والتي ليس للإنسان تأثير على وجودها وفعلها وتأثيرها[١١٠]. وعمل هذا النوع من السنن التاريخية في حركة التاريخ، مشابه لعمل القوانين الكونية أو الطبيعية، بحيث لا يستطيع أحد أن يعصيها ثم ينجو من العقاب في أي بلد كان، وهي لا تنذر من يخالفها، والعقاب هنا صامت، صمت الأمر نفسه[١١١]. ومن جملة هذه السنن الفعلية التي ذكرها القرآن الكريم:

١. سنة الوهن الاجتماعي الذي تصاب به المجتمعات، بسبب إعراضها عن الله تعالى، كما في قوله عز وجل:

﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾[١١٢]

إنها سنة الله القاضية بضعف وهشاشة الكيانات والمجتمعات التي تلتجئ لغير الله تعالى؛ لتستمد المنهج والقوة والحماية؛ وإذا بها تعيش انحلال البنية الاجتماعية، وتفسخ الكيان الحضاري، بسبب تبعيتها لغير الحق سبحانه وتعالى. لأن كل من يتخذ من دون الله وليا فهو من الخاسرين[١١٣]. ويؤكد هذه السنة الفعلية قوله تعالى:

﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا﴾[١١٤]

٢. سنة التفاوت بين أفراد البشر، كما في قوله تعالى:

﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم﴾(١١٥)

﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾(١١٦)

﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾(١١٧)

إنها سنة فعلية متحققة الوجود بين أفراد البشر، في تفاوت درجاتهم في المواهب والاستعدادات؛ في الخلق والرزق والقوة والبسطة والفضل والعلم(١١٨)، وفي المواقع الجغرافية والاجتماعية والسياسية(١١٩). والآية الثالثة واضحة الدلالة، إذ مفادها يقول: إن الناس ليسوا سواسية من حيث الإمكانات والاستعداد الذاتي، إذ لو كانوا كذلك وكان كل أحد واجدا لما يملكه غيره، وفاقدا لما يفقده غيره، لم تكن بينهم بالطبع حاجة البعض إلى البعض، فلم يتحقق الترابط والخدمات المتقابلة، فأفراد الإنسان مختلفون من حيث القابليات والإمكانيات الجسمية والنفسية والعقلية والعاطفية، وقد فضل الله بعضهم على بعض في بعض المواهب بدرجات، وربما يفضل البعض الآخر على هذا البعض الفاضل في مواهب أخرى، وبذلك أصبح كل فرد محتاجا إلى الآخرين ومنساقا إلى عقد الترابط معهم، وعلى هذا الأساس بنيت الحياة الاجتماعية المترابطة(١٢٠).

إذن هذا التنوع والتفاوت بين البشر، يمثل إرادة الله تعالى في توزيع الأدوار والمهام فيما بينهم؛ لتستمر عجلة الحياة، بحركة تكاملية، نحو تحقيق مصلحة الجميع. وبذلك «فنحن مجبرون على حمل ملامحنا الشخصية المتفردة، وسماتنا الخاصة، وبصمات أصابعنا... ودون هذه الالتزامات الحتمية تتبدد الحياة، وتفقد وحدتها وتماسكها ومعناها»(١٢١).

سنة شمول العقاب الدنيوي لكل أفراد المجتمع الذي يحصل فيه الظلم، كما في قوله تعالى:

﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾(١٢٢)

أي: واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالمين خاصة، تتعدى إليكم جميعا، وتصل إلى الصالح والطالح(١٢٣). فهي سنة إلهية تتحدث عن عقاب دنيوي، وليس

عن عقاب أخروي، تتحدث عن النتيجة الطبيعية لما تكسبه أمة عن طريق الظلم والطغيان، وهذه النتيجة لا تصيب الظالمين من أبناء المجتمع وحدهم؛ بل تعم جميع أبناء المجتمع على اختلاف هوياتهم ، وعلى اختلاف أنحاء سلوكهم. فحينما وقع التيه على بني إسرائيل نتيجة ما اكتسب هذا الشعب من ظلمه وطغيانه وتمرده، لم يختص هذا التيه بالظالمين من بني إسرائيل وحدهم، وإنما شمل موسى(عليه السلام) الذي بعثه الله تعالى لمواجهة الظالمين والطواغيت، وشمل أخاه هارون (عليه السلام) وجميع المؤمنين بالله؛ لأنهم كانوا جزءا من تلك الأمة. وهكذا يتبين أن هذه السنن الفعلية بمثابة قوانين كونية صارمة، بعيدة عن إرادة الإنسان وفعله، نافذة الحكم عليه دون أن يستطيع معارضتها أو تحديها أو الخروج عن هيمنتها.

ثالثا: السنن الاتجاهية :

هي السنن التاريخية، التي تتخذ شكل الاتجاه الطبيعي العام في حركة التاريخ، وليس شكل القانون الحدي الصارم[(١٢٤)] . فهي كالسنن الكونية، إلا أنها مقرونة بالمرونة. بحيث يتمكن الإنسان من تحديها، ولو على المدى القصير، ولا يستطيع أن يتحداها على المدى البعيد، إذ ستعمل في النهاية على سحق الإنسان أو المجتمع الذي يتحداها، ويحاول التمرد عليها. فلا يستطيع كائن ما أن يمنع الحياة من متابعة اتجاهاتها الجوهرية دون أن يحل به العقاب[(١٢٥)].

إذن هناك فرق بين هذا النوع من السنن التاريخية الذي يتخذ شكل الاتجاه وبين القانون. فالقانون: عبارة عن حقيقة علمية، «يطلق على الصيغة التي تعبر عن علاقات ثابتة بين ظواهر الأشياء»[(١٢٦)] . ويمثل سنة من سنن الله تعالى في الكون، تتميز بالثبات والصرامة، فلا تقبل التحدي أو المماطلة أو التغيير، ولا يتمكن الإنسان من الانفلات من قبضتها؛ لأنها كما وصفها خالقها العزيز بقوله تعالى:

﴿فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾[(١٢٧)]

و منها: قانون الجاذبية، وقانون الغليان، وقانون الإنجماد،و غيرها. فليس بمقدور الإنسان أن يحول دون تطبيق قانون الجاذبية عندما تتحقق جميع شروطه، كما ليس

بمقدوره أن يؤخر غليان الماء لحظة واحدة، عندما تصل درجة حرارته في الظروف الطبيعية إلى درجة (١٠٠ مئوية)، وكذلك الشيء نفسه بالنسبة للإنجماد؛ لأنها قوانين علمية صارمة لا تقبل التحدي أو التلاعب بها. أما السنن التاريخية ذات الاتجاه الطبيعي في حركة التاريخ، مثل سنة التزاوج بين الذكر والأنثى، التي جعلها الله تعالى اتجاها موضوعيا في طبيعة الإنسان؛ من أجل حفظ النوع البشري وإدامته، كما في قوله تعالى:

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾(١٢٨)

﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم﴾(١٢٩)

فقد يستطيع البشر أن يتحدوا هذه السنة، وينحرفوا عنها فترة من الزمن، كما فعل قوم لوط، الذين أصابهم الشذوذ الجنسي، ولكن لم يكن بمقدورهم الاستمرار في هذا التحدي، فقد انهار مجتمعهم، ورجع الإتجاه الطبيعي - وهو سنة الزواج - إلى سابق عهده، ولم يصبح الشذوذ الجنسي اتجاها تاريخيا واجتماعيا عاما، ولن يصبح؛ لأنه يتناقض مع اتجاه موضوعي مركب في طبيعة الإنسان والمجتمع والتاريخ(١٣٠).

ويرى السيد محمد باقر الصدر، أن القرآن الكريم يقدم «الدين» كأهم وأبرز مصداق لهذا النوع من السنن التاريخية، فالدين نفسه ليس تشريعا فقط، وإنما هو سنة من سنن التاريخ، والقرآن الكريم يعرض «الدين» بوصفين(١٣١):

١. بوصفه تشريعا وتكليفا إلهيا موجها نحو الإنسان، كما جاء في قوله تعالى:

﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾(١٣٢)

٢. بوصفه سنة من سنن التاريخ، يدخل في صميم تكوين الإنسان وفطرته، كما في قوله تعالى:

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾(١٣٣)

في الوصف الثاني، يمثل «الدين» سنة تاريخية، تمثل اتجاها موضوعيا عاما لدى الإنسان. باعتباره نزعة فطرية تشكل جزءا من مركب الشخصية الإنسانية، لا يمكن انتزاعه عنها. وليس ظاهرة اجتماعية مكتسبة، قابلة للتبديل؛ لأنه (خلق الله تعالى). ومن الممكن تحدي هذه السنة على الشوط القصير ـ فقد يكفر الإنسان بالدين ويلحد بالله تعالى، ويتمادى في الكفر والضلال ، بيد أنه في نهاية المطاف لابد أن ينال جزاءه، من نزول العقاب عليه من سنن التاريخ نفسها، التي تعاقب كل من يخرج عليها ولو بعد حين، كما نقرأ في قوله تعالى:

﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا(٨)فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا﴾[١٣٤]

نستنتج مما تقدم: أن حركة التاريخ في مفهوم القرآن الكريم، لا تجري بشكل «جبري» أو «حتمي» بالنسبة للإنسان، بحيث يتحول في خضمها إلى ريشة في مهب الريح، ليس له حول ولا قوة أمامها، كما يتصور بعض المفكرين الماديين. ومرد هذا التصور الواهم حول سلبية دور الإنسان في حركة التاريخ، لدى بعض العقليات الغربية، هو عدم تمييزهم بين الأنواع الثلاثة التي تقدم شرحها للسنن التاريخية، إضافة إلى عدم إدراك الخصيصة الثالثة من خصائص هذه السنن، وهي الإنسانية. فقد توهم هؤلاء بأن السنن التاريخية التي تحكم حركة التاريخ، هي من نوع السنن الفعلية التي تتخذ شكل القانون الصارم المتحقق الوجود، وبالتالي فإن «التاريخ يتحرك في ظلالها كما تتحرك الطبيعة بقوانين صارمة، لا دخل حقيقي للإنسان فيها»[١٣٥].

ولكن كما تبين خلال الطرح القرآني الكريم، بأن الإنسان يتمتع بحرية إزاء هذه السنن. وهو حر في إطار النظام العام، وهذه الحرية تصنع التاريخ، والإنسان في أصل فطرته، مفطور على خلائق تؤثر في اختياره، وتؤثر في حركته التاريخية[١٣٦]. يقول تعالى:

﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى(٣٩) وأن سعيه سوف يرى﴾[١٣٧]

فالإنسان على صعيد السنن الفعلية الصارمة لا يتمتع بأي حرية أمامها، ولا يستطيع الوقوف بوجهها، أو الالتفاف عليها وتبديلها؛ لأنها قدر مقدور من الله عز وجل.أما على

صعيد السنن الشرطية، فأن الإنسان يتمتع بحرية واسعة إزاءها، حيث يستطيع أن يحدد نوع الجزاء الذي يريده، خلال ما يحققه من شروط، بفعل اختياره، وحينئذ يتمكن من التأثير في مجرى حركة التاريخ بإرادته وفعله. بينما يتمتع الإنسان بقدر أضيق من الحرية أمام السنن الاتجاهية؛ لما تحمله من مرونة، تسمح له بتحديها لوقت قصير، بعدها تنقض عليه لتسحقه. فحرية الإنسان أمام السنن الاتجاهية تكون نسبية لا مطلقة.

وتأكيدا لما سبق ذكره، فإن هذه السنن التي نعرفها قابلة - رغم اطرادها - لأن تتوقف عندما يريد الله ذلك، فليس اطرادها - مهما بلغت ألفتنا له - أمرا لازما بخاصية فيه، وإنما هو لازم ما أراد الله له ذلك، فمشيئة الله مطلقة، وذلك صلب عقيدة الإسلام(١٣٨). وهو القائل سبحانه: ﴿يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله﴾(١٣٩)

ثانيا : الإنسان في حركة التاريخ

الإنسان وموقعه في الكون:

الإنسـان كائـن فـذ فـريد فـي خواصـه وأطـواره، لـيس لـه نظير بيـن جميـع العوالـم والمخلوقات الحية. تبوأ موقعه الريادي السامي في هذا الكون الفسيح، منذ أن صوره البارئ تعالى، وأناط به مسؤولية الخلافة في الأرض، وأمر الملائكة بتقديم فروض الاحترام والإجلال، بالسجود له:

﴿وإذ قال ربك للملآئكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾[١٤٠]

﴿إذ قال ربك للملآئكة إني خالق بشرا من طين(٧١)فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين(٧٢)فسجد الملآئكة كلهم أجمعون(٧٣)إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين﴾[١٤١]

فكانت تلك هي البداية التي انطلقت منها حركة التاريخ، حيث بدأ الصراع ـ الذي هو جوهر هذه الحركة على امتداد الحياة ـ بين الإنسان وبين الشيطان. ذلك الصراع الذي بدأه إبليس حين شعر بأنه قد خسر موقعه في الملأ الأعلى، بسبب آدم «عليه السلام»، فأخذ يكيد ويتآمر عليه وعلى ذريته حتى نهاية العالم، كما أخبرنا القرآن المجيد:

﴿قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم(١٦)ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾[١٤٢]

﴿قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين(٣٩)إلا عبادك منهم المخلصين﴾[١٤٣]

و قد حذر الله تعالى هذا الإنسان من الوقوع في فتنة الشيطان الرجيم، الذي لا يستهدف في عمله ووظيفته أحدا سواه، فقال تعالى :

﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾[١٤٤]

﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾(١٤٥)

و تقرر آيات القرآن الكريم لهذا الإنسان دورا أساسيا خطيرا في الحياة، حين قدمت مفهومها السامي عن إنسانيته الفذة، وضخامة دوره في الأرض، وسعة الآفاق والمجالات التي يتحرك فيها؛ ليمارس مهمته، ويحقق الغاية التي خلق من أجلها. إذ لم يخلق عبثا ولا هملا، ولم يترك سدى، وإنما كان خلقه لوظيفة وغاية وحكمة :

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾(١٤٦)

﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾(١٤٧)

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾(١٤٨)

﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾(١٤٩)

لقد جاء الإنسان إلى الحياة؛ ليعود ثانية إلى خالقه، بعد أن يسعى سعيه فيها، ويكدح في خلالها لربه. فهو مبتلى بالحياة مختبر فيها، محاسب في النهاية على سلوكه فيها هذا السلوك الذي يقرر جزاءه ومصيره(١٥٠):

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره(٧)ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾(١٥١)

فالإنسان عجيب في تركيبه، فريد في طبيعته، عظيم في مسؤوليته ، وغاية وجوده ومصيره ومآله. خلق ليعرف ربه ويعبده، ويكون خليفة له في أرضه، خلق ليحمل الأمانة الكبرى في هذه الحياة القصيرة: أمانة التكليف والمسؤولية، فيصهره الابتلاء وتصقله التكاليف، وبذلك ينضج ويعد لحياة أخرى هي حياة الخلود والبقاء والأبد الذي لا ينقطع(١٥٢).

وسما الإنسان بمنزلته الكريمة بين سائر الخلائق والعوالم أجمعين، بما سخر الله له كل الأشياء في هذا العالم لنفعه، وإصلاح أمره، وتحقيق رسالته:

﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾(١٥٣)

﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾(١٥٤)

﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾(١٥٥)

ولكي تتحقق أبعاد خلافة الإنسان ورسالته في الأرض، زوده الخالق تعالى، بمختلف الطاقات العقلية، والقدرات الجسدية، ومنحه حرية الاختيار، وحباه سائر الخصائص والاستعدادات الأخرى، التي تمثل حقيقة إنسانيته، وتؤهله لمقتضى غاية وجوده. ذلك أن خلافة الله في الأرض، فيما تعني، عمرانها وإصلاحها، بإقامة الحق والعدل، ونشر معالم الخير والفضيلة في ربوعها. ولن يتحقق ذلك إلا إذا شعر الإنسان بإيجابية دوره، وفاعلية حركته في الكون والحياة. وهو ما تقرره له الرؤية الإسلامية الصحيحة، التي تعتبر الإنسان « بنية متحركة، وهو يتحرك لأداء وظيفة، وتحقيق غاية. فما لم نفهم طبيعة الوظيفة وكنه الغاية، لم نفهم طبيعة الحركة»[١٥٦].

فالإنسان في الرؤية الإسلامية، خلق قوة متحركة، وطاقة مغيرة، وفي خلال قوته وطاقاته، وتأثيره وتأثره بما حوله، يصنع تاريخه. فالتاريخ مخصوص بالإنسان[١٥٧].

وحركة التاريخ تبدأ بحركة الإنسان في داخل نفسه، ثم تتجه صوب العالم الخارجي؛ لتسخير طاقات هذا الكون نحو الأهداف والغايات التي ينشدها الإنسان خلال ذاته. وهنا يقول مالك بن نبي: «التاريخ يبدأ بالإنسان المتكامل الذي يطابق دائما بين جهده وبين مثله الأعلى وحاجاته الأساسية، والذي يؤدي في المجتمع رسالته المزدوجة ، بوصفه ممثلا وشاهدا »[١٥٨]. ممثلا باعتباره خليفة الله في الأرض، وشاهدا بحسب قوله تعالى :

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾[١٥٩]

هكذا فإن الرؤية القرآنية، تضع بين أيدينا صيغة جديدة لعلاقة الإنسان بحركة التاريخ، خلال موقعه ومؤهلاته ودوره وتأثيره في العالم، تختلف عن تلك الرؤية المنحطة التي رسمتها له المذاهب الوضعية. فالإنسان بفعل موقعه كخليفة لله تعالى في الأرض، وما يحمله من ملكات عقلية مبدعة، وقدرات جسمية خلاقة، وإرادة حرة في الاختيار، وما يحظى به من رعاية إلهية في التوجيه والتسديد؛ كل هذه الأسس والمقومات تكفل له أن يكون «قوة، فاعلة، مفكرة، مريدة، منفذة، مستقلة، مفضلة»[١٦٠]، في حركة هذا العالم، والتاريخ على وجه الخصوص.

إرادة الإنسان والتغيير في التاريخ:

من الخصائص الفذة التي يحملها الإنسان، وتفرد بها عن سائر المخلوقات الحية، هي صفة الإرادة الحرة، التي يقرر بها ما تقتضيه مصلحة نفسه أو عقيدته أو مجتمعه. وهي ليست عضوا محددا في جسد الإنسان، وإنما هي صفة نفسية ووظيفية عقلية، تظهر آثارها عليه عندما «يريد الشيء ويرغب فيه»[١٦١]، أو يكره الشيء وينفر عنه.

والإرادة بحسب تعريفها «نزوع النفس وميلها إلى الفعل بحيث يحملها عليه. والنزوع: الاشتياق.والميل: المحبة والقصد. فعطف الميل على النزوع، عطف تفسير»[١٦٢]. فالإرادة في ماهيتها، شوق مؤكد ورغبة ملحة تحصل في النفس، تمثل «قوة باعثة، توجه الإنسان نحو مقصد معين»[١٦٣].

ولابد أن تكون هذه الإرادة حرة، حتى تتحقق بها استطاعة الإنسان وقدرته على الاختيار نحو الفعل أو الترك، فلا تشوبها أي شائبة من الإكراه؛ لأن الإكراه مناف لدور الإنسان ومسؤوليته في الحياة، وحتى في الدين ليس هناك إكراه، يقول تعالى:

﴿لا إكراه في الدين﴾[١٦٤]

فلا إنسانية من غير إرادة حرة. ومن يفقد حريته، يخسر كرامته، ويفقد موقعه من حركة الحياة. فلكي نتابع الأشياء التي يعرضها الفكر علينا أو نحجم عنها، فلابد من التصرف بمحض اختيارنا وحريتنا دون أن نحس ضغطا من الخارج يملي علينا ذلك التصرف، فالحرية في أعمال الإرادة قيمة حضارية[١٦٥].

وما يؤكد حرية الإرادة لدى الإنسان، وجود عشرات الآيات المباركة، التي تحمله تبعات أعماله وتصرفاته في الحياة؛ باعتباره المسؤول الأول عنها، كما نقرأ في خطابه تعالى:

﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾[١٦٦]

﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[١٦٧]

﴿إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا﴾[١٦٨]

وهنا يتضح: أن إرادة الإنسان الحرة، عنصر أساسي في بناء حركة التاريخ، وفي تفسيرها أيضا. وإن مجريات الواقع المعاش ومجمل نتائج البحث والدراسات العلمية في شؤون الإنسان والمجتمع والحضارة تؤكد «أن التاريخ هو محصلة إرادة الإنسان»[١٦٩].لأن

الإنسان هو الذي يصنع قدر نفسه بإرادته، دون أن يفرض عليه من خارجه، بصريح قوله تعالى:

﴿قد أفلح من زكاها(٩)وقد خاب من دساها﴾[١٧٠]

ولكن دون أن ينفلت ذلك القدر خارج قدرة الله تعالى ومشيئته الحكيمة. وقد جرى الحديث ـ فيما سبق [١٧١] ـ بأن حركة التاريخ تختلف عن أي حركة أخرى في الوجود، بكونها حركة هادفة، ذات غاية، مستقبلية؛ المستقبل الذي ليس له وجود بالفعل، وإنما وجوده بالقوة؛ لأنه موجود في ذهن الإنسان. ويشكل الوجود الذهني للمستقبل في ذهن الإنسان، الباعث والمحرك له في رسم حركة التاريخ على صعيد الواقع الخارجي.

وخلاصة ما ذكره السيد محمد باقر الصدر في هذا المجال: هو أن الوجود الذهني يجسد من ناحية جانبا فكريا، وهو الجانب الذي يضم تصورات هدف المستقبل. ويمثل من جانب آخر الطاقة والإرادة التي تحفز الإنسان نحو بلوغ هذا الهدف. وبالامتزاج بين الفكر وبين الإرادة، تتحقق فاعلية المستقبل ومحركيته للنشاط التاريخي على الساحة الاجتماعية. وهذان الأمران «الفكر والإرادة» هما في الحقيقة المحتوى الداخلي للإنسان[١٧٢].

إذن: فكر + إرادة = فعل إنساني «بشرط عدم وجود الظروف والموانع التي تحول دون تحققه في الخارج»

وبتحليل مضمون «الفكر» في المحتوى الداخلي للإنسان يتضح أنه «مجموع ما استخلصه الوعي والفهم والإدراك من المعارف والعلوم والآداب والفنون التي تعرضت لها النفس في مجرى حياتها، بدءا من التنشئة والتربية إلى التعلم والبحث والدرس، مرورا بالخبرات التي تراكمت في النفس نتيجة فعلها وتفاعلها مع الغير، ومع الواقع الذي يعيش فيه»[١٧٣].

أما الإرادة فهي وظيفة نفسية؛ «لأن النفس هي التي تخضعها طائعة مختارة، أو مجبرة مكرهة لما استقر فيها من مبادئ وأحكام وقيم ومعايير صالحة أو فاسدة، حتى إذا ما كانت صالحة خيرة، كانت الإرادة كذلك صالحة خيرة، وإذا ما كانت سيئة فاسدة، كانت الإرادة كذلك سيئة فاسدة»[١٧٤].

هكذا يتبين: أن حركة المحتوى الداخلي للإنسان، هي الأساس في حركة التاريخ.

«فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن، سكن المجتمع والتاريخ. ذلك ما تشير إليه النظرة في تاريخ الإنسانية منذ أن بدأ التاريخ»[١٧٥]. لأن العلاقة بينهما، علاقة سببية، كما رسمتها الآية المباركة:

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[١٧٦]

فإذا ما تغير المحتوى الداخلي «الفكري والإرادي» للأفراد، نحو الأهداف الصالحة أو الطالحة، يكون قد تحقق الشرط الموضوعي الذي تتفاعل معه السنن التاريخية، فيستجيب له الواقع الخارجي، الذي يمثل البناء العلوي لحركة التاريخ. وهذا ما فعله الرسول الأكرم (صلوات الله وسلامه عليه) في فجر الإسلام، قبل تحطيم الأصنام، حيث عمل على تغيير المحتوى الداخلي للنفوس، فنقلها من محتوى الوثنية التي «تباح فيها اللذائذ، وتمنح فيها الحرية إلى حد بعيد، وتقدر فيها الأخلاق تقديرا خاصا؛ إلى عقلية أخرى موحدة تداس فيها الأصنام دوسا، وتمتهن بكل أنواع الامتهان، وتكسر من غير هوادة، ولا تباح فيها اللذائذ إلا بمقدار، وتدفع فيها الضرائب ليصرف منها للفقراء، وللصالح العام، وتقيد فيها الحرية بجملة قيود: عبادات في أوقات خاصة، واحترام ملكية، واحترام نفوس، وتقلب فيها قيمة الأخلاق قلبا»[١٧٧]. ولعل أصدق تعبير عن التغيير الذي طرأ على المحتوى الداخلي لهذه النفوس، ما روي عن جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه)، أحد الذين هاجروا إلى الحبشة، الذي قال للنجاشي عندما سألهم عن حالهم: «أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، ...فدعانا إلى الله عز وجل لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة؛ وأمرنا أن نعبد الله، لا نشرك به شيئا، وإقامة الصلاة...فصدقناه، وآمنا به واتبعناه على ما جاء به فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله عز وجل، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث.فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك»[١٧٨].

وقد أبدى الإسلام عناية فائقة بحركة المحتوى الداخلي للإنسان. فعبر عنها الرسول

الأكرم (صلوات الله وسلامه عليه)، «بالجهاد الأكبر»[١٧٩]؛ لما تتطلبه من مصاعب ومتاعب شديدة، وجهود حثيثة في المقاومة والمراقبة والمحاسبة، نحو صياغة البناء الداخلي للشخصية، ولما تمثله من أرضية وأساس لحركتها في الخارج. لأن التغيير مهمة أساسية للإنسان؛ باعتباره الجزء الأهم من هذا العالم المتغير، الذي لا يقبل السكون، إضافة إلى أنه «مزود بخصائص الخلافة. وأولى هذه الخصائص: الاستعداد للمعرفة النامية المتحدة. ومجهز لاستقبال المؤشرات الكونية والانفعال بها والاستجابة لها، ومن مجموع انفعالاته واستجاباته يتألف نشاطه الحركي للتعمير والتغيير والتعديل والتحليل والتركيب والتطوير في مادة هذا الكون وطاقاته... للنهوض بوظيفة الخلافة»[١٨٠].

فالتصور القرآني يعتبر إرادة الإنسان هي بوابة التغيير، للمحتوى الداخلي نفسه، ولكل ما يحيط به من علاقات ونظم وظواهر مختلفة، تصوغ الواقع التاريخي والحضاري للإنسانية.

تبقى مسألة أخرى في غاية الأهمية، يشير إليها السيد محمد باقر الصدر، وهي نقطة البدء في بناء هذا المحتوى الداخلي للإنسان، فيسأل قائلا: ما هو المحور الذي يستقطب عملية بناء المحتوى الداخلي للإنسان؟، ثم يجيب: المحور، هو المثل الأعلى... موضحا ذلك بقوله: عرفنا أن المحتوى الداخلي للإنسان يجسد الغايات التي تحرك التاريخ، عبر وجودات ذهنية تمتزج فيها الإرادة بالتفكير. والمثل الأعلى هو الذي يحدد الغايات التفصيلية، وتنبثق عنه الأهداف الجزئية التي تحرك التاريخ. فالمثل الأعلى هو المحور الذي تتمحور فيه كل تلك الغايات، وتعود إليه كل تلك الأهداف. وبقدر ما يكون المثل الأعلى للجماعة البشرية صالحا وساميا وممتدا، تكون الغايات صالحة سامية وممتدة. وبقدر ما يكون هذا المثل الأعلى محدودا أو منخفضا تكون الغايات المنبثقة عنه محدودة ومنخفضة أيضا[١٨١]. وقد توصل عالم النفس «هدفيلد» إلى النتيجة نفسها، حين قال: «إن المثل الأعلى هو أقوى عامل في تقرير خلق الإنسان، وفي تعيين مسلكه؛ لأنه هو وحده الذي يستطيع تنبيه الإرادة، وتنظيم الغرائز»[١٨٢].

إن الرؤية القرآنية تؤكد أن محور الاستقطاب، والطاقة المحركة لعملية بناء المحتوى الداخلي للإنسان، هو الله تعالى، الذي هو المثل الأعلى المطلق الذي يتجه إليه الإنسان في حركته الداخلية، وتتجه إليه المسيرة البشرية في حركتها التاريخية والحضارية. وهو الغاية

المنشودة التي تضعها الآية المباركة الآتية أمام الإنسان والإنسانية:

﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه﴾[١٨٣]

مؤثرات التغيير في الإنسان والتاريخ:

رغم ما يتميز به الإنسان من مؤهلات وقدرات خلاقة، أودعها الله تعالى فيه. فإنه ليس وحده في هذا الكون؛ بل مرتبط بكل ما فيه من نجوم وشموس وأقمار، بكل ما فيه من جبال ووديان وأنهار، إنه خلية في هذا الوجود المتناغم، الذي لا يمكن إلا أن يكون وحدة واحدة ونسيجا متصلا[١٨٤]. كما أن هذا الإنسان لا يمتلك كل الحرية في تحطيم وتغيير كل شيء يواجهه؛ بل هناك قوانين وسنن تعمل إلى جانبه. فإذا ما حاول الخروج عليها فإنها ستحطمه وتقضي عليه. فليس معنى الحرية، «أن تتحرر من الأشياء الخارجية، ومن الطبيعة، ومن الناس من حولك، ومن القانون، ومن العقل، ومن الوراثة. لأنك لو تحررت من كل شيء لكان معنى ذلك أن لا شيء، فاللا شيء أو العدم هو وحده الحر حرية مطلقة»[١٨٥]. وبذلك فالإنسان حر، ويتمتع بحريته ضمن النظام الكوني العام، وبهذه الحرية يصنع تاريخه. فحريته تمنحه القدرة على تقرير المواقف والتصرف بالأشياء.

وهناك مجموعة من الاستعدادات والخصائص التي يحملها الإنسان في نفسه، ومن محصلة تفاعله معها ـ سلبا أو إيجابا ـ تتم حركته في التاريخ. وآيات القرآن الكريم تصرح بأن الناس ليسوا جميعا على شاكلة واحدة. فهم يختلفون في خصائصهم ومشاربهم وأعمالهم، فمنهم المؤمن، ومنهم الكافر، وفيهم الطيب، وفيهم الخبيث، ومنهم المحسن، ومنهم المسيء، وفيهم العالم، وفيهم الجاهل، وفي ذلك يقول تعالى:

﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾[١٨٦]

﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾[١٨٧]

﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[١٨٨]

﴿ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾[١٨٩]

وهذه الشاكلات من الناس تنعكس آثارها على حركة التاريخ خلال إرادة الإنسان وفعله. فالإيمان، والتقوى، والصبر، والشجاعة، وحب الخير، والتعاون، والإيثار، والإنصاف، والعبادة الصحيحة، والأعمال الصالحة، «والتقيد بموجبات الأنظمة الأخلاقية،

والانصراف إلى العمل والإنتاج، ومكافأة المحسن، ومعاقبة المسيء، علامات نهوض اجتماعي، ورقي إنساني، فلا يمكن أن تؤدي إلا إلى الطمأنينة، والابتهاج بالحياة، والسلام، والرخاء»[١٩٠]. بينما تكون آثار الكفر، والنفاق، والطغيان، والغرور، والظلم، والترف، والإسراف، والجبن، والضلال، والمكر، والخديعة، وفساد الأخلاق، وانحراف السلوك... الخ، وخيمة جدا على ذات الإنسان، وحركة التاريخ. كما هو الحال في النموذج الفرعوني الذي قدمه القرآن المجيد مثالا للإنسان الذي يعيش الكفر والطغيان، ويعيث في الأرض فسادا، ويجعل أهلها شيعا وأحزابا، فتكون عاقبته دمارا وخرابا يجره على نفسه وقومه. كما نقرأ في قوله تعالى:

﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾[١٩١]

﴿ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾[١٩٢]

ومثال الظاهرة القارونية، التي مثلت نموذج الإنسان الذي دفعه الثراء والبطر إلى التمرد والطغيان، وممارسة الفساد والإفساد في الأرض، انطلاقا من الحقيقة القرآنية القائلة:

﴿كلا إن الإنسان ليطغى(٦)أن رآه استغنى﴾[١٩٣]

وعلى هذا الأساس، فإن المنهج الإسلامي يعتمد أسلوب التربية العميقة والشاملة في بناء الإنسان بناء إيمانيا وأخلاقيا متكاملا؛ التربية التي «لا تترك منه شيئا ولا تغفل عن شيء. جسمه وعقله وروحه، حياته المادية والمعنوية، وكل نشاطه على الأرض»[١٩٤]، فتعمل على تطهير باطنه من الرذائل، وتحليته بالفضائل، لتزكو نفسه، وتتقوى إرادته، وتتهذب أفعاله؛ كي تتم صياغة هذا الإنسان بشكل ينسجم وتحقيق أبعاد الخلافة الربانية في الأرض. لأن البناء الإيماني والأخلاقي للفرد، ليس ضرورة لنجاحه الشخصي في الحياة فحسب؛ بل ضرورة أيضا لبناء المجتمع الصالح، وتشييد الحضارة الإنسانية السامية؛ باعتبار الفرد، هو اللبنة الأساسية التي يتألف منها المجتمع، وبصلاحه يتحقق صلاح المجتمع. وفيه يقول تعالى:

﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عبادي(١٧) الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾[١٩٥]

ثالثا: المجتمع في حركة التاريخ

علاقة الفرد بالمجتمع:

تعد العلاقة بين الفرد وبين المجتمع، من الموضوعات الرئيسة لعلم الاجتماع، وكذلك من المباحث الأساسية لعلم النفس. ومن الطبيعي أن تختلف آراؤهما حول طبيعة هذه العلاقة، بحسب النظرة إليها. فهناك عدة نظريات في هذا المجال، نذكر بعضها على نحو الاختصار:

النظرية الأولى: القائلة بأصالة الفرد، والتأكيد على الاتجاهات الفردية. ودعا إليها علماء النفس الفرديون، ويعد الفيلسوف والاقتصادي الإنجليزي الشهير جون ستيورات ميل (١٨٠٦-١٨٧٣م) أكبر الداعين إلى الإتجاه الفردي(١٩٦). ونظر أصحاب هذا الاتجاه إلى المجتمع دائما من وجهة نظر الفرد، فبالغوا في تقدير وأهمية الفرد كشخصية مستقلة لها كيان منفصل عن الآخرين(١٩٧). وعلى ضوء هذه النظرية، لا يصبح للمجتمع أي وجود حقيقي، وليس له قوانين أو سنن تحكمه؛ لأن الوجود الحقيقي للفرد، وهو مادة البحث والدراسة، وكل فرد له شأنه ومصيره الخاص به، والمستقل عن الآخرين.

من إفرازات هذه النظرية، النظام الرأسمالي الغربي، القائم على أساس سيادة الفرد، وتضخيم دوره وجعله هو الأساس، الأمر الذي أدى إلى تحطيم المجتمع، نتيجة المبالغة في إحساس الفرد بذاتيته الزائدة عن الحد(١٩٨).

النظرية الثانية: القائلة بأصالة المجتمع، والتأكيد على الاتجاهات الاجتماعية. ويمكن اعتبار أصحاب هذا الاتجاه - الذين يطلق عليهم أحيانا اسم «أصحاب معرفة الوجود للاجتماع» - هم ورثة الفيلسوف الألماني الشهير هيجل (١٧٧٠-١٨٣١م). وخلاصة قول هيجل وأتباعه: «يكون الكل هو الحقيقي والواقعي فحسب، ويمكن عده الجوهر القائم الوجود بالذات، وأما الفرد الإنساني فهو لحظه من ديالكتيك المجتمع، وليس شيئا أكثر من ذلك»(١٩٩). وخلال القرنين الأخيرين أخذ كثير من علماء وفلاسفة الاجتماع

الغربيين ينحون هذا الاتجاه في تفسير علاقة الفرد بالمجتمع، وخصوصا الألمان منهم. وعلى ضوء هذه النظرية، يندك الفرد، وتنصهر شخصيته في إطار المجتمع. فلا وجود في الخارج إلا للوجدان والشعور والإرادة الاجتماعية. أما وجدان أو شعور أو إرادة الفرد فلا وجود حقيقي لها وإنما هي مظاهر للوجدان والشعور والإرادة الاجتماعية. فالوجود الحقيقي للمجتمع، وهو مادة البحث والدراسة. وقد أفرزت هذه النظرية المذهب الماركسي الذي يقوم على أساس الملكية العامة لوسائل الإنتاج، وهيمنة الدولة الكاملة على اقتصاديات المجتمع. فجعلت المجتمع هو الأساس لا الفرد. بذلك سحقت الفرد من أجل المجموع، وحطمت المجتمع نتيجة تحويله إلى مجموعة من الأصفار، كل منهم بلا مشاعر ولا كيان[٢٠٠].

لسنا بصدد جدلية النقد لهاتين النظريتين، بقدر ما تهمنا الإشارة إليهما تمهيدا للنظرية الثالثة، التي تمثل وجهة النظر الإسلامية في العلاقة بين الفرد وبين المجتمع.

النظرية الثالثة: القائلة بأصالة الفرد والمجتمع معا. وتمثل الرؤية الإسلامية. وهي حقيقة وليست نظرية ، يقررها الشيخ مرتضى المطهري قائلا: «وهي ترفض انحلال وجود الأفراد في الكل، وترفض وجودا مستقلا للمجتمع على غرار المركبات الكيماوية، وبذلك تلتزم بأصالة الفرد. ومن جهة أخرى تلتزم بوجود تركيب من قبيل التركيب الكيماوي بين الشؤون الروحية والفكرية والعاطفية للأفراد، وتلتزم بأن الفرد يكتسب ماهية جديدة بالاندراج في المجتمع، هي الماهية الاجتماعية بالرغم من عدم وجود ماهية مستقلة للمجتمع نفسه، وبذلك فهي تلتزم بأصالة المجتمع»[٢٠١]. وبناء على هذه الرؤية فإن «الظواهر الاجتماعية والتيارات الكلية التي تسود المجتمع تنشأ نتيجة لتفاعل أفكار الأفراد، وتشابك آرائهم، وهذا التفاعل يؤدي إلى وجود عقل جديد يختلف عن عقول الأفراد ـ هو العقل الجمعي ـ الذي هو مصدر التيارات الاجتماعية والعواطف وأنواع الشعور الاجتماعية، ثم الظواهر الاجتماعية»[٢٠٢].

وقد تقدم الحديث في فصل سابق[٢٠٣]، عن وجهة نظر القرآن الكريم التي أعطت للفرد أصالته، في وجوده، وشعوره، وعمله، وفهمه وعلمه، وطاعته ومعصيته، وكتابه وأجله. كما أعطت للمجتمع أصالته ـ أيضا ـ في وجوده، وشعوره، وعمله، وفهمه وعلمه،

وطاعته ومعصيته، وكتابه وأجله. ومن الباحثين الغربيين الذين انتهوا بأبحاثهم إلى هذه الرؤية القرآنية، «إدوارد كار» حيث يقول: «إن السؤال عمن يأتي قبل ـ المجتمع أم الفرد ـ هو مثل السؤال عن الدجاجة والبيضة حتى لو عالجته كسؤال تاريخي فليس بوسعك أن تجري تبسيطا واحدا له، بطريقة أو بأخرى، دون أن تحتاج إلى تبسيط معاكس وأحادي مماثل. إن المجتمع والفرد لا ينفصلان فهما ضروريان ومتممان لبعضهما وليسا ضدين»(٢٠٤).

هكذا تبدو الرؤية القرآنية متوازنة في نظرتها للفرد وللمجتمع، فتعطي الفرد حقوقه دون أن تبالغ في تقديره بشكل تغفل فيه حقوق المجتمع. كما تعطي المجتمع حقوقه وأبعاده دون أن تغالي في تقديره على حساب الفرد. وبذلك يكون للفرد دوره وتأثيره على حركة المجتمع، وأيضا للمجتمع دوره وتأثيره على حركة الفرد، وأخيرا يكون للاثنين معا دورهما المتوازن على حركة التاريخ، والمسيرة الحضارية للأمة.

ونستطيع أن نلمح هذا التوازن الواقعي بين دور الفرد وبين دور الجماعة في حركة التاريخ، عبر خطابات القرآن المجيد، الموجهة للطرفين على السواء (يا أيها الإنسان...)(يا أيها الناس...)(يا أيها الذين آمنوا...)سواء في التكاليف العقائدية والأخلاقية والتشريعية...التي أنيطت بها، أو في العروض التاريخية التي يبرز فيها دور الأفراد ـ الأمر الذي يبدو واضحا في التأكيد على أدوار الأنبياء (عليهم السلام) ـ أو دور الجماعات سلبا وإيجابا: الأمم والشعوب والجماعات والقرى التي آثرت الإيمان أو التي ظلت على كفرها(٢٠٥).

التغير الاجتماعي والتاريخ:

يعتبر بحث التغير الاجتماعي من الأبحاث الهامة والصعبة التي يهتم بدراستها علم الاجتماع. وحاول الفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنسر (١٨٢٠.١٩٠٣م)، تفسير ظاهرة التغير الاجتماعي، فاعتقد بأن المجتمع يتطور ويتحول من مجتمع بسيط بتركيبه ووظائفه إلى مجتمع معقد ومشعب، واعتمد سبنسر في تفسيراته التطورية هذه على آراء العالم الطبيعي الإنجليزي تشارلز دارون (١٨٠٩.١٨٨٢م)، التي عبر عنها في كتابه الشهير «أصل

الأنواع» الذي ظهر عام ١٨٥٩م. وفي الوقت الحاضر يعتبر علماء الاجتماع أن التغير الاجتماعي حالة طبيعية من الحالات التي يمر بها المجتمع[٢٠٦].

المقصود بالتغير الاجتماعي: تلك التحولات التي تحدث في المجتمع وتكون نتائجها وآثارها ذات صبغة اجتماعية، بمعنى أنها غير مختصة بفرد ولا بفئة ولا بطبقة، وهي أيضا ثابتة ومستقرة، بمعنى أنها باقية إلى فترة زمنية طويلة نسبيا[٢٠٧].

وبما أن القرآن الكريم، كتاب هداية وتغيير للناس،لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى فقد اهتم كثيرا بمسألة التغير الإجتماعي، التي عبر عنها بكلمة: «ليخرجهم» أو «لتخرج» أو «ليخرجكم» أو «ليخرج» كما قال تعالى:

﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾[٢٠٨]

﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾[٢٠٩]

﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾[٢١٠]

﴿ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور﴾[٢١١]

وقد تجسدت عملية التغير الاجتماعي التي قادها الرسول الأكرم (صلوات الله وسلامه عليه) بممارساته وتوجيهاته الشريفة، خلال التشريعات والأحكام والمناهج التي جاء بها القرآن المجيد، عبر مجتمع الجزيرة العربية، الغارق بالكفر والجهل والتخلف والضلال، فتحول إلى مجتمع إسلامي، يحمل مشاعر الخير والعلم والحضارة لكل العالم، وحطم عروش كسرى وقيصر، بفترة ملحوظة من الزمان،كما صدع بذلك الذكر الحكيم ليذكر به المسلمين:

﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾[٢١٢]

و بما أن المجتمع ليس مجرد تجمع أفراد؛ بل هو مجموعة علاقات مختلفة ناشئة من مجموعة أفراد، تربط بينهم هذه العلاقات[٢١٣]. ولكن من الثابت أن المجتمع بدون فرد لا يكون له وجود. ولذا فإن عملية التغيير الاجتماعي ينبغي أن تبدأ بالفرد نفسه؛ فهو الذي يلعب دورا أساسيا في التحولات الاجتماعية في خلال محتواه الداخلي، الذي يمثل

القاعدة الأساسية للبناء الاجتماعي. فعملية التغير الاجتماعي وفق الرؤية القرآنية، تبدأ من صميم الإنسان ثم تتجه صوب الخارج، نحو الفضاء الاجتماعي، كما في قوله تعالى:

﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾(٢١٤)

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾(٢١٥)

و قد عبر الإسلام عن عملية التحول والتغير النفسي «بالجهاد الأكبر»، وعن عملية التحول والتغير الاجتماعي «بالجهاد الأصغر». كما ربط بين الجهادين، معتبرا أن الجهاد الأصغر إذا فصل عن الجهاد الأكبر، فقد محتواه ومضمونه(٢١٦). كما ينبغي أن تسير عملية التغير الاجتماعي جنبا إلى جنب مع عملية التغير الفردي، وإن كانت البداية ينبغي أن تنطلق من الثانية.

وقد عالج الإسلام الواقع الإنساني على ضوء هذه القاعدة، فلم يعمل لإصلاح الإنسان دون أن يصلح المؤسسات الاجتماعية، كما فعلت المسيحية والدعوات الصوفية، ففشلت. ولم يعمل لإصلاح المؤسسات الاجتماعية دون أن يصلح الإنسان، كما فعلت المذاهب والدعوات الحديثة، ففشلت أيضا، وإنما أصلح المؤسسات الاجتماعية والإنسان، فكانت المعجزة الكبرى التي لم يشهد لها العالم مثيلا من قبل ولن يكون لها مثيل إلا بالإسلام(٢١٧).

وبما أن الجماعات البشرية في تحول وتحرك دائمين بصرف النظر عما إذا كان ذلك نحو الأحسن أو الأسوأ(٢١٨). بل إن التغير أو التحول حاصل بالضرورة في مجال زمني لأبناء جيل واحد(٢١٩). وهو ما أكده ابن خلدون بقوله: «بل الجيل الواحد تختلف أحواله في ذلك باختلاف الأعصار»(٢٢٠).

إذن المجتمع عالم إنساني متحرك مع الزمن، يعيش التطور والتغير دائما، إذ من المستحيل أن يبقى راكدا وثابتا على وتيرة واحدة وخط واحد. وبذلك فإن « تجمعات الأفراد الذين لا يعدل الزمن من علاقاتهم الداخلية، ولا تتغير أشكال نشاطهم خلال المدة، لا تعد من التجمعات الخاصة التي نقصدها بمصطلح مجتمع »(٢٢١).

لذا فإن فكرة الحركة هي سمة أساسية للمجتمع، وهي ضرورة للتغير والتحول، مع تقادم الزمان. وبذلك فإن المجتمع لابد أن يتجه عبر حركته نحو غاية محددة وأهداف

مستقبلية، تدفع به نحو شكل من أشكال الحياة الاجتماعية، إما أن تكون صالحة فتسوقه إلى الحضارة، وإما أن تكون جاهلية فتسوقه إلى الانهيار. لكن «حين يفقد المجتمع هدفه فإنه يبقى خارج التاريخ، لن يتوقف في مكانه... فالحياة إما حركة وتغيير إلى أمام أو تحلل وفساد»[٢٢٢].

وعندما يتحرك المجتمع، بضرورة التغير والتحولات الاجتماعية، يكون قد رسم له مسارا فعليا في حركة التاريخ. ومما لا شك فيه أن طبيعة هذا المسار التاريخي تتأثر بمؤثرات عديدة. والرؤية الإسلامية تقدر للظروف والعوامل المختلفة أثرها الفاعل على التغير والتحول الاجتماعي، والذي بدوره يؤثر على مسار حركة التاريخ. وقد رأى ابن خلدون أن فهم التاريخ يقوم على التعليل الاجتماعي المستمد من عوامل عدة حيث إن «العوامل التي تؤثر في سير التاريخ كثيرة، فلا يجوز الاكتفاء بعامل واحد منها عند التعليل»[٢٢٣].

ويمكن تلخيص أهم العوامل المؤثرة في التغير الاجتماعي والتاريخ بما يلي:

١. العامل الديني:

وله الأثر الخاص على الإنسان والمجتمع، فيمدهما بالفاعلية والمحركية نحو الأهداف والغايات النبيلة. فالإيمان بمثابة (معامل حضاري) يمتد عموديا في أعماق النفس الإنسانية، فيبعث فيها الصحوة المتيقظة، والإحساس المستمر بالمسؤولية، نحو تفجير طاقاتها في الخير لبلوغ منصة السعادة. كما يمتد أفقيا مخترقا مجالات المجتمع؛ ليحرك إرادة الجميع نحو الانسجام مع حركة الكون والحياة. «فالدين عنصر مهم في حياة الأمم و الأفراد؛ بل هو أعظم أثرا مما يبدو أحيانا. وهكذا نجد سير التاريخ قد تأثر في الماضي تأثرا عظيما بالحمية الدينية، وخصوصا في الحضارة والثقافة، وهو لا يزال يتأثر بالدين إلى اليوم»[٢٢٤]. ونجد في القرآن الكريم تنبيهات عديدة إلى أثر الدين والإيمان في الحياة الفردية والاجتماعية، يقول تعالى:

﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[٢٢٥]

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملآئكة ألا تخافوا ولا تحزنوا

وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون(٣٠)نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون(٣١)نزلا من غفور رحيم﴾[٢٢٦]

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾[٢٢٧]

فالدين يفجر الإيمان بالنفوس، ويهيئها لتقبل المبادئ الخيرة مهما يكمن وراءها من تكاليف وواجبات، وتضحيات ومشقات، ويغيرها تغييرا تاما، وينشئها خلقا آخر، ويصبها في قالب جديد[٢٢٨]. وشهادة التاريخ تقول: إن فترات الالتزام بالدين والتمسك بأحكامه وتوجيهاته، هي فترات القوة والتمكين والرفعة والازدهار في جميع الجوانب، بينما فترات التفلت والانحراف عن خطه ونهجه، هي فترات الضعف الهبوط وزوال التمكين[٢٢٩].

وإن أروع ما صنعه الإسلام، وهو خاتم الأديان للبشرية، أن قدم للإنسانية حضارة رائدة، أمدتها بأنوار العلم والهداية، وجعلتها تسير نحو الرقي والتقدم. غير أن ابتعاد المسلمين عن روح الإسلام الحنيف، أدى إلى انحطاطهم وتخلفهم عن مواصلة السير في ركب الحضارة المتنامية. وهو ما توصل إليه الباحثون، أمثال غوستاف لوبون حيث قال: «إن سبب انحطاط الشرق هو تركه روح الدين وتشبثه بالعقائد الباطلة»[٢٣٠].

٢. العامل الفكري أو الثقافي:

يشمل كل «ما يتصل بالتفكير والإنتاج العقلي والمعتقدات من دين وأدب ولغة وعلم»[٢٣١].وترتبط عناصر الفكر والثقافة ارتباطا أكيدا بتقدم وتطور المجتمع، ومن ثم تساهم إلى حد كبير في تحديد وجهة حركة التاريخ لدى أي أمة من الأمم. فمن ناحية تمكن «الفرد من تحقيق ذاتيته. وتعني الذاتية هنا القدرة على بناء علاقات إيجابية مع الآخرين، ومن خلالهم مع الواقع والتاريخ»[٢٣٢].ومن ناحية أخرى تمثل الفضاء الواسع الذي يتنفس فيه المجتمع آماله، وتحدد فيه أهدافه باعتبارها «المنبع الثر الذي تنهل منه التربية لكل مقوماتها الأساسية بدءا بالأهداف وانتهاء بالأساليب والوسائل... ولم يحدث في التاريخ أن وجدت تربية إنسانية لا تستند إلى ثقافة»[٢٣٣].

٣. العامل الاقتصادي:

الذي يترك بصماته الواضحة على الحياة الاجتماعية للأمة، من حيث وفرة الموارد والثروات، وتنميتها، واستهلاكها، وعدالة التوزيع، ونوع وسائل الإنتاج، وأنواع الكسب والصناعات، وفروع المهن والمهارات.وهو في نظر ابن خلدون له دخل في الأجسام والأخلاق والعقول والعبادة(٢٣٤).ومهمته أن يهيئ الجو الصالح للارتفاع الخلقي والفكري والروحي، والإنساني بصفة عامة(٢٣٥).فالأمة الغنية اقتصاديا تختلف عن الأمة الفقيرة، في أهدافها، وطرائقها، وسلوكها، وأذواقها، ومقاييسها.

٤. عامل السياسة والحكم:

إن لطبيعة المنهج السياسي، ونظام الحكم، والقانون السائد بين الناس، أثرا على الواقع الاجتماعي، وبالتالي على حركة التاريخ. فهي تساهم إلى حد ما بتحديد طبيعة العدالة الاجتماعية في «جميع مظاهر الحياة، وجميع ألوان النشاط؛ كما تتناول القيم المعنوية والمادية متمازجة متناسقة»(٢٣٦). ويساهم هذا العامل في استتباب الأمن وإحلال السلام والاستقرار في المجتمع، وذلك ما يتيح الفرصة أمام التغيرات والتحولات الاجتماعية التي يقودها الإنسان الآمن والمستقر؛ «لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، وتحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها»(٢٣٧).

٥. عامل البيئة الطبيعية والجغرافية:

إذ لاشك في أن للموقع المناخي والجغرافي أثرا في نفوس البشر، وفي نوع الحياة التي يعيشونها، وفي طبيعة العلاقات التي تربطهم، وبالتالي تنعكس سلبا أو إيجابا على عمليات التحول الاجتماعي عبر تأريخهم.« لأن الإنسان يأخذ مادة حضارته مما حوله، والظروف الطبيعية التي تحيط به، لها أعظم الأثر في حفز همته إلى العمل والإنشاء والابتكار، أو في تثبيط همته وحرمانه من كل تطلع إلى جديد»(٢٣٨). ولم يفت ابن خلدون أن يشير في مقدمته إلى أهمية هذا العامل على الواقع البشري، فذكره تحت عنوان

«في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر، والكثير في أحوالهم»[٢٣٩]، حيث معنى الهواء عنده، هو المناخ عندنا.

إن مجمل هذه العوامل تدلل، بأن الرؤية الإسلامية، تبتعد كثيرا عن النظرة الأحادية في تفسيرها لقيام المجتمعات وحصول التحولات الاجتماعية فيها. فقد أثبت الواقع أن ما يجري من تحولات في الأمم المختلفة يخضع لظروف في التفاعلات والعلاقات، تحدد لكل منها سلوكها وأسلوب حياتها، وبالتالي فإن العوامل الاجتماعية تكون هي المحركة لأحداث التاريخ والمؤثرة في مجراه، وأي إغفال لهذه العوامل في تفسير التاريخ يكون بعيدا عن روح العلم، ويجعل النتائج الناجمة عنه مشوبة باحتمالات الخطأ[٢٤٠].

رابعا: الزمن في حركة التاريخ

قيمة الزمن:

في القرآن الكريم آيات عديدة، أعطت للزمن قيمة بالغة، واعتمدته عنصرا لازما في حركة الموجودات وفي مقدمتها الإنسان. وتنوعت مقاصد هذه الآيات بحسب موضوعاتها، فمنها:

١. الآيات التي تحدثت عن مطلق الزمان في الحياة الدنيا، كما في قوله تعالى:

﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا﴾[٢٤١]

﴿يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾[٢٤٢]

﴿والله يقدر الليل والنهار﴾[٢٤٣]

٢. الآيات التي تحدثت عن مفهوم الزمان في الحياة الآخرة،كما في قوله تعالى:

﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين﴾[٢٤٤]

﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون﴾[٢٤٥]

﴿تعرج الملآئكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾[٢٤٦]

٣. الآيات التي تحدثت عن نشأة الكون وعلاقته بالزمان، كما في قوله تعالى:

﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾[٢٤٧]

﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾[٢٤٨]

﴿فقضاهن سبع سماوات في يومين﴾[٢٤٩]

٤. الآيات التي تحدثت بشأن الإنسان وعمله ومصيره خلال الزمان،كما في قوله تعالى:

﴿والليل إذا يغشى(١)والنهار إذا تجلى(٢)وما خلق الذكر والأنثى(٣)إن سعيكم لشتى﴾[٢٥٠]

﴿والشمس وضحاها(١) والقمر إذا تلاها(٢) والنهار إذا جلاها(٣) والليل إذا يغشاها(٤) والسماء وما بناها(٥) والأرض وما طحاها(٦) ونفس وما سواها(٧) فألهمها فجورها وتقواها﴾[٢٥١]

﴿ والعصر(١)إن الإنسان لفي خسر﴾[٢٥٢]

٥. الآيات التي تحدثت عن مختلف الأحكام الشرعية، المرتبطة بالإنسان والمجتمع وعلاقتهما بالزمان، كما في قوله تعالى:

﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا﴾[٢٥٣]

﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلآ تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين﴾[٢٥٤]

﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فإذا بلغن أجلهن فلآ جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير﴾[٢٥٥]

﴿ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم﴾[٢٥٦]

٦. الآيات التي تحدثت عن الزمن في حركة التاريخ خلال دعوات الأنبياء (عليهم السلام) ومختلف الأحداث والوقائع في التاريخ، كما في قوله تعالى:

﴿ قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾[٢٥٧]

﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾[٢٥٨]

﴿ قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا﴾[٢٥٩]

﴿ فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾[٢٦٠]

﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين﴾[٢٦١]

﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا﴾[٢٦٢]

﴿ فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات﴾[٢٦٣]

﴿ سيروا فيها ليالي وأياما آمنين ﴾[٢٦٤]

﴿ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما﴾[٢٦٥]

﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾[٢٦٦]

هذا الحشد الكَبير من الآيات المباركة، التي جاء بعضها على صيغة (القسم بالزمان) على اختلاف وحداته، يؤكد الأهمية الكبيرة لعنصر الزمن في حركة الوجود والحياة. فهو ليس مجرد لحظات تائهة في الفراغ، يستهلكها الإنسان ليحولها إلى ضياع، ضمن منطق العبث وعدم المسؤولية؛ بل هو جوهر الحياة والتاريخ الذي لا يقدر بثمن. والزمن في القرآن المجيد «يأخذ دلالات متعددة، كالقداسة والموعظة والنعمة والتجربة وغيرها؛ لتجعل منه قيمة حركية حية تتفاعل مع الإنسان في حياته الشخصية والعامة، وتحفزه لأن يتفاعل مع هذه القيمة بشكل دائم لا انقطاع له»[٢٦٧]. إنه حقا ثروة ومصدر خير وسعادة للإنسان، إن حاول الإفادة منه أو أحسن التدبر فيه[٢٦٨].

لقد كان العالم البشري قبل نزول القرآن، لم يكن قد دخل في تفكيره وعي مفهوم الزمان بمنظور شامل للحياة، وبعد مستقبلي لحركة التاريخ. ولكن منذ أن بزغ فجر الإسلام، أخذ القرآن الكريم يقدم فلسفته الحضارية عن الزمن، فأعطاه بعدا كونيا شموليا، صانعا للتقدم والتأخر، والنجاح والفشل، ومقياسا للحركة والعمل في شتى المجالات الحياتية، موصلا بين إنجازات البشرية، عبر الماضي والحاضر والمستقبل. «فتحولت به الجماعة الإسلامية من القلق من المجهول إلى الشوق إلى المعلوم، فصار لها تصور شامل للوجود والإنسان والطبيعة والألوهية»[٢٦٩]. وبذلك يكون قد انتهى التصور الذي كان يرى الزمان فناء ضائعا مع الأيام يثير مشاعر الفقدان والحسرة على ما مضى وفات[٢٧٠].

تصور الزمن:

للزمن دلالات فلسفية وعلمية عدة؛ لاختلاف نظر الباحثين فيه، حيث يمثل البعد الرابع في الوجود، والأداة التي يرتبط بها تفسير المعاني والأشياء، وتنتظم بها الوقائع والأحداث. ولكن تبقى تلك الدلالات مجرد فرضيات، قد توصل الإنسان - أحيانا - إلى بعض الحقائق التي تنتج في نفسه وعيا وإدراكا جديدا حول مفهوم الزمن. مع ذلك «لابد من تقديم تصور للزمن ومفهومه المعاصر الذي دخل مجال الفكر الواعي اليوم، فلقد غدا - اليوم - بالنسبة للتفكير بمثابة الهواء الذي نستنشقه، وعلى الأخص بعد أن تقدم التفكير

المستقبلي،...إذ لا يمكن للإنسان أن يفكر بعد تكوينه وضمن مرحلة إنتاجه دون الشعور بالزمن والوعي بقيمته، نظرا لحاجته الحيوية إليه»[٢٧١]. فقد شغلت فكرة الزمان ذهن الإنسان منذ أن أحس بتعاقب الليل والنهار، واختلفت النظرة إليه تبعا لطبيعة إحساسه به في نفسه.

فالزمان في أساطير اليونانيين، هو الإله الذي ينضج الأشياء، ويوصلها إلى نهايتها[٢٧٢]. وبذلك جاء قول بعض قدماء الفلاسفة: «إنه جوهر مجرد عن المادة، لا جسم مقارن لها، ولا يقبل العدم لذاته، فيكون واجبا بالذات»[٢٧٣].

أما الفلاسفة الطبيعيون السابقون لسقراط، وكذلك أفلاطون، فقد رأوا: أن ماهية الزمان تقوم بالحركة...ولهذا جاء أرسطو في تعريفه للزمان فربطه بالحركة، وحده بأنه «مقدار-عدد-الحركة بحسب المتقدم والمتأخر»[٢٧٤]. وقد أخذ معظم فلاسفة المسلمين بهذا المعنى الأرسطي، بعد أن خالفوا أرسطو في مسألة قدم العالم وقدم الزمان. «فالعالم عند أرسطو أزلي من حيث مادته وحركته وزمانه»[٢٧٥].

ويعد الكندي (١٨٥-٢٥٢هـ)، أول فلاسفة الإسلام، الذين خالفوا أرسطو وقالوا بحدوث العالم لإثبات الخالق المبدع، استنادا إلى تناهي الزمان وأن له بداية، وكذلك الحركة لها بداية ونهاية[٢٧٦]. وبذلك يكون الزمان في نظر معظم فلاسفة الإسلام نسبيا وليس مطلقا، وحادثا وليس قديما. وهذا ما ينسجم مع الرؤية القرآنية لمفهوم الزمان. فقد ميز القرآن الكريم تمييزا واضحا بين الوجود المتزامن «النسبي»و بين الوجود غير المتزامن «المطلق». فما كان وجوده متزامنا - أي مقترنا بزمان - كمخلوقات الله تعالى جميعا، وفي طليعتها الإنسان، فهو وجود «نسبي» وما كان وجوده غير متزامن - أي غير مقترن بزمان - وهو الله تعالى وحده فوجوده «مطلق» لأنه فوق الزمان، كما وصف تعالى نفسه في كتابه العزيز قائلا: ﴿هو الأول والآخر﴾[٢٧٧]

يقول الآلوسي: «هو الأول: السابق على جميع الموجودات، فهو سبحانه موجود قبل كل شيء حتى الزمان؛ لأنه جل وعلا الموجود والمحدث للموجودات، والآخر: الباقي بعد فنائها حقيقة أو نظرا إلى ذاتها مع قطع النظر عن مبقيها»[٢٧٨].

وتذكر بعض الروايات التاريخية، أن أحد أحبار اليهود، سأل الإمام عليا(عليه السلام)

قائلا: يا أمير المؤمنين متى كان ربك ؟ فأجابه: ومتى لم يكن حتى يقال: متى كان؟. كان ربي قبل القبل بلا قبل، ويكون بعد البعد بلا بعد ـ ولا غاية ـ ولا منتهى لغايته، انقطعت الغايات عنه فهو منتهى كل غاية(٢٧٩).

وبيان هذا الجواب: «قبل القبل»: أي قبل أسبق الزمان. «بلا قبل»: دون أن يسبقه زمان وسواه، «ويكون بعد البعد»: بعد انتهاء الزمان بما فيه، وليس له بعد زماني ـ ولا سواه ـ فهو قبل الزمان وبعده، ولا يشمله الزمان، إذ إن المجرد اللامتناهي لا يعتوره الزمان(٢٨٠).

بذلك يكون الزمان ملازما للمخلوق، وليس للخالق؛ لأن المخلوق حادث متغير. «ولولا التغير والحراك في المادة لم يكن هناك زمان» (٢٨١).

من كل ما تقدم يتضح: أن الزمان طبيعة ملازمة لحركة الأشياء، ومنها حركة التاريخ، ويشكل بعدا من أبعادها الحقيقية؛ باعتبارها حركة مستمرة، وتغيرا دائما، وهذا ما نبغي معرفته.

إذن فالزمن ليس شيئا قائما ومتفردا بذاته منفصلا عن الحياة؛ بل هو الحياة النابضة بالحركة، والمتفاعلة مع من حولها، والمنتقلة من حال إلى حال. وبذلك يكون الزمان «هو الغلاف الشامل لكل أنشطة الإنسان، وهو من المحطات الرئيسة في تقويم أدائه وفعاليته، وهو من قبل ذلك ومن بعده حياة الإنسان بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، فضياعه هو ضياع العمر، وإتلافه إتلاف لأعظم الثروات» (٢٨٢).

إشكالية الزمن والتاريخ:

إن مصطلح التاريخ في اللغة هو التوقيت، بمعنى نسبته إلى الزمن. فيدلل على الارتباط الوثيق بين التاريخ والزمن. كما يكشف عن كون الزمن هو أداة المؤرخين لفهم التاريخ(٢٨٣). وبذلك يمكننا تصور الزمان بوصفه تاريخيا، «وهذا التصور يمكن أن يتخذ أشكالا عديدة: قوائم الأسرات الحاكمة؛ أنساب الملوك، وسلالات النبلاء؛ الحوليات التي تسجل الأحداث عاما إثر عام؛ الآثار التي تحتفل بالانتصارات العظيمة؛ الأساطير، والكتابات التاريخية التي تروي الأحداث وفقا لتسلسلها الزمني والحكايات الملحمية عن الأبطال والأسلاف أو القصص الدينية عن أصول النشأة» (٢٨٤).

وبما أن الحياة ـ بكل ما فيها ـ في حالة صيرورة دائمة لا تستقر على حال ولا تثبت على وتيرة واحدة[٢٨٥]. فالزمان ـ أيضا ـ في تغير دائم، وتجدد مستمر، فإن التاريخ يكون في تحولات وتغيرات مستمرة، كما قال تعالى:

﴿يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن﴾[٢٨٦]

والمعنى: ما من شيء فان في هذا الكون إلا ويتغير في كل يوم؛ بل في كل لحظة شئنا أم أبينا[٢٨٧].

قال القرطبي: «أي من شأنه أن يحيي ويميت، ويعز ويذل، ويرزق ويمنع»[٢٨٨].

وخلاصة الأمر أنه في كل يوم ـ وطبقا لحكمته ونظامه الأكمل ـ يوجد ظاهرة جديدة وخلقا وأحداثا جديدة[٢٨٩].

إذن حركة التاريخ في تغيرات وتحولات مستمرة، لا يمكن أن تتوقف، ولا تكون لها نهاية، كما يدعي ابن أميركا ـ الياباني الأصل، «فرانسيس فوكوياما» في كتابه «نهاية التاريخ»، بأن باب التاريخ قد أغلق، ولا جديد بعد اليوم[٢٩٠]. نعم أن حركة التاريخ لها بداية ولها نهاية، وبدايتها مع بداية الإنسان، ونهايتها مع نهايته، وذلك شأن وتدبير إلهي. فالله تعالى هو خالق الإنسان، وهو الذي يرث الأرض ومن عليها.

وضمن معالجة القرآن لمفهوم الزمان، فقد بين ما هو ماض منه، الذي بدأ به خلق العالم وفق غاية وحكمة ربانية. كما قال تعالى:

﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير﴾[٢٩١]

﴿قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنا تؤفكون﴾[٢٩٢]

وأيضا أشار إلى الزمن الحاضر الذي يتحرك نحو المستقبل، حيث يبعث الله فيها الموتى، ويجمعهم ليوم الحساب، كما قال عز وجل:

﴿ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾[٢٩٣]

﴿والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾[٢٩٤]

ذلك هو امتداد الزمان في هذا العالم بين الخلق بوصفه بدايته، والبعث بوصفه نهايته وبينما يمتد تاريخ الإنسانية على الأرض[٢٩٥]. من أجل هذا يغدو التاريخ في القرآن

الكريم وحدة زمنية... تتهاوى الجدران التي تفصل بين الماضي والحاضر والمستقبل، وتتعانق هذه الأزمان الثلاثة عناقا مصيريا[٢٩٦]. فتتساوى مسؤولية الفرد عن كل نشاطاته في الماضي والحاضر والمستقبل، كما تتحمل الأمة خلال حركة التاريخ، كامل تبعات نشاطاتها في الماضي والحاضر والمستقبل. فالحاضر إفراز للماضي، والمستقبل نتاج وتتمة للحاضر. والحياة مزرعة تحصد ثمارها في الآخرة:

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا﴾[٢٩٧]

إن أحوج ما يكون إليه الإنسان في بناء التاريخ، هو الوعي بأهمية الزمان وكيفية التفاعل مع مسؤوليته، ولن يتأتى ذلك إلا بعد إدراك وتحديد «مفهوم الزمن الداخل في تكوين الفكرة والنشاط، في تكوين المعاني والأشياء»[٢٩٨].

ولعل من أهم الأبعاد التي استوحاها «ابن خلدون» من القرآن الكريم، واعتمدها في نظرته التحليلية «للملك والعمران»، هو مفهوم الزمان، الذي أدخله عاملا أساسيا في تفتيت الدولة، وانتقالها من القوة إلى الضعف، فهو يقرر في بعض فصول مقدمته «أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص... ويذهب إلى... أن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال»[٢٩٩]. وبذلك يكون قد أضفى ابن خلدون على مفهوم الزمان بعدا جديدا، عندما درس تاريخ التجمعات البشرية من نشأتها وتطورها واضمحلالها[٣٠٠].

وفي نظرة أعمق لفكرة الزمن في حركة التاريخ، نجد الزمن يأخذ ـ أحيانا ـ مدى أوسع من مداه العلمي الفلكي، فمثلا نرى زمن الفرد «البطل» أو زمن الأمة «البطلة» يكون تأثيره أكبر بكثير على المجتمع والتاريخ من تأثير زمن الفرد الآخر، أو الأمة الأخرى. وذلك ما يدعى «بالدور التاريخي للفرد أو للأمة»، بحيث يمتد زمان ذلك الدور الذي قام به الفرد أو قامت به الأمة، إلى فترة أبعد من العمر الفعلي لهما. فالقرآن الكريم عندما وصف إبراهيم (عليه السلام)، كما في قوله تعالى:

﴿إن إبراهيم كان أمة﴾[٣٠١]

أي: إنه يعدل أمة كاملة بما فيها من خير وطاعة وبركة، ويحتمل أنه كان إماما يقتدى به في الخير[٣٠٢]. فيصبح زمن دوره الرسالي أوسع من حدود شخصيته الذاتية ليمتد فيحوي الأمة بأسرها، ثم يمتد ليكون عنوانا للرسالات التي جاءت بعده، وذلك ما خاطب

الله تعالى به نبيه الكريم محمد (صلوات الله وسلامه عليه):

﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾(٣٠٣)

كذلك الحال بالنسبة للرسول الكريم محمد (صلوات الله وسلامه عليه) الذي اعتبره القرآن موضع أسوة وقدوة للعالمين إلى يوم الدين:

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾(٣٠٤)

ذلك يعني أن دور الرسول الأعظم (صلوات الله وسلامه عليه) لا يمكن حصره في الثلاث والعشرين سنة التي قضاها في تبليغ الدعوة ونشر الرسالة، ولا يمكن حصرها في الثلاث والستين سنة التي عاشها في الحياة الدنيا، إنما دوره يمتد بامتداد الزمن، وهو لا ينتهي إلا بنهاية الحياة وقيام الساعة؛ لأن الإسلام هو الرسالة السماوية الخاتمة(٣٠٥).

وتشهد حركة التاريخ على امتدادها، أن الأنبياء والعلماء والصالحين والشهداء يحملون امتدادا زمنيا في التأثير الإيجابي نحو ترسيخ ونشر معالم الخير بين الناس أكثر من العمر الذي عاشوه بينهم كما نلمح معنى ذلك في قوله تعالى:

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾(٣٠٦)

كما أن الطغاة والمجرمين الذين أشعلوا الحروب، وأغرقوا البشرية بالويلات والدمار يحملون امتدادا زمنيا في التأثير السلبي نحو إشاعة الرعب والفساد والخراب بين الناس اكثر من العمر الذي عاشوه بينهم. وهو ما أكده الرسول الأكرم (صلوات الله وسلامه عليه) بحديثه الشريف:

«من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»(٣٠٧).

وهذا يعني: أن أثر الفعل الإنساني المؤسس في المجتمع ـ سواء كان حسنا أو سيئا ـ يأخذ دورا زمنيا يمتد مع حركة التاريخ، يتعدى حدود الفترة الزمنية التي صدر فيها ذلك الفعل. الأمر الذي يرسخ فكرة، أن حركة التاريخ تمثل وحدة زمنية واحدة لا ينفصل فيها الماضي عن الحاضر أو المستقبل؛ باعتبار طبيعة الزمان، الذي هو من وجهة نظر معظم فلاسفة الإسلام «كم متصل أو هو كمية متصلة»(٣٠٨). هكذا تتوثق مكانة الزمن الماضي

في حياة الإنسان، وهذا هو التاريخ نفسه، إذ ليس هناك فصل «بين الماضي والحاضر والمستقبل... كما أن الحياة في سيرها وحدة متكاملة، وأن المواقف المتخذة من الماضي تتأثر بمعتقدات الحاضر وآمال المستقبل، كما تتأثر هذه بتلك».[(٣٠٩)]

الهوامش

١) قسطنطين زريق : نحن والتاريخ، ص١٢٤.
٢) ابن خلدون : المقدمة، ص٣٣.
٣) د. حسان حلاق : مناهج الفكر والبحث التاريخي، ص٤٩٠.
٤) جوردون شايلد: التاريخ، ترجمة : عدلي برسوم عبد الملك، الدار المصرية للكتب، القاهرة، د.ت، ص٦٦.
٥) د. عبد العزيز الدوري وآخرون : تفسير التاريخ، ص٢٩.
٦) أحمد الشحاتي : تفسير التاريخ «أو فلسفة التاريخ»، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، مطابع الثورة العربية، طرابلس ـ ليبيا، (د.ت)، ص٩.
٧) سورة النساء ، الآية : ٢٦.
٨) سورة آل عمران ، الآية : ١٣٧.
٩) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، مؤسسة التاريخ العربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، (س ن ن)، ج٢، ص٤٠٩.
١٠) ابن منظور : لسان العرب، (س ن ن)، ج٣، ص٢١٢٤.
١١) الطبرسي : تفسير مجمع البيان، ج٢، ص ٨٤١
١٢) الفخر الرازي : التفسير الكبير، ج٩، ص ١١.
١٣) السيد محمد رشيد رضا: تفسير المنار : ج ٤، ص١٤٠.
١٤) د. مصطفى السباعي : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، المكتب الإسلامي، دمشق، ط٢، (١٤٩٨هـ ـ ١٩٧٨م)، ص٤٧.
١٥) الشوكاني : إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، ص٣٣.
١٦) الآمدي : الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق : د.سيد الجميلي، دار الكتاب العربي ، بيروت، ط٢ ، (١٤٠٦هـ ـ١٩٨٦م)، ج١، ص٢٢٣.
١٧) الشوكاني : المصدر نفسه، ص٣٣.
١٨) الجرجاني : التعريفات، تحقيق : محمد بن عبد الحكيم القاضي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (١٤١١هـ ـ١٩٩١م)، ص ١٣٤.
١٩) د. عبد الكريم زيدان : الوجيز في أصول الفقه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، (١٤٠٧هـ ـ١٩٨٧م)، ص١٦١.
٢٠) محمد هيشور : سنن القرآن في قيام

الحضارات وسقوطها، ص٢٧.
٢١) سورة الأنفال ، من الآية : ٣٨.
٢٢) سورة الأحزاب ، من الآية: ٣٨.
٢٣) سورة الأحزاب ، من الآية : ٦٢.
٢٤) سورة فاطر ، من الآية : ٤٣.
٢٥) سورة الفتح ، الآية : ٢٣.
٢٦) محمد قطب: حول التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية، دارالشروق، بيروت، (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م)، ص٩٢.
٢٧) سورة يس، الآية : ٣٦.
٢٨) سورة الذاريات ، الآية :٤٩.
٢٩) الزمخشري: تفسير الكشاف، ج٤، ص ٤٠٤.
٣٠) جودت سعيد : العمل قدرة وإرادة، ص ٦٨.
٣١) انظر: الشيخ نديم الجسر؛ قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والإيمان، دار المثقف المسلم، قم – إيران، ١٤٠٣هـ ص٣٧٧.
٣٢) سورة العنكبوت ، الآية :٥٧.
٣٣) سورة الملك ، من الآية :٢.
٣٤) انظر : أحمد فائز ؛ اليوم الآخر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٦، (١٤١٢هـ ١٩٩٢م)، ص٥٧.
٣٥) سورة الأنبياء ، من الآية :٣٧.
٣٦) سورة الإسراء ، من الآية :١١.
٣٧) سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد٤، ص٢٣٧٩.
٣٨) سورة الفجر ، الآية : ٢٠.
٣٩) سورة العاديات ، الآية : ٨.
٤٠) تفسير القرطبي : ج٢٠، ص١١٠.
٤١) السيد محمد حسين فضل الله: تفسير من وحي القرآن، ج٢٤، ص٣٧٩.
٤٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٣.
٤٣) ابن خلدون : المقدمة، ص٣٧.
٤٤) سورة الأنبياء ، من الآية :٣٥.
٤٥) سورة العنكبوت ، الآيتان :٢.٣.
٤٦) الشيخ محمد جواد مغنية: التفسير المبين، ص٤٢٤.
٤٧) د. أحمد محمد كنعان : أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، ص٤٩.
٤٨) د. عبد الكريم زيدان : السنن الإلهية، ص ١٦.
٤٩) سورة الأحزاب ، الآية :٦٢.
٥٠) سورة آل عمران ، الآية :١٣٧.
٥١) السيد محمد حسين فضل الله: تفسير من وحي القرآن، ج٦، ص٢٧٦.
٥٢) السيد محمد باقر الصدر : المدرسة القرآنية، ص٤٤.
٥٣) د. عبد الكريم زيدان : السنن الإلهية، ص ١٦.
٥٤) لمعرفة مبدأ الحتمية وأثره في تفسير حركة المجتمع والتاريخ، انظر:محمد قطب؛مذاهب فكرية معاصرة،دار الكتاب الإسلامي، قم – إيران،د.ت، ص٣٧٩. د. عفت محمد الشرقاوي : أدب التاريخ عند العرب، ص٣٦ وما بعدها.

٥٥) المعجم الوسيط : ج٢، (ط ر د)، ص٥٧٤

.

٥٦) الراغب الأصفهاني : معجم مفردات ألفاظ القرآن، (ط ر د)، ص٣١٢.

٥٧) السيد محمد باقر الصدر : المدرسة القرآنية، ص٧٥.

٥٨) عبد الحميد صديقي : تفسير التاريخ، ص ١٤٤.

٥٩) سورة الأحزاب ، الآية :٦٢.

٦٠) سورة فاطر ، من الآية :٤٣.

٦١) سورة الإسراء ، من الآية :٧٧.

٦٢) سورة الأنعام ، من الآية :٣٤.

٦٣) د. عبد الكريم زيدان : السنن الإلهية، ص ١٥.

٦٤) سورة البقرة ، الآية :٢١٤.

٦٥) انظر : سميح عاطف الزين؛ حركة التاريخ في المفهوم الإسلامي، ص٢٩،٣٠.

٦٦) سورة الأنعام ، من الآية :٦.

٦٧) سورة الأنعام ، من الآية :٦.

٦٨) سورة يونس ، من الآية :٩٣.

٦٩) سورة القصص ، من الآية :٥٨.

٧٠) محمد تقي مصباح : معارف القرآن، ج٤، ص٢٦٧.

٧١) انظر: د. أحمد محمود صبحي؛ في فلسفة التاريخ، ص ١٦٦و ما بعدها. ول ديورانت : مباهج الفلسفة، ج٢، ص١١.

٧٢) السيد محمد باقر الصدر : المدرسة القرآنية، ص٧٩.

٧٣) محمد عبد الجبار : المجتمع، ص٥٦.

٧٤) سورة آل عمران ، الآيات :١٢٤،١٢٦.

٧٥) سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد الأول، ص ٤٧٠.

٧٦) الفخر الرازي : التفسير الكبير، ج٨، ص ٢٢٨.

٧٧) السيد محمد باقر الصدر : المدرسة القرآنية ، ص٨٣

٧٨) محمد مهدي الآصفي : المذهب التاريخي في القرآن، ص٢٩.

٧٩) سورة الرعد ، من الآية :١١.

٨٠) سورة الأنفال ، الآية :٥٣.

٨١) سورة الجن ، الآية ١٦.

٨٢) سورة الكهف ، الآية :٥٩.

٨٣) د. عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ، ص١٣٨.

٨٤) سورة الرعد ، من الآية :١١.

٨٥) جودت سعيد : حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ص٦٩.

٨٦) ت.ج.دي بور : تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة : د.محمد عبد الهادي أبو ريدة ، دار النهضة العربية، بيروت، ط٥، ١٩٨١، ص٤٠٥.

٨٧) د. محمد عبد الله دراز : الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار القلم، الكويت، د.ت، ص١٠٥.

٨٨) كارل بوبر : بؤس الأيديولوجيا، نقد مبدأ الأنماط في التطور التاريخي، ترجمة : عبد

الحميد صبرة ، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٢، ص٣٢.٣١.

٨٩) انظر : السيد محمد باقر الصدر ؛ المدرسة القرآنية ، ص٩٠.

٩٠) د. عماد الدين خليل : دراسة في السيرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٢، (١٤١٢هـ. ١٩٩١م)، ص١٤١.

٩١) سميح عاطف الزين : حركة التاريخ في المفهوم الإسلامي، ص٣٣.

٩٢) شوقي جلال : التراث والتاريخ، ص٧٤.

٩٣) سورة الأنفال ، من الآية : ٥٣.

٩٤) سورة الرعد ، من الآية :١١.

٩٥) جودت سعيد : حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ص٣٨.

٩٦) انظر : السيد محمد باقر الصدر ؛ المدرسة القرآنية ، ص٩٣.٩٤.

٩٧) محمد قطب : حول التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية ، ص ٩٢.

٩٨) السيد محمد باقر الصدر : المدرسة القرآنية، ص١٠٢.

٩٩) محمد مهدي الآصفي : المذهب التاريخي في القرآن، ص٢١.

١٠٠) سورة الأنفال ، من الآية :٥٣.

١٠١) سورة الرعد ، من الآية :١١.

١٠٢) سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد ٤ ، ص٢٠٤٩.

١٠٣) سورة آل عمران ، الآية :٩٦.

١٠٤) محمد هيشور : سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص١٩٥.

١٠٥) سورة النحل ، الآية :١١٢.

١٠٦) الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن : ج٦، ص٦٠٠.

١٠٧) سورة إبراهيم ، من الآية :٧.

١٠٨) محمد تقي مصباح : النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ، ص٥٤٠.

١٠٩) انظر : السيد محمد باقر الصدر؛ المدرسة القرآنية ، ص١٠٧.

١١٠) محمد عبد الجبار : المجتمع ، ص٥٩.

١١١) الكسيس كاريل : تأملات في سلوك الإنسان، ترجمة : د.محمد القصاص، مكتبة مصر، القاهرة، (د.ت)، ص٢٣.

١١٢) سورة العنكبوت ، الآية :٤١.

١١٣) الشيخ محمد جواد مغنية: تفسير الكاشف : ج٦، ص١١٠.

١١٤) سورة طه ، من الآية :١٢٤.

١١٥) سورة الأنعام ، من الآية :١٦٥.

١١٦) سورة الإسراء ، من الآية :٢١.

١١٧) سورة الزخرف ، الآية :٣٢.

١١٨) تفسير القرطبي : ج٧، ص١٠٣.

١١٩) السيد محمد حسين فضل الله: تفسير من وحي القرآن:ج٩،ص٤٠٢.

١٢٠) الشيخ مرتضى المطهري: المجتمع والتاريخ، ص٢٤.

١٢١) د. عماد الدين خليل : حول إعادة تشكيل العقل المسلم ، ص١١٠.

١٢٢) سورة الأنفال ، الآية :٢٥.

١٢٣) الفخر الرازي: التفسير الكبير: ج١٥، ص ١٤٩.

١٢٤) السيد محمد باقر الصدر : المدرسة القرآنية، ص١١١.

١٢٥) الكسيس كاريل : تأملات في سلوك الإنسان، ص٦٠.

١٢٦) د. جميل صليبا : المعجم الفلسفي، ج٢، ص١٨١.

١٢٧) سورة الفاطر ، من الآية :٤٣.

١٢٨) سورة الروم ، الآية :٢١.

١٢٩) سورة النور ، الآية :٣٢.

١٣٠) انظر : محمد عبد الجبار ؛ المجتمع، ص ٦٠.

١٣١) انظر : السيد محمد باقر الصدر؛ المدرسة القرآنية، ص١١٥،١١٦.

١٣٢) سورة الشورى ، من الآية :١٣.

١٣٣) سورة الروم ، الآية :٣٠.

١٣٤) سورة الطلاق ، الآيتان :٨ ـ ٩.

١٣٥) عبد الحليم عويس : تفسير التاريخ علم إسلامي ، ص٢٠٨.

١٣٦) د. محمد رشاد خليل : المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره، دار المنار، القاهرة، (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م)، ص ١٠٨،١٠٩.

١٣٧) سورة النجم ، الآيتان :٣٩،٤٠.

١٣٨) د. محمد رشاد خليل : المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره ، ص ١٠٢.

١٣٩) سورة آل عمران ، من الآية :١٥٤.

١٤٠) سورة البقرة ، الآية :٣٠.

١٤١) سورة ص ، الآيات :٧١ ـ ٧٤.

١٤٢) سورة الأعراف ، الآيتان :١٦ ـ ١٧.

١٤٣) سورة الحجر،الآيتان:٣٩،٤٠.

١٤٤) سورة الأعراف ، من الآية :٢٧.

١٤٥) سورة فاطر ، من الآية :٦.

١٤٦) سورة المؤمنون ، الآية :١١٥.

١٤٧) سورة القيامة ، الآية :٣٦.

١٤٨) سورة الذاريات ، الآية :٥٦.

١٤٩) سورة الملك ، من الآية :٢.

١٥٠) سيد قطب : الإسلام ومشكلات الحضارة، دار الشروق، بيروت، (د.ت)، ص٤٥.

١٥١) سورة الزلزلة ، الآيتان : ٨٧

١٥٢) د. يوسف القرضاوي : الإيمان والحياة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٥، (١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م)، ص٦٣.

١٥٣) سورة الإسراء ، الآية :٧٠.

١٥٤) سورة التين ، الآية :٤.

١٥٥) سورة لقمان ، من الآية :٢٠.

١٥٦) سيد قطب : مقومات التصور الإسلامي، دار الشروق، بيروت، (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م)، ص٣٧٢.

١٥٧) د. عمر فروخ : كلمة في تعليل التاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م)، ص ٥.

١٥٨) مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي،

ترجمة : عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط ٥، (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م)، ص ٣٢.

١٥٩) سورة البقرة ، من الآية :١٤٣.

١٦٠) د. عماد الدين خليل : حول إعادة تشكيل العقل المسلم، ص ١٠٣.

١٦١) انظر : جودت سعيد؛ العمل قدرة وإرادة، ص ٧٩.

١٦٢) التهانوي : موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ج ١، مادة الإرادة، ص ١٣١- ١٣٢.

١٦٣) د. ماجد عرسان الكيلاني : مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح، ص ١٠٢.

١٦٤) سورة البقرة ، من الآية :٢٥٦.

١٦٥) انظر : محمد بحر العلوم؛ عيوب الإرادة في الشريعة الإسلامية، دار الزهراء للطباعة، بيروت، ١٩٨٤، ص ٢٥.٢٤.

١٦٦) سورة البقرة ، من الآية :٢٨٦.

١٦٧) سورة الكهف ، من الآية :٢٩.

١٦٨) سورة الإنسان ، الآية :٣.

١٦٩) نخبة من الباحثين العراقيين : حضارة العراق، ج ١، ص ١٠.

١٧٠) سورة الشمس ، الآيتان :١٠.٩.

١٧١) انظر : ص ٢٣٦، من هذا الفصل.

١٧٢) انظر : السيد محمد باقر الصدر : المدرسة القرآنية، ص ١٤٠.

١٧٣) سالم القمودي : التغيير، الدار الجماهيرية، بنغازي، (د.ت)، ص ٤٥.

١٧٤) سالم القمودي : المرجع نفسه ، ص ٤٧.

١٧٥) مالك بن نبي : تأملات، دار الفكر، دمشق، ط ٥، (١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م)، ص ١٢٩.

١٧٦) سورة الرعد ، من الآية :١١.

١٧٧) أحمد أمين : فجر الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ١١٩.

١٧٨) ابن هشام : السيرة النبوية، القسم الأول، ص ٣٣٦.

١٧٩) انظر: محمد صالح جعفر الظالمي؛ من الفقه السياسي في الإسلام، منشورات دار مكتبة الحياة،بيروت،١٩٧٩م، ص ٣٤.

١٨٠) سيد قطب : مقومات التصور الإسلامي، ص ٣٦٢.

١٨١) انظر : السيد محمد باقر الصدر؛ المدرسة القرآنية ، ص ١٤٥.

١٨٢) مالك بن نبي ؛ ميلاد مجتمع ، ص ٧٣.

١٨٣) سورة الانشقاق ، الآية :٦.

١٨٤) أحمد حسين : الطاقة الإنسانية، منشورات المكتبة المصرية، بيروت، ط ٣، ١٩٧٠، ص ٢٣٨.

١٨٥) د. عبد الحليم عويس : تفسير التاريخ علم إسلامي، ص ٢١٧.

١٨٦) سورة الإسراء ، من الآية :٨٤.

١٨٧) سورة التغابن ، من الآية :٢.

١٨٨) سورة الزمر ، من الآية :٩.

١٨٩) سورة الصافات ، من الآية :١١٣.

١٩٠) عبد اللطيف شرارة : الفكر التاريخي

في الإسلام ، ص٨٩

١٩١) سورة القصص ، الآية :٤.

١٩٢) سورة الأعراف ، من الآية :١٣٧.

١٩٣) سورة العلق ، الآيتان :٦.٧.

١٩٤) محمد قطب : التطور والثبات في حياة البشر، دار الشروق، بيروت، ط ٤، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م)، ص١٧٥.

١٩٥) سورة الزمر ، الآيتان :١٧.١٨.

١٩٦) محمد تقي مصباح : النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ، ص٦١.

١٩٧) محمد قطب : الإنسان بين المادية والإسلام، دار الشروق، بيروت، ط٦، (١٤٠٠هـ .١٩٨٠م)، ص١١١.

١٩٨) محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة، دار الكتاب الإسلامي، قم - إيران، (د.ت)، ص٤٧٨.

١٩٩) محمد تقي مصباح: النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ، ص٥٤، نقلا عن: م. بوشنسكي : مقدمة أي بر فلسفة، ترجمه إلى اللغة الفارسية؛ محمد رضا باطني، دار النشر الجديدة، إيران، ص١٢٩.

٢٠٠) انظر : محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ، ص٤٧٨.

٢٠١) الشيخ مرتضى المطهري : المجتمع والتاريخ، ص٢٨.٢٩.

٢٠٢) د. حسين عبد الحميد أحمد رشوان : ميادين علم الاجتماع ومناهج البحث العلمي، ص٣٣.

٢٠٣) انظر ص ١٩٢ من هذه الرسالة.

٢٠٤) إدوارد كار : ما هو التاريخ؟ ، ص٣٣.

٢٠٥) د. عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ، ص١٦٦.

٢٠٦) انظر دينكن ميتشيل : معجم علم الاجتماع، ترجمة ومراجعة: د.إحسان محمد الحسن، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١،ص١٩٠.١٩٢.

٢٠٧) محمد تقي مصباح : النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ، ص٣٧٧.

٢٠٨) سورة البقرة ، من الآية :٢٥٧.

٢٠٩) سورة إبراهيم ، من الآية :١.

٢١٠) سورة الحديد ، من الآية :٩.

٢١١) سورة الطلاق ، من الآية :١١.

٢١٢) سورة آل عمران ، الآية :١٠٣.

٢١٣) انظر : معجم علم الاجتماع ، ص٢٢٦.

٢١٤) سورة الأنفال ، من الآية :٥٣.

٢١٥) سورة الرعد ، من الآية :١١.

٢١٦) انظر : السيد محمد باقر الصدر ؛ المدرسة القرآنية ، ص١٤٣.

٢١٧) جماعة العلماء : رسالتنا، الدار الإسلامية، بيروت، (١٤٠١هـ .١٩٨١م)، ص ١٠٠.

٢١٨) د. حسين مؤنس : الحضارة، ص٣٦٦.

٢١٩) د. سيار الجميل : المجايلة التاريخية، فلسفة التكوين التاريخي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ١٩٩٩م،ص١٢٣ .

٢٢٠) ابن خلدون : المقدمة، ص٩٥.

٢٢١) مالك بن نبي : ميلاد مجتمع، ص١٥.

٢٢٢) شوقي جلال : التراث والتاريخ ، ص٧٤

٢٢٣) د. عمر فروخ : كلمة في تعليل التاريخ، ص٣٣.

٢٢٤) د. عمر فروخ : المرجع نفسه، ص١٠.

٢٢٥) سورة الأنعام ، الآية :٨٢.

٢٢٦) سورة فصلت ، الآيات :٣٠.٣١.٣٢.

٢٢٧) سورة الأعراف ، الآية :٩٦.

٢٢٨) انظر : د. يوسف القرضاوي ؛ الإيمان والحياة، ص٢٦٥.

٢٢٩) انظر : محمد قطب ؛ حول التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية، ص٤٢ .

٢٣٠) د. محمد عبد المنعم خفاجي : فلسفة التاريخ الإسلامي، دار الجيل، بيروت، (١٤١٢هـ.١٩٩٢م)، ص١٠٨.

٢٣١) د. نور الدين حاطوم وزملاؤه : موجز تاريخ الحضارة، ص٣٩.

٢٣٢) برهان غليون : اغتيال العقل ، ص٣٣٠.

٢٣٣) د. عبد الكريم بكار : من أجل انطلاقة حضارية شاملة، ص١٣٤.

٢٣٤) د. عبد الرحمن مرحبا : الموجز في تاريخ العلوم عند العرب، ص٢١٤.

٢٣٥) محمد قطب : الإنسانية بين المادية والإسلام، ص٦٤.

٢٣٦) سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الشروق، بيروت، الطبعة الشرعية الثامنة، (١٤٠٢هـ.١٩٨٢م)، ص٧٥.

٢٣٧) ول ديورانت : قصة الحضارة، ترجمة: د. زكي نجيب محمود، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ج١، ص٣.

٢٣٨) د. حسين مؤنس : الحضارة، ص٣١.

٢٣٩) ابن خلدون : المقدمة ، ص٦٤.

٢٤٠) أحمد الشحاتي : تفسير التاريخ «أو فلسفة التاريخ» ، ص٣٤.

٢٤١) سورة الفرقان ، الآية :٦٢.

٢٤٢) سورة النور ، الآية :٤٤.

٢٤٣) سورة المزمل ، من الآية :٢٠.

٢٤٤) سورة يونس ، الآية :٤٥.

٢٤٥) سورة الروم ، الآية :٥٥.

٢٤٦) سورة المعارج ، الآية :٤.

٢٤٧) سورة هود ، من الآية :٧.

٢٤٨) سورة فصلت ، من الآية :١٠.

٢٤٩) سورة فصلت ، من الآية :١٢.

٢٥٠) سورة الليل ، الآيات :١.٤.

٢٥١) سورة الشمس ، الآيات :١.٨

٢٥٢) سورة العصر ، الآيتان :١.٢.

٢٥٣) سورة الإسراء ، الآية :٧٨.

٢٥٤) سورة التوبة ، الآية :٣٦.

٢٥٥) سورة البقرة ، الآية :٢٣٤.

٢٥٦) سورة البقرة ، من الآية :١٩٦.

٢٥٧) سورة المائدة ، من الآية :٢٦.

٢٥٨) سورة الأعراف ، من الآية :١٤٢.

٢٥٩) سورة نوح ، الآية :٥.

٢٦٠) سورة هود ، من الآية :٦٥.

٢٦١) سورة يوسف ، الآية :٤٢.

٢٦٢) سورة الكهف ، الآية :٢٥.
٢٦٣) سورة فصلت ، من الآية :١٦.
٢٦٤) سورة سبأ ، من الآية :١٨.
٢٦٥) سورة الحاقة ، من الآية :٧.
٢٦٦) سورة القدر ، الآية :١.
٢٦٧) حسين بركة الشامي : الزمن في حركة العاملين، دار الإسلام للدراسات والنشر، لندن، (١٤١٣هـ.١٩٩٣م)، ص١٨.
٢٦٨) محمد عبد المنعم خفاجي : فلسفة التاريخ الإسلامي، ص٣٥.
٢٦٩) د. عفت الشرقاوي : في فلسفة الحضارة الإسلامية، دارالنهضةالعربية، بيروت،ط٤،(١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م)، ص٢٨.
٢٧٠) د. عبد الحليم عويس : تفسير التاريخ،علم إسلامي، ص٢٢٩.
٢٧١) د. سيار الجميل : المجايلة التاريخية، ص٤٥٣.
٢٧٢) د. جميل صليبا : المعجم الفلسفي، ج١، ص٦٣٦.
٢٧٣) التهانوي : موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، مادة الزمان، ج١، ص٩٠٩.
٢٧٤) د. عبد الرحمن بدوي : موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت(د.ت)، ج١، ص٥٥٥.
٢٧٥) د. محمد عبد الهادي أبو ريدة : رسائل الكندي الفلسفية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٧٨، ص١٤٨.
٢٧٦) انظر : محمد عبد الهادي أبو ريدة ؛ المرجع نفسه، ص١٥٥.
٢٧٧) سورة الحديد ، من الآية :٣.
٢٧٨) الآلوسي: تفسير روح المعاني، ج٢٧، ص٢٥٤.
٢٧٩) العلامة المجلسي : بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط٢، (١٤٠٣هـ.١٩٨٣م)، ج ٣، ص٢٨٣.
٢٨٠) د. محمد الصادقي : حوار بين الإلهيين والماديين، انتشارات فرهنك إسلامي، طهران ـ إيران، ط٢، ١٤٠٧هـص٢٥٨ .٢٥٩.
٢٨١) د. محمد الصادقي : المرجع نفسه ، ص ١٩٧.
٢٨٢) د. عبد الكريم بكار : نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي، الدار الشامية، بيروت، (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م)، ص٤٧.
٢٨٣) د. سيار الجميل : المجايلة التاريخية ، ص٤٥.
٢٨٤) مجموعة باحثين : فكرة الزمن عبر التاريخ، كتاب عالم المعرفة رقم .١٥٩ـ إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، (شعبان / رمضان، ١٤١٢هـ ـ مارس / آذار، ١٩٩٢م)، ص٢٢.
٢٨٥) الشيخ محمد مهدي شمس الدين : حركة التاريخ عند الإمام علي، ص٥١.
٢٨٦) سورة الرحمن ، الآية :٢٩.
٢٨٧) الشيخ محمد جواد مغنية: التفسير المبين : ص٧١٠.
٢٨٨) تفسير القرطبي : ج١٧، ص١٠٩.

٢٨٩) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: تفسير الأمثل : ج١٧، ص ٣٧٠.
٢٩٠) انظر : فرانسيس فوكوياما : نهاية التاريخ، ترجمة وتعليق: د. حسين الشيخ، دار العلوم العربية، بيروت، (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م)، ص٩.
٢٩١) سورة العنكبوت ، الآية :٢٠.
٢٩٢) سورة يونس ، من الآية :٣٤.
٢٩٣) سورة المؤمنون ، الآية :١٦.
٢٩٤) سورة الأنعام ، من الآية :٣٦.
٢٩٥) د. عفت الشرقاوي : في فلسفة الحضارة الإسلامية ، ص٢٦٤.
٢٩٦) د. عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص١٤.
٢٩٧) سورة القصص ، من الآية : ٨٣
٢٩٨) مالك بن نبي : شروط النهضة، دار الفكر، دمشق، (١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م)، ص١٤٠.
٢٩٩) ابن خلدون : المقدمة، ص١١٨.
٣٠٠) شوقي جلال : التراث والتاريخ، ص ٣٣٧.
٣٠١) سورة النحل ، من الآية :١٢٠.
٣٠٢) سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد ٤ ، ص ٢٣٠١.
٣٠٣) سورة النحل ، الآية :١٢٣.
٣٠٤) سورة الأحزاب ، من الآية :٢١.
٣٠٥) حسين بركة الشامي : الزمن في حركة العاملين ، ص١٧١.
٣٠٦) سورة آل عمران ، من الآية :١٦٩.
٣٠٧) رواه جرير : صحيح مسلم ، ج٢، كتاب الزكاة، ص٧٠٤، رقم١٠١٧.
٣٠٨) انظر : د. محمد علي الجندي : إشكالية الزمان في فلسفة الكندي، رؤية معاصرة، مكتبة الزهراء، القاهرة، (١٤١٢هـ ـ ١٩٩١ م)، ص٥٩. محمد تقي مصباح: المنهج الجديد في تعليم الفلسفة، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، ١٤٠٩هـ ،ج٢،ص ١٥٩.
٣٠٩) قسطنطين زريق : نحن والتاريخ، ص ٥٠.

الفصل السادس

ملامح حركة التاريخ

في القرآن الكريم

أولا: طبيعة الرؤية القرآنية لحركة التاريخ

كي تتبلور بوضوح الرؤية القرآنية لحركة التاريخ، لابد من الإشارة - في البدء - إلى أهم الاتجاهات الرؤيوية المعاصرة لها. فهناك ثلاثة اتجاهات علمية معاصرة، في فهم وتفسير حركة التاريخ:

الاتجاه الأول:

التفسير المثالي، الذي ينفي إمكان فهم وتفسير التاريخ، على أساس قانون العلية. إذ من غير الممكن - لدى أصحاب هذا الاتجاه - أن يخضع الحدث الاجتماعي والتاريخي لقانون العلية، بالطريقة نفسها التي تخضع بها القضايا الطبيعية، بما في هذا القانون من الحتمية والتعميم[1].

«فالطبيعة والتاريخ على حد تعبير هيجل موضوعان متمايزان، وبحسب مقولة لوتزه: «الطبيعة عالم الحتمية، والتاريخ عالم الحرية»... وإذا كانت الطبيعة تحددها مقولات: المادة والمكان والعلية، فإن مقولات التاريخ هي: الإنسان - المكان - الزمان - الفردية»[2].

ولذا فساحة الطبيعة بما تزخر به من وقائع وأحداث تخضع «للحتمية والتعميم»، وهما يتفرعان على «مبدأ العلية». أما الساحة التاريخية فليس كذلك، وينبغي أن تدرس عبر أفعال الإنسان التي لا تخضع للجبرية؛ «لأن الإنسان ينعم بالحرية، ولا يخضع بالتالي إلى

منطق الحتمية، الذي يعني أن جميع سبل الاختيار أمام شخصيات التاريخ كانت مغلقة بحيث أصبح من المتعذر إمكان تصور سلوك آخر أو اتجاه آخر، أو اتجاه للوقائع غير الوجهة الفعلية التي انتهت إليها. وبناء على ذلك يرى المثاليون خطأ استخدام كلمات مثل: لم يكن هناك مفر من ..، أو لم يكن هناك مناص من ..، أولم يكن ممكنا تجنب..؛ لأنها كلمات تفيد خضوع أفعال الإنسان للقسرية القاسية»[٣].

هكذا تبدو - في نظرهم - حرية النشاط الإنساني، هي القوة الأساسية التي تتحكم في حركة التاريخ، وبالتالي تمنع الحتمية والاطراد فيه، وهو ما يؤكده الفيلسوف والمنطقي النمساوي - الإنجليزي الشهير كارل بوبر (المولود عام ١٩٠٢م) بقوله: «إن الاطرادات الاجتماعية تختلف اختلافا بينا عن نظيراتها في العلوم الطبيعية. إذ أنها تختلف من فترة تاريخية لأخرى، والنشاط الإنساني هو القوة التي تعمل على تغييرها، فإن الاطرادات الاجتماعية ليست من قبيل الطبيعة، وإنما هي من صنع الإنسان؛ ورغم أنه يمكن القول باعتمادها على الطبيعة الإنسانية، إلا أن هذا الاعتماد راجع إلى ما للطبيعة الإنسانية من قدرة على تغييرها؛ بل التحكم فيها»[٤].

ويقول برتراند راسل: «أعتقد أن القوانين (العلية) في التاريخ ليس لها من الأهمية ما يعزى لها، ولا هي قابلة للكشف كما يزعم»[٥].

وخلاصة القول: إن دعاة المثالية - أصحاب هذا الاتجاه - ينفون خضوع حركة التاريخ؛ لمبدأ العلية، وإن كانوا لا ينكرون هذا المبدأ في نطاق الأمور الطبيعية والحيوية، الجارية في الساحة الكونية. وبذلك ينفون إمكانية التنبؤ بأحداث التاريخ المستقبلية، كما يمكن التنبؤ بالأحداث الكونية، مثل الزلازل، وهطول المطر، وأوضاع الكواكب، والكسوف والخسوف. والسبب في ذلك هو وجود العنصر الإنساني في مجرى التاريخ، والتعقيدات التي ترافق حضور الإنسان في حركة التاريخ، مما يجعل التطبيق لقانون العلية والتنبؤ بالأحداث المستقبلية بموجب هذا القانون عسيرا جدا[٦].

الاتجاه الثاني:

التفسير الوضعي، الذي يتبنى عكس رؤية الاتجاه المثالي الأول. ويعتقد بأن حركة

التاريخ خاضعة «للحتمية والتعميم»؛ لاعتبارها محكومة «لمبدأ العلية»، «وأن القوانين الاجتماعية والتاريخية ضرورية وجبرية، وهي تشبه تماما القوانين الطبيعية والفيزيائية من حيث ضرورتها وحتميتها»[٧]. وبذلك تصبح حركة التاريخ وفق هذا الاتجاه، «لا تزيد على الآلية التي يتحكم فيها قانون العلية بشكل مطلق، ولا يوجد ثمة عامل آخر غير عامل الحتمية العلية. وعجلة التاريخ تتحرك كما تتحرك عجلة أي جهاز ميكانيكي، بموجب قوانين حتمية»[٨].

إذن حركة التاريخ ـ بحسب زعم أصحاب هذا الاتجاه ـ تنطلق وفق حتمية صارمة لا تقبل التوقف. وقد اختلفت هذه الحتميات التاريخية بحسب منطلقاتها إلى ثلاثة حتميات كما يلي:

١. الحتمية الاقتصادية:

ويفضل الماركسيون تسميتها «التفسير الاقتصادي للتاريخ»، لأن العامل الاقتصادي، هو المحرك الأساسي للتاريخ. وخلاصة ما تدعيه النظرية الماركسية في هذا المجال هو «أن المراحل التاريخية حتمية، وترتيبها كذلك حتمي. وإنه لا يمكن لأي مجموعة من البشر أن تسبق طورها التاريخي؛ لأن كل طور له أداة مادية اقتصادية يتم التحول عن طريقها، فلا يمكن التحول دون وجود هذه الأداة، فلابد أن يمر البشر بالمراحل التاريخية الخمس بصورة حتمية: من الشيوعية الأولى إلى الرق إلى الإقطاع إلى الرأسمالية إلى الشيوعية الثانية»[٩].

هكذا يكون التاريخ محكوما للعامل الاقتصادي، كما يقول بليخانوف: «فالوضع الاقتصادي لشعب ما، هو الذي يحدد وضعه الاجتماعي، والوضع الاجتماعي لهذا الشعب يحدد بدوره وضعه السياسي والديني، وهكذا دواليك»[١٠].

٢. الحتمية الاجتماعية:

هي النظرية التي تدعي حتمية وجبرية القوانين الاجتماعية في حركة التاريخ، وأنها تشبه تماما حتمية وجبرية القوانين في الطبيعة. فالمجتمع يمارس سلطته الضرورية على

حياة الفرد، وليس بمقدوره الانفلات عن حاكمية المجتمع. وذهب الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي الشهير آميل دوركهايم (١٨٥٨-١٩١٧م)، إلى الاعتقاد بهذه النظرية، وأن الظواهر الاجتماعية هي من معطيات المجتمع وليس من أفكار الأفراد وإرادتهم. فمنذ أن يولد الفرد«يجد نفسه محاطا بأحكام وقوانين اجتماعية قسرية، لا يستطيع تغييرها أو التقليل منها. والشيء الوحيد الذي يستطيع الفرد القيام به،هو إطاعة هذه القوانين والاستسلام إلى أوامرها ونصوصها دون أي تردد أو تأخر، وإلا لا يمكن أن يكون الفرد مقبولا من لدن الجماعة ومنطويا تحت لوائها» (١١). وهكذا تفرض الحتمية نفسها على عموم الأفراد، وبالتالي «فالمجتمع علة كل أعمال وحالات أفراده» (١٢).

٣. حتمية الدورات التاريخية:

هو الاتجاه الذي يرى وجود نظام خارجي أكثر شمولا من كل الأحداث والوقائع التاريخية، التي يمكن تناولها بالوصف، وقد عبر الروسي نيقولاي دانيليفسكي (١٨٢٢-١٨٨٥م)، عن هذا النظام الذي يحكم حركة التاريخ، بقوله: «إن الحركات التاريخية لا تخضع في سيرها للخطط البشرية المقصودة، وإنما تخضع للغرائز التاريخية اللاواعية» (١٣). وكان المؤرخ اليوناني ثوكوديدس أول من أشار إلى مفهوم الدورات التاريخية عندما قال: «إن التاريخ يجري في دورات بحيث تعود الأحداث السابقة من جديد وتترتب عليها النتائج نفسها التي حدثت من قبل» (١٤).

أما الفيلسوف الألماني شبنجلر (١٨٨٠ - ١٩٣٦م)، الذي يمثل عودة الفلسفة الطبيعية، بما تستند إليه من منهاج البحث الموضوعي، فقد فسر التاريخ في خلال البعد البيولوجي، «فالتاريخ في نظر شبنجلر يتكون من كائنات حية هي الحضارات، وتاريخ كل حضارة كتاريخ الكائن العضوي؛ يولد ثم ينمو وأخيرا يموت» (١٥). وهو وإن كان قد رفض استخدام مقولة العلية في التاريخ، ولكنه استبدلها بمقولة رآها أكثر ملائمة لفهم التاريخ، وهي مقولة المصير (١٦).

إذن ما يراه دعاة الاتجاه الوضعي، هو أن حركة التاريخ، تجري بموجب قوانين حتمية، تعمل بعيدا عن إرادة الإنسان، وبحسب مقولة بليخانوف: «ما دامت جميع

الحوادث الإجتماعية محددة بالضرورة، فليس لعملنا أي اعتبار»[١٧].وبذلك فإن هناك إمكانية التنبؤ بمستقبل حركة التاريخ بصورة يقينية جراء هذه الحتميات التاريخية. فالمؤرخ يفسر الحدث التاريخي «كما يفسر الجيولوجي وقوع زلزال، إنه يبين أن شيئا ما لم يقع مصادفة، وإنما وفقا لظروف معينة، وليست التنبؤات في التاريخ غيبية ولكنها علمية قائمة على أسس قانونية»[١٨].

الاتجاه الثالث:

وهو الاتجاه الذي يسهم عنصر الإرادة الإنسانية، ومبدأ العلية «الحتمية والتعميم» في بناء حركة التاريخ. فيقيم حركة التاريخ على أساسين فقط، هما إرادة الإنسان وقانون العلية، وينفي حضور المشيئة الإلهية فيها، وبالتالي تكون حركة التاريخ خاضعة لإرادة الإنسان، وفي استطاعته أن يوجه الحتمية العلية بالشكل الذي يريد، دون أن يكون للمشيئة الإلهية حضور فيها. وليس بالضرورة أن ينكر أصحاب هذا الاتجاه وجود الخالق لهذا الكون، وما فيه من سنن وقوانين، ولكنهم ينفون حضور المشيئة الإلهية، كعامل أساسي في تحرك التاريخ.[١٩]

ويأتي هذا الاتجاه ردا على مفهوم العناية الإلهية في تفسير التاريخ، الذي يقول أنصاره: «التاريخ مسرحية ألفها الله ويمثلها الإنسان»[٢٠]، أي: أن حركة التاريخ تخضع بتمامها للمشيئة الإلهية، وليس لإرادة الإنسان أي دور فيها؛ بل هو جزء من هذا الكون، ويجري عليه ما يجري على الكون من قوانين. وسادت هذه الفكرة معظم الحضارات القديمة، ثم اتخذت طابعا مسيحيا بعد قيام المسيحية، وتبلورت بشكل أكبر لدى أبرز فلاسفة اللاهوت المسيحي، القديس سان أوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠ م) وتعرضت نظرية العناية الإلهية إلى نقد كبير من قبل رجال الكنيسة الأوربية ومن الفلاسفة أيضا، فقد قال الأب دارسي: «لن يكون مجديا لو أن طالبا ما أجاب على كل سؤال يتعلق بالتاريخ بقوله: إن يد الله كانت وراء ما حدث. فليس مسموحا أن نستعين باعتبارات أوسع قبل أن نمضي إلى أبعد مسافة ممكنة في مجال ترتيب الأحداث الدنيوية والدراما الإنسانية. وقد سبقه بوليبوس إلى هذا الموقف بقوله: حيث يكون ممكنا إيجاد سبب لما يحدث، فلا ينبغي

للمرء أن يلتجئ إلى الآلهة. إن الخرق في وجهة النظر هذه، هو أنها تبدو وكأنها تعتبر الدين - الجوكر - في لعبة الورق الذي ينبغي الاحتفاظ به للحيل المهمة التي لا سبيل إلى حلها بوسيلة أخرى»[٢١].

وكذلك انتقد المؤرخ الفرنسي فولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨ م)، مفهوم العناية الإلهية كأساس لتحديد مسار التاريخ... وخلص إلى القول: إن الله خلق العالم وفقا لقوانين ثابتة لا علاقة لها بأفعال الإنسان من خير أو شر. وإن الله منح الإنسان العقل ليحسن استخدامه من أجل سعادته وسعادة الآخرين، ومن ثم فإن التاريخ لا يسير وفقا لمفهوم العناية الإلهية لدى اللاهوتيين وإنما بمقتضى العقل البشري نحو الأفضل والأحسن[٢٢].

هكذا تبين: أن رد الفعل من نظرية العناية الإلهية، دفع بأصحاب الاتجاه الثالث إلى إلغاء دور المشيئة الإلهية عن حركة التاريخ، وإخضاع هذه الحركة إلى إرادة الإنسان وفعل القوانين التي خلقها الله تعالى. وهو الاتجاه المنحرف الذي ساد الفكر اليهودي عبر التاريخ، الذي ادعى بأن الله سبحانه قد خلق الخلق، وفرغ منه، وهو غير قادر على أن يحدث فيه شيئا آخر، أو يغير الخلق بما يشاء. فقد ذكر الشهرستاني: «وقد أجمعت اليهود عن آخرهم على أن الله تعالى لما فرغ من خلق السماوات والأرض استوى على عرشه مستلقيا على قفاه واضعا إحدى رجليه على الأخرى»[٢٣].

وجاء في سفر التكوين، الأصحاح الثاني: «وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدسه. لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقا»[٢٤]. ولهذا فيوم السبت مقدس تجب فيه الراحة عندهم.

وقد كذب القرآن الكريم هذه المقولة اليهودية الباطلة، فقال تعالى:

﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾[٢٥]

وفسر الإمام جعفر الصادق(عليه السلام) قول الله عزوجل: **﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾**، قال: «قالوا: قد فرغ الله من الأمر، لا يحدث غير ما قدره في التقدير الأول، فرد الله عليهم فقال: **﴿يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾** أي: يقدم ويؤخر، ويزيد وينقص»[٢٦].

وقال الرازي في تفسير هذه الآية: «لعله كان فيهم ـ اليهود ـ من كان على مذهب الفلسفة، وهو أنه تعالى موجب لذاته، وأن حدوث الحوادث عنه لا يمكن إلا على نهج واحد وسنن واحدة، وأنه تعالى غير قادر على إحداث الحوادث على غير الوجوه التي عليها تقع، فعبروا عن عدم الاقتدار على التغيير والتبدل بغل اليد»(٢٧).

فاليهود ينفون حضور المشيئة الإلهية في حركة التاريخ، وإنما يخضعونها لإرادة «يهوه» الذي يمثل الإرادة اليهودية في التاريخ، «فيهوه ليس خالقا لهم، وإنما هو مخلوق لهم، وهو لا يأمرهم؛ بل يسير على هواهم وكثيرا ما يأتمر بأمرهم، وفي يهوه صفاتهم الحربية إن هم حاربوا، وصفات التدمير لأنهم مدمرون»(٢٨).

وبذلك اتخذت نظرية العناية الإلهية معنى آخر عند اليهود، «إذ ليس للإنسان دور ثانوي بالنسبة للكون تسري عليه أحكامه كما كان تصور الحضارات القديمة... لقد أصبح للإنسان وضع متمايز عن الكون. فعالم الطبيعة مظهر لقدرة الله، بينما عالم الإنسان مظهر لعنايته، ولكن العبرانيين لا يعنون بذلك مطلق الإنسان في كل زمان ومكان، وإنما العناية الإلهية مقصورة على شعب الله المختار؛ أحداث التاريخ لا تتكرر ولا تتعاقب، ولكنها تتخذ مسارا مستقيما لتستكمل غرض ‹يهوه›كما وعدهم: العود إلى أرض الميعاد»(٢٩).

هذه هي أهم الاتجاهات الرؤيوية المعاصرة لحركة التاريخ، وقد لاحظنا حالة الاضطراب والتخبط في طبيعة نظرتها إلى حضور المشيئة الإلهية، وإرادة الإنسان ودوره، وأثر قانون العلية في حركة التاريخ:

فالاتجاه الأول غالى كثيرا في حرية الإنسان وإرادته، وشكك في دور قانون العلية في حركة التاريخ. أما الاتجاه الثاني، فقد شكك في قدرات الإنسان، وسلبه دوره في حركة التاريخ، وحوله إلى آلة طيعة بيد الحتميات التي لا تقهر. وفي الاتجاه الثالث، نجد تطرفا واضحا في إقصاء دور الرعاية والمشيئة الإلهية عن حركة التاريخ. وما سبب ذلك إلا للابتعاد عن هدي الوحي الإلهي الذي فيه الصواب والسداد.

﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنا تصرفون﴾(٣٠)

الرؤية القرآنية لحركة التاريخ:

يقيم القرآن الكريم رؤيته لحركة التاريخ على ثلاثة أسس رئيسة:

مبدأ العلية.

الإرادة الإنسانية.

المشيئة الإلهية.

و فيما يأتي نجمل القول فيها:

١. مبدأ العلية في حركة التاريخ:

ويعتبر من المبادئ العقلية الضرورية، وبدونه يتعذر الوصول إلى معرفة أي حقيقة علمية في أي حقل من حقول المعرفة. فالإنسان بفطرته يدرك أن لكل حادث علة موجبة له، ولا قيمة للمصادفة في ميزان العقل السليم[٣١]. وإنما يفسر ما يحدث في هذا الكون وفق منطق العلية وقوانينها.يقول تعالى:

﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾[٣٢]

﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون﴾[٣٣]

إن الواقع العلمي عبر التاريخ الإنساني يعلل الحوادث والأمور بأسبابها المتناسقة معها. والتمعن في آيات القرآن الكريم، التي تتحدث عن الكون والحياة والإنسان، وما يتعلق بها من بدء الخلق ونهايته، والموت والحياة، والرزق، وما يصيب الإنسان من خير أو شر، كل ذلك يمنح الإنسان رؤية تركيبية واضحة للربط بين الأسباب والمسببات، «فالقرآن يحكم بصحة قانون العلية العامة بمعنى أن سببا من الأسباب إذا تحقق مع ما يلزمه ويكتنف به من شرائط التأثير من غير مانع؛ لزمه وجود مسببه مترتبا عليه بإذن الله سبحانه، وإذا وجد المسبب كشف ذلك عن تحقق سببه لا محالة»[٣٤]. ويمكن تلخيص أهم قوانين العلية بما يلي:

أ ـ مبدأ العلية القائل: إن لكل حادثة سببا.

ب ـ قانون الحتمية، القائل: إن كل سبب يولد النتيجة الطبيعية له، بصورة ضرورية، ولا يمكن للنتائج أن تنفصل عن أسبابها.

ج ـ قانون التناسب، بين الأسباب والنتائج، القائل: إن كل مجموعة متفقة في حقيقتها، من مجاميع الطبيعة، يلزم أن تتفق أيضا، في الأسباب والنتائج[٣٥]. وهو ما يعرف (بالتعميم أو العمومية) لانطباقها على كل أفراد المجموعة، في الظروف والحالات المتشابهة. كما أن (الحتمية والتعميم) متفرعان على مبدأ العلية.

إن هذا الوجود كله، من الذرة حتى أكبر الكواكب والمجرات، بحركته وسكونه، وتغيراته وتقلباته من حال إلى حال؛ خاضع لإرادة الله تعالى، يجري وفق مشيئته الحكيمة، لا يفلت عن قبضته؛ بل هو كما قال تعالى:

﴿وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون﴾[٣٦]

وشاء الله تعالى أن يسير كل ما في الكون وفق سنن وقوانين محكمة. وحركة التاريخ لا يمكن استثناؤها عن قانون العلية؛ بل تجري وفق سنن وقوانين إلهية ثابتة.

ففكرة أن «القانون يحكم التاريخ... تلك هي المقولة التي لم يكن قد كشف النقاب عنها قبل نزول القرآن الكريم»[٣٧].

غير أن هذه (الحتمية العلية) السارية في الوجود، خاضعة للمشيئة الإلهية المطلقة، قائمة بأمره، فرضها الله تعالى لتأخذ الحياة طابعها العلمي والموضوعي؛ وليتمكن الإنسان من تسخير ما في الكون؛ بمعرفة واكتشاف هذه السنن والقوانين المطردة.

فقانون العلية رغم حتميته قابل للتوقف عندما يشاء الله تعالى ذلك. «و لقد كان من أجل الدروس التي علمها الله للمؤمنين من عباده على أيدي أنبيائهم جميعا هو درس خرق قاعدة الاطراد حتى لا يقع المؤمنون تحت تأثير الجبرية المادية كما وقع غيرهم»[٣٨]. وما حصل لخليل الله، إبراهيم (عليه السلام)، من إخماد تلك النار الموقدة، إلا دليل على انقياد هذه السنن والقوانين، وتحطم حتميتها أمام إرادة خالقها العظيم. فقد جمع الناس له الحطب وأضرموا فيه النار:

﴿قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾[٣٩]

وكان إبراهيم (عليه السلام) يؤمن بأن النار خاضعة لإرادة الله تعالى، وليس الإحراق لها طبيعة دائمة لا تنفك عنها، إنما هي طبيعة مودعة، أمانة فيها، إذا أراد أطلق لها العنان، وإذا أراد أمسك الزمام، وحولها إلى برد وسلام، فخاضها مؤمنا مطمئنا واثقا، وهكذا كان[٤٠]:

﴿قلنا يانار كوني بردا وسلاما على إبراهيم (٦٩) وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين﴾[٤١]

٢. الإرادة الإنسانية:

وهي الأساس الثاني الذي تعتمده الرؤية القرآنية لحركة التاريخ. والإنسان كائن فريد متميز بخصائصه بين الكائنات الحية، قد وهبه الله تعالى قدرة الإرادة وحرية الاختيار[٤٢]. وهو الذي يصنع التاريخ ويحركه تبعا لإرادته واختياره، دون أن تختل معادلة حتمية السنن والقوانين التاريخية. فكما أن السيارة تسير بموجب حتمية قوانين الكهرباء والميكانيكا، إلا أن السائق بإرادته واختياره يتحكم في مسيرها بشكل دقيق، دون إخلال أو تعطيل لحتمية قانون العلية الذي تسير بموجبه؛ بل هناك انسجام وتناغم بين إرادة السائق واختياره، وبين سلسلة العلل والأسباب المحركة للسيارة. فالسائق يوجه حركة السيارة كيفما يريد، وحتمية العلل والأسباب تساعده وتنفذ إرادته في حركتها، دون أن يكون هناك تضاد أو تنازع بينهما.

والقرآن الكريم يفيض بالآيات المباركة، التي تؤكد بأن الإرادة الإنسانية، عنصر أساسي في حركة التاريخ، وأن قرار هذه الإرادة سواء كان في اتجاه الخير أو الشر، هو الذي يصنع التاريخ، خلال فعل الإنسان وعمله، يقول تعالى:

﴿فأصابهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾[٤٣]

ويقول تعالى:

﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾[٤٤]

إنه تعالى يعلن تبعة كل نفس لذاتها، ويدع للنفوس أن تختار طريقها ومصيرها، ويعلن لها أنها مأخوذة بما تكسبه باختيارها، مرهونة بأعمالها وأوزارها[٤٥]. ويقول تعالى:

﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا﴾[٤٦]

أي: وتلك القرى التي قصصنا عليك نبأهم، نحو قرى عاد وثمود ومدين وقوم لوط أهلكناهم لما ظلموا وكفروا[٤٧]. فجاء هلاكهم نتيجة حتمية للظلم والكفر الذي صدر عنهم باختيارهم وإرادتهم. ويقول تعالى:

﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى(٣٩)وأن سعيه سوف يرى(٤٠)ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾[٤٨]

﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾[٤٩]

هكذا ينسق القرآن الكريم طبيعة العلاقة بين حتمية قانون العلية في التاريخ وبين الإرادة الإنسانية الحرة «بصورة دقيقة، يربط أحدهما بالآخر ربطا محكما، ولا ينفي أيا منهما على حساب الآخر، فيقر بهذا وذاك، ويعطي المحصلة الناتجة منهما بشكل دقيق»[٥٠]. فلا حركة تاريخ منفلتة عن مبدأ العلية، ولاحتمية جبرية لحركة التاريخ، تصادر حرية الإنسان وإرادته في الحياة.

٣. المشيئة الإلهية:

تأتي على رأس العوامل المحركة للتاريخ، والمعملة للعوامل نفسها في الناس والأشياء والتاريخ[٥١]. وهي التي ترعى ما في الوجود، وتحكم ما يجري في الكون والحياة والإنسان، كما نقرأ في قوله تعالى:

﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾[٥٢]

قال الفخر الرازي: «القيوم في اللغة؛ مبالغة في القائم، وقال مجاهد: القيوم، القائم على كل شيء، وتأويله أنه قائم بتدبير أمر الخلق في إيجادهم، وفي أرزاقهم»[٥٣]. وهذه الصفة تعني إشراف الله الذي يملك العطاء والمنع في خلال ما يعلمه من استحقاق الموجودات في وجوداتها من العطاء هنا، والمنع هناك، خلال التوازن في النظام الكوني والإنساني الذي أبدعه في عمق الوجود؛ لتستمر الحياة في خلال شروطها الطبيعية، وتعني تسلطه على الأشياء، مما يعني التدبير والرعاية والحفظ في ما يستتبعه المعنى بنحو لا يكون لغيره في ما توحي به كلمة المبالغة[٥٤].

والمشيئة الإلهية تتجسد عبر معاني متعددة؛ عبر الرعاية الإلهية التي تواكب مسيرة البشرية، واللطف الإلهي بالإنسان، والتوفيق الإلهي للأخذ بيده نحو الخير والسعادة، وخلاصه من الشر والضلال، وإبعاده عن البؤس والشقاء، في دروب الحياة. وقد أشار

القرآن الكريم إلى هذا المعنى في آيات عديدة منها:

﴿ فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴾[٥٥]

﴿ ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك ﴾[٥٦]

﴿ وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾[٥٧]

﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾[٥٨]

والرعاية الإلهية هنا شيء آخر غير السنن الإلهية في التاريخ...إنها شيء ما فوق هذه السنن الحتمية، ولها أيضا أصول وقوانين، ولا تحصل اعتباطا، إلا أنها من دائرة أخرى غير دائرة السنن المعروفة[٥٩].

ولولا الحضور الإلهي الشامل والفاعل والمريد في حركة التاريخ، لسقطت الإنسانية في أحضان الطغاة والمفسدين منذ أمد بعيد، وتحول التاريخ إلى مسرح لقوى الشر والضلال في العالم. فكم شهدت حركة التاريخ من حالات السقوط الحتمي، تحت أقدام المجرمين، لولا تدخل المشيئة الإلهية في منع ذلك. فقد أقدم النمرود على إحراق إبراهيم (عليه السلام)؛ للقضاء على شعلة التوحيد في عصره، إلا أن الرعاية الإلهية، تدخلت في إحباط ذلك:

﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين(٦٨)قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم(٦٩)وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾[٦٠]

وطارد فرعون موسى (عليه السلام)وقومه؛ لاستئصالهم من أرض مصر، لولا تدخل الرعاية الإلهية وإغراق فرعون وجنوده في البحر، ونجاة موسى وقومه:

﴿ولقد مننا على موسى وهارون(١١٤) ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم(١١٥) ونصرناهم فكانوا هم الغالبين ﴾[٦١]

وعندما أراد جبابرة قريش إطفاء نور الإسلام الذي بزغ فجره في مكة المكرمة، لما تآمروا في دار الندوة على إهدار دم الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) بالاجتماع على قتله. فتدخلت العناية الإلهية، وهبط عليه الأمين جبرائيل (عليه السلام)،وأخبره بمؤامرة قريش، وأمره بالهجرة إلى يثرب. ونزل قوله تعالى:

﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله

والله خير الماكرين ﴾[٦٢]

واجتمعوا حول داره، وخرج عليهم رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه)، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه، فلا يرونه[٦٣]، وهو يقرأ الآية الكريمة :

﴿وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾[٦٤]

هكذا نخلص إلى القول: إن المشيئة الإلهية في حركة التاريخ تعمل عملها في خلال الطبيعة حينا، وفي خلال الإنسان حينا آخر، وتدفع بالقوى الروحية غير المنظورة حينا آخر، تعتمد السنن والنواميس حينا، وتخترقها بالمعجزات والخوارق حينا آخر...وتبقى إرادة الله قبل هذا كله، وبعد هذا كله، هي التي تصنع التاريخ[٦٥].

بذلك تظهر الرؤية القرآنية لحركة التاريخ، شاملة، كاملة، متوازنة، تجمع بين حتمية القوانين التاريخية، وبين إرادة الإنسان، بشكل متناسق ودقيق منضوية تحت سلطان المشيئة الإلهية التي لا تحدها حدود، دون أن تشط هذه الرؤية بواحدة منها على حساب الأخرى.

ثانيا : الدين محور حركة التاريخ

الدين والإنسان:

يولد الإنسان ويحمل معه فطرة التدين. وهي الحاجة إلى الخالق تعالى والإيمان والارتباط به. فالدين أمر غريزي مركوز داخل النفس البشرية، ليس بمقدور أحد إنكاره. ومهما انحرف الإنسان عن منهج الله تعالى، وشطت به السبل، فإنه لن يستطيع أن يبدل فطرته. قال تعالى:

﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾(٦٦)

إن هذه الآية الكريمة تقرر: أن الدين من شؤون الفطرة الإنسانية التي فطر الناس عليها جميعا، ولا تبدل لخلق الله(٦٧). ويشير إلى ذلك حديث الرسول (صلوات الله وسلامه عليه): (ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه)(٦٨). ويقول تعالى في آية أخرى:

﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾(٦٩)

إن هذا العهد الذي أخذه الله على ذرية بني آدم هو عهد الفطرة...فقد أنشأهم مفطورين على الاعتراف له بالربوبية وحده. أودع هذا فطرتهم فهي تنشأ عليه، حتى تنحرف عنه بفعل فاعل يفسد سواءها، ويميل بها عن فطرتها(٧٠).

وهناك عدة شهادات علمية تؤكد هذه الحقيقة القرآنية منها:

يقول ماكس موللر: «إن الدين قوة من قوى النفس، وخاصية من خواصها، وأن البشر بتأثير هذه القوة، وبأسماء ورموز مختلفة متعددة، تأهبوا لإدراك الأسرار الغامضة، وأن فكرة التعبد من الغرائز البشرية التي فطر عليها الإنسان، منذ نشأته الأولى»(٧١).

ويقول العالم الفرنسي هنري برجسون(١٨٥٩.١٩٤١م): «لقد وجدت وتوجد جماعات

إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات،ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة»[(٧٢)].

ويرى ديكارت: أن فكرة الله، قد غرست في الإنسان عند خلقه، ويمكن تقريب ذلك إلى الأذهان بما يفعله الفنان أو الصانع، عندما يختم صنعته باسمه[(٧٣)].

وبعيدا عن كل هذه الشهادات، فإن نظرة عابرة لتاريخ البشرية الطويل، تعطينا برهانا كافيا، على أن الاعتقاد الديني، كان ولا يزال يمثل إحدى النزعات الإنسانية الخالدة لدى عموم الأمم والشعوب، «فلو تعمقنا في التاريخ البشري، وجدنا لدى البشر على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ما يدل على أنهم كانوا يعتقدون بوجود إله لهذا الكون يرتبط بحياتهم وسائر شؤونهم، ويظهرون هذا الاعتقاد في صور مختلفة، وممارسات متنوعة تجلت في آدابهم وفنونهم وتقاليدهم، كما تشهد بذلك آثارهم وبقايا حضاراتهم وما عثر عليه في الحفريات من مخلفاتهم»[(٧٤)].

هوية علاقة الإنسان بالدين:

هناك علاقة روحية وجدانية بين الإنسان وخالقه تعالى، تتحدد بإطار الدين. وقد تباينت آراء المدارس المختلفة في تفسير ماهية علاقة الإنسان بالدين. فقد طرحت عدة فرضيات حول نشأة الدين في حياة الإنسان، منها :

١. الدين وليد الخوف

خوف الإنسان من حوادث الطبيعة المرعبة. يقول ول ديورانت: «الخوف ـ كما قال لوكريش ـ أول أمهات الآلهة، وخصوصا الخوف من الموت، فقد كانت الحياة البدائية محاطة بمئات الأخطار وقلما جاءتها المنية عن طريق الشيخوخة الطبيعية ...ثم يقول: وتعاونت عدة عوامل على خلق العقيدة الدينية، فمنها الخوف من الموت، ومنها كذلك الدهشة لما يسبب الحوادث التي تأتي مصادفة أو الأحداث التي ليس في مقدور الإنسان فهمها»[(٧٥)].

وغاب عن أصحاب هذه النظرية، أنه لو كان الدين ـ بحسب زعمهم ـ وليد خوف وحصيلة رعب، لكان أكثر الناس تدينا على مر التاريخ هم أشدهم خوفا وأسرعهم هلعا،

مع أن الذين حملوا مشعل الدين على مر الزمن كانوا من أقوى الناس نفسا وأصلبهم عودا[٧٦]. وقد أكد القرآن الكريم هذه الناحية بقوله تعالى:

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾[٧٧]

٢. الدين وليد الجهل

جهل الإنسان بأسباب الحوادث الطبيعية، كالخسوف والكسوف، والزلازل، والسيول والأعاصير. هذه الحوادث التي ليس بمقدور الإنسان أن يفلت منها. ولا يعرف أسبابها، حتى يتمكن من مواجهتها. يقول العالم البيولوجي البريطاني، جوليان هكسلي (١٨٨٧ ــ ١٩٧٥م)، الذي عني بدراسة سلوك الإنسان السيكولوجي والاجتماعي والأخلاقي: «لقد خلق العقل الإنساني الدين، وأتم خلقه، في حالة جهل الإنسان وعجزه عن مواجهة القوى الخارجية...و يضيف قائلا: فالدين نتيجة لتعامل خاص بين الإنسان وبيئته»[٧٨]. فجهل الإنسان بعلل الحوادث الطبيعية ، ألجأه إلى افتراض أن وراء هذه الأحداث عوامل غيبية، فاعلة ومدبرة لها، وهي الآلهة، فأخذ يتقرب إليها، في عبادتها[٧٩].

بيد أن هذه الفرضية تواجه إشكالية كبيرة؛ فلو كان الدين وليد الجهل بأسباب الحوادث الطبيعية؛ لأصبح أكثر الناس جهلا وتخلفا في الحياة، أشدهم تدينا في المجتمعات البشرية. بينما نجد أكثر الناس إيمانا وتدينا هم من طائفة العلماء، إضافة إلى أن الدين نفسه يدعو إلى طلب العلم والمعرفة، ومحاربة الجهل والخرافات، كما نقرأ في آيات القرآن المجيد :

﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[٨٠]

﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[٨١]

٣. الفرضية الماركسية

إن الدين حصيلة التناقض الطبقي في المجتمع. ولكنها تختلف في الطريقة التي نشأ بها الدين عن هذا التناقض. فتجنح الماركسية أحيانا إلى القول: بأن الدين هو الأفيون

الذي تسقيه الطبقة الحاكمة المستغلة، للطبقة المحكومة المضطهدة؛ كي تنسى مطالبها ودورها السياسي، وتستسلم لواقعها السيء[٨٢]. وهو المعنى الذي قصده زعيم الثورة الروسية،لينين(١٨٧٠-١٩٢٤م)، إذ قال عام ١٩٠٥م: «الدين أفيون الشعوب، والدين ورجل الدين يخدران أعصاب المظلومين والفقراء، ويجعلانهم يخضعون للظلم»[٨٣]. وأحيانا تفسر الماركسية ظاهرة الدين، على أنها أيديولوجية تنبع من واقع الطبقة المحرومة والمضطهدة؛ لتخفف به عن آلامها، وتبرر به عجزها وفشلها في الحياة، وهو ما قاله الألماني كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣م): «إن البؤس الديني، لهو التعبير عن البؤس الواقعي، والاحتجاج على هذا البؤس الواقعي في وقت معا. الدين زفرة الكائن المثقل بالألم، وروح عالم لم تبق فيه روح، وفكر عالم لم يبق فيه فكر، إنه أفيون الشعوب»[٨٤].

غير أن الدين ليس كما تتصوره الماركسية وسيلة لتخدير ضمائر المضطهدين والمحرومين سواء كان إفرازا من داخلهم أم من خارجهم. فالأنبياء كانوا عبر التاريخ ثورة على الظلم والطغيان. كما ذكر التنزيل الحكيم في آياته، عن ثورة موسى (عليه السلام) ضد فرعون:

﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾[٨٥]

ورفض القرآن للمؤمنين أن يستكينوا ويخضعوا للظالمين، فقال:

﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾[٨٦]

وندد بكنز الأموال وادخار الثروات على حساب المحرومين، فقال:

﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم(٣٤) يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾[٨٧]

وحث المؤمن على إعداد القوة لمواجهة الطغاة والمستكبرين، فقال:

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾[٨٨]

٤. فرضية المذهب النفسي

أن العقيدة الإلهية تقوم على عوامل نفسية تثيرها حياة الإنسان اليومية[٨٩]. والدين نتائج اللاشعور الإنساني، وليس انكشافا لواقع خارجي، ويقول عالم كبير من علماء النفس: «ليس الإله سوى انعكاس للشخصية الإنسانية على شاشة الكون»[٩٠].

ولكن لا يصح اعتبار هذه الفرضيات النفسية، بمثابة فرضيات علمية؛ لأن من خصائص الفرض العلمي، أن يكون نتيجة ملاحظات متكررة، متفقة فيما بينها، وهذا غير متوفر فيما ذكر[٩١].

الحاجة إلى الدين:

إذن هناك نظريتان متضادتان في شأن الظاهرة الدينية؛ نظرية تعد الدين مجرد عارض تاريخي للثقافة الإنسانية، تتبناها المذاهب الوضعية. وأخرى تعده ظاهرة أصيلة في الحياة، وعاملا أساسيا في حركة التاريخ وبناء الحضارة الإنسانية، وهي الرؤية القرآنية الحقة، التي تنظر إلى الدين على أنه (حاجة ووسيلة) للبشر؛ فهو «حاجة فطرية في أعماق الإنسان، وليس من الوهم أو الخيال، وإنما هو يقين نابع عن أعماق النفس والشعور»[٩٢]، وليس بإمكان الإنسان أن يستغني عنه؛ بل هناك إحساس جياش، ورغبة دافعة في نفسه، لا تستقر ولا تهدأ ولا تطمئن، إلا إذا اتصلت هذه النفس ببارئها تعالى، «و هو ما جعل علم الاجتماع يقول في تعريفه الإنسان: بأنه حيوان ديني»[٩٣]، وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة بقوله تعالى:

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[٩٤]

ومن ناحية أخرى فإن الدين يمثل وسيلة أساسية لإشباع حاجات الإنسان ورغباته في الحياة، وليس بإمكان أي وسيلة أخرى أن تحل محله. فقد بدا لبعضهم منذ أمد ليس ببعيد، أن تقدم الإنسان وتطوره، سيغنيه عن الحاجة إلى الدين، وسيحل العلم مكانه لإشباع حاجاته ورغباته. إلا أن الوقائع والأحداث أثبتت عكس ذلك، « فالعلم وحده لن يحل مشاكل البشر... قد يحل بعض المشاكل المادية، أما المشاكل الأخلاقية والنفسية فإنها تتزايد باطراد يوازي تقدم العلم، وما ويلات الحروب الحديثة، وضراوتها إلا نتيجة

للتقدم العلمي»[95]. الأمر الذي دفع بالكاتب والمفكر الروسي، تولستوي(١٨٢٨-١٩١٠م)، أن يقول: «الإيمان هو ذلك الشيء الذي يحيا به الناس »[96].

والقرآن الكريم يصرح بأن الدين وسيلة للانسجام مع كل ما في الكون والحياة، لا يمكن الاستغناء عنها:

﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض﴾[97]

فالإنسان لديه حاجات مختلفة مادية ومعنوية، فطرية وشعورية، ثابتة ومتغيرة. والتطور العلمي والتقدم التكنولوجي قد يلبي بعضا من هذه الحاجات، إلا أنه يعجز عن تلبية حاجات أخرى أشد أهمية بالنسبة للإنسان. فإحدى خصائص الإنسان التي يتميز بها -مثلا- القدرة على التفكير والتخيل. يقول جوليان هكسلي: «وأول خصائص الإنسان الفذة، وأعظمها وضوحا، قدرته على التفكير التصوري»[98]. وهذه القدرة تولد في داخله مشاعر وأحاسيس، وأسئلة عديدة، بحاجة إلى أجوبة شافية تبعث في نفسه الاطمئنان والسكينة. ومن الأفكار التي تؤرق الإنسان، فكرة الموت ومفارقة الحياة وتركه للآخرين وما بعد ذلك، التي تنتزع منه رغبته في البقاء والخلود، وتعكر عليه مشاعر الأبدية.

يقول الأستاذ(وينوود ريد)، فيلسوف القرن العشرين: «إنه لأمر هام يدعونا إلى التفكير فيما إذا كانت لنا علاقة شخصية مع الإله؟ وهل هناك عالم غير عالمنا هذا ؟ وهل سوف نلقى جزاء أعمالنا في ذلك العالم؟ إن هذا السؤال ليس بعقدة فلسفية عظيمة فحسب، وإنما هو في نفس الوقت أعظم أسئلتنا العملية أيضا. إنه سؤال تتعلق به مصالحنا الكثيرة؛ فحياتنا الراهنة قصيرة جدا، أفراحها عادية موقوتة، إذ أننا عندما نظفر بما نحلم به، يفاجئنا الموت»[99].

هكذا يكون مصير الحياة، عندما تنقطع صلتها بالله تعالى، تعيش القلق، ويلفها الغموض، ويعصف بها كثير من الأسئلة المحيرة. وقد وجد علماء النفس، أن أكثر الأمراض والآلام عند الإنسان تنشأ من عذاب الروح ومرارة الحياة لدى غير المتدينين. وهو ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا﴾[100]

إنه ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله والاطمئنان إلى حماه. ضنك الحيرة والقلق

والشك. ضنك الحرص والحذر: الحرص على ما في اليد والحذر من الفوت. ضنك الجري وراء بارق المطامع والحسرة على كل ما يفوت[١٠١].

إن هذا الشك والقلق الذي يصطلي بناره الحائرون التائهون، وهذه الأسئلة التي ألحت على الإنسان من يوم خلق، وستظل تلح عليه إلى أن تطوى صفحة الحياة، لم تجد ـ ولن تجد ـ لها أجوبة شافية إلا في الدين[١٠٢]. الدين الذي يبعث في الإنسان، الإحساس بالتفاؤل والنشاط في الحياة، بما يقدمه من اعتقاد بوجود حياة أبدية، موصولة بهذه الحياة بعد الموت، ينال فيها جزاء أعماله، وحصاد أفعاله، وهي خير وأبقى من الحياة الدنيا، كما نقرأ في كتاب الله المنزل:

﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ﴾[١٠٣]

﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴾[١٠٤]

﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾[١٠٥]

وكما أن الدين حاجة ووسيلة للنهوض بحياة الإنسان؛ ليغمره بالسعادة والاستقرار، كذلك هو حاجة ووسيلة للنهوض بالاجتماع البشري؛ لينقله إلى شاطئ الرقي والازدهار. وفي مقدمة الحقائق الكبرى التي يكتشفها الدارس لتاريخ الحضارات، أن الأخلاق والقانون يشكلان القاعدة الأساسية التي يعتمدها بناء وازدهار الاجتماع البشري؛ ورصيد هذه القاعدة الوحيد هو «الدين».

ويرى مالك بن نبي: أن هندسة البناء قد سارت من كهوف العبادة، في العصر الحجري إلى عهد المعابد الفخمة، جنبا إلى جنب مع الفكرة الدينية، التي طبعت قوانين الإنسان بل علومه... وحتى في العصر الحديث... فقوانين الأمم الحديثة لاهوتية في أساسها، أما ما يطلقون عليه قانونهم المدني ـ في الغرب ـ فإنه ديني في جوهره، ولا سيما في فرنسا فقد اشتق من الشريعة الإسلامية[١٠٦].

هكذا تبدو جميع المبادئ والقيم الأخلاقية، والقوانين والنظم، التي يحفل بها المجتمع البشري؛ أمثال الحرية، والعدالة، والمساواة، والإنسانية، والشعور بالمسؤولية، وغيرها ، تعتمد في أساسها على الدين. «فالدين في الرؤية الإسلامية ـ فضلا عن أنه وضع

إلهي ووحي سماوي هو الروح السارية في كل مجالات العمل الإنساني وسائر مناحي الحياة، يضبط علاقة الفرد بربه.. وبمحيطه.. وبأهله، وشعبه، وأمته، وبالإنسانية جمعاء.. كما يضبط علاقة الدنيا بالآخرة.. والعمران بالقيم... والوسائل بالحكم والغايات .. والسياسة والاجتماع والاقتصاد ومناهج البحث ونظريات المعرفة بالفلسفات والأخلاقيات»[(١٠٧)].

الدين من سنن الحياة والتاريخ:

تقرر فيما سبق[(١٠٨)]، أن الظاهرة الدينية، هي سنة من سنن الحياة والتاريخ، وهو الوصف الذي أطلقه القرآن الكريم على هذه الظاهرة بقوله تعالى :

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[(١٠٩)]

إن التعبير «بالدين القيم» تأكيد على أن ما هو الفطرة، وما هو داخل في تكوين الإنسان وتركيبه وفي مسار تاريخه هو الدين. يعني أن يكون هذا الدين قيما على الحياة، ومهيمنا عليها[(١١٠)]. بعبارة أخرى: يكون قادرا على التحكم في الحياة وصياغتها وتوجيهها في خطه العام.

وهذه القيمومة والهيمنة في الدين، هي التي تنظم وتنسق طبيعة العلاقة بين :

١.الإنسان والطبيعة .

٢.الإنسان وأخيه الإنسان الآخر .

لأن الدين في حركته ينطلق من قاعدة «الاستخلاف» التي رسمتها الآية المباركة :

﴿وإذ قال ربك للملآئكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾[(١١١)]

وعلاقة الاستخلاف تفترض أربعة أطراف هي: المستخلف (أي الله)، والمستخلف عليه (أي الأرض أو الطبيعة)، والمستخلف (أي الإنسان وأخوه الإنسان)[(١١٢)].

بذلك يمكن تصور قيمومة وهيمنة الدين في طبيعة العلاقة بين أركان الصيغة الرباعية (الله ـ الإنسان ـ الآخر ـ الطبيعة) التي تضمنتها الآيتان الكريمتان :

﴿ وإذ قال ربك للملآئكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾[(١١٣)]

﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها

وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾[114]

إذن الدين الحنيف القيم ـ المتمثل برسالة الإسلام، الخاتمة لكل الأديان السماوية ـ كسنة من سنن الحياة والتاريخ يعني :

١.تحقيق مفهوم الوحدانية لله تعالى في الأرض:

ويعني انتماء الجماعة البشرية إلى محور واحد، وهو «المستخلف» أي الله سبحانه وتعالى، الذي استخلفها على الأرض، بدلا من كل الانتماءات الأخرى. والإيمان بسيد واحد، ومالك واحد، للكون وكل ما فيه، وهذا هو التوحيد الخالص الذي قام على أساسه الإسلام، وحملت لواءه كل ثورات الأنبياء تحت شعار لا إله إلا الله[115]. يقول تعالى :

﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾[116]

﴿ يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾[117]

٢. تجسيد مبدأ الحاكمية لله تعالى وحده بين الناس:

بمعنى أن يكون الاجتماع البشري، في علاقاته ونظمه ومناهجه،خاضعا لله تعالى، خضوعا مخلصا، يتحرر به أفراده، من عبودية كل الانتماءات الأرضية المحدودة :

﴿إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[118]

إن دينونة الجماعة البشرية بالطاعة والحاكمية والعبودية لله تعالى وحده ، ونبذ كل ما سواه ؛ تجسيد رائع «لقيمومة الدين» على هذه الجماعة. «و تعبير عن التزام رسالي، ومهمة حضارية، وهذا هو مبرر وجودها في التاريخ»[119].

٣. ترسيخ روح الأخوة العامة بين الناس:

يعني محو كافة أشكال الظلم والاستغلال والتسلط والطغيان فيما بينهم؛ ليكونوا أخوة متكافئين في الكرامة الإنسانية، والحقوق والواجبات كما ورد في التنزيل الحكيم :

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾[120]

هكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض؛ وترخص جميع القيم التي يتهافت عليها الناس. ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون: ألوهية الله للجميع، وخلقهم من أصل واحد. كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته: لواء التقوى في ظل الله تعالى[١٢١]. وبذلك تدخل الجماعة البشرية في ظلال الدين في السلم كافة، تجسيدا لندائه تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ﴾[١٢٢]

٤. الإحساس بمسؤولية الاستخلاف في الأرض:

حيث إن الاستخلاف ليس مجرد العيش في الأرض كيفما اتفق، ولا هو صرف الوجود الإنساني فيها، «و إنما هو الوجود الفاعل المتميز الذي يحمل مضمونا ومعنى»[١٢٣]، الذي يتحقق به معنى «الاستئمان» من قبل الإنسان الخليفة لله تعالى، الحامل للأمانة عنه، كما عبرت الآية المباركة بقوله:

﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾[١٢٤]

من هنا يتضح: أن وظيفة الأنبياء في خط الدين عبر التاريخ، تتجلى في مهمتين أساسيتين:

المهمة الأولى: تتمثل بإحياء الفطرة الإنسانية الصافية المستقيمة، وإزالة الصدأ المتراكم عليها؛ ليهتدي بها الإنسان إلى الإيمان الصحيح بالله تعالى، ويدرك بها كونه مخلوقا لله تعالى، ومن ثم يدرك موقعه في الكون[١٢٥]. ليترتب على هذا الإيمان الواعي الالتزام بعهد الله تعالى، والنهوض بأعباء مسؤولية الخلافة عبر ذلك العهد الذي قطعه على نفسه مع ربه تعالى:

﴿ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون ﴾[١٢٦]

﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾[١٢٧]

المهمة الثانية: تتمثل بتحقيق أبعاد خلافة الإنسان في الأرض، بما يأتون به للجماعة البشرية من تعاليم إلهية؛ للأخذ بها والعمل بموجباتها. فالجماعة البشرية «غير مخولة أن

تحكم بهواها أو باجتهادها المنفصل عن توجيه الله سبحانه وتعالى؛ لأن هذا يتنافى مع طبيعة الاستخلاف، وإنما تحكم بالحق، وتؤدي إلى الله تعالى أمانته بتطبيق أحكامه على عباده وبلاده»[١٢٨]. فالأنبياء (عليهم السلام)، يعملون على إخراج الناس من الظلمات إلى النور في مختلف مجالات الحياة، بتصحيح مسارهم الإنساني على ضوء النهج الإلهي السديد. وبذلك كان الأنبياء (عليهم السلام)، «مؤسسي حضارة ومدنية وعشرة واجتماع وأسلوب من الحياة جديد خاص، جدير بأن يسمى الحضارة الربانية، ولهذه الحضارة أصول ودعائم وعلامات وشعائر، تمتاز بها عن الحضارات الأخرى، الحضارات التي تسمى بالحضارات الجاهلية»[١٢٩] وفي ذلك يقول تعالى:

﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾[١٣٠]

لذا كانت الأمم المتدينة والشعوب المؤمنة، أكثر إسهاما وعطاء في إغناء وبناء حركة التاريخ.

ثالثا : خصائص حركة التاريخ

تتسم حركة التاريخ البشري وفق التصور القرآني، بعدة خصائص هامة، منها :

١. الاستمرارية:

هي من أبرز الظواهر الملازمة لحركة التاريخ الإنساني. فهي حركة مستقبلية غائية هادفة، لا تقبل الجمود أو التوقف مطلقا. فقد خلق الله الإنسانية لغاية عظمى، وحكمة بالغة:

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾[١٣١]

وإن غاية المطاف الذي تنتهي إليه البشرية، هو العودة والرجوع والمصير إلى الله تعالى:

﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾[١٣٢]

﴿ وإلى الله المصير ﴾[١٣٣]

﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾[١٣٤]

هذه الآيات تنطوي على فكرة من أعمق الأفكار التي وردت في القرآن؛ لأنها تشير على وجه قاطع إلى أن المنتهى الأخير يجب ألا يبحث عنه في حركة الأفلاك وإنما يبحث عنه في وجود كوني روحاني لا نهاية له. ورحلة العقل إلى هذا المنتهى الأخير رحلة طويلة وشاقة[١٣٥]. بذلك فإن الإنسانية منذ أن بدأت مسيرتها وحتى الوصول إلى غايتها المنشودة، تقطع سيرها بالكدح والسعي والعناء :

﴿ ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ﴾[١٣٦]

أي: يا أيها الإنسان إنك تقطع رحلة حياتك على الأرض كادحا، تحمل عبئك، وتجهد جهدك، وتشق طريقك...لتصل في النهاية إلى ربك. فإليه المرجع وإليه المآب، بعد الكد والكدح والجهاد[١٣٧].

وبذلك فقد جاء الإنسان إلى الحياة الدنيا للكد والكدح والجهاد ـ الأكبر والأصغر ـ الدؤوب، دون توقف، حتى يصل إلى غاية إنسانيته. «ولما كان موضوع التاريخ، كما هو معروف، هو الإنسان في الزمان»[(١٣٨)]. يلزم من ذلك أن تكون حركة التاريخ، حركة متواصلة دون توقف؛ لأنها تدور «مدار الجهد الإنساني، منذ فجر الخليقة وحتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها... أي أنها ذلك النتاج والتجمع من إرادة البشرية ونضجها، وذكائها وجهودها، بحيث تتكون الحصيلة النهائية للجهد البشري في كل زمان... فالمهم أن حركة التاريخ لا تتوقف، وكذلك تقدم الإنسان، فهو في إطارها ضمن مسارها، لا يتوقف أيضا... وتبقى حركة التاريخ مستمرة»[(١٣٩)].

وما تجدر الإشارة إليه، أن حركة التاريخ تحمل ديناميكية استمراريتها معها. إذ هي تعبير عن جوهر الصراع بين قطبين متضادين بكل ما يمثلانه من أبعاد وتفرعات في حياة الجماعة البشرية. إنه الصراع الواسع الشامل، بين بني البشر وبين الشيطان وجنوده، والتقابل المتشابك الدائم بين الخير وبين الشر على أوسع الجبهات، إذا ما أريد للحياة البشرية أن تتطور وتتصف بالاستمرارية والاتصال، فإذا توقفت عن ذلك، تحجرت وتجمدت وعجزت عن النمو، وقد ينتهي الأمر بها إلى الزوال[(١٤٠)]. وعن أبعاد وأطراف هذا التشابك والصراع يقول القرآن الكريم:

﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض﴾[(١٤١)]

﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾[(١٤٢)]

ومن أبرز مظاهر الاستمرارية في حركة التاريخ البشري، أنه حفل بالقوة والنشاط، فرغم تعرضه إلى انتكاسات كبيرة، إلا أنه «في مختلف أزماته لم تطل به فترة الوجوم والذهول، وسرعان ما يستجمع نفسه، ويتحدى الضربة، ويقاوم بشدة، ويتخلص من ركوده ويسترد حيويته»[(١٤٣)]، وبفعل ظهور الأنبياء والرسل العظام (عليهم الصلاة والسلام)، على مسرح الحياة البشرية، الذين أقالوا عثرات التاريخ، وأمدوا الإنسانية بمختلف القدرات والإمكانات الصالحة لبقائها واستمرارها. فقد مثلت حركة النبوات في عملها جانب الرعاية الإلهية لحركة التاريخ، حيث عملت على تعميق مجرى الحياة، ومقاومة كل محاولة للتوقف. فالدين محور حركة التاريخ، وله القدرة والفاعلية على مدها بعناصر

الديمومة والبقاء والاستمرار:

﴿ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون﴾(١٤٤)

﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات ﴾(١٤٥)

﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾(١٤٦)

٢. التبدل أو التغير (تقلب الأحوال)

سمة قوية في حركة التاريخ البشري. فهي حركة لا تسير على وتيرة واحدة، ولا تنتظم في نسق واحد، ولا في خطوات موحدة؛ بل في صيرورة دائمة، كما هي صيرورة الحياة الدنيا القائمة على التغير والتنوع، والولادة والحياة، والزيادة والنقصان، حيث يقول تعالى:

﴿يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن﴾(١٤٧)

ويرى ابن خلدون في تفسيره لحركة التاريخ، أن التبدل والتغير من سنن الله في الحياة الاجتماعية، فيقول: «إن أحوال العالم والأمم وعوا ئدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة، ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول، سنة الله التي قد خلت في عباده»(١٤٨).

وفي القرآن الكريم شواهد عدة، تؤكد بأن التغير والتبدل المتنوع قائم في صميم العلاقات الإنسانية، بين أفراد البشر أنفسهم، وبين الجماعات المتنافسة أيضا:

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾(١٤٩)

﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾(١٥٠)

ويؤكد القرآن المجيد أن طبيعة الواقع البشري نفسه تقوم على أساس التغاير الموجود في طبيعة العلاقات الجارية بين الناس، ذلك الواقع الذي ينتج - بشكل طبيعي -

تدافعا وتنافسا، فيما بينهم على مختلف الأصعدة في الحياة، ومن ثم يبرز بشكل واضح على مسرح حركة التاريخ، كما حدثنا تعالى في محكم كتابه العزيز:

﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات ﴾(١٥١)

﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين(١١٨)إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾(١٥٢)

ونتيجة لذلك، فإن حركة التاريخ تسير وفق موجات متباينة من التدافع والصراع والتفاعل، تضعها بين حالات مختلفة من الصعود والهبوط، والتقدم والتأخر، والجذب والطرد، والإسراع والتباطؤ، بإرادة الله تعالى، ووفق قانونيته في الكون. لأن التبدل والتغير إنما يعنيان عملية التحول من حال إلى أخرى، بإحلال وضع جديد محل وضع قديم، وهذا يترتب عليه ضرورة تدافع بين الوضعين. وبالتالي ستنعكس نتائجه وآثاره المختلفة « بكل وجوهها، وما فيها من حسن وقبيح، وألم ولذة، وواقع وخيال، ونجاح وإخفاق» (١٥٣)، على الإنسان والجماعة البشرية بحسب طبيعة موقع كل منهما من حركة التاريخ.

لهذا نجد النصوص القرآنية تحذر المؤمنين عموما من الركون إلى حالات اليأس والضيق، وفقدان الأمل، جراء الأوضاع المستبدة، والظروف القاسية، وتقول له: «وسعوا من أفقكم التاريخي.. وانظروا الأشياء، والأوضاع في حركة مستمرة ...لا تيأسوا ولا تقنطوا فإن الفراعنة إلى انتهاء، وإن أوضاع الكفر إلى زوال» (١٥٤):

﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد(١٩٦)متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾(١٥٥)

﴿ولا تيئسوا من روح الله إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾(١٥٦)

وكيف ييأس المؤمن من «روح الله» وهو يرى أمامه سنة «مداولة الأيام» بين الناس، آية حاسمة وحاكمة في مسيرة التاريخ. كما شهدها المسلمون في واقعة أحد، ولازالوا يشهدونها كل يوم، يقول تعالى:

﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين (١٣٧) هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين(١٣٨) ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن

كنتم مؤمنين(١٣٩)إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين(١٤٠)وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾[١٥٧]

إن سنة «المداولة» توحي بالحركة الدائمة، وبالتجدد، وبالأمل.. وتقرر أن الأيام ليست ملكا لأحد، ومن ثم لا داعي لليأس والهزيمة، فمن هم في القمة الآن ستنزل بهم حركة «الأيام» إلى الحضيض، ومن هم في القاع ستصعد بهم الحركة نفسها ـ بفعلهم الحر وحركتهم واختيارهم ـ إلى القمة .. إن «المداولة» القرآنية تحمل كافة جوانب إيجابياتها التاريخية: حركة العالم المستمرة، وتمخض الصراع الفعال، وديمومة الأمل البشري الذي يرفض الحزن والهوان[١٥٨].

٣. الواقعية

هي صفة ملازمة لحركة التاريخ البشري. لأنها حركة تسير بشمولية وجدية وصدق. فهي من ناحية لا تغفل أي عامل مادي أو معنوي، يدخل في صناعة التاريخ. إذ تعترف بجميع «العناصر المادية ضمن المساحة التي تشغلها فعلا في صياغة الواقعة التاريخية، وهناك ـ أيضا ـ سائر العناصر الفعالة الأخرى التي ليس إنكارها من العلم في شيء: قدر الله، التغير الداخلي في الضمائر والمشاعر والعقائد والتصورات، السلوك الواقعي والعنصر الأخلاقي»[١٥٩].

وتتمظهر واقعية حركة التاريخ في المنظور القرآني، بكونها تجري وفق سنن دائمة غير قابلة للتبديل ولا التحويل:

﴿فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾[١٦٠]

إلا أن حتمية هذه السنن التاريخية لا تفرض سلوكا قهريا معينا على الإنسان، ولا تقع بمعزل عن إرادته، إنما هي تفرض نتائج حتمية على السلوك الذي يتخذه الإنسان باختياره[١٦١]:

﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾[١٦٢]

وتتجلى واقعية حركة التاريخ في الرؤية الإسلامية، بحياديتها الصادقة التي لا تعرف

الانحياز حتى للجماعة المؤمنة، إذا لم تتوافر لديها الشروط الموضوعية الفاعلة في حركة التاريخ. فالحق سبحانه يخاطب عباده المؤمنين بإعداد مقدمات النصر:

﴿ ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾(١٦٣)

﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾(١٦٤)

فالقرآن الكريم عندما يحدثنا عن مسألة «النصر والهزيمة في حياة الأفراد والجماعات، لا يربطها بالجانب الغيبي للحياة، وإنما يربطها بالجانب الواقعي للأشياء؛ فإذا أخذوا بأسباب النصر فإنهم سينتصرون، وإن كانوا كافرين، وإذا تركوها، انهزموا وإن كانوا مؤمنين» (١٦٥). لئلا يتصور المسلمون أن النصر حق «إلهي» لهم، وإنما هو حق «طبيعي» لهم بقدر ما يمكن أن يوفروا الشروط الموضوعية لهذا النصر وفق منطق سنن التاريخ(١٦٦).

رابعا : تكامل حركة التاريخ

لم تكن لدى الفلاسفة القدماء، أي فكرة عن تقدم، أو تأخر، أو تكامل حركة التاريخ؛ بل كانوا يؤمنون بفكرة حركة التاريخ فحسب، أي أن الزمان والأشياء في تغير وتحول دائمين، ولهم في ذلك مذاهب شتى. فقد قال هرقليط بالحركة الدائمة، أي أن كل ما في الكون في حركة دائمة، وأن سبب هذه الحركة هو الصراع، وهو في رأيه أبو الأشياء، ولولا الصراع والخلاف ما ظهر شيء. ثم تولدت لديهم بعد ذلك فكرة أن للجماعات البشرية حياة شبيهة بحياة الكائن الحي، فهي تولد كما يولد، وتنمو كما ينمو، وتمر بمراحل العمر حتى تصل تمام النضج (وهي الكهولة في حياة الإنسان) ثم تنحدر إلى الشيخوخة مثله[(١٦٧)]. إلا أنه منذ القرن السابع عشر الميلادي، شاعت بين المؤرخين وفلاسفة التاريخ، فكرة التقدم المستمر لحركة التاريخ، ولم يكتف هؤلاء بالقول: إن لحركة التاريخ مسيرا حتميا. يقول العالم الفرنسي الشهير باسكال (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢م): «إن خط مسيرة الأجيال البشرية المتعاقبة خلال المراحل والعصور... يشبه خط مسيرة الحياة لواحد من أفراد الإنسان، حيث أنه حي دائما وهو يتعلم بلا انقطاع»[(١٦٨)].

ولما دخل القرن الثامن عشر الميلادي، أخذت فكرة تكامل حركة التاريخ تتبلور بأشكالها المختلفة، المستقيمة أو الدائرية، التي تناولتها نظرية التفسير الديالكتيكي للتاريخ، كما قال بها هيجل وماركس، والنظريات الحضارية؛ لأمثال: فيكو، وشبنجلر، وتوينبي، وغيرهم، وإن كان قد سبقهم ابن خلدون في هذا المجال، منذ القرن الرابع عشر الميلادي. ولتوضيح ذلك أكثر، نذكر أن هناك ثلاثة أنماط لمسار حركة التاريخ، اختلف فلاسفة التاريخ حولها:

الأول: حركة التقدم الصاعد للتاريخ

تتلخص في أن حركة التاريخ تلتزم مسارا تكامليا مستقيما، على طريق التقدم الصاعد

إلى الأمام. يبدأ من نقطة فيمر عبر عدة مراحل محددة لا يحيد عنها، مراحل حتمية، وينتهي إلى نقطة نهاية وغاية، تشكل هدفا لهذه المسيرة التاريخية[١٦٩]. وشاعت هذه الفكرة على ألسنة كثير من الفلاسفة الذين مالوا إلى تأكيد فعل الإنسان وقدرته العقلية، وإنجازاته في التاريخ. ويمكن أن ترجع فكرة التقدم في حركة التاريخ من حيث أصولها الأولى إلى آراء بيكون وديكارت[١٧٠]. ولكنها سادت عصر التنوير عقب الكشوف العلمية في القرن السابع عشر الميلادي، الأمر الذي دعم ثقة الإنسان في المستقبل واستعلائه على الماضي... واستمرت نظرية التقدم سائدة طوال القرن التاسع عشر، وإن أصبح للتقدم معان متعددة: معنى تطوري نجده عند علماء الحياة القائلين بالنشوء والارتقاء؛ ومعنى فلسفي مذهبي، نجده عند هيجل وماركس؛ ومعنى سياسي، مكن له المد الاستعماري في القرن التاسع عشر؛ ومعنى حضاري، كما قال وامبية: «سيشهد المستقبل نموا لا حد له لسيطرة الإنسان على الطبيعة وتسخيرها لصالحه»[١٧١].

فالتقدم بهذا فلسفة متفائلة ترى أن الكمال البشري غير محدود، وأن تاريخ البشرية يمر في مسار تقدمي تتطور خلاله معرفة الإنسان، وتقترب شيئا فشيئا نحو الهدف النهائي للمجتمع البشري، وهو تحقيق الحرية والكمال والسيطرة التامة على الطبيعة[١٧٢].

ولكن إلى أين وصلت فكرة التقدم هذه؟ وهل حققت ذلك الكمال المنشود للمجتمعات البشرية؟ بعد أن شهد العالم في القرن العشرين، حربين عالميتين، أكلت اليابس والأخضر، وأهلكت الحرث والنسل. أعقبهما سباق طائش للتسلح، واشتد الصراع الدموي بين الأمم والشعوب والبلدان المجاورة. وأقدم الضمير الغربي على إبادة شعب آمن في فلسطين، وإحلال مجموعة من اللقطاء الصهاينة مكانه. وانقسم العالم إلى دول مستكبرة وأخرى مستضعفة. فهل يعتبر هذا المصير الذي وصلت إليه البشرية هو ذلك التقدم المقصود؟! نعم هو الاقتراب من الهاوية في ظل الانحراف عن خط المنهج الإلهي القويم:

﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا﴾[١٧٣]

الثاني: حركة النكوص المتدهور للتاريخ

هي فكرة تشاؤمية عن حركة التاريخ، تفيد بأن مسارها يتجه في خط تراجعي من نقطة الاكتمال إلى الخراب المحتم. وما هذه الفكرة إلا تعبير عن حالة نفسية من إحباط ويأس وشعور بالسلبية نتيجة الإحساس بغلبة الشرور على العصر، وتدهور القيم الجمالية والأخلاقية لدى البشر، نتجت عن تعقيدات الحضارة المادية، وأهوال الحروب المدمرة، ومخاوف الأمراض والأزمات الاجتماعية والاقتصادية والروحية. وهي تعبر عن ميول رومانسية وأذواق مرهفة لبعض الشعراء والفلاسفة، لا نجد لها ثقلا في الدراسات التاريخية إلا كظل باهت لدى الفلاسفة المتشائمين في الغرب[١٧٤]. ولا تختلف هذه التشاؤمية عن تلك التي أبداها الملائكة عن الإنسان قبل أن يخلقه الله تعالى:

﴿ وإذ قال ربك للملآئكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾[١٧٥]

ولكن الملائكة أثاروا هذه التشاؤمية بأسلوب استفهامي، إما لتوقعهم حصول الإفساد والشر؛ للطبيعة الحيوانية في البشر، أو لمعرفتهم السابقة بطبيعة البشر الذين سكنوا الأرض قبل هذا الإنسان، أو لأسباب أخرى، الله أعلم بها...لذلك قالوا:

﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾[١٧٦]

وقد رد الله تعالى هذه التشاؤمية لدى الملائكة بقوله الكريم:

﴿ قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾[١٧٧]

فالله تعالى أعلم بحقيقة هذا الإنسان، الذي ليس كله أنانية ونوازع شريرة، وليس كله ظلما وبطشا، إنما هو موجود مركب من النور والظلمة، ونفس تركيبه من هاتين الحقيقتين، جعله أفضل الموجودات، ابتداء منكم أيها الملائكة إلى ما دونكم[١٧٨].

الثالث: حركة الدورات الحضارية للتاريخ

التي يمر خلالها بدورات حضارية يعيد بها نفسه بصورة أو بأخرى، حيث تبدأ من نقطة معينة ثم تمر في مراحل متعاقبة لتصل إلى نهاية تكون هي نقطة البدء أو قريبة منها وهكذا دواليك[١٧٩]. ويعد كل من ابن خلدون، وشبنجلر، وتوينبي من أشهر أعلام هذا الاتجاه في حركة التاريخ.

أما ابن خلدون فيرى أن حركة التاريخ للدول والحضارات تمر بثلاثة أطوار: هي طور البداوة، وطور التحضر، وطور التدهور . فالتاريخ والحضارة عند ابن خلدون دورة متصلة وصراع دائم على الملك والرياسة، أو ما يسميه ابن خلدون بالمجد والشرف، فأهل البداوة يتطلعون أبدا إلى التغلب على بلاد الحضر للاستمتاع بخيراتها، فإذا وصلوا إلى الملك استناموا إلى الترف وأخذت أجيالهم تضعف نتيجة لانغماسهم في الحضارة، وفساد طبائعهم تبعا لذلك، وهنا تتطلع أمة جديدة من أهل البداوة إلى الحلول محلهم في الملك والغنى والنعيم، ولا يزالون يعملون حتى يغلبوهم ويحلوا محلهم، وهكذا تستمر دورة التاريخ ودورة العمران[١٨٠].

أما الألماني، أوزوالد شبنجلر (١٨٨٠ ـ ١٩٣٦م)، فيرى أن التاريخ يتكون من كائنات حية، هي الحضارات، وتاريخ كل حضارة كتاريخ الكائن العضوي الحي، وهي مثله تمر بنفس الأدوار التي يمر بها أبان تطوره فكما أن للكائن العضوي مولده وطفولته وشبابه ونضجه وشيخوخته، فكذلك للحضارة مثل هذه الأدوار، أو بتعبير آخر أن للحضارة ربيعها وصيفها وخريفها وشتاءها، ولكل دور من هذه الأدوار خصائصه وصفاته، كما هي حال الفصول السنوية أو حال حياة الإنسان[١٨١].

أما المؤرخ الإنجليزي المعاصر أرنولد توينبي (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م)، الذي استخلص نظريته في تفسير عملية النشوء الحضاري على ضوء دراسة المجتمعات البشرية خلال مبدأ التحدي والاستجابة، أي رد الفعل على هذا التحدي .

فقد رأى أن كل حضارة تقطع ثلاث مراحل متعاقبة هي النمو والتوقف والزوال . . .فالمجتمع عندما يواجه هجوما وتحديا ـ طبيعيا أو إنسانيا ـ فهو يستجيب له بشكل من الأشكال، ولون الاستجابة هو الذي يقرر حياة ذلك المجتمع أو موته[١٨٢]. فالنهوض الحضاري يتم، ومن ثم تنجح الحضارة في تقدمها وتطورها إذا تمكنت صفوتها الخلاقة بمواجهة التحديات المتتالية والمتنوعة وانتصرت عليها، وأن الحضارة تسقط إذا فشلت قيادة الأمة في مواجهة هذه التحديات[١٨٣].

ولكن تبقى هذه النظريات الوضعية تلاحقها كثير من الإشكاليات منها :

١. إنها تعتبر الكيان البشري وجودا آليا، عديم الوعي والإرادة والفاعلية في حركة

التاريخ، فتصوره «عنصرا سلبيا إزاء الحتميات الجبارة: حتمية الاقتصاد، وحتمية التاريخ، وحتمية التطور... إلى آخر الحتميات التي ليس للكائن الإنساني إزاءها حول ولا قوة، ولا يملك إلا الخضوع المطلق لما تفرضه عليه، وهو ضائع خانع مذلول»[١٨٤].

٢. إنها تصور الحياة البشرية مجرد ظاهرة محدودة، يحيط بها الزمن إحاطة تامة، هو الذي يحدد أشكالها عبر مختلف العصور[١٨٥]،دون أن تكون للروح الإنسانية أي دور في ذلك.

أما موضع هذه النظريات من الرؤية القرآنية، فقد نجد فيها ما يلتقي، وما يتعارض معها، دون الانطباق أو التقاطع الكلي. فقد نرى في القرآن الكريم آيات تمت بصلة إلى نظرية حركة التقدم الصاعد للتاريخ، ولكن ليست بالصورة الحتمية التي تحددها الرؤية الغربية، التي لا تقبل الإلتياث أو التراجع في حركة التاريخ، فتسلب من الإنسان دوره المؤثر فيها. أو نرى فيها ما يؤيد حركة النكوص المتدهور التي تشهدها حركة التاريخ، لكنها ليست حركة امتدادية تراجعية بشكل حتمي إلى النهاية . فقد شهد تاريخ الإنسانية تموجات عديدة من الصعود والهبوط، والنهوض والسقوط، على امتداد حركته كما أخبرنا القرآن الكريم :

﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾[١٨٦]

﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾[١٨٧]

﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار(٢٨)جهنم يصلونها وبئس القرار﴾[١٨٨]

﴿كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون(٢٥)فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون(٢٦)ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون(٢٧)قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون(٢٨)ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾[١٨٩]

أما حركة الدورات الحضارية في التاريخ، فإن القرآن الكريم قد يتناول قيام الحضارات وسقوطها، ثم التجدد أو الاستبدال الحضاري بين الأمم، ولكن يبقى الفرق

كبيرا بين المذاهب الفكرية الوضعية وبين الرؤية القرآنية في مثل هذه الظواهر التاريخية وغيرها. وهو كيف يحدث التجدد والاستبدال وما الأسباب المؤدية إليه، والعاملة على حدوثه(١٩٠)، كما تقول الآيات المباركة :

﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾(١٩١)

﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا ﴾(١٩٢)

﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾(١٩٣)

﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾(١٩٤)

هكذا تبدو الرؤية القرآنية غير متفقة ـ مع الخط العام ـ لهذه الاتجاهات الثلاثة، في الوقت الذي تقدم فيه رؤيتها الواضحة حول طبيعة مسار حركة التاريخ خلال المنحى التكاملي لمسيرة البشرية جمعاء، والتي سنتناولها في الأبحاث الآتية.

النزوع الإنساني نحو الكمال:

وفق التصور القرآني، تكون الغاية من خلق الإنسانية، هي معرفة الله تعالى، والتقرب إليه وطاعته، كما لخصتها الآية المباركة بقوله تعالى:

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾(١٩٥)

والعبادة عهد قديم أخذه الله تعالى على بني آدم، فخاطبهم قائلا:

﴿ ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين(٦٠)وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾(١٩٦)

كما أن الهدف من بعث الأنبياء (عليهم السلام)، هو تذكير الناس بهذا العهد القديم، والأخذ بأيديهم للوصول إلى هذه الغاية السامية، يقول تعالى:

﴿ ياأيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا(٤٥)وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا﴾(١٩٧)

﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾(١٩٨)

﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾(١٩٩)

﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾(٢٠٠)

فغاية الكمال المنشود الذي يقصده الإنسان خلال سيره في الحياة، هو الوصول إلى الله تعالى لمعرفته والتقرب إليه وطاعته. وقد ذكر القرآن الكريم على لسان إبراهيم «عليه السلام»، أن غاية الإنسان الكامل التي تمثل قمة سعادته في الحياة، الوصول إلى هذه الكمالات السامية:

﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾(٢٠١)

﴿ إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴾(٢٠٢)

يرى سيد قطب: أن معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني أو التي هي وظيفة الإنسان الأولى، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر؛ وأن وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعا. وأن حقيقة العبادة تتمثل إذن في أمرين رئيسين:

الأول: هو استقرار معنى العبودية لله في النفس، أي استقرار الشعور على أن هناك عبدا وربا.

الثاني: هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة. التوجه بها إلى الله خالصة... بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة(٢٠٣). وتتحول حياة الإنسان كلها إلى عبادة لله تعالى، وحينئذ يكون الإنسان قد وصل إلى كماله المنشود، الذي به تتحقق سعادته.

إن في داخل الإنسان نداء يحركه نحو بلوغ هذا الكمال الإنساني، ينبعث من صميم فطرته التي ركزها الله تعالى في نفسه، كما قالت الآية المباركة:

﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾(٢٠٤)

فمن فطرة الإنسان أن يبحث عن وجود خالق، وأن تجذبه فطرته للعبادة، وأن توقد الشوق في نفسه، وتنبه عقله للحاجة إليها، وقلما تجد أحدا لا يلقى ذلك في نفسه(٢٠٥). فكل إنسان يجد في نفسه ميلا فطريا ينزع به إلى الكمال، وفي هذا النزوع النفسي يكمن سر تقدم حياة الإنسان وتطورها، ونمو الحضارات الإنسانية وتكاملها. فالحيوان يقنع من حياته بمرحلة محددة تهديه إليها الغريزة، ولا يطمح بعد ذلك في غيرها من مراحل الحياة وأنماطها، بعكس الإنسان الذي لا يكاد ينتهي إلى طور من أطوار التكامل في الحياة حتى

ينتقل به طموحه إلى التفكير في طور آخر أكثر كمالا من هذا التطور[٢٠٦].

ويرى الفيلسوف الفرنسي ديكارت(١٥٩٦.١٦٥٠م)، في التأمل الثالث من تأملاته، أن فكرة «الكمال» هذه، هي حقيقة أولية فطرية؛ بل هي أسبق في العقل من فكرة النقص، فإن من لا يعرف الشيء لا يتفقده، ولا يحس بحرمانه حين يفقده، إذ كيف أعرف أنني ناقص لو لم تكن عندي فكرة كائن أكمل مني أجعله مقياسا أعرف به مواضع نقصي؟ فالرغبة في الكمال وحدها دليل على أسبقية وجود هدفها في التصور العقلي، ثم ليست هذه الفكرة معنى سلبيا؛ بل هي جماع الحقائق الإيجابية، ونظام ضروب الكمالات كلها[٢٠٧].

إن النظرة القرآنية للإنسان، ترى فيه موجودا إلهيا، مزودا بفطرة تدفعه نحو معرفة الحق، وطلبه، والقدرة على التحكم بنفسه بعيدا عن كل قوى الجبر الطبيعية، والبيئية، والغرائزية، والمصير المحتوم. أي أن في الإنسان نزعات أودعت في طبيعته، جعلته ينشد القيم السامية، ويستطيع أن يخطط للوصول إلى بناء شخصيته، وبناء مجتمعه، بمقتضى إرادته ومحض اختياره، بفضل ما منحه الله تعالى من قدرات وإمكانات، وما زوده من وحي هادي على أيدي الأنبياء. وفي هذا المجال يقول السيد الطباطبائي في تفسيره:

«إن النوع الإنساني بالفطرة المودعة فيه يطلب سعادته الحقيقية، وهي استواؤه على عرش حياته الروحية والجسمية معا، حياة اجتماعية بإعطاء نفسه حظه من السلوك الدنيوي والأخروي، وهذا هو الإسلام، دين التوحيد. أما الانحرافات الواقعة في سير الإنسانية نحو غايته وفي ارتقائه إلى أوج كماله، فإنما هو من جهة الخطأ في التطبيق، لا من جهة بطلان حكم الفطرة، والغاية التي يعقبها الصنع والإيجاد لابد أن تقع يوما، إن عاجلا أو آجلا»[٢٠٨].

ومن ناحية أخرى، نجد في القرآن الكريم دعوة واضحة إلى الإيمان والتصديق بكل الأنبياء والرسل (عليهم السلام):

﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله و ملآئكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾[٢٠٩]

﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾[٢١٠]

وما هذه الدعوة إلا دليل على وحدة الأديان، وأنها كلها لله، وأن اختلافها في الشرائع من قبيل الاختلاف في الفروع، وليس في الأصول، يقول تعالى :

﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾[٢١١]

فليست هناك أديان، بل هو دين واحد مفرد. والأنبياء كلهم ينتظمون في خط واحد، وطريقة واحدة، وهدف واحد، كما جاء في الآية المباركة :

﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾[٢١٢]

فالقرآن الكريم يعلمنا أن كل رسول يرسل، وكل كتاب ينزل، قد جاء مصدقا ومؤكدا لما قبله؛ فالإنجيل مصدق ومؤيد للتوراة، والقرآن مصدق ومؤيد للإنجيل والتوراة ولكل ما بين يديه من الكتب، وقد أخذ الله الميثاق على كل نبي إذا جاءه رسول مصدق لما معه أن يؤمن به وينصره[٢١٣]، يقول تعالى :

﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين(٨١)فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾[٢١٤]

﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾[٢١٥]

إن القول بوحدة الأديان، أو الدين الواحد، يبتني على حقيقة وحدة النوع الإنساني، ووحدة المجتمعات الإنسانية، دون تمييز بين جنس وآخر، وبين قوم وآخرين، وإنما هي نظرة تنطلق نحو جوهر الإنسان، كما صدع بها القرآن الكريم :

﴿ ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[٢١٦]

إن هذه الحقيقة القرآنية في النظرة إلى وحدة الدين، يتفرع منها القول : بأن المجتمعات، والحضارات، والثقافات، تسير نحو الاتحاد، والاندماج، وأن مستقبل

المجتمعات البشرية، هو المجتمع العالمي الموحد المتكامل الذي تصل فيه جميع القيم البشرية الممكنة إلى حد الفعلية، ويصل فيه الإنسان إلى كماله الحقيقي وسعادته الواقعية والإنسانية الأصيلة[٢١٧].

وما يؤكد هذه النظرة القرآنية إلى وحدة المجتمعات الإنسانية، وضرورة التحامها في المستقبل، هي عالمية الإسلام، تلك العالمية المنبثقة من صميم عقيدته؛ لأنه دين الإنسانية كلها، ليس لجغرافيته حدود، وليس للعنصرية فيه وجود. وبذلك خاطب الحق تعالى رسوله الكريم قائلا:

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[٢١٨]

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[٢١٩]

﴿ قل ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ﴾[٢٢٠]

إن كثيرا من الإرهاصات، تنبئ بحقيقة أن المستقبل لحضارة الإسلام[٢٢١]. كما أن البحث العميق في أحوال الموجودات الكونية، يؤدي إلى أن النوع الإنساني سيبلغ غايته وينال بغيته، وهي كمال ظهور الإسلام بحقيقته في الدنيا، وتوليه التام أمر المجتمع الإنساني وقد وعده الله بتحقيق هذا الظهور في كتابه العزيز[٢٢٢]، في آيات عديدة:

﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين(٥) ونمكن لهم في الأرض ﴾[٢٢٣]

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ﴾[٢٢٤]

﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾[٢٢٥]

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[٢٢٦]

مفهوم التكامل الاجتماعي والتاريخي في القرآن:

الأصل في حركة المجتمع والتاريخ البشري ـ بحسب الرؤية القرآنية ـ أنها حركة

متغيرة، مستمرة، لا تقبل السكون، كما في قوله تعالى:

﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه﴾[227]

﴿لتركبن طبقا عن طبق﴾[228]

تؤكد هاتان الآيتان بأن المفهوم العام لحركة التاريخ، يقوم على الاستمرارية والمواصلة في خط حركة المجتمعات البشرية، التي تسير وتتحرك دائما من حالة إلى أخرى ومن موقع إلى آخر، بنحو يوصلها في نهاية المطاف إلى لقاء الله تعالى، في الدنيا والآخرة.

ولقاء الله تعالى في الدنيا، يتمثل بحركة البشرية نحو مستقبل مشرق سعيد، تختفي فيه مظاهر الظلم والفساد، وذلك بتحقيق «سنة الله في وراثة الأرض، وصيرورتها للصالحين من عباده في الحياة»[229]، كما ورد في البشائر القرآنية التي ذكرناها، ومنها:

﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[230]

وأما لقاء الله تعالى في الآخرة، فذلك في يوم الحساب، يوم يجمع الناس لينالوا جزاء أعمالهم:

﴿ إن إلينا إيابهم(٢٥)ثم إن علينا حسابهم﴾[231]

تنبثق هذه الرؤية العامة عن حركة المجتمع والتاريخ، من صميم الرؤية الفلسفية للإسلام عن الكون، الذي هو في حالة صيرورة مستمرة منذ البداية وحتى النهاية. وقد تمكن الفيلسوف الإسلامي الكبير صدر الدين الشيرازي (توفي:١٠٥٠هـ/١٦٤٠م) من صياغة نظرية الحركة العامة، وسماها بالحركة الجوهرية. إذ برهن فلسفيا على أن الحركة بمفهومها الدقيق، لا تمس ظواهر الطبيعة وسطحها العرضي فحسب؛ بل الحركة في تلك الظواهر ليست إلا جانبا من التطور يكشف عن جانب أعمق، وهو التطور في صميم الطبيعة وحركتها الجوهرية. فالحركة في المفهوم الإسلامي تعد سيرا تدريجيا للوجود، وتطورا في الدرجات التي تتسع لها إمكاناته. فهي تطور وتكامل تدريجي للشيء الناقص، ولا يمكن للشيء الناقص أن يطور نفسه، ويكمل وجوده تدريجيا بصورة ذاتية؛ لأن الناقص لا يكون سببا في الكمال. حينئذ لابد من التفتيش عن سبب الحركة الجوهرية للمادة، وممونها الأساسي خارج حدودها، ولابد أن يكون هذا السبب هو الله تعالى،

الحاوي ذاتيا على جميع مراتب الكمال[٢٣٢].

وقد تحدثت عدة آيات من القرآن المجيد عن مسيرة تكامل الكون والإنسان والمجتمع، منها :

١. قوله تعالى :

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[٢٣٣]

يتضح من هذه الآية المباركة أن الدين الحنيف القيم، هو الخط أو الاتجاه الصحيح؛ للسير التكاملي لحركة الإنسان والبشرية في الحياة؛ لأنه وحده الذي تنسجم معه فطرة الإنسان، وتتفاعل معه طبيعته الروحية. لذا أمر الحق سبحانه وتعالى نبيه الكريم بأن يقيم وجهه لهذا الدين .

يقول ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى : «فأقم وجهك للدين حنيفا»: «فسدد وجهك، واستمر على الدين، الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هداك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة، التي فطر الله الخلق عليها»[٢٣٤].

ويقول الزمخشري: «فقوم وجهك له وعدله، غير ملتفت عنه يمينا ولا شمالا، وهو تمثيل لإقباله على الدين، واستقامته عليه، وثباته واهتمامه بأسبابه»[٢٣٥].

٢. قوله تعالى:

﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾[٢٣٦]

يتضح من هذه الآية الشريفة أن مسيرة الإنسان والبشرية، مسيرة موجهة وهادفة، وتسير في خط يسمى الصراط المستقيم، وهي معلومة المبدأ والمسير والمنتهى[٢٣٧]. فالحياة واحدة ومتصلة، والإنسان يسير دائما قدما، فيتلقى على الدوام نورا جديدا من الحق غير المتناهي[٢٣٨]. وهذا يعني، أن هناك طريقا واحدا يصل به الإنسان إلى هذا الهدف، لا يوجد غيره، ولا سبيل سواه، وهو الطريق المستقيم، الذي يبدأ من الإيمان بالله تعالى، وينتهي بنيل رضاه[٢٣٩]. وهذا هو صراط الله، وهذا هو سبيله...ليس وراءه إلا السبل التي تتفرق بمن يسلكونها عن سبيله[٢٤٠].

٣. قوله تعالى :

﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾[٢٤١]

يتضح من هذه الآية المباركة أن المسيرة البشرية في خطها العام، هي مسيرة تكاملية. منذ أن بدأت في عهد آدم أبي البشر، وحتى عصر الشريعة الخاتمة، شريعة الإسلام، حيث خضعت إلى «سياسة حكيمة رسمتها يد العناية الإلهية؛ لتربية البشرية تربية تدريجية لا طفرة فيها ولا ثغرة، ولا توقف فيها ولا رجعة، ولا تناقض ولا تعارض، بل تضافر وتعانق، وثبات واستقرار، ثم نمو واكتمال وازدهار»[٢٤٢]... وهي في مسيرها التكاملي تشبه القافلة «التي تتحرك في طريق معين نحو مقصد معلوم، ولكنها لا تعرف الطريق فتصادف في كل فترة شخصا يعرف الطريق. وبعد أن تستدل منه عليه تطوي من الطريق عشرات الكيلو مترات حتى تصل مكانا تحتاج فيه مجددا إلى دليل جديد، وبعد أن تأخذ توجيهات منه، يضاء أمامها أفق جديد فتطوي عشرات أخرى من الكيلو مترات بما أخذته من توجيهات، وهكذا حتى تخلق لديها تدريجيا قابلية أكبر في العلم، فتصل إلى شخص تأخذ منه ـ الخارطة الشاملة ـ فتستغني دوما بتلك الخارطة عن دليل جديد»[٢٤٣].

وقد ورد مصطلح «التكامل» بمدلوله الحركي الواسع الذي يلقي بظلاله على مسار حركة التكامل في المجتمع والتاريخ، في القرآن الكريم خلال قوله تعالى :

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾[٢٤٤]

إن هذه الآية المباركة تؤكد، بأن حركة التشريع في خط الدين، كانت تخطو خطوات متوافقة مع حركة الإنسان في الحياة، فلم يبعث الله تعالى «الأحكام دفعة واحدة؛ بل كان التدرج هو الخط الذي خطه الإسلام للإنسان ليصل به إلى التكامل، حتى كانت نهاية المطاف، وأكمل الله للمسلمين دينهم، وأتم عليهم نعمته به»[٢٤٥].

وبما أن مفهوم التكامل كما يقرره الراغب الأصفهاني: «هو حصول ما فيه الغرض منه»[٢٤٦].فإن هذه الآية المباركة تقرر حصول تكامل الدين الذي غرضه تحقيق إنسانية الإنسان، ونيل سعادته في الدنيا والآخرة.حيث صرحت ـ الآية المباركة ـ بخاتمية الدين،

الذي بلغت به الإنسانية «سن الرشد، ومرحلة النضج والاستواء، فقد خرجت من إطارها الضيق الذي عاشت فيه قرونا طويلة؛ لأسباب تاريخية طبيعية يطول شرحها، واستعدت لأن تدخل في مرحلة جديدة من العلم والمدنية»[٢٤٧].

إذن فكرة «إكمال الدين»، وختم النبوات، إعلان بأن البشرية قد طوت مراحل عديدة في تكاملها، حتى وصلت إلى مرحلة ظهور الإسلام، التي تم فيها مولد العقل الاستدلالي، كما قال محمد إقبال: «إن النبوة في الإسلام لتبلغ كما لها الأخير في إدراك الحاجة إلى إلغاء النبوة نفسها. وهو أمر ينطوي على إدراكها العميق لاستحالة بقاء الوجود معتمدا إلى الأبد على مقود يقاد منه، وأن الإنسان؛ لكي يحصل كمال معرفته لنفسه، ينبغي أن يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو. إن إبطال الإسلام للرهبنة، ووراثة الملك ومناشدة القرآن للعقل وللتجربة على الدوام، وإصراره على أن النظر في الكون، والوقوف على أخبار الأولين من مصادر المعرفة الإنسانية، كل ذلك صور مختلفة لفكرة انتهاء النبوة»[٢٤٨].

إن أول الآيات التي نزلت من القرآن الكريم، تحدثت عن القراءة والقلم والعلم:

﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق(١)خلق الإنسان من علق(٢)اقرأ وربك الأكرم(٣)الذي علم بالقلم(٤)علم الإنسان ما لم يعلم﴾[٢٤٩]

فهذه الآيات المباركة، تعلن أن عصر القرآن، هو عصر القراءة والكتابة والعلم والتعلم والعقل. وهي تلمح بأن واجب التعليم والتبليغ، وحمل الرسالة الإلهية، قد انتقل في عصر الإسلام إلى العلماء، فهم من هذه الناحية خلفاء الأنبياء. وهذا إعلان ببلوغ البشرية واستقلالها من هذه الناحية[٢٥٠].

وبعيدا عن الأفكار والنظريات المسبقة في بحث قضية «تكامل حركة التاريخ»، نعود إلى التاريخ نفسه؛ لنستنطق مجريات حركته، ونستكشف منها فيما إذا كانت هذه الحركة تنطوي على سير تكاملي أو تقدمي ـ كما يسميه البعض ـ وهو الطريق الأسلم للوصول إلى معرفة مثل هذه القضايا. كما تجدر الإشارة إلى أن مفهوم التكامل أو التقدم الذي نقصده في البحث، لا يختلف أساسا عن مفهوم «التحضر» كثير التداول في أدبياتنا في هذا العصر. وقد حدد أحد الباحثين المعاصرين مقياسا صحيحا، تقدر به حركة التحضر الإنساني، وهو المقياس نفسه الذي تقدر به حركة تكامل التاريخ البشري، حيث يرى أن لحركة التكامل أو

التقدم «ثلاث جبهات رئيسية: جبهة الطبيعة، وجبهة البيئة البشرية، وجبهة الذات» [٢٥١] الإنسانية. وعند دراسة مقدار «التحسن» الذي شهدته البشرية في مسيرتها عبر الأجيال والقرون في الماضي والحاضر مع هذه الجبهات الثلاث؛ بتسخير ما في الكون والطبيعة لصالح الإنسان أولا، وبتحقيق قدر أكبر من العدالة الاجتماعية، ورفع الظلم عن الناس في علاقاتهم ونمط التركيب الاجتماعي فيما بينهم ثانيا، وبتحرير الذات الإنسانية من حدود أهوائها وأنانيتها وعصبياتها الضيقة ثالثا، بقدر ذلك التحسن نستطيع أن نلحظ حركة التكامل في التاريخ. وبما أن «فلسفة التاريخ في القرآن الكريم تقوم على تأكيد اتجاه التاريخ في الماضي والمستقبل نحو قيم الحق والخير مهما طال أمر الشر والباطل» [٢٥٢]. فإننا نجد مصداقية هذا الاتجاه التاريخي خلال ما قطعته البشرية من تقدم في هذه الجبهات الثلاث. وبما أن موضوع حركة التاريخ، هو حركة الإنسان في الزمان، فإننا نعتقد أن سر التكامل في حركة التاريخ، يكمن في تكامل المسيرة البشرية. ولن يتحقق هذا التكامل المنشود إلا بتحقق المجتمع الإنساني الصالح، العابد لله تعالى، الذي يتساوى فيه جميع أفراده، ويرفلون بالعدالة والحرية والكرامة. وهو المجتمع الموعود في القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ [٢٥٣]

وعندما نتصفح تأريخ البشرية الطويل، فإنه يضع بين أيدينا صورة واضحة عما قطعته البشرية من أشواط كبيرة في مراحل تكاملها، أو تقدمها في هذه المجالات الثلاثة :

١. مجال الكون والبيئة الطبيعية

فقد حصل للبشرية على مدار الأجيال والقرون، تقدم هائل في قدرة الإنسان واستثماره لما في الكون والطبيعة من كنوز وخيرات لصالحه. فقد بدأت الإنسانية حياتها مستعينة بأدوات من الحجارة، ثم أخذت تتطور وتتقدم حتى وصلت اليوم إلى مراحل مذهلة من التقدم العلمي والتطور التكنولوجي في مختلف ميادين المعرفة. وذلك بفضل ما منحه الله تعالى لهذا الإنسان من قدرة على التعلم:

﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ [٢٥٤]

إن مسيرة تكامل قدرة البشرية في هذا المجال واضحة وجلية، «سواء كان مقياسنا

القدرة على اتقاء شرور الطبيعة، أو القوة على اختراق حواجزها وحدودها وتقليص أبعادها، أو النجاح في استغلال مواردها واستثمار ثرواتها، أو غير هذه من وجوه التسلط والغلبة، أو كلها مجتمعة، فلاشك في التقدم المديد الذي حدث في هذه الجبهة، وفي عظم الانتصارات التي أحرزت، وخطورة المكاسب التي اجتنيت»[٢٥٥]. وستبقى مسيرة هذا التقدم ـ بإذن الله تعالى ـ في تصاعد مستمر، وسوف لن تتوقف عند مرحلة معينة. فإذا ما انتهى الإنسان من استيلائه على الأرض، فإنه سيباشر بالاستيلاء على السماء، وعلى كل أبعاد الكون؛ لأنه في نمو مستمر لا ينقطع، ولا توضع له حدود مفترضة من هذه الناحية[٢٥٦]. فهذا الكون قد سخره الله تعالى لخدمة الإنسان وصالحه:

﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض ﴾[٢٥٧]

ومن الأهمية بمكان القول: إن هذه المسيرة التكاملية أو التقدمية التي قطعتها البشرية، ضمن تاريخها المديد، لم تكن على شكل خط مستقيم تصاعدي ـ كما يذهب إلى ذلك أصحاب نظرية التقدم الصاعد للتاريخ ـ بل مرت بحالات من الإلتياث والتدهور، حتى ساد الجهل والجمود حركة الإنسان وكدحه مع البيئة الطبيعية، فتعطلت مسيرة البشرية أحيانا، وتراجعت إلى الوراء أحيانا أخرى ولكن الإنسان، وبفعل ما أودع الله فيه من فطرة نحو التكامل والمضي إلى الأمام، استطاع بجهده وجهاده أن يسترد مكاسبه وإنجازاته التي حققها في الماضي، وأن يعمل على مواصلة الشوط بتسخيره لما في الكون والطبيعة بشكل يحقق إنسانيته ويخدم مصالحه.

٢. مجال البيئة الاجتماعية

حيث تقدم المجتمع البشري في علاقات البناء والتركيب الاجتماعي بين أفراده، تقدما ملحوظا، «فقد وجدت البشرية في أول أمرها ساذجة وبسيطة وبقيت كذلك ردحا من الزمن حتى استطاعت بالتدريج البطيء أن تسير نحو الأفضل وقد لاقت خلال سيرها هذا كثيرا من المشاكل والويلات»[٢٥٨]. فبعد أن كان الإنسان يعيش حالة البداوة والقبلية، التي يحكمها شخص واحد، يساعده في ذلك أفراد قلائل آخرون، أصبح اليوم يعيش في ظل شبكة معقدة من التقسيمات الإدارية والسياسية في المجتمعات المدنية المعاصرة،

تفرض عليه ألوانا من العلاقات والإجراءات الاجتماعية المختلفة. ولهذا التقدم الذي قطعته البشرية في هذا المجال «مضمون جوهري تجتمع فيه معانيه وتتبين على ضوئه أشكاله وألوانه ومراحله. هذا المضمون هو الكسب المحرز في حقوق الأفراد والجماعات وفي صيانتها وتثبيتها عمليا. فنحن إذا قابلنا أوضاع الأفراد والجماعات اليوم وما كانت عليه في المراحل السابقة من التاريخ البشري لحظنا مدى هذا التقدم وما يمثله من مكاسب وإنجازات في تحرير الإنسان من الإنسان»[(٢٥٩)]. ورغم هذا التكامل الذي قطعته المجتمعات الإنسانية عبر كفاحها المرير، إلا أننا لازلنا نجد صورا مرعبة من الظلم والقهر، واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان، ومصادرة لحقوق الأفراد والشعوب، واستنزاف لمواردهم، وخيراتهم، وعدم توفير الحد الأدنى من مستلزمات الغذاء واللباس والسكن والكرامة لهم. فهذه الصور الظلامية لازالت موجودة اليوم وتعاني منها كثير من الشعوب، ولكن مع ذلك نجد البشرية إذا ما قورنت بالماضي الغابر، فإنها تكون قد تجاوزت كثيرا من العقبات التي عاشتها وعانت منها في الماضي. فعلى سبيل مثال «تحمل المسؤولية» من قبل الإنسان في تحرير نفسه ومجتمعه أو الجهاد في الدفاع عن ذاته ومقدساته، أو التفكير برسالة عالمية لتحرير كل البشر من ربقة الجهل والظلم، نجد مثل هذا الشعور أو التحمل للمسؤولية له درجات، ولم يستطع الإنسان دفعة أن يصل إلى درجة أعباء التحمل للرسالة العالمية الواسعة، غير محدودة الزمان والمكان، وإنما استطاع أن يصل إلى ذلك عبر مران طويل، على تحمل المسؤوليات[(٢٦٠)]، فعند المقارنة بين المسؤولية التي تحملتها أمة موسى (عليه السلام) وبين المسؤوليات الكبيرة التي تحملتها الأمة الإسلامية، نجد فرقا هائلا بينهما. إن أمة موسى (عليه السلام) لم تنهض بأعباء الدفاع عن حريتها وكرامتها عندما دعاها نبيها إلى تحمل مسؤولية التضحية في سبيل الدخول إلى الأرض المقدسة (فلسطين) فتراجعت وتخاذلت وكان موقفها كما حكاه القرآن الكريم :

﴿ قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾[(٢٦١)]

بينما نجد الأمة الإسلامية، عندما دعاها نبيها (صلوات الله وسلامه عليه) إلى الجهاد في سبيل الله تعالى، وتحمل مسؤولية الدفاع عن الحق والكرامة في أول واقعة مع قوى الشرك

والضلال في معركة بدر الكبرى، كان جوابهم له على لسان المقداد بن عمرو الكندي: يا رسول الله، امض لما أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون». ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[٢٦٢] لجالدنا معك من دونه، حتى تبلغه[٢٦٣].

إذن قطعت البشرية في هذا المجال الاجتماعي تقدما كبيرا، وإن لم يكن بالشكل الذي حصل في مجال البيئة الطبيعية. كما أن هذا التقدم لم يتخذ خطا مستقيما تصاعديا، بسبب ما أصابها من عمليات إعاقة وتخريب على أيدي الظالمين، الذين أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، وأضاعوا كثيرا من المكاسب التي تحققت في خط العدالة والحرية وإعلان الحقوق الفردية والاجتماعية.

٣. مجال بناء الذات الإنسانية

مع إقرار القرآن الكريم بأن طبيعة الذات الإنسانية، تحمل في طياتها قابلية الظلم والشر والعدوان، كما في قوله تعالى عن هذا الإنسان:

﴿إنه كان ظلوما جهولا﴾[٢٦٤]

﴿كلا إن الإنسان ليطغى(٦)أن رآه استغنى﴾[٢٦٥]

﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلا﴾[٢٦٦]

﴿ونفس وما سواها(٧)فألهمها فجورها وتقواها﴾[٢٦٧]

ومع كل ما نراه من أنانيات ضيقة، وشخصانية خانقة، تدفع بالنفوس نحو الحقد، والحسد، والكيد، والظلم، والاستئثار، والقسوة، والتسلط، والإحتكار، والكفر، والضلال، والنفاق، وغيرها من الممارسات الذميمة، التي تعاني منها مجتمعاتنا اليوم، إلا أننا ينبغي أن لا «ننكر التقدم الذي حصل في الميادين الخلقية والأدبية، وهو تقدم، وإن كان ضئيلا جدا بالنسبة إلى التقدم التقني، جدير بأن يلحظه الباحث المنصف، وأن يعترف به ويسجله. ودليلنا على هذا، هو الإقرار المتزايد بالحقوق الإنسانية، ومن مكاسب ملموسة في ميادين الحرية والعدالة والمساواة. فإن تبين هذه الحقوق، وتتابع الجهود والثورات في سبيل

ضمانها، وإقامة النظم والمؤسسات لصيانتها وتنميتها. إن هذا وأمثاله من الإنجازات الاجتماعية ومن المغانم التحررية للأفراد وللشعوب، لتعبر عن تيقظ في ضمير الإنسانية وعن وعي أدبي منتشر وعن إدراك متكاثر لكرامة الإنسان وحرمته»[٢٦٨].

هكذا نجد البشرية على امتداد مسيرتها، كما قطعت أشواطا كبيرة في تسخيرها لما في الكون والطبيعة، كذلك استطاعت أن تتقدم ـ بشكل وآخر ـ في تراكيب بنائها الاجتماعي، بشكل ملحوظ نحو حريتها وكرامتها الإنسانية. ومع كل ذلك فهي لا تزال تمارس «جهادها النفسي»، نحو تحرير الذات الإنسانية والانطلاق بها بعيدا عن الأنانية وظلم الآخرين، وتقربا إلى الله تعالى في كل ممارساتها الحياتية. «فالإنسانية بمجموعها تكدح نحو الله سبحانه وتعالى، والكدح كدح الإنسانية ككل نحو الله سبحانه وتعالى، يعني السير المستمر بالمعاناة وبالجهد وبالمجاهدة؛ لأن هذا السير ليس سيرا اعتياديا؛ بل هو سير إرتقائي، هو تصاعد وتكامل، هو سير تسلق»[٢٦٩]، كما أشارت إليه الآية المباركة:

﴿ ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ﴾[٢٧٠]

تبقى أخيرا ملاحظة هامة، تجدر الإشارة إليها، وهي أن القرآن الكريم عندما يشير إلى فكرة تكامل حركة التاريخ، لا يطرحها على أساس كونها قانونا عاما، وحتمية دائمة، مسيطرة على حركة المجتمع والتاريخ؛ بل يطرحها بمثابة «ميل» نحو التكامل. ومن الطبيعي هناك فرق بين «القانون» وبين «الميل»[٢٧١]. وبذلك تكون مسيرة البشرية ـ وفق الرؤية القرآنية ـ تتجه في خطها الكلي العام، نحو التكامل والتقدم بشكل تصاعدي، دون أن يكون بالضرورة سيرا مستقيما وحتميا، ومعنى ذلك ليس بالضرورة أن تكون المرحلة اللاحقة التي تعيشها، أفضل وأكثر تكاملا من المرحلة السابقة؛ بل إن مسيرتها تتأرجح بين السرعة وبين البطء، وبين الازدهار وبين الانحطاط، وبين الارتفاع وبين السقوط؛ لأن الإنسان، هو العنصر الأساسي في حركة التاريخ، وشاء الله تعالى أن يجعله مختارا مريدا، وبيده فلاح نفسه ودمارها كما قال تعالى:

﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى(٣٩)وأن سعيه سوف يرى(٤٠)ثم يجزاه الجزاء الأوفى(٤١)وأن إلى ربك المنتهى ﴾[٢٧٢]

الهوامش

١) انظر : محمد مهدي الآصفي ؛ المذهب التاريخي في القرآن، ص٦.

٢) د. أحمد محمود صبحي : في فلسفة التاريخ، ص٤٣.

٣) د. عاصم الدسوقي : البحث في التاريخ، ص١٠٤.

٤) كارل بوبر : بؤس الأيديولوجيا، ص١٩.

٥) د.محمد فتحي عثمان: المدخل إلى التاريخ الإسلامي، ص٥٠١،نقلا عن: علي أدهم؛ برتراند راسل وموقفه من التاريخ وفلسفته – المجلة، القاهرة (العدد ٢٧/ مارس ١٩٥٩).

٦) انظر : محمد مهدي الآصفي : المذهب التاريخي في القرآن، ص٨ ـ ٩.

٧) محمد تقي مصباح : النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ، ص١٨٤.

٨) محمد مهدي الآصفي : المذهب التاريخي في القرآن، ص٩.

٩) محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة، ص ٣٨٤.

١٠) بليخانوف : فلسفة التاريخ، ((المفهوم المادي للتاريخ))، ص٤٦.

١١) د. عدنان أحمد مسلم: محاضرات في علم الاجتماع،مطبعة دار الكتاب، دمشق، (١٤١٩هـ ١٩٩٨م)، ص٦٨،٦٩.

١٢) د. علي شريعتي : الإنسان والتاريخ، ترجمة : خليل علي، دار الصحف للنشر، طهران ـ إيران، ١٤١١هـ، ص٣٢.

١٣) د. محمد فتحي عثمان : المدخل إلى التاريخ الإسلامي، ص٤٧٥.

١٤) جوردون شايلد : التاريخ، ص٨١

١٥) د. شحادة الناطور وآخرون: مدخل إلى تاريخ الحضارة، ص٤٢.

١٦) انظر : د. أحمد محمود صبحي؛ في فلسفة التاريخ، ص٢٤٥.

١٧) غيورغي بليخانوف : دور الفرد في التاريخ ، ص٩٧.

١٨) د. أحمد محمود صبحي : في فلسفة التاريخ، ص١٦٦.

١٩) انظر : محمد مهدي الآصفي : المذهب التاريخي في القرآن، ص١٤.

٢٠) د. أحمد محمود صبحي : في فلسفة التاريخ، ص١٦٦.

٢١) أدوارد كار : ما هو التاريخ؟ ، ص٨٢

٢٢) د. أحمد محمود صبحي : المرجع السابق، ص١٨٦.

٢٣) الشهرستاني : كتاب الملل والنحل، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ط٢، (د.ت)، ج ١، ص ٢٠٠.

٢٤) الكتاب المقدس : دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، ص٥.

٢٥) سورة المائدة ، من الآية :٦٤.

٢٦) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج٦، ص ٤٠.

٢٧) الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج١٢، ص

.٤١

٢٨) د. أحمد شلبي : اليهودية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١٢، ١٩٩٧م، ص١٨٩ - ١٩٠

٢٩) د. أحمد محمود صبحي : في فلسفة التاريخ، ص١٦٧.

٣٠) سورة يونس ، من الآية :٣٢.

٣١) انظر : الشيخ نديم الجسر؛ قصة الإيمان ، ص٢٩٢ وما بعدها.

٣٢) سورة الطور ، الآية :٣٥.

٣٣) سورة النحل ، الآية :١٧.

٣٤) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٧٤.

٣٥) السيد محمد باقر الصدر : فلسفتنا ، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط١٠، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م)، ص٣٠٥.

٣٦) سورة آل عمران ، من الآية: ٨٣.

٣٧) د. عماد الدين خليل : حول إعادة تشكيل العقل المسلم ، ص٥١.

٣٨) د. محمد رشاد خليل : المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره، ص١٠٣.

٣٩) سورة الأنبياء ، الآية :٦٨.

٤٠) أبو الحسن الندوي : النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ، ص١١٦ - ١١٧.

٤١) سورة الأنبياء ، الآيتان :٦٩-٧٠.

٤٢) انظر : ص ٢٥٠، من الفصل السابق.

٤٣) سورة النحل ، الآية :٣٤.

٤٤) سورة المدثر ، الآية :٣٨.

٤٥) سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد٦، ص٣٧٦١.

٤٦) سورة الكهف ، الآية :٥٩.

٤٧) تفسير القرطبي : ج١١، ص٨

٤٨) سورة النجم ، الآيات :٣٩-٤١.

٤٩) سورة النحل ، الآية :٩٧.

٥٠) محمد مهدي الآصفي: المذهب التاريخي في القرآن،ص٢٩.

٥١) د. محمد رشاد خليل : المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره، ص١٠٠.

٥٢) سورة البقرة ، من الآية :٢٥٥.

٥٣) الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج٧، ص٨

٥٤) السيد محمد حسين فضل الله: تفسير من وحي القرآن، ج٥، ص٣٠-٣١.

٥٥) سورة البقرة ، من الآية :٦٤.

٥٦) سورة النساء ، من الآية :١١٣.

٥٧) سورة النمل ، الآية :٧٣.

٥٨) سورة الحديد ، من الآية :٢١.

٥٩) محمد مهدي الآصفي : المذهب التاريخي في القرآن ، ص٣٦.

٦٠) سورة الأنبياء ، الآيات :٦٨-٧٠.

٦١) سورة الصافات ، الآيات :١١٤-١١٦.

٦٢) سورة الأنفال ، الآية :٣٠.

٦٣) انظر : ابن هشام ؛ السيرة النبوية، القسم الأول، ص٤٨٣.

٦٤) سورة يس ، الآية :٩.

٦٥) انظر : د. عماد الدين خليل : المنظور التاريخي في فكر سيد قطب، دار القلم،

دمشق، (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م)، ص ٦١.

٦٦) سورة الروم ، الآية :٣٠.

٦٧) السيد محمد باقر الصدر : اقتصادنا، ص ٣٢٧ .

٦٨) رواه أبو هريرة : فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي، ج٣، ص٢١٩، رقم الحديث: ١٣٥٨.

٦٩) سورة الأعراف ، الآية :١٧٢.

٧٠) سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد٣ ، ص١٣٩٣.

٧١) د. رشدي عليان،و سعدون الساموك : الأديان دراسة تاريخية مقارنة، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، (١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦م)، ص٢٨٢٧.

٧٢) د. محمد عبد الله دراز : الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، ص٨٣

٧٣) د. محمود حمدي زقزوق : دراسات في الفلسفة الحديثة، دار الطباعة المحمدية بالقاهرة، ١٩٨٨م، ص١٠٧.

٧٤) الشيخ جعفر السبحاني : الله خالق الكون، بقلم: جعفر الهادي، منشورات سيد الشهداء العلمية، قم - إيران، ١٤٠٥هـ ص١٢٨.

٧٥) ول ديورانت : قصة الحضارة، ج١، ص٩٩ - ١٠٠.

٧٦) السيد محمد باقر الصدر : موجز في أصول الدين، تحقيق: عبد الجبار الرفاعي، دار سعيد بن جبير، قم - إيران، ١٤١٧هـ ، ص١٠١.

٧٧) سورة آل عمران ، الآية :١٧٣.

٧٨) وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى، ترجمة: ظفر الإسلام خان، دار البحوث العلمية، الكويت، ط٢، (١٣٩٣هـ .١٩٧٣م)، ص٢٩.

٧٩) انظر : محمد مهدي الآصفي : دور الدين في حياة الإنسان، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط٢، (١٣٩٥هـ .١٩٧٥م)، ص ٦٠ وما بعدها.

٨٠) سورة فاطر ، من الآية :٢٨.

٨١) سورة الزمر ، من الآية :٩.

٨٢) السيد محمد باقر الصدر : اقتصادنا ، ص ١١٣.

٨٣) النظام الشيوعي: منشورات روسية، ص٩٢.

٨٤) كارل ماركس: منشورات روسية، ص١٦. ١٧.

٨٥) سورة النازعات ، الآية :١٧.

٨٦) سورة هود ، الآية :١١٣.

٨٧) سورة التوبة ، الآيتان :٣٥.٣٤.

٨٨) سورة الأنفال ، من الآية :٦٠.

٨٩) د. محمد عبد الله دراز : الدين ، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، ص١٣٩.

٩٠) وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ، ص ٢٨.

٩١) انظر : د. أحمد عبد الرحيم السايح ؛ بحوث في مقارنة الأديان، دار الثقافة، الدوحة - قطر، (١٤١١هـ - ١٩٩١م)، ص٧٣ - ٧٤.

٩٢) محمد مهدي الآصفي : دور الدين في حياة الإنسان ، ص١٠١.

٩٣) مالك بن نبي : ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية ، ص٦٩ .

٩٤) سورة الرعد ، الآية :٢٨.

٩٥) د. حسين مؤنس : الحضارة ، ص٣٥٢.

٩٦) الشيخ مرتضى المطهري : الإنسان والإيمان، ترجمة : عبد المنعم الخاقاني، منظمة الإعلام الإسلامي، طهران - إيران، ط ٢، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م)، ص٤٤.

٩٧) سورة آل عمران ، من الآية :٨٣

٩٨) سيد قطب : الإسلام ومشكلات الحضارة، ص٤٠.

٩٩) وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ، ص ٩٢.

١٠٠) سورة طه ، من الآية :١٢٤.

١٠١) سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد٤، ص٢٣٥٥.

١٠٢) د. يوسف القرضاوي : الإيمان والحياة ، ص٨٢

١٠٣) سورة النساء ، من الآية :٧٧.

١٠٤) سورة القصص ، الآية :٨٣

١٠٥) سورة العنكبوت ، من الآية :٦٤.

١٠٦) مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية، ترجمة : عبد الصبور شاهين ، دار الفكر، دمشق، ط ٤ ، (١٤٠٧هـ.١٩٨٧م)، ص٦٩.

١٠٧) د. محمد عمارة : بحث بعنوان ((حضارة أم حضارات)) ، في كتاب : الحضارة الإنسانية، ج١، ص٢١٠.

١٠٨) انظر : ص ٢٤٥، من الفصل السابق.

١٠٩) سورة الروم ، الآية :٣٠.

١١٠) السيد محمد باقر الصدر : المدرسة القرآنية، ص١٣٥.

١١١) سورة البقرة ، من الآية :٣٠.

١١٢) محمد عبد الجبار : المجتمع، ص٢٦.

١١٣) سورة البقرة ، من الآية :٣٠.

١١٤) سورة الأحزاب ، الآية :٧٢.

١١٥) انظر : السيد محمد باقر الصدر ؛ خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء ، ص١٥.

١١٦) سورة البقرة ، الآية :١٣٨.

١١٧) سورة يوسف ، الآية :٣٩.

١١٨) سورة يوسف ، من الآية :٤٠.

١١٩) الشيخ محمد مهدي شمس الدين : في الاجتماع السياسي الإسلامي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)، ص٩٩.

١٢٠) سورة الحجرات ، الآية :١٣.

١٢١) سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد٦، ص٣٣٤٨.

١٢٢) سورة البقرة ، من الآية :٢٠٨.

١٢٣) الشيخ محمد مهدي شمس الدين : في الاجتماع السياسي الإسلامي، ص٩٨.

١٢٤) سورة الأحزاب ، الآية :٧٢.

١٢٥) الشيخ محمد مهدي شمس الدين : حركة التاريخ عند الإمام علي ، ص٧٥.

١٢٦) سورة البقرة ، من الآية :٤٠.

١٢٧) سورة الإسراء ، من الآية :٣٤.

١٢٨) السيد محمد باقر الصدر : خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء ، ص١٦.

١٢٩) أبو الحسن الندوي : النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ، ص٩٨.

١٣٠) سورة الحديد ، الآية :٢٥.

١٣١) سورة المؤمنون ، الآية :١١٥.

١٣٢) سورة العلق ، الآية :٨.

١٣٣) سورة فاطر ، من الآية :١٨.

١٣٤) سورة النجم ، الآية :٤٢.

١٣٥) د. محمد إقبال : تجديد التفكير الديني في الإسلام ، ص١٥٢.

١٣٦) سورة الانشقاق ، الآية :٦.

١٣٧) سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد٦، ص٣٨٦٦.

١٣٨) د. عفت الشرقاوي : في فلسفة الحضارة الإسلامية، ص٢٤٧.

١٣٩) سميح عاطف الزين : حركة التاريخ في المفهوم الإسلامي، ص٤٣.٤٤.

١٤٠) انظر : د. شحادة الناطور، وآخرون: مدخل إلى تاريخ الحضارة ، ص٥٣.٥٤.

١٤١) سورة الأنعام ، من الآية : ٥٣.

١٤٢) سورة الأنبياء ، من الآية : ٣٥.

١٤٣) أنور الجندي : الإسلام وحركة التاريخ، ص٤٩٣.

١٤٤) سورة المائدة ، من الآية :٣٢.

١٤٥) سورة الروم ، من الآية :٤٧.

١٤٦) سورة الحديد ، الآية :٢٥.

١٤٧) سورة الرحمن ، الآية :٢٩.

١٤٨) ابن خلدون : المقدمة ، ص٢٨.

١٤٩) سورة البقرة ، من الآية :٢٥١.

١٥٠) سورة محمد ، الآية :٣١.

١٥١) سورة المائدة ، من الآية :٤٨.

١٥٢) سورة هود ، الآيتان :١١٨.١١٩.

١٥٣) الشيخ محمد مهدي شمس الدين : حركة التاريخ عند الإمام علي، ص٥٢.

١٥٤) حسين معن : نظرات في الإعداد الروحي ، ص١١٠.

١٥٥) سورة آل عمران ، الآيتان :١٩٦.١٩٧.

١٥٦) سورة يوسف ، من الآية :٨٧.

١٥٧) سورة أل عمران ، الآيات:١٣٧.١٤١.

١٥٨) د. عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص٢٥٩.

١٥٩) د. عماد الدين خليل : المنظور التاريخي في فكر سيد قطب ، ص٣٦.

١٦٠) سورة فاطر ، من الآية :٤٣.

١٦١) محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة، ص٤٠٧.

١٦٢) سورة الروم ، من الآية :٤١.

١٦٣) سورة محمد ، الآية : ٧.

١٦٤) سورة الحج ، من الآية :٤٠.

١٦٥) انظر : السيد محمد حسين فضل الله: تفسير من وحي القرآن، ج٦، ص٢٨٣.

١٦٦) د. حسن سلمان : النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ، ص٦٣.

١٦٧) انظر : د. حسين مؤنس ؛ الحضارة ، ص

١٥٣.١٥١.

١٦٨) انظر : محمد تقي مصباح : النظرة القرآنية للمجتمع والتأريخ، ص١٩٠.

١٦٩) د. شحادة الناطور، وآخرون: مدخل إلى تاريخ الحضارة ، ص٦١.

١٧٠) د. عفت الشرقاوي : في فلسفة الحضارة الإسلامية ، ص١٧٥.

١٧١) انظر : د. أحمد محمود صبحي : في فلسفة التاريخ، ص١٨١.١٧٩.

١٧٢) د. عفت الشرقاوي : في فلسفة الحضارة الإسلامية، ص١٧٥.

١٧٣) سورة طه ، من الآية :١٢٤.

١٧٤) انظر : محمد هيشور ؛ سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص١٤٨.

١٧٥) سورة البقرة ، الآية :٣٠.

١٧٦) سورة البقرة ، الآية :٣٠.

١٧٧) سورة البقرة ، الآية :٣٠.

١٧٨) انظر : الشيخ مرتضى المطهري ؛ التكامل الاجتماعي للإنسان، دار الهادي، بيروت، ط ٢، (١٤١٨هـ.١٩٩٧م)، ص١٣١.

١٧٩) د. شحادة الناطور، وآخرون : مدخل إلى تاريخ الحضارة ، ص٦٦.

١٨٠) د. حسين مؤنس : الحضارة ، ص١٥٦.

١٨١) د.حاطوم، وآخرون : موجز تاريخ الحضارة، ص١٩.١٨.

١٨٢) انظر : محمد تقي مصباح ؛ النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ ، ص١٦٤.

١٨٣) كريم جبر الحسن : عملية النهوض الحضاري ، ص٩٧.

١٨٤) سيد قطب : في ظلال القرآن ، المجلد٣ ، ص١٥٣٦.

١٨٥) انظر : د. شحادة الناطور وآخرون ؛ مدخل إلى تاريخ الحضارة ، ص٥٠.

١٨٦) سورة محمد ، الآية :١٣.

١٨٧) سورة النمل ، الآية :٥٢.

١٨٨) سورة إبراهيم ، الآيتان :٢٩.٢٨.

١٨٩) سورة الزمر ، الآيات :٢٩.٢٥.

١٩٠) محمد هيشور : سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص١٥٠.

١٩١) سورة آل عمران ، من الآية :١٤٠.

١٩٢) سورة النساء ، الآية :١٣٣.

١٩٣) سورة محمد ، من الآية :٣٨.

١٩٤) سورة الأعراف ، من الآية :١٣٧.

١٩٥) سورة الذاريات ، الآية :٥٦.

١٩٦) سورة يس ، الآيتان :٦١.٦٠.

١٩٧) سورة الأحزاب ، الآيتان :٤٦.٤٥.

١٩٨) سورة العنكبوت ، الآية :١٦.

١٩٩) سورة المؤمنون ، الآية :٢٣.

٢٠٠) سورة النحل ، من الآية :٣٦.

٢٠١) سورة الأنعام ، الآية :٧٩.

٢٠٢) سورة الأنعام ، من الآية :١٦٢.

٢٠٣) سيد قطب : في ظلال القرآن ، المجلد٦، ص٣٣٨٧.

٢٠٤) سورة الروم ، الآية :٣٠.

٢٠٥) د. يوسف محيي الدين أبو هلاله : دعوة الفطرة، دار العاصمة، الرياض، (١٤٠٨هـ.

١٩٨٨)، ص٥٩.

٢٠٦) محمد مهدي الآصفي : دور الدين في حياة الإنسان، ص ٨٠

٢٠٧) د. محمد عبد الله دراز : الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، ص١٤٣.١٤٤.

٢٠٨) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن : ج٤، ص١٣١.

٢٠٩) سورة البقرة ، الآية :٢٨٥.

٢١٠) سورة آل عمران ، الآية :٨٤.

٢١١) سورة المائدة ، من الآية :٤٨.

٢١٢) سورة الشورى ، الآية :١٣.

٢١٣) د. محمد عبد الله دراز : الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، ص١٧٧.

٢١٤) سورة أل عمران ، الآيتان :٨١.٨٢.

٢١٥) سورة الصف ، الآية :٦.

٢١٦) سورة الحجرات ، الآية :١٣.

٢١٧) الشيخ مرتضى المطهري : المجتمع والتاريخ ،ص٥١ .٥٢.

٢١٨) سورة الأنبياء ، الآية :١٠٧.

٢١٩) سورة سبأ ، الآية :٢٨.

٢٢٠) سورة الأعراف ، من الآية :١٥٨.

٢٢١) د. أحمد علي الإمام : المستقبل للإسلام، كتاب الأمة، العدد: ٤٦، وزارة الأوقاف، الدوحة ـ قطر، (ربيع الأول ١٤١٦ هـ ـ تموز،آب ١٩٩٥م)، ص ٦٠.

٢٢٢) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن : ج٤، ص١٠٠.

٢٢٣) سورة القصص ، الآيتان :٦٥.

٢٢٤) سورة النور ، من الآية :٥٥.

٢٢٥) سورة الأنبياء ، الآية :١٠٥.

٢٢٦) سورة الصف ، الآية :٩.

٢٢٧) سورة الانشقاق ، الآية :٦.

٢٢٨) سورة الانشقاق ، الآية :١٩.

٢٢٩) سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد٤، ص٢٣٩٩ .

٢٣٠) سورة الأنبياء ، الآية :١٠٥.

٢٣١) سورة الغاشية ، الآيتان :٢٥.٢٦.

٢٣٢) انظر : السيد محمد باقر الصدر ؛ فلسفتنا ، ص٢٣١.٢٣٣ و٣٥٧.٣٥٩.

٢٣٣) سورة الروم ، الآية :٣٠.

٢٣٤) تفسير ابن كثير : ج٣، ص٤٢٢.

٢٣٥) الزمخشري: تفسير الكشاف، ج٣، ص ٤٧٩.

٢٣٦) سورة الأنعام ، من الآية :١٥٣.

٢٣٧) الشيخ مرتضى المطهري: ختم النبوة، ترجمة: عبد الكريم محمود، مؤسسة البعثة، طهران ـ إيران، ١٤٠٩هـ ص١٠.

٢٣٨) د. محمد إقبال : تجديد التفكير الديني في الإسلام ، ص١٤١.

٢٣٩) انظر : السيد محمد حسين فضل الله: تفسير من وحي القرآن، ج٩، ص٣٧٧.

٢٤٠) سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد٣، ص١٢٣٤.

٢٤١) سورة الشورى ، الآية :١٣.

٢٤٢) د. محمد عبد الله دراز : بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، ص ١٨٠.

٢٤٣) الشيخ مرتضى المطهري : ختم النبوة، ص١١.

٢٤٤) سورة المائدة ، من الآية :٣.

٢٤٥) السيد محمد حسين فضل الله: تفسير من وحي القرآن ؛ ج٨، ص٤٥.

٢٤٦) الراغب الأصفهاني : معجم مفردات ألفاظ القرآن، (ك م ل)، ص٥٤١.

٢٤٧) أبو الحسن الندوي : النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ، ص٢٢١.

٢٤٨) د. محمد إقبال : تجديد التفكير الديني في الإسلام ، ص١٤٤.

٢٤٩) سورة العلق ، الآيات :٥.١.

٢٥٠) انظر : الشيخ مرتضى المطهري ؛ ختم النبوة ، ص٢٥.

٢٥١) قسطنطين زريق : في معركة الحضارة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٤م، ص ٢٩٦.

٢٥٢) د. عفت محمد الشرقاوي : أدب التاريخ عند العرب ، ص٢٢٤.

٢٥٣) سورة الأنبياء ، الآية :١٠٥.

٢٥٤) سورة العلق ، الآية :٥.

٢٥٥) قسطنطين زريق : في معركة الحضارة، ص٢٩٦.

٢٥٦) انظر : السيد محمد باقر الصدر ؛ موجز في أصول الدين ، ص٢١٣.

٢٥٧) سورة لقمان ، من الآية :٢٠.

٢٥٨) محمد عبد الجبار : المجتمع، ص ١٨٠.

٢٥٩) قسطنطين زريق : في معركة الحضارة، ص٣٠١.

٢٦٠) انظر: السيد محمد باقر الصدر؛ موجز في أصول الدين، ص٢١٢.٢١١.

٢٦١) سورة المائدة ، الآية :٢٤.

٢٦٢) موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر، وقيل: بلد باليمن. انظر: معجم البلدان، ج١، ص٣١٧.

٢٦٣) ابن هشام، السيرة النبوية، القسم الأول ، ص٦١٥.

٢٦٤) سورة الأحزاب ، من الآية : ٧٢.

٢٦٥) سورة العلق، الآية: ٧.٦.

٢٦٦) سورة الكهف ، الآية : ٥٤.

٢٦٧) سورة الشمس ، الآية : ٨٧.

٢٦٨) قسطنطين زريق : في معركة الحضارة ، ص٣٠٧.٣٠٦.

٢٦٩) السيد محمد باقر الصدر : المدرسة القرآنية ، ص١٧٩.

٢٧٠) سورة الانشقاق ، الآية :٦.

٢٧١) انظر : محمد تقي مصباح ؛ النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ، ص١٩٧. كارل بوبر: بؤس الأيديولوجيا ، ص١٢٤.

٢٧٢) سورة النجم ، الآيات :٤٢.٣٩.

خاتمة واستنتاجات

بعد الجولة الممتعة في رحاب القرآن الكريم، التي حاولنا فيها أن نتقصى شؤون حركة التاريخ البشري من مختلف نواحيها. وقد تضمنت مجموعة من المفاهيم والتأملات والتقويمات، بعضها تناول طبيعة المنهج المتبع في دراسة هذه الحركة، وبعضها الآخر تناول طبيعة شكلها وصيرورتها، وما يتعلق بها. فبانت لنا أمور، وخفيت ـ لاشك ـ علينا أمور أخرى، وما خفي أكثر مما بان. ولعل ما سجلناه، كان مشوبا بالغموض أو مصابا بالخطأ، فيحتاج إلى تصحيح أو تعديل أو زيادة في الإيضاح. فنحن لا ندعي الكمال في البحث، وإنما الكمال لله تعالى وحده. وهنا يمكننا أن نلخص، أمهات القضايا والاستنتاجات التي توصل إليها البحث وفق النقاط التالية:

أولا: أساسيات المعرفة التاريخية

من أساسيات المعرفة التاريخية التي ركز عليها البحث في فصله الأول، وشكلت ثقافة تمهيدية قبل الخوض في غمراته، هي مصطلح «حركة التاريخ».فليس المقصود بهذا المفهوم توصيفا معياريا أو قيميا لمسيرة التاريخ البشري، وإنما المعني به؛ كيفية نشوء وتنقل ـ صيرورة ـ أحوال الاجتماع الإنساني، بكل ما يتعلق به من وجوه وفعاليات متنوعة

ومتعددة، ظاهرة وخفية، تشمل كافة تفاعلات وأنشطة الحياة الإنسانية، بما فيها من عناصر تركيبية، وسنن وقوانين، وعوامل ومؤثرات، تساهم في صميم نشوئها وتحولاتها وتطوراتها، مع ما تفرزه من نتائج وآثار سلبية أو إيجابية، على واقع البشر أفرادا وجماعات، عبر صيرورة الزمان المتجدد، في الماضي والحاضر، وهو يتقادم نحو المستقبل.و بعبارة أكثر اختصارا، نعني بحركة التاريخ، كيفية تغير الأحوال البشرية مع تجددات الزمان. وعندها تكون آلية قراءة التاريخ واستيعابه، مقرونة بمقولة الزمان، إذ لا حركة من دون زمان، ولا معرفة تاريخية واعية دون لحاظ لهذه الحركة.وبذلك تصبح طبيعة النظرة إلى التاريخ، والتعامل معه، بعيدة عن حالة الجمود أو «السكونية» التي يسلكها الراوي أو المؤرخ عند سرده لأحداث ووقائع التاريخ، بكينوناتها، دون أن يتطلع إلى ما ورائياتها، من علل وسنن ومؤثرات.

كما عالجنا في الفصل الأول، ناحية ذات بعد تأسيسي في البحث تعلقت بإشكالية مرجعية القرآن الكريم في وعي حركة التاريخ، وما هو سر الرجوع إليه في ذلك. فذكرنا عدة مبررات موضوعية، منها طبيعة سعة الماضي البشري وامتداده السحيق، وعدم إمكانية الإحاطة بكل ملابساته. ومنها طبيعة التعقيد والتشابك الذي تشهده الساحة التاريخية بكل تفاعلاتها المترامية الأطراف. بالإضافة إلى طبيعة المنهج المتبع في دراستها، والذي يصعب فيه على الباحث، أن يتجرد فيه عن ذاتيته وانحيازه في سبيل الوصول إلى نتائج محايدة.

ولعل من أهم النتائج التي تكشف عنها البحث ضمن هذا الإطار، هو عمق «الهيمنة القرآنية» على حركة التاريخ، وسعتها ومواكبتها للحياة البشرية في شتى مجالاتها، فالقرآن هو الوحي المنزل من الله تعالى، وفيه أخبار الأولين والآخرين، وما يهم شؤون الإنسانية جمعاء. وقد فرق الكتاب العزيز بين جانبين في البحث؛ بين كينونة الوقائع والأحداث كمادة قصصية سردية، وبين صيرورة الوقائع والأحداث المحكومة بسنن وقوانين عامة، فانتقل بالعقل الإنساني من مرحلة قراءة الماضي إلى مرحلة استنباط الدروس وفقه القوانين؛ لبناء الحاضر ورؤية المستقبل. فتحول التاريخ في منظور القرآن الكريم من سكونية ترفية إلى حركية رسالية تنبض بالحيوية، وترفد الإنسانية بالعطاء المستمر. فلم

يكتف القرآن العزيز بتوجيه الدعوة الجادة نحو معرفة وكشف وقائع حركة التاريخ، بالتدبر والتأمل والتعقل الواعي، في مسلسل تعاقبها عبر الأجيال والقرون المنصرمة؛ بل قدم أهم الحقائق، وأعز المعلومات عن جوانب وأبعاد هذه الحركة، بأسلوب فريد شيق؛ ليكشف للإنسانية عن عظمة إعجازه وبلاغته في حقول التاريخ المختلفة. ورغم أن القرآن المجيد لم يكن كتابا تخصصيا في أي باب من أبواب العلم والمعرفة الإنسانية، وإنما هو كتاب دعوة ورسالة أنزل ليكون للعالمين، منارا، وهداية، إلا أنه ـ كما تبدى من البحث ـ هو المصدر الأساسي الحق في المعرفة التاريخية والوعي بها؛ فلفت الانتباه إلى طبيعة مجرى التاريخ الإنساني وفق سنن ونواميس ثابتة، داحضا بذلك زعم الاتجاه الذي يحسب أن الرؤية الإسلامية لحركة التاريخ، قد أدخلت في الفكر الإسلامي مؤخرا، بعد عصري النهضة والتنوير في أوروبا. وأثبت البحث من خلال فصوله المتعددة، أصالة الرؤية الإسلامية لحركة التاريخ، وأسبقيتها ـ زمانيا ـ على سائر الاتجاهات الرؤيوية الوضعية الأخرى. مع اعترافنا الصريح بأن علماء المسلمين الأوائل، رغم نبوغهم الفذ في كافة فروع العلم والمعرفة، إلا أنهم ـ وللأسف ـ لم يولوا عنايتهم الكافية لهذا الفرع من الدراسات التاريخية.

ومن إشكاليات البحث الهامة التي عولجت في هذا الفصل؛ أثر الوعي القرآني لحركة التاريخ في مسيرة الفرد والأمة. فقد توصلنا إلى أن المعرفة الجوهرية بحركة التاريخ، تشكل ثقافة أساسية وضرورية للإنسان؛ لكونها من مقومات الإمكان الحضاري للأمة؛ باعتبارها تدخل في دائرة المعرفة الإنسانية كلها. فبقدر ما يملك أفراد المجتمع من رصيد ثقافي ومعرفي بحركة المجتمع والتاريخ، وما يتعلق بها من سنن وقوانين في الأنفس والاجتماع، ورؤية واضحة وسليمة للماضي والحاضر والمستقبل، يتمكنون من الإسهام في تحقيق الفعل التاريخي الصحيح في مجال البناء والإبداع الحضاري، وذلك ما تتحقق به ـ أيضا ـ عملية الوقاية الحضارية من السقوط والتردي في أحضان الجاهلية والفساد. فجدوى الإدراك المعرفي الواعي لحركة التاريخ، يكمن في إنارة العقل الإنساني من كل الظلاميات التي تخيم عليه جراء شيوع الخرافات، والتصورات المشوهة، وضغوطات الشهوات والرغبات والنزوات البشرية، المنفلتة عن حدود المعقول؛ للانفتاح

به على الحاضر والمستقبل بواقعية وعقلانية. فالثقافة التاريخية باعتبارها ثمرة أجيال غابرة، وخلاصة تجارب بشرية سالفة، تكون طريقا نحو تزويد العقل برؤية ثاقبة للقضايا والأمور، وآلية مرنة للتعامل مع الأشياء والمواقف، بحكمة وروية. كما أن تلقي الثقافة التاريخية في نظر القرآن الكريم، يقوم على مبادئ وأسس رصينة، تنطلق من قانونية الصدق والعدالة، واعتماد لغة النزاهة، وفن التمحيص في كل مجالاتها الرحبة؛ لتجعل من الإنسان، يعيش الواقعية والموضوعية في التعامل مع كافة مفردات الحياة، بعيدا عن الأهواء والرغبات والميول الشخصية، ودون التأثر بالمصالح المادية.

والأمر الذي ينبغي التأكيد عليه في هذا المجال، هو أن الأمة الإسلامية لن يتأتى لها الخروج من مأزقها الراهن، واستئناف نهضتها، ومعاودة نشاطها الروحي والمادي في النهوض الحضاري، ما لم تستوعب تجربة التاريخ البشري، وتحسن «السير في الأرض»، وتنعم «النظر في عواقب الماضين»؛ لتدرك أن الرقي والتقدم والنهوض لا يتم إلا وفق «سنن وقوانين» كما أن سر مشكلاتها في التخلف والجمود، قائم على جهلها بهذه السنن والقوانين. فعصر المعجزات والكرامات والخوارق قد مضى، ومن لم يحسن فن إدارة سنن وقوانين الأنفس والآفاق والاجتماع والتاريخ، ولم يفقه فن التعامل معها، ليس بوسعه أن يهتدي سواء السبيل. وهكذا خلص البحث في هذه المسألة إلى أن جوهر الثقافة التاريخية، لا يكمن في معرفة القصص وسرد الأخبار، ولا في اكتشاف القواعد والسنن الحاكمة في حركة المجتمع والتاريخ، وإنما يتجلى خلال مجموعة بصائر ورؤى تاريخية أساسية، تساهم وتتحكم في بناء الحاضر وصنع المستقبل. وقد توزعت آثار هذا الوعي التاريخي في مسيرة الفرد والأمة على عدة محاور تطرق إليها البحث بالتفصيل، منها: القدرة على الإبداع والفعل الحضاري؛ القدرة على التحليل والنقد التاريخي؛ الإحساس بتقلبات الأحوال والظروف للخروج من أسر الحاضر نحو فسحات المستقبل؛ كذلك الإحساس بحتمية انتصار الحق والخير والعدل في معارك الحياة المختلفة؛ ليتسلح الإنسان بشعور القوة، وقوة الأمل، حتى يندفع نحو البذل والعطاء أكثر فأكثر. وأخيرا، وعي التواصل مع التراث وتفعيله، وهي من الواجبات الحيوية لكل أمة؛ لما فيه من إغناء لمسيرتها، خلال حركتها في النهوض الحضاري. لأن حركة التاريخ تمثل ساحة التجليات

الكبرى للإرادة الإلهية وأفعالها الحكيمة؛ لقدر الأمة في الحياة، وهي الوعاء الكبير لكافة الأفعال الحضارية، والميدان الواسع لتطبيق وتجسيد المبادئ والقيم على الواقع، فضلا عن كونها ذاكرة للأمة ومحلا لتجربتها، ومنبعا للعبر والدروس التي نتعلم منها، وبالتالي تمثل إرثا من العطاء الثر، يتدفق من الماضي نحو الحاضر؛ ليتجه صوب المستقبل؛ ليرشد ويوجه ويهذب حركة الإنسان وفعله في الحياة. ومن هنا فإن الوعي التاريخي يوقفنا عند معرفة محلنا وموضعنا من هذا الوجود! أين نحن من حركة العالم؟! وأين نحن من الآخر الذي ينافسنا ويتحدانا في كل شيء؟! كيف كنا من قبل، وكيف أصبحنا اليوم؟! عقائديا، ثقافيا، سياسيا، اقتصاديا، عسكريا، اجتماعيا، علميا، وجغرافيا، ...الخ.

مشكلة عالمنا الإسلامي اليوم، أنه يعيش بؤسا في وعيه التاريخي ، فيجهل موضع قدميه في هذا العالم المترامي الأطراف، المليء بالاهتزازات والمفاجآت والغرائب، القائم على عدم الاستقرار، وحكم شريعة الغاب. فأين الإنسان المسلم؟ بل أين الأمة المسلمة من كل ما يجري حولها اليوم؟...لماذا نغرق في دائرة الذات الضيقة، وننشغل ضمن حدود المساحات الماضوية، دون أن ننفتح على الواقع والمستقبل عبر نور الوحي الإلهي الذي ليس عنا ببعيد...فمشكلتنا الراهنة لا تقتصر على غياب هذا الوعي فحسب؛ بل لازلنا - وللأسف - نجهل أن مفاتيح الوعي والمعرفة بأيدينا...وأننا نملك رصيدا ضخما من التجربة البشرية، وأننا أمة الإرث الحضاري الكبير...ومالم نكتشف ذاتنا، ونعود لهويتنا الإسلامية، وفق الخطوط القرآنية الأصيلة، فلن تقوم لنا قائمة، ولن نأخذ مكانتنا المرموقة في مختلف المجالات الرسالية، والعلمية، والتقنية، والثقافية، والمادية، وذلك هو سر الدعوة القرآنية إلى السير في الآفاق، وإنعام النظر في عواقب الأسلاف. فوعي حركة التاريخ هو سر بناء الذات، وتحقيق الهوية الإنسانية الصالحة.

ثانيا: صلة التاريخ بالعلم، وأثر القرآن فيه

تناول الفصل الثاني عدة مباحث هامة. انتهينا فيها إلى أن دراسة حركة التاريخ علم، كسائر العلوم الأخرى، لها موضوعها، وخصائصها، ومجالاتها. وأشرنا إلى أن دراستها تتوزع بين ثلاثة فروع متغايرة؛ علم التأريخ النقلي، أو التاريخ العام، ويختص بسرد

كينونات حوادث ووقائع الماضي فحسب دون التطرق إلى ما ورائياتها. وعلم التاريخ العلمي أو العقلي، ويبحث في صيرورة الوقائع والأحداث؛ ليتوصل إلى معرفة الأسباب والعلل المؤثرة فيها، وما يربط فيما بينها. وعلم فلسفة التاريخ، ويدرس طبيعة صيرورة التحولات والمتبدلات الحاصلة في مسيرة الأمم والشعوب، والقوانين أو السنن الاجتماعية والتاريخية الحاكمة عليها. وبذلك يكون التاريخ قد خرج من أسره الذي حبس فيه قرونا متعاقبة، وغدا فيها مجرد لون من المسامرات والتفكهات الأدبية للتسلية وقضاء الوقت، أو لتمجيد وتخليد الآباء والأجداد، وبعث روح التفاخر والزهو في النفوس، ببطولات ومنجزات الماضي، فأصبح علما يتأسس على العقل ويقوم على التحقيق في الأسباب، والبحث عن الكيفيات، والتأمل في صيرورة الحوادث والأيام، فيضيف إلى عقل الإنسان عقولا أخرى.

أما عن علاقة العلوم المساعدة وأثرها في دراسة حركة التاريخ، فقد تبين، أن معرفة أبعاد أية حادثة تاريخية، يقتضي النفاذ إلى ما ورائها، لمعرفة كافة الأسباب والعوامل المختلفة التي أحاطت بها، ولن يتأتى ذلك إلا بالمعرفة الشاملة لكافة العلوم الأخرى، ذات الصلة المتواشجة مع طبيعة الحدث التاريخي؛ باعتبارها توسع من آفاق البحث، وتعمق من نظراته، وتزوده بوسائل جديدة، تجعله أكثر جدية وموضوعية.ومن هنا جاءت طردية العلاقة بين تقدم وعي حركة التاريخ وبين تطور مختلف العلوم الإنسانية عامة.

والقرآن الكريم عندما يطرح مفهوم «السير» في الأرض و«النظر والتأمل» في الأنفس والآفاق، إنما يريد بذلك سيرا شاملا ونظرا متكاملا، يرتكز على ما أبدعه الإنسان وتوصل إليه من علوم ومعارف متنوعة، يستعين بها على قراءة ما تحمله الأرض من آثار وعواقب تاريخية، تختزنها عن الماضي. وبذلك تكون الرؤية القرآنية قد ربطت بين عمق وأصالة الوعي الإنساني لحركة التاريخ وبين سائر العلوم المختلفة. فقبل ما يقارب من قرن ونصف، لم تكن لدينا معلومات كافية عن كثير من الحضارات البشرية التي سادت ثم بادت، كحضارة وادي الرافدين (السومريين والبابليين والآشوريين)، حضارة وادي النيل (الفراعنة)، الحضارة الفينيقية، الحضارة الإغريقية، الحضارة الرومانية، الحضارة الهندية، الحضارة الفارسية، الحضارة الصينية، وحتى بعض المعالم عن حضارتنا الإسلامية؛ وذلك

بسبب عدم تطور العلم والتكنولوجيا الكافيين لاستكشاف المزيد من معالم تلك الحضارات. ولعل المستقبل يقدم لنا كثيرا من المفاجآت عن حضارات جديدة، لم نسمع بها من قبل، أو قد يتمكن من إعطاء معلومات أخرى، تضيف لنا فهما جديدا عن واقع الحضارات السالفة؛ لننتزع منها عبرا ودروسا نافعة للمستقبل. وهنا نود التنويه إلى إمكانية بحث موضوع، يستحق مزيدا من الاهتمام، من قبل الباحثين الإسلاميين، يدرس «أثر العلوم المساعدة في تعميق الوعي التاريخي». وبذلك تصح مقولة «التاريخ أم العلوم كلها»، حيث أن كل علم من العلوم المساعدة يفرغ آثاره النافعة على مسار حركة التاريخ الإنساني.

وأما عن أثر القرآن الكريم في الدراسات التاريخية؛ فرغم أنه لم يكن كتابا تاريخيا، إلا أنه جاء بأصول منهج متكامل للتعامل مع حركة التاريخ، قراءة وتحليلا وصياغة. وقد استنبط البحث عدة آثار معرفية، أفرغها القرآن الكريم على التاريخ، تمظهرت بعدة أبعاد، في مقدمتها تأصيل القرآن لمفهوم التاريخ؛ إذ نبه العقل الإنساني إلى الإحساس بمرجعية التاريخ، وأهمية العودة إليه في سبيل توظيف ما به من دروس وعبر للاتعاظ بها، والتعلم منها. فقيمة التاريخ في القرآن تتبدى من توظيفه لصالح الإنسان بما يبلغ به سعادته وكماله المنشود، أما غايته فتكمن بما يستلهمه الإنسان من وعي وتبصرة في شؤون الحاضر، وما يستشرفه نحو المستقبل، من قراءته للماضي. وقد أصل القرآن المجيد مفهوم التاريخ وفوائده، بما قدمه من تنويعات رؤيوية مهدت الطريق نحو تفرع الدراسات التاريخية إلى منهجيات مختلفة؛ سرديا وعلميا وفلسفيا، بعد أن تضمنت آياته المباركة، مساحات تعبيرية متغايرة، بأساليب وصور متعددة، في سرد قصص وتجارب الأمم والكيانات السالفة ومسالكها في الحياة، وتقديم تعليلات وأسباب موضوعية عن صيرورة تبدلاتها، وما لحق بها من دمار وخراب، مع بيان أهم القواعد أو السنن والقوانين النافذة فيها، بعيدا عن مقولتي الزمان والمكان؛ لتبقى دراسة حركة التاريخ في إطار معرفة السببية أو القانونية التي تمثل الروح المسيطرة على حركة المجتمع والتاريخ. وبذلك أثبت القرآن العزيز - بالدلالات والبينات - أنه المصدر الأول الذي دعا إلى التعامل مع حركة التاريخ علميا وموضوعيا، عندما ربطها بالعقل، والفهم، والوعي، والأسباب، والقانونية.

وقد أفرغ القرآن العزيز معطياته الموضوعية على المنهجية التاريخية، عبر مبادئ التوثيق والتحقيق في توصيف، وتدوين، وتسجيل، وحفظ الوقائع والأحداث. فعمليات النقد والتقويم والمراجعة للتاريخ، أصول مقدسة لا يمكن تجاوزها بأي حال من الأحوال، وهي جزء من صناعة التاريخ، التي يجب أن ترتكز على نفي الظن، وإقصاء الهوى، وإبعاد الذاتيات عنها. فقد شدد القرآن على مقولة «اعدلوا هو أقرب للتقوى»، حرصا منه على كرامة الآخرين، وإشاعة الوئام بين الناس. وحرص على « تحري الحقيقة»، فإنها ضالة المؤمن، ينشدها ويتعلمها أنى وجدها؛ ليحقق بها خير دنياه وآخرته.فأصبحت عملية النقد والتقويم التاريخي تسير جنبا إلى جنب مع فن قراءة التاريخ وبنائه؛بل جعلها ـ القرآن ـ جزءا من منهاجه الفكري والتربوي والأخلاقي الذي يستند عليه عموما. وقد أعطى هذا المنهج العلمي الدقيق في التوثيق التاريخي مكانة عليا للقرآن الكريم ـ من ناحية موضوعية فضلا عن ناحيته الغيبية ـ جعلته يتبوأ موقع الصدارة في بيان قصص الأنبياء والمرسلين، وأخبار وأحوال الماضين، وعقائد اليهود والنصارى، ومعرفة ما داخلها من تحريف، وتزييف، الأمر الذي أفقد المصادر الأخرى السابقة عليه، مصداقية الاعتماد عليها، إذا ما عرضت على موازين القرآن في النقد والتقويم.

أما في إطار الوعي الثقافي والتنامي الحضاري، الذي ابتعثه القرآن المجيد، عبر البعد التاريخي، فقد انتهى البحث إلى منتجات بنيوية عدة، تمثلت في تلك النظرة القرآنية العالمية الشمولية لحركة التاريخ البشري. وما فكرة وحدة الأديان الإلهية التي سبقت الإسلام ـ في القرآن الكريم ـ إلا مظهرا لها. فقد دعت الآيات القرآنية إلى الإيمان بكافة الأنبياء والرسل السابقين، دون تفريق بين أحد منهم، بما مثلوه من عقيدة واحدة، جسدت وحدة المبادئ والقيم، ودعت إلى المصير المشترك، على اختلاف مراحلها، التي فرضتها عوامل زمانية ـ مكانية متغايرة، أفرزت في حينه علاقات اجتماعية وثقافية وسياسية واقتصادية متباينة. حتى جاءت رسالة الإسلام؛ لتكون خاتمة الأديان والشرائع السماوية، بعد أن بلغت البشرية نضجها ورشدها. فأدرك المسلمون ـ حينذاك ـ أن تأريخهم، هو امتداد لتاريخ أولئك الأسلاف الذين تقلبوا عبر حقب تاريخية غابرة، فانفتحوا على أخبارهم، وساروا في آثارهم، ونظروا في عواقبهم، فامتد نظرهم بالتاريخ إلى بدء الخليقة،

حيث اللحظة الأولى التي بدأت فيها حركة التاريخ البشري.

كما أن فكرة «المستقبل» التي تحدث عنها القرآن، و«التنبؤ» عن مصير الوقائع والأحوال الاجتماعية - كهزيمة الفرس أمام الرومان، والدخول إلى المسجد الحرام، وإظهار الإسلام على الدين كله - في مواقع من آياته المباركة، كانت باعثا ومحركا نحو بث الوعي الثقافي والنقلة الحضارية الشاملة لدى العقل المسلم. وجعل حركة التاريخ تعيش - في الوجود الذهني - سباقا مع الزمن؛ من أجل تحقيق الفعل الحضاري، المتمثل بطموح الإنسان وسعيه نحو غده المشرق، متجاوزا بذلك عقبات وعثرات الماضي، بعد أخذ العبر والدروس منها، وتسخير ما سلف من تجارب الآخرين لما يخدم وجهته المستقبلية. فتسويق الأنظار نحو إحداثيات الزمن القادم، هي فكرة قرآنية، جاء بها الكتاب العزيز؛ ليبتعد بالإنسان عن ضيق الماضوية، وحدود الحاضر إلى آفاق المستقبل الواعد، دون أن يفصله عن مؤثرات الماضي، وتفاعلات الحاضر. فالتأمل في المستقبل - من وجهة نظر القرآن - ليس هروبا عن الواقع، ولا تمنيات حالمة تحضر الإنسان في ساعة الضيق والعسرة، إنما هي قوة محركة، وطاقة باعثة، تشد الفعل الإنساني نحو الأمل المشرق؛ لبذل ما في الوسع من عمل صالح للوصول إلى الأهداف الخيرة. وبذلك تتوثق وشائج الصلة بين الماضي والحاضر والمستقبل في ظل القرآن الكريم. فالنظر الفاحص في حركة التاريخ يربي القابلية الفذة على استقراء الأحداث، وتحليلها، ومقارنة بعضها ببعض، ومن ثم إدراك السنن والقوانين التي تحكم نشاطات المجتمعات البشرية، وتطور الحضارات الإنسانية، وتكشف عن عوامل سقوطها، مما يشكل أرضية صلبة لاستباق الأحداث، وتحديد طبيعة المصير الذي سينتهي إليه الواقع المعاش. وتأتي دعوة القرآن الكريم في التأكيد على مفهوم الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر، واستفراغ ما في الوسع من قدرات في أفعال الخير، والأعمال الصالحة، وأداء العبادات بوعي، والتحلي بالأخلاق الحسنة، إضافة إلى تحذيره من حالات التقاعس، والتثاقل، والتواكل؛ لتصب في تخادم المستقبل، وتدافع النهوض الحضاري؛ لتكامل ورفعة شأن الإنسانية.

وساهمت فكرة «المصير» التي طرحها القرآن الكريم - أيضا - في تفعيل حركة الوعي التاريخي، لدى العقل المسلم؛ فحسبته بجزاء أفعاله الذي ينتظره مستقبلا، وأن حركته في

هذه الحياة تمضي مع الزمن بشكل مسؤول وموجه، بعيدا عن العفوية، وأن الموت ليس نهاية المسيرة؛ بل هو محطة عبور، تجسر الدنيا بعالم الآخرة، الذي سيشهد فيه الإنسان كل أفعاله وممارساته الصادرة عنه في دار الدنيا، وما عليه إلا أن يعد العدة لمواجهة هذا المستقبل، وأن يوظف حاضره الموصول بماضيه، إلى غده الذي سيلاقيه آجلا أو عاجلا، وهنا تتم قمة اللقاء بغاية التاريخ وقيمته. وبذلك يكون القرآن المجيد، قد فتح أمام حركة البحث التاريخي أبوابا واسعة، سرعت من تطوره ونموه أكثر فأكثر، كما تبلور في العديد من الكتابات التاريخية التي تناولها العلماء المسلمون على امتداد حركة التأليف الإسلامي.

ثالثا: اهتمام القرآن الكريم بحركة التاريخ ورعايته لها

اهتمام القرآن الكريم بحركة التاريخ ورعايته لها ذلك الاهتمام الذي فاق كثيرا، جانب الاهتمام بالسنن أو القوانين الطبيعية أو الكونية. ولعل السبب يعود إلى يسر إمكانية الإنسان، بأن يكتشف ـ خلال فترة عمره القصيرة، بفعل جهوده المختبرية وفعالياته العلمية والعملية، بحكم ما وهبه الله تعالى من قدرات عقلية ومواهب استنتاجيه فنية ـ كثيرا من سنن وقوانين هذا الكون وأجزائه ومكوناته. فهي داخلة ضمن حدود قدرات الإنسان، خلال فترة عمره المحدود. أما السنن والقوانين التي تحكم حركة المجتمع والتاريخ البشري، فغير قابلة للاكتشاف خلال هذا العمر المحدود والقصير للإنسان، بفعل ما ورائياتها. فالوقائع والأحداث الاجتماعية والتاريخية تختلف عن الوقائع والأحداث الطبيعية، فالأولى لا تخضع للمشاهدات المختبرية الحسية، كما أن تحولاتها وصيرورتها تحتاج إلى مدد زمانية، قد تبلغ بها إلى حد يفوق عمر الفرد من الإنسان، وبذلك قد يولد الإنسان ويعيش في الدنيا ثم يرحل عنها إلى عالم الآخرة، ولعل بعضا من سنن المجتمع والتاريخ لم تبلغ إلى غايتها من التحول أو التبدل. فنحن نرى في التاريخ أجيالا تأتي ثم تذهب، ولم تشهد تبدلا في حكم الطاغوت، أو تغيرا في وضع الظلم الاجتماعي، أو تطورا في واقع تاريخي معين، حيث أن التغير في مثل هذا المجال، قد يتطلب حينا من الدهر، حتى تكتمل حصته من التغيير. إضافة إلى وجود عدد غير قليل من العوامل الغيبية، والحقائق والأسرار التي تكتنف حركة التاريخ، لا تقع في متناول أيدي الباحثين. جعلت

من المعرفة والإحاطة التامة والشاملة لكل أبعاد حركة التاريخ، أمرا يصعب تحقيقه.

وبالغ القرآن المجيد من اهتمامه بحركة التاريخ؛ باعتبارها المجال الواقعي الذي تحققت فيه سنن الاجتماع والتاريخ الإنساني من قبل. وما لا يستطيع الإنسان إدراكه من تلك السنن في فرصة عمره المحدود، يستطيع رؤيته والتبصر به عبر حركة التاريخ، بما جرى وتحقق للغابرين من قبله، فيستعين به على معرفة حاضره، ورسم معالم مستقبله.

أما قوله تعالى، من قبيل: «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»، «والعاقبة للمتقين»، «ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله»، «إنه لا يفلح الظالمون»، «ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون»، «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»...الخ، فهي حقائق وسنن اجتماعية وتاريخية، قد لا يكتشفها الإنسان بنفسه، بسبب قصر حياته، غير أنه في خلال حركة التاريخ، يشاهدها جلية واضحة.

وقدم البحث ـ كما شاهدنا في الفصل الثالث ـ رؤية قرآنية شاملة وأصيلة عن حركة التاريخ. استفاضت بها النصوص القرآنية، فغطت منها مساحات واسعة، وجوانب متعددة، وأنشطة حياتية مختلفة عن ماضي الأمم والشعوب، سواء في مجال الاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي، والانحراف السلوكي، والصراع الطبقي، والتحجر الفكري والثقافي، والتقليد الاجتماعي، والفساد الاقتصادي، والترف الحياتي، أم غير ذلك، واستعرض ـ أيضا ـ نماذج بشرية متغايرة، وصورا اجتماعية متعددة، حكى فيها قصتها وما آلت إليه عواقبها، حتى غدت صورة حركة التاريخ، مشاهد متحركة، يعايشها الإنسان بصورة حية، فينفعل ويتفاعل معها ـ إيجابيا ـ لتنهض به نحو الوعي والانتباه والعمل والنشاط الحضاري.

فالعروض التاريخية المستفيضة، التي قدمها القرآن المجيد، أكدت أن المجتمع كالإنسان، له شخصيته في الوجود، وله حياته ومماته، ومشاعره ووجدانه، وعمله وجزاؤه، وحركته ومصيره. وبذلك يكون القرآن قد سبق الكثير من العلماء والمفكرين، منهم سبنسر ودوركهايم وفليد وغيرهم، بهذا الرأي. كما أن المجتمع له روح تنتقل به من مرحلة إلى مرحلة حياتية أخرى، جراء تفاعلاته ومبادلاته النفسية، الناتجة عن مجموع أفراده. ولم تلبث آيات القرآن العزيز، حتى تبين طبيعة الحركة التي تقطعها الأمم والشعوب، خلال مسيرتها، بفعل إرادتها وأفعالها. قد تكون حركة تتجه به نحو التقدم

والسمو، أو تتجه به نحو الانحطاط والسقوط. فهي حركة واعية تسير نحو هدف معين خلال نظام وقانون، وفق حسابات دقيقة، شاء الله تعالى أن يحكم بها أمور هذا العالم. وعلى هذا الأساس فإن النتائج تسير وفق مقدماتها، فانحطاط الأمم وسقوطها له أسباب، كما أن تقدمها ورقيها له أسبابه أيضا. وقد تناول الفصل الثالث ذكر العديد من تلك الأسباب والعوامل التي أدت إلى انهيار ودمار المجتمعات والشعوب في السابق. فمن تلك الأسباب ما كان انحرافا عقائديا خطيرا في حياة الأمم، كالتعالي على الله تعالى، وتكذيب آياته البينات، والإعراض عنها، أو الكفر الصريح بها، أو الكفر بالله تعالى أو برسله أو بشريعته؛ ومنها ما يتعلق بسلوك الناس وقادتهم، حين يطغون في الأرض، ويكثرون فيها الفساد، أو يعملون بالباطل والإثم والعدوان؛ ومنها ما يتعلق بالوضع الاجتماعي بين الناس، خصوصا طبيعة العلاقات فيما بينهم، عندما يسودها الاختلاف وتنتابها الخصومات، فتصبح مثارا للفتن والحروب الداخلية؛ ومنها الأسباب الاقتصادية، كالإسراف والتبذير والترف والبطر، أو البخل والخيانة وتطفيف المكيال والميزان، أو عدم الإنفاق الذي يؤدي إلى شل الحياة الاجتماعية؛ ومنها الأسباب الثقافية كالتقليد الأعمى للآباء والأجداد، وتقديس العادات والتقاليد الموروثة، التي ما أنزل الله بها من سلطان، والمجادلة بالباطل، وعدم اتباع سبيل العقل والعلم، والغفلة أو التباعد عن التربية الأخلاقية السليمة.

من هنا يكون القرآن الكريم، قد حقق نقلة حضارية وثقافية نوعية في مجال الفكر التاريخي، بفعل ما طرحه من رؤى ومداخلات اجتماعية وتاريخية، شكلت مادة أساسية في إضاءة الطريق أمام فهم وتحديد إشكاليات المنهج التحليلي والفلسفي لحركة التاريخ، إضافة لاستنهاض وإثارة الوعي والحس التاريخي لدى الفرد المسلم، وتشكيل عقله الثقافي والعلمي باتجاه رؤية تاريخية شاملة نحو الماضي والحاضر والمستقبل.

بيد أن المشكلة الحقيقية الراهنة التي تعيشها أمتنا الإسلامية، هي أنها دون مستوى الإفادة من هذا الإرث الحضاري، في التجربة التاريخية الغنية بالعطاء، ودون مستوى الإفادة من الحقائق القرآنية المطروحة عبر السنن والنواميس التي تحكم مسار حركة التاريخ الإنساني.

وتبقى مرجعية القرآن الكريم في فهم حركة التاريخ ودراستها ووعيها من حيث

المنهج وطبيعته، توفر للإنسانية عموما، وللمسلمين على وجه الخصوص، رؤية واقعية، متوازنة، شمولية، تتصف بالمرونة والعقلانية، في تحليل الماضي ومعرفة فحوى إنجازاته وإخفاقا ته، في رؤية الحاضر ومآلاته، وفي رسم طرائق النهوض والقيام الحضاري لغد مشرق ووضاء.

وفي هذه المقاربة القرآنية من البحث، نود الإشارة إلى إحدى تمنياتنا على الباحثين في الدراسات القرآنية ـ التاريخية، أن يتناولوا مسألة «المنهج القرآني في التعامل مع حركة التاريخ»؛ لما لهذه المسألة من أهمية بالغة على مسير الحركة العلمية في مجال المنهجية، إضافة إلى توافر الثراء الخصب، الذي زخرت به آيات القرآن المجيد، في جانب إعطاء رؤية منهجية ربانية، كفيلة بتزويد الباحثين، بنسق معرفي متكامل عن كيفية وطبيعة أسلوب التعامل مع حركة التاريخ، نحو توظيفها وتسخيرها بالاتجاه التكاملي الصحيح.

رابعا: أبعاد الوظيفة التربوية لحركة التاريخ في القرآن الكريم

فقد أبرز البحث في الفصل الرابع، أن ما جاء به القرآن من رصد تاريخي، لتجارب البشرية في الماضي، بكل إنجازاتها وإخفاقاتها، وما داخلها من إشكاليات. أراد بها ليقول للإنسان: إن هذا الامتداد التاريخي الشاسع، يمثل مختبرا حقيقيا لكل الأفكار والمفاهيم، والمبادئ والقيم، والدعوات والحضارات التي مخضتها البشرية منذ القديم، وهو كفيل بأن يزود الإنسان برؤية باصرة كافية وواضحة عن مسار الماضي؛ ليعيش مآلات الحاضر، ويستشرف آفاق المستقبل، حتى لا يبقى في حالة عجز وضياع أو ذهول وغفلة أمام مفارقات الواقع وتحديداته الصعبة.

والقرآن الكريم في مجال الإفادة من حركة التاريخ، إنما يضع بين أيدينا هذه التجربة التاريخية الطويلة، الزاخرة بجهود وتضحيات الأنبياء والرسل العظام (عليهم السلام) الذين قدموا عصارة المنتوج الفكري، والنشاط العملي للجماعات البشرية المنصرمة؛ لتكون أمتنا الإسلامية ـ خاتمة الأمم ، وريثا شرعيا، شاهدا على كل البشرية، قادرا على فعل وصياغة الحاضر والمستقبل، بالنهوض التنموي المسدد بوحي السماء.

وأهم التجليات التي كشف عنها البحث ـ في الفصل الرابع ـ كون الطرح القرآني

لحركة التاريخ، وتعامله الواعي معها، لم يأت مجرد نظرة عابرة للماضي، بتسجيل مشتت للوقائع والأحداث، التي مرت بها البشرية في عهودها الغابرة، جديرة بالنقل والرواية لغرض العبرة والاتعاظ. بل جاءت نظرة القرآن لحركة التاريخ، في سياق البعد الزماني لحركة الاجتماع الإنساني، في إطار وعيه ووظيفته المسؤولة والهادفة في الحياة، في ظل مفهوم الاستخلاف الإنساني في الأرض، الذي جعل من الإنسان قوة فاعلة ومحركة لعجلة التاريخ، يدخل الزمان بعدا أساسيا، ووعاء حضاريا لكل ما تحمله حركته من إنجازات في هذا الوجود.

ويتضح من ذلك، أن الاعتبار والاتعاظ بالماضي، ليس غاية بذاتها؛ بل طريق للتأمل والمعرفة والتفكير التاريخي السليم؛ لدفع الإنسان إلى مواجهة الحياة، بحسب المكان والزمان الكائن فيهما،ووفق الظروف والوسائل والإمكانات المتاحة لديه؛ لينسجم مع مفهومي «الصلاح» و«الإصلاح» اللذين تفرضهما عليه مسؤولية الاستخلاف في الأرض. فهذه المسؤولية تحتم على الإنسان أن يعمل للإصلاح والبناء، ونشر الخير والفضيلة، وترسيخ دعائم الحق والعدل بين بني البشر.

فالمعيارية أو القيمية المنشودة في حركة التاريخ، تتمظهر في الكيفية الصحيحة لاستلال «العبرة» و«الموعظة» منها، ومن ثم تحديد الأسلوب الأمثل في تطبيقها عمليا في نواحي الحياة المختلفة، وتلك من أدق وأصعب عمليات الفكر الإنساني التي قصدها القرآن الكريم في دعوته إلى وعي حركة التاريخ. إذ تمثل عملية مزدوجة تتضمن النظر أو السير في الأرض مع العمل والكدح، بفعل إنساني تكاملي لا يقبل التجزئة بين المهمتين.

وتجلى واضحا خلال البحث ـ في الفصل الرابع ـ أن القرآن العزيز حرص على أن يقدم من عروضه لنماذج القصص والأخبار، مجموعة المشاهد والصور التاريخية، عن أحوال الأمكنة والبلدان المختلفة، ووقائع القدر النازلة في الخير والشر، وسيرة الإنسان والحيوان، وتقلبات الأيام والدهور، وقيام وسقوط الأمم والحضارات، بشكل يمكن الإنسان من تحريك عقله وإثارة وعيه نحو استخلاص الفائدة منها. وهذه هي «الإحيائية» في مجال التاريخ، بمعنى أنك تسترد الماضي وتنعم النظر فيه بشكل تجريدي ، فوق

الميول والاتجاهات ، ودون عقد الرواسب والمخلفات الفكرية والاجتماعية، لتأخذ منه ما ينير الطريق، ويسدد المنهج في السلوك الفردي والاجتماعي.

وحركة التاريخ كالنهر الجاري مع الزمان دون توقف، يتشكل مجراها من روافد متعددة. في مقدمة روافدها، مجالات الفكر والثقافة، ومنظومات السياسة والحكم، وإشكاليات القوة في المرابطة والجهاد، كما أن حركة المجتمعات والحضارات، في نهوضها وانحطاطها، تتخادم في مسيرتها مع مجرى حركة التاريخ. وبالطبع يبرز ـ هنا ـ دور الإنسان الفاعل والمرتبط بهذه الحركة، سواء علم أم لم يعلم؛ باعتباره الصانع لها، والمؤثر والمتأثر الأول فيها، حينئذ يكون المائز بين من يفهم ويعي حركة التاريخ، وبين من لا يفهمها ولا يعيها، هو في حركة الإبداع والنهوض الحضاري، كما هو الفرق بين الإنسان المنتبه لما يدور حوله، وبين الغافل عما يراد به.

وتبين من جراء معالجة مجالات التوظيف القرآني لحركة التاريخ، دور وأهمية ما في هذه الحركة من أبعاد على مسيرة الفرد والأمة. فالتاريخ ليس سردا للوقائع والأحداث، ولا ترديدا للأسماء والسنين، ولا تغنيا بالمآثر والأمجاد، بل هو طريق نحو فهم الآليات المؤثرة في تكوين سير الأمم والشعوب، والطريق الأصوب نحو حل مشكلاتها، وتفادي العقبات وعقد الأزمات التي تعترضها، وتشخيص منابع القدرة على الإبداع والتطوير والتنمية، نحو السبيل لتحقيق المنجزات الصالحة في الحياة.

وقد توصلنا خلال هذا المبحث إلى أهمية دور الدين والأخلاق في بناء الحضارة الإنسانية. وليس المقصود بالدين هو مجرد الإيمان الساذج فحسب، بل الإيمان المشروط بالمعرفة؛ المرتكز على المعرفة اليقينية والعقل اليقيني. فالإيمان وحده غير كاف للانبعاث الحضاري، فالإنسان الوثني، العابد للصنم، أو الشجر، أو البقر، هو مؤمن؛ لأنه يعيش الخضوع إلى هذا المعبود، ولكنه إيمان أعمى. وبذلك لا يمكن الفصل بين الدين وبين العقل أو بين الدين وبين العلم والمعرفة، وليس من الصواب مقولة التباين أو التضاد بين الدين وبين العقل، أو بين الدين وبين العلم والمعرفة. بل نجد في الدين ما يتخادم مع العقل والعلم والمعرفة؛ لأن الدين رسالة واقعية عملية تنبع من صميم الفطرة الإنسانية،

يشكل إطارا أساسيا للعمل والإبداع في الحياة. كما نجد العقل أو العلم عندما يكونان بعيدين عن الدين، لا يشكلان إلا طريقا نحو الهدم والعبثية في الحياة. وهذا ما نلاحظه في طبيعة العقل الغربي، والعلم في الحضارة الغربية، اللذين تحولا إلى أداة تدميرية للبشرية، كما هما في الوقت نفسه أداة نحو التطور السريع في مجالات التقدم الاجتماعي والتكنولوجي. فبقدر ما قدمته الحضارة الغربية من إنجازات علمية وتقنية هائلة للبشرية، فإنها زرعت الفساد والانحلال الأخلاقي، والقلق والرعب النفسي، والفتن والحروب الطاحنة في كل بقعة من هذا العالم. وجعلت من الفجور وانعدام القيم النبيلة والأخلاق القويمة شعارا لها، ومن سيادة النفعية والفردية والأنانيات والمصالح الضيقة طبيعة لها، ومن الغدر والخداع والتلاعب والنفاق والاعوجاج واللامبدئية والتعالي والاستكبار والتجبر والطاغوتية منهجا لها. وهنا تأتي الأخلاق أساسا مكملا لحركة ودور الدين والعلم في بناء الحضارة. فقد أثبتت شهادات التاريخ المؤكدة أن كل حضارة بعيدة عن الأخلاق لابد أن تسقط بسرعة، بينما تكون الحضارة القائمة على التزاوج الصحيح بين الدين وبين الأخلاق وبين العلم والمعرفة، أقدر على الصمود من أجل البقاء، وهو ما يثيره القرآن الكريم بين ثنايا آياته المباركة تصريحا وتلميحا،عندما يستعرض أخبار الأمم الغابرة. وهذا ما يجعلنا نتنبأ حتمية سقوط وانهيار الحضارة الغربية المعاصرة عاجلا أم آجلا.

وتميز القرآن المجيد بمبادئ صريحة، تخص الحضارة بجميع مظاهرها، كمبادئ الحق في أمور العقيدة والفكر والمعرفة، ومبادئ الحق في السلوك والتعامل مع الآخر سواء الإنسان أو الطبيعة. وقد قامت الحضارة الإسلامية على أسس ومبادئ الدين الإسلامي الحنيف، الذي جمع بين الإيمان القائم على العلم والمعرفة وبين الأخلاق الفاضلة بشكل دفع بالإنسان المسلم إلى الإبداع في مجالات البناء والعطاء لخير البشرية كلها. وسادت هذه الحضارة في حدود ثمانية قرون، تمتعت بعناصر متينة، بعثت بها الاستمرارية والثبات وعدم الموت. فالحضارة الإسلامية تضعف ولا تموت؛ تضعف بضعف المسلمين، أو قد تختفي بعض جوانبها، إلا أنها لا تموت. فما دام القرآن موجودا فهي موجودة بوجوده، وهذه هي أهم خصائص الحضارة الإسلامية التي ينبغي أن ننظر إليها بعين الوعي والبصيرة. فالقرآن الكريم، كتاب الدين القيم، وفيه منهج لتحرير العقل

وتقويمه، وبناء الأخلاق الكريمة، وترشيد حركة العلم والمعرفة في الحياة. وما نلاحظه اليوم، رغم ما وقع للأمة من انحراف، وما تعرضت له من مؤامرات ومكائد من الأعداء، فقد حدثت الصحوة، وبدأت الانبعاثة...ولهذا الأمر دلالته الواضحة، بأن الحضارة الإسلامية، هي حضارة هذه الأمة، التي لا تنطبق عليها سنة الشيخوخة والاندثار، وإنما فيها من الحيوية الكامنة، التي تبعث فيها النشاط والتجديد بين الحين والآخر.

وما أكده الفصل الرابع ـ أيضا ـ بأن كل أمة تجد في حركة تاريخها، عنوانا لهويتها في الحياة، وسبيلا لإدراك ذاتها في الوجود، حيث أن التداخل وشيج بين حركة تاريخها، وبين مفردات فعلها ومسيرتها، وبين حركة إنسانها، وحركة مجتمعها وحضارتها. وهنا نعاود التشديد على ضرورة وأهمية كتابة التاريخ لأي أمة كانت، في خلال مجموعها ومسيرتها، لا في خلال أفرادها ونخبها وأسرها، أو الصور المنتقاة من ماضيها فحسب. فالتاريخ الالتقاطي والانتقائي، لا يعطي صورة شمولية لأبعاد ومعالم تلك الأمة، وهذا ما تعانيه أمتنا اليوم بفعل التأزمات التي لا زالت تعيشها مع تاريخها الطويل. فالتاريخ ينبغي أن يقرأ ويدرس ويكتب بروح موضوعية منفتحة على كل ما فيه من محاسن ومساوئ، وإيجابيات وسلبيات، ونجاحات وإخفاقات، بهدف إنهاض الأمة، وتحريرها من سكونها وصمتها المطبق، للانطلاق بها نحو الحركة والبناء والحياة من جديد.

خامسا: أفعال حركة التاريخ وأحداثها ومداخلاتها

إن أفعال حركة التاريخ وأحداثها ومداخلاتها لا تقبل العشوائية أو النظرة الأحادية المفسرة لكل ما يحدث فيها على أساس العامل الواحد. وهو الاتجاه الذي اعتمدته سائر المدارس الفكرية البعيدة عن هدي الوحي الإلهي.

فقد كشف الفصل الخامس من البحث، أن حركة التاريخ البشري تتخادم فيها عدة عناصر أساسية، (الإنسان ـ الزمن ـ السنن) تعمل على تظهير هذه الحركة بشكلها النهائي.

فالإنسان هو القوة المعتملة لحركة التاريخ، وبفعله تنمو الحياة الاجتماعية وتزدهر. وهو الكائن الفذ الفريد الذي تجلت فيه الروح الإلهية، فجعلت منه خليفة لله تعالى في الأرض، بعد أن زودته بكل وسائل التمكين فيها، ليكون مظهرا من مظاهر القدرة والعناية

الربانية، في الرحمة واللطف بهذا الوجود. فالإنسان مفطور على حب نفسه والسعي في إشباع حاجاته، ومأمور بالكدح منذ مجيئه إلى الدنيا حتى مغادرتها، وعليه أن يعيش تقوى الله تعالى في كل شؤونه ومفردات حياته، ليحقق الانسجام التام مع نفسه ومع ما حوله من الموجودات، المسخرة في خدمته ولصالحه. ومع ذلك هو حر مختار في تحديد وممارسة فعله، سواء في طريق الخير أم الشر دون إكراه. ومن هنا تبدأ قصة مسير حركة التاريخ، بفعل نشاطات الإنسان، وتموضع علاقاته المختلفة مع ما حوله، وفقا لحاجاته وطموحاته الإنسانية.

فإذا ما أراد الإنسان أن يصنع لنفسه تاريخا مشرفا، عليه معرفة نفسه وإدراك كنه ذاته، وخصوصيات علاقته بربه، وجدلية الصلات التي تربطه بآفاق الوجود المحيط به. ولن يصل إلى ذلك إلا بالعلم والمعرفة والوعي، وهي أسس الخلافة الربانية التي جعلت منه شاهدا على الناس في حياته.

وأما الزمان في البنية الثقافية القرآنية، فإنه يمثل الرحم الذي فيه يولد الفعل التاريخي، وبه تقرأ الحوادث والوقائع الناظمة لحركة التاريخ، الموصولة بأسبابها، وهو البعد المكمل لأبعاد المكان الثلاثة، الرابط بين الوقائع والأحداث في تعاقب سببي شامل للبيئة والإنسان. فالزمان ـ في حركة التاريخ ـ ليس وجودا متعاليا أو منفصلا عن واقع ووقائع الوجود الإنساني؛ بل هو في التحليل النهائي من وجهة نظر القرآن الكريم، مرتبط بفعل إرادة الإنسان من حيث كونه قدرة حرة وطاقة مختارة، فاعلة في صناعة التاريخ، وهو ما قررته سورة العصر، عندما قرنت بين القسم بالزمان، وبين مصير الإنسان بقوله تعالى:

﴿ والعصر(١) إن الإنسان لفي خسر(٢) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾

فالإنسان بإيمانه بالله تعالى، وفعله الصالح، وتواصيه بالحق والصبر، يكسب الزمان ويوجه حركته ويعجل بها نحو الله تعالى في دنياه وآخرته، بينما يخسر الزمان وتنتكس به حركته عندما يفقد الإيمان بربه، ويحيد عن فعل الخيرات، ويجانب الحق ويفتقد ملكة الصبر،وبناء على ذلك جاءت الآيات القرآنية والسنة النبوية الشريفة، مؤكدة على احترام الزمن، واستثمار أجزائه، وعدم التفريط به بأي شكل من الأشكال.

ومن خواص الزمن أنه يستنزف أفعال ونتاجات الأفراد والمجتمعات، بين متلاطمات أمواجه؛ لتتحول إلى قراءات في ذاكرة الأيام، تحمل في طياتها عبرا ومواعظ، للإنسان، تفتح أمامه آفاقا أوسع في التجربة والاعتبار؛ لتحديد حركة الحاضر والمستقبل. فالزمن عنصر هام في حركة التاريخ، ليس لأنه داخل في صميم الحركة والفعل التاريخيين؛ بل لأنه الوسط الحي، الكفيل بتميز ما هو ثابت وما هو متغير مع حركة الواقع، من وجوه الحياة وقضايا الإنسان.

ويبقى العنصر السنني ـ الثالث ـ يشكل أساسا بنيويا في حركة التاريخ. وقد أعطاه البحث مساحة واسعة، أشبع فيها كافة إشكالياته. وأثبت أن حركة التاريخ، لها سنن وقوانين، تتحكم في مسيرتها وحركتها وتطورها. وليست هي حركة عشوائية عفوية، فاقدة للوعي والإرادة، يمكن أن تتقدم فيها الحادثة ـ ب ـ على الحادثة ـ أ ـ، ويمكن أن تستبدل الواقعة ـ د ـ مكان الواقعة ـ ج ـ، دون أن يكون فيما بينها توافق سببي، ومعرفة هذه السنن، تتيح لنا معرفة أبعاد حركة التاريخ، وما هو مستقبلها، الذي يعني معرفة مصير الوقائع والأحداث؛ بل مصير الأمم والحضارات الإنسانية. وكشف الفصل الخامس من البحث، أن في القرآن المجيد منهجا متكاملا لمفردات هذه السنن بأشكالها الثلاثة؛ الشرطية والفعلية ـ المتحققة الوجود ـ والاتجاهية. كما استعرض البحث خصائص السنن التاريخية، وفق منظور علمي دقيق، مبينا تلك الخصائص، في الاطراد، والربانية، والإنسانية. مشيرا إلى إشكالية الوهم الذي سقط فيه جل الباحثين في القانونية التاريخية، عندما أثبتوا حدود التعارض بين حرية الإنسان وبين الإيمان بسنن التاريخ، فالقول بأحدهما يلزم إلغاء الآخر. غير أن القرآن المجيد قد حل لغز هذه الإشكالية بالتفريق بين أنواع السنن التاريخية، وتبيان الدور الإيجابي المتوازن بين إرادة الإنسان الفاعلة وبين المشيئة الإلهية الحاكمة، في عمل هذه السنن. وكذلك تم البحث في طبيعة عمل السنن التاريخية، تلك الطبيعة التي تمظهرت بالسببية أولا، وبالغائية ثانيا، والاجتماعية ثالثا.

وتضمن الفصل الخامس ـ أيضا ـ مبحثا هاما تعلق بدور الإنسان في بنية المجتمع، من حيث التغيير الاجتماعي، الحاصل جراء التحولات الحادثة في البيئة الاجتماعية، الناتجة عن الفعل الإنساني، المنطلق من محتواه الداخلي.

إذن ما توصل إليه البحث في الفصل الخامس؛ أن حركة التاريخ تدور حول الإنسان، وهو كائن معقد التركيب، متشابك الميول والاتجاهات، مرهف الأحاسيس والإدراكات. وفي دراسة أي حادثة أو واقعة تاريخية، لابد من معرفة حقيقة الإنسان، والنفاذ إلى أعماق نفسه، وفهم العوامل والدوافع المختلفة التي تحركه، وما مدى استجابته وتكيفه مع تلك الأحداث والوقائع. وكما أن الفرد له شخصيته التي يتحرك في خلالها ويؤثر ويتأثر بها، كذلك المجتمع له شخصيته وكيانه، وله أعماله وتجاربه.وهو كالفرد يتحول من حالة إلى أخرى، وفق مراحل مختلفة. لكن السنن هي التي تحكم حركته وتطوره، بمشيئة الله تعالى، الكائنة فوق كل شيء .

من ذلك يظهر، أنه بحركة الفرد وتشكلها مع حركة المجتمع، تقع الحوادث والوقائع التاريخية، بخضوعها لمجموعة من الأسباب وليس لسبب واحد؛ وبخضوعها ـ أيضا ـ لجملة من الظروف. وقد يصعب ـ في كثير من الأحيان ـ معرفة كل الأسباب، والإحاطة بكل الظروف، التي تلم بالحادثة الواحدة. فكيف يتمكن الإنسان حينئذ من إدراك كل الأسباب والظروف التي تحيط وتسير حركة التاريخ. فيصبح القول: بحصر حركة التاريخ ضمن نسق واحد وفي دائرة السبب الواحدة، ضربا من الهراء، المرفوض منطقيا وعلميا. فالقول: بوحدة النسق ووحدة السبب في حركة التاريخ، تعميم لا يقوم على دليل. فهناك حوادث ووقائع متغايرة تختلف فيما بينها بخصوصيات عدة، أدت إلى آثار ونتائج متباينة، كشفت عن اختلاف الأسباب المؤثرة فيها.

وقد حسم القرآن الكريم كل الإشكاليات والتساؤلات التي كانت تثار حول طبيعة وكيفية مسير حركة التاريخ، بطرحه مسألة « السنن» و«النواميس» التي تحكم هذه الحركة، وأكد على وجودها في صميم حركة هذا الكون الفسيح، وفي صلب العلاقات القائمة والمتبادلة بين الإنسان وبين هذا الوجود. وإن حرية الإنسان وإرادته، في إطار المشيئة الإلهية الحاكمة، تعمل في تناسق وتوازن مع هذه السنن والنواميس، في صنع الحادثة التاريخية، أو تسيير حركة التاريخ بشكل عام. كل ذلك يدخل في ديناميكية الفعل الحضاري، الصادر عن الإنسان، الخليفة لله تعالى في أرضه، المأمور بإصلاحها وإعمارها. فنتج عن هذه النظرة القرآنية السامية، أن الحدث التاريخي هو نتاج خلاق، وفعل متوازن،

يمثل لقاء المشيئة الإلهية، مع إرادة الإنسان، بتوافق وانسجام مع الطبيعة، فتكون حركة التاريخ البشري، وحدة امتدادية واحدة، منذ أن خلق الله الإنسان، وحتى يوم القيامة.

سادسا: أهم الملامح العامة لحركة التاريخ في المنظور القرآني

إن أهم الملامح العامة لحركة التاريخ في المنظور القرآني قد اشتمل عليها الفصل السادس من البحث، حيث بدت سماتها ظاهرة وواضحة ـ قرآنيا ـ بعد مقارنتها مع أهم الاتجاهات الرؤيوية المعاصرة؛ كالتفسير المثالي لحركة التاريخ، الذي نفى قانون العلية عن الساحة التاريخية. واعتبر الإنسان عنصرا متحركا يملك الإرادة وينعم بالحرية، ومن غير الممكن أن يخضع للجبرية. وما القول بالعلية إلا تقييد لحركة الإنسان وشل لطاقاته الإبداعية في الحياة. فحركة التاريخ في التفسير المثالي، تعبير عن إرادة الفعل الإنساني فحسب دون أن يشاركه فيها عنصر آخر. وهذا يعني نفي القانونية التاريخية بشكل مطلق.

أما التفسير الوضعي، فكان على العكس من الرؤية المثالية، حيث أخضع حركة التاريخ لمبدأ «الحتمية والتعميم»، واعتبر الساحة التاريخية كالساحة الطبيعية، لها قانونيتها المهيمنة على كل شيء بما في ذلك الإنسان، المسلوب الإرادة والحرية أمام سطوتها الصارمة. وقد توزعت النظرية الوضعية في تفسير حركة التاريخ، عدة حتميات متغايرة. تعرض البحث إلى أهم ثلاثة منها؛ الحتمية الاقتصادية، المتمثلة بالنظرية الماركسية، التي ألهت العامل الاقتصادي، وجعلت مشيئته فوق كل شيء في حياة البشر، وأن الساحة التاريخية غير قابلة للتخلف أمام حتمية قوانين الاقتصاد. ثم الحتمية الاجتماعية، المتمثلة بجبرية قوانين الاجتماع الصارمة، التي لا يملك الفرد أمامها حولا ولا قوة، وبالتالي يكون خاضعا لسلطتها دون الانفلات عنها قيد أنملة. وأخيرا حتمية الدورات التاريخية، التي أسست من حركة التاريخ كيانا مستقلا، أشبه بالكائن الحي الذي يقطع أشواط حياته، وفق مراحل خاصة ومتعددة، تخضع في ديناميكيتها إلى الغريزة التاريخية، المركوزة في صميم ذاتيته، دون أن يكون للإنسان أي دور فيها؛ بل التاريخ نفسه يحرك نفسه في دورات متعاقبة مع سياق حركة الزمن، كما نظر إليه الفيلسوف الألماني «شبنجلر»، ولكن خلال البعد البيولوجي الذي اعتمده في التفسير.

ثم كان الاتجاه القائل بتفسير حركة التاريخ على أساس التخادم المشترك بين إرادة الإنسان وفعله وبين القانونية التاريخية فحسب. وهو التفسير التاريخي المتبنى من قبل اليهود، الذين استبعدوا المشيئة الإلهية عن حركة التاريخ؛ لقولهم: بأن الله تعالى قد خلق العالم، ثم تخلى عنه واستراح.

وهنا وجدنا حالة التهافت لدى هذه الاتجاهات جميعا، حين أنكر بعضها مبدأ السببية في التاريخ وعطل أثر القانونية أو السننية في حركته، وجعل الإنسان، المهيمن الأول والأخير على كل ما يحصل من وقائع وأحداث تاريخية، دون وجود أي أثر لقانونية التاريخ، وفي ذلك تطرف واضح في النظرة إلى الإنسان، وقصر نظر إلى واقع مسيرة التاريخ وما يلابسها من علل وأسباب وظروف عدة. بينما أذعن البعض الآخر من تلك الاتجاهات لمبدأ الحتمية، المتوقفة عند «العامل الواحد»، واختزل كل العوامل والأسباب في واحد فقط؛ أما اقتصادي، أو جغرافي، أو الجنس البشري، أو العامل النفسي،أو الفرد البطل ...الخ، فعكس تعامله مع حركة التاريخ بنظرة تبسيطية خالية من البعد الموضوعي العلمي. أما النظرية الثالثة فقد أبعدت تماما دور المشيئة الإلهية ورعايتها لحركة التاريخ، وأعطت للإنسان والقانونية حق صناعة الوقائع والأحداث التاريخية، وفي ذلك كفر صريح بمبدأ السببية العليا، والخالقية العظمى لهذا الوجود، الذي لولاها لما كان، ولولا رعايتها وقيمومتها الدائمة لما ظل كما هو عليه الآن.

هكذا بدت لنا الاتجاهات الرؤيوية المعاصرة، البعيدة عن هدي السماء، قاصرة عن استيعاب حركة التاريخ، عاجزة عن حل إشكالياتها، مجانفة للموضوعية والعلمية في تفسيراتها. حتى جاءت الرؤية القرآنية، واضحة في طرحها، شمولية في فهمها، مستوعبة لكل أبعادها ومداخلاتها، حين أرست رؤيتها لحركة التاريخ على ثلاثة أسس رئيسة:

١. مبدأ العلية

٢. الإرادة الإنسانية

٣. المشيئة الإلهية

وهنا يكون البحث قد أثبت للقرآن الكريم أسبقيته التاريخية؛ باعتباره أول من طرح القانونية التاريخية، عبر مفهوم السننية التي زخرت بها آياته المباركة، مفندا مزاعم العفوية

أو العشوائية في حركة التاريخ. وفي الوقت نفسه قد أعطت الرؤية القرآنية للإنسان مكانته اللائقة في هذا الوجود، مصرحة بحريته وإرادته في اختيار فعله، وتقرير دوره؛ ليكون فاعلا ومؤثرا في حركة الحياة، بما ينسجم مع حجم خلافته الربانية في الأرض. كما أبقت الرؤية القرآنية للمشيئة الإلهية هيمنتها العليا على حركة التاريخ، دون إخلال بدور الإنسان أو بأثر السننية، وإنما وازنت بين الجميع بمعادلة محكمة عادلة، مع إقرارها بأن للمشيئة الإلهية فاعليتها في كل شيء. فالله تعالى هو الحي القيوم، وبمشيئته قامت وتقوم الأشياء كلها، وتجري الأمور جميعها، وهو سبحانه المهيمن على كل ما في الوجود. وليس معنى هذا إغراقا لحركة التاريخ بالتفسير اللاهوتي الجبري، المعبر عن النظرة الغيبية الاستسلامية للأشياء، بحيث يفقد الإنسان أمامها حريته واختياره ودوره، وتقف القانونية حيالها جامدة راكدة... ليس هذا واردا في قاموس الفهم القرآني للأشياء، وإنما هو تقرير لحقيقة الأمر، وإعطاء كل شيء ما يستحقه من دور في حركة التاريخ، بميزان العدل والحق.

ومن ناحية أخرى، تبين إخفاق النظريات الوضعية - جميعا - في رؤيتها لإشكالية التنبؤ بالمستقبل التاريخي، حيث تطرف بعضها إلى القول: بأن التنبؤات الاجتماعية التاريخية، بأي صورة، وعلى أي مستوى، تكون مستحيلة ألبتة. وفي حين نجد الأخرى منها أقرت مبدأ الحتمية في نبوءات المستقبل، مؤكدة خرقها لحجب الغد المستور. والتنبؤ بالمستقبل ليست فكرة حديثة العهد، أفرزتها الأيديولوجيات المعاصرة، وإنما كانت تراود الإنسان منذ القديم، بصور وكيفيات متشاكلة، بحسب اختلاف نظراته وتصوراته الفلسفية، كما كانت تصطبغ بطوره الثقافي، ومقدار وعيه لفكرة الكون والحياة. فالكهانة، والتنجيم، والقيافة، والزجر، والتفاؤل، والتطير، تشكلات مختلفة ارتبطت بصورة أو بأخرى مع فكرة التنبؤ بالمستقبل، لها دلالتها الواضحة على ارتباط الإنسان بعالم الغيب.

ولما جاء القرآن الكريم، طرح فكرة «علم المستقبل»، وابتعد بهذه الفكرة عن ثقافتها الأسطورية السائدة في المجتمعات العربية أو غيرها. فاعتبر المستقبل بابا من أبواب الحاضر، أخضعه لقانونية حركة التاريخ، وفق الرؤية العلمية الموضوعية. جعلت منه أمرا ممكنا في العلوم الاجتماعية كما هو في العلوم الطبيعية. هذه الفكرة تتأسس في جوهرها على أساس إمكانية وعي وإدراك صيرورة حركة التاريخ الزمنية. تلك الحركة التي تجعل

من الماضي، مقدمة لرؤية الحاضر، تمتد بحالة انسيابية متواصلة باتجاه المستقبل. فالواعي لحركة التاريخ، عندما يحدق في المستقبل عبر خطوط الماضي، ومعطيات الحاضر، يستطيع أن يتوقع متجهات هذا المستقبل، على ضوء الهدف أو الغاية التي تسعى لها الأمة، ضمن شروط ومواصفات معينة. وهكذا ارتبطت مسألة التنبؤ بالمستقبل بحركة التاريخ. حينئذ يكون القرآن الكريم قد حطم المفهوم السكوني للتاريخ، الذي كان يحصر التاريخ في أحوال ووقائع الماضي فحسب، وجعله حركة موصولة بين الماضي وبين الحاضر وبين المستقبل.

وما لبث البحث حتى انتقل بنا إلى دور الدين في حركة التاريخ، إذ هو المحور الذي يدور حوله التاريخ الإنساني؛ بل الحياة كلها. فالدين حاجة إنسانية أساسية، تولد مع الإنسان، وليس بإمكانه التخلي عنها أو الاستغناء عن عطائها. وهو عهد وميثاق أكيد بين الإنسان وربه تعالى. ثم فند البحث مجمل الفرضيات الوضعية المشوهة حول نشأة الدين في حياة الإنسان؛ الدين وليد الخوف؛ الدين وليد الجهل؛ الدين حصيلة التناقض الطبقي في المجتمع؛ الدين وليد عوامل نفسية يعيشها الإنسان في حياته. وكانت نتيجة المقاربة في هذه المسألة؛ أن الدين من سنن الحياة والتاريخ، فكما أن السنة تدخل في صميم تكوين وبناء العلاقة بين الأشياء، كذلك الدين يدخل في صميم وتكوين الإنسان من ناحية، وصميم علاقاته البنيوية وتفاعلاته مع الوجود كله. فاستحق تعبير ووصف «ذلك الدين القيم»، بما يتمثل به من هيمنة وقيمومة على الحياة والإنسان، وقدرة على التحكم في العلاقة بينهما، وصياغة تلك العلاقة، وتوجيهها بالشكل المنتج الصحيح. والدين بقدر ما هو شرعة إلهية، يأتي بها الأنبياء والرسل (عليهم السلام)؛ لتوجيه البشر، وبرمجة حياتهم بشكل حضاري، يليق بمكانتهم كخلفاء الله تعالى في الأرض، هو سنة حياتية تعمل على إظهار جوهر الإنسان، وتفجير ما يكمن فيه من كنوز الخير والعطاء؛ لتتمظهر فيه الروح الإلهية السامية، التي جعلت من قبضة الطين، خليفة للبارئ سبحانه، فيكون موضع صدق وإخلاص للأمانة الإلهية التي تحملها هذا الإنسان. وهذا ما يعظم دور الدين في حركة التاريخ، ودور الأنبياء وخطورة مسؤولياتهم في مسيرة البشر. والمقصود «بالدين القيم» هو دين الإسلام، الخاتم للأديان السماوية؛ المبدأ الإلهي الذي تنبثق عنه شريعة متكاملة لكل

نواحي الحياة؛ ينطلق منها النظام الأصلح لمعالجة كافة قضايا الإنسانية؛ يتفرع عنها منهج اجتماعي أخلاقي يوجه الفرد والمجتمع في كل شؤونهما الحياتية لما فيه الخير والسعادة.

بذلك تبدو حركة التاريخ، وفق التصور القرآني، ملونة بريشة الدين، ذلك اللون الرباني، الذي يثبت لها كل خصائصها اللازمة، حتى تجري كالنهر الكبير المتدفق، المتجدد دوما، من منابع الإنسانية التي فطرت على الدين القيم.

ومن جملة المسائل الهامة التي عالجها الفصل السادس؛ خصائص حركة التاريخ، وفق المنظور القرآني، فقد أثبت البحث عدة حقائق ملازمة لحركة التاريخ منها: الاستمرارية، وهي صفة بارزة لا تنفك عنها، بحكم كونها حركة مستقبلية غائية هادفة، تتحدى الجمود والتوقف مطلقا، متواصلة الجريان منذ أن بدأت مسيرها، حتى تصل إلى منتهاها عند ربها. بذلك يتضح عقم مقولة «نهاية التاريخ» بالشكل الذي صوره «فرانسيس فوكوياما»، عندما بسط المسألة إلى حد السذاجة، واعتبر انتصار الديمقراطية الغربية الحرة هو انتصار للغرب، وأن انهيار الماركسية، وتفكك الاتحاد السوفييتي هو نهاية الصراع، وليس أمام الأميركيين والأوربيين ما ينتظرونه من جديد. وهذا الانتصار الغربي في العالم هو نهاية التاريخ، وسوف لن يحصل شيء جديد سوى بعض الإصلاحات الطفيفة. فهذه الرومانسية وفقاقيع الأحلام التي تسبح في خيال فوكو ياما، ليس لها ميزان في الساحة العلمية، وبعيدة كل البعد عن الواقع، فالتاريخ ماض بحركته ولن يتوقف، وسيستمر حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. ونتمنى على الباحثين الإسلاميين ـ بالذات ـ أن يعالجوا هذه الخصوصية في حركة التاريخ، بمنظور قرآني؛ لإثبات أن قوانين وسنن التنافس والتدافع والمداولة بين البشر قائمة، وأن قوانين الحق والعدل والخير هي الحاكمة، وأن نهاية التاريخ ستكون بانتصار الحق على الباطل، وغلبة الخير على الشر، وتجسيد العدالة الإلهية في الأرض.

ومن الخصائص الأخرى لحركة التاريخ، هي «التبدل أوالتغير»، وهي نتيجة حتمية لخاصية الاستمرارية القائمة على التنافس والتدافع ومداولة الأيام بين الناس. فحياة البشر لا تسير على وتيرة واحدة؛ بل تمضي وفق تموجات، ينتابها العلو حينا والهبوط حينا آخر، تعبيرا عن صيرورة حركة التاريخ غير القابلة للسكون. وتأتي الخاصية الثالثة «الواقعية» من خصائص حركة التاريخ، تمظهرت فيها كل صفات الشمولية والجدية والصدق، الملازمة

لعمل القوانين والسنن التاريخية، لا تعرف الانحياز نحو طرف أو جهة في الوجود، كما لا تقف عند الحياد إزاء أي فعل يصدر مهما كان مصدره؛ بل تعمل بإيجابية صادقة مع المؤمن والكافر، وفي الخير والشر، وفق منظومة القانونية التاريخية، وفي إطار الأسباب والنتائج، بشكل يصور لنا أن حركة التاريخ ذات إطار منهجي كلي وشمولي، له قوانينه وسننه التي تحكم حركته.

وأخيرا تناول الفصل السادس، مبحث التكامل في حركة التاريخ، وهو من المباحث ذات البعد الفلسفي التأملي، التي تربط بين فلسفة حركة التاريخ والميتافيزيقا، برؤية تخرق حجب الماضي، وتسبق مجريات المستقبل، بتصورات مسبقة، تجسد أحلام وتمنيات الإنسانية بالغد المشرق، تبشر بتحقق أطروحة العدل الإلهي في كل الأرض، وهذه غاية الكمال المنشود، الذي تحدو إليه البشرية في طريقها اللاحب منذ فجر التاريخ.

وقبل الدخول في معرض الرؤية القرآنية عن مستقبل حركة التاريخ، وكيفية مسارها، تطرق البحث إلى أهم الرؤى المعاصرة لطبيعة مسار هذه الحركة، وقد توزعتها ثلاثة اتجاهات هي :

- حركة التقدم الصاعد للتاريخ
- حركة النكوص المتدهور للتاريخ
- حركة الدورات الحضارية للتاريخ

وتبين أن هذه الاتجاهات في رؤية طبيعة مسير حركة التاريخ، ناتجة عن انعكاسات لقراءات ذاتية، متأثرة بنوازع وكوامن شخصية، تارة تعيش الأمل والتفاؤل، فتحلم بشوق تصاعدي نحو التنموية التكاملية المستقيمة. وتارة أخرى يعشش فيها التشاؤم واليأس والإحباط، فتنظر إلى الواقع التاريخي بعين السقوط والتردي. وتنظر من زاوية ثالثة إلى أن حركة التاريخ كالدولاب الذي يدور حول نفسه، بشكل رتيب، حاملا عربته نحو المستقبل الموعود، الذي سرعان ما يعود به الزمن ثانية؛ ليستمر في دوراته من جديد؛ ليخط التاريخ حركته في رحاب الإنسانية، متساوقا مع تقلبات حركة الزمن. وهكذا نجد العقل الغربي، حينا يربط مصير حركة التاريخ بالنشوء والارتقاء العلمي سلبا أو إيجابا، عندما يرى أن العلم سيضع مفاتيح الفردوس بين يدي بني البشر، بما سيحققه من إنجازات

كبرى وحالمة في الرقي التكنولوجي، والرفاه الاجتماعي، والتطور العالمي لكل جوانب الحياة، وهو ماض في طريقه التصاعدي. وحينا آخر يرى الإنسان قد استنفد أغراضه في العطاء والإنتاج، وغدا يرتد على ما حققه من إنجازات وعطاءات، يقضي عليها ويحطمها بنوازع الشر والطغيان التي بدت عليه واضحة في مختلف أرجاء المعمورة. بينما نرى الآخرين من أمثال «توينبي» يربط عجلة التاريخ بقانون الاستجابة والتحدي، حيث القانون الحاسم لرقي وتقدم حركة التاريخ.

ثم تناول البحث خاصية النزوع نحو الكمال لدى الإنسان، بتحليل علمي دقيق، على ضوء النصوص القرآنية. ظهر من خلالها أن الإنسان مفطور على السير نحو التكامل، ويحمل في ذاته ديناميكية الوصول إلى ربه. وما هدف الأنبياء والرسل (عليهم السلام) إلا تعجيل حركة هذا النزوع الإنساني نحو الله تعالى، بتطهير باطن البشر، وإصلاح ما يحيط بهم في الخارج. كما أن حركة الأديان الإلهية عبر الأجيال والقرون ذات وحدة متصلة مع بعضها، شكلت على امتدادها مع دين الإسلام الخاتم لكل الأديان، مسيرة تكاملية، أخذت بيد البشرية وفق مراحل متوالية، بدأت بها من مرحلة الحضانة والتربية والتعليم في جنة آدم (عليه السلام) إلى مرحلة العيش على الأرض بصفاء وهدي الفطرة الإلهية، إلى مرحلة الاختلاف بين البشر، الذي بدوره أخذ يمر بأطوار من النمو والنضج الإنساني حتى وصل إلى مرحلة البلوغ والرشد، ببعثة الرسول المصطفى محمد (صلوات الله وسلامه عليه)، فجاء بالمنهج الإلهي الخاتم المتكامل، الصالح لكافة البشر في كل زمان ومكان... وأخذت الإنسانية تتربى على هذا المنهج الإلهي...و لازالت تتربى عليه، ولن تصل إلى كمالها المنشود إلا به...و ستبقى تجاهد وتكدح في خلاله حتى تتحقق ذروة النزوع الإنساني نحو الوصول إلى الحق، بالانتهاء إلى الله تعالى.

وختم الفصل السادس، بمبحث «مفهوم التكامل الاجتماعي والتاريخي في القرآن». واعتمد البحث في هذه المسألة على نقاط سبقت الإشارة إليها، كمفهوم «الاستمرارية» الذي شكل خاصية أساسية من خصائص حركة التاريخ، ومفهوم «التبدل أوالتغير» فيها. هذان المفهومان ينبثقان عن طبيعة فكرة الصراع القائم في صميم حركة التاريخ البشري. فجوهر الصراع الدائر في حركة التاريخ، يقوم أساسا بين قطبية ثنائية، طرفها الأول الحق

والخير، والآخر الباطل والشر. وهو صراع بعيد المدى، متجذر الأبعاد، يتمظهر في أشكال وكيفيات شتى بين بني البشر، يشدهم نحو منافسات وتدافعات؛ نفسية وفكرية وعقدية ووجدانية وعرقية وثقافية وسياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية...الخ. وكل هذه الاختلافات الحاصلة في دنيا البشر، تؤكد طبيعة الكينونة البشرية، المعقدة التركيب، المتشابكة الوحدات، المترامية الأطراف، التي تتقاسمها نزعات وأهواء متباينة، تحيط بها عوامل ومؤثرات عدة، وتتجاذبها حاجات مادية ومعنوية كثيرة. غير أن الصراع القائم بين الحق والباطل، والتنافس الحاصل بين بني البشر، هما ضرورة لإدامة حركة التاريخ؛ لئلا تتجمد مسيرة الحياة. وبالتالي فنظرتنا إلى هذا الصراع وهذا التدافع عبر التاريخ، ليست كالنظرة الملائكية ـ نظرة تشاؤمية ـ كما جاء في قولهم لله تعالى « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء»؟! بل هي نظرة تفاؤلية، تنبثق من صميم قول الحق سبحانه: «إني أعلم ما لا تعلمون». فعلمه تعالى قائم على إرادة الخير والصلاح للبشرية جميعا... وبذلك فإن سنة التنافس والتدافع بين الناس، تمثل قوة إيجابية تشد حركة التاريخ إلى الأمام، وتميل بها نحو التكامل، دون أن نغرق أنفسنا في نزعة مثالية، كالتي يفترضها هيجل وماركس ورفاقهما، بأنها صراعات متوالية حتمية وجبرية، لا تقبل المرونة أو الانحناء؛ بل تكون في امتداد تصاعدي مستقيم، وإن تعارضت مع إرادة الإنسان وفعله.

فقد توصل البحث إلى أن ديناميكية هذا «الصراع» و«التنافس» يشد حركة التاريخ إلى الأمام، ليس بخط تصاعدي مستقيم، وإنما على شكل تموجات تحمل بين منحنياتها علوا وهبوطا، وتقدما ورجوعا، يندفع بها نحو الأمام بشكل تنموي. وعلى مدى هذه الحركة، قد تنتكس التجربة البشرية، وتنزل بها ضربة قاصمة، قد تجرها إلى السقوط والانهيار في منحدرات سحيقة جدا، كما هو حالها في الحروب الكونية الطاحنة، وممارسات الطغاة المستبدين، حينئذ تتكشف نقاط الضعف في طبيعة هذا الإنسان الذي «كان ظلوما جهولا». إلا أن هذه الانتكاسات والممرات الخانقة التي تمر بها البشرية، قد تحمل نتائج هامة، تفعل أثرها في صميم العقل الإنساني، فتمنحه القوة والإيجابية، وتبعث فيه الانتباه والصحوة، فتشحذ فيه همة الوعي والانطلاق نحو العلو والتقدم ثانية. فهي في ظاهرها وعكة وانتكاسة، وفي واقعها قوة وعافية. وهكذا تتحول الانتكاسات والتجارب

المرة في تاريخ الأمم والشعوب إلى موجهات تنموية، حافزة نحو مشاريع نهضوية، تسهم في إغناء حركة التاريخ، كما حصل بالنسبة لليابان وألمانيا بعد محنة الحرب العالمية الثانية. ولن يتم مثل هذا النهوض التنموي إلا إذا تبصرت الأمم والشعوب بما أصابها، واتعظت وتعلمت منه. وهو ما يؤكده القرآن الكريم، عندما يطرح الاعتبار غاية من غايات التاريخ. فالعبرة في جذرها اللغوي تمثل عبورا من الماضي إلى الحاضر؛ من التاريخ إلى الواقع؛ من التجربة إلى وعي النتائج. لأن الذي يملك زمام الفعل الحضاري المنتج، هو الإنسان، وهو بحاجة إلى الاعتبار بمن قبله؛ لأنه يمسك بمقود حركة التاريخ، ويوجهها بحسب إرادته ووعيه، بعد أن جعل الله تعالى سنن وقوانين هذه الحركة مستجيبة لتخطيط وفعل الإنسان، فإن أحسن وأتقن تسخيرها، أعقبت عليه بالحسنى، وإلا عادت عليه بمثل فعله...فالصراع والتنافس الذي يحرك ويوجه حركة التاريخ، لا يملك عقلا ولا وعيا ولا إرادة، حتى يمسك بزمام هذه الحركة كيفما يريد -بحسب نظر هيجل وماركس وغيرهما - وإنما الذي يحرك ويوجه هذا الصراع والتنافس هو الإنسان.

إذا تكامل هذا الإنسان، وزكت نفسه، وتسامت أفعاله، فإن حركة التاريخ تتكامل نتيجة لذلك...وهذا ما ينشده الإسلام، إذ يهدف إلى بناء الإنسان وصياغته بشكل يتناسب ودوره كخليفة لله تعالى في الأرض...لينتهي به المطاف عند ربه سبحانه، وذلك هو الكمال المنشود، الذي تنزع إليه البشرية في كدحها المستمر عبر حركة التاريخ.

وقد عزز البحث هذه النتيجة المؤملة، بالرجوع إلى فحص حركة الواقع الإنساني، الذي شهد تطورا وتكاملا في جبهات مختلفة، منها:

- في مجال الكون والبيئة الطبيعية.
- في مجال البيئة الاجتماعية.
- في مجال بناء الذات الإنسانية وتحمل مسؤولياتها التاريخية.

فقد قطعت البشرية في هذه المجالات المتغايرة، أشواطا كبيرة، رغم ما تعرضت إليه من نكبات وعقبات وانتكاسات جرت عليها الويلات القاسية، فأثبتت أنها سائرة في طريق التكامل، وماضية في الشوط حتى الوصول إلى الهدف المنشود، «وأن إلى ربك المنتهى».

أخيرا نود التأكيد على أهم النتائج المفصلية التي انتهى إليها البحث:

١. إن في القرآن الكريم رؤية واضحة عن حركة التاريخ البشري، وأصول منهج متكامل للتعامل معها. يتميز بالأصالة والواقعية والموضوعية العلمية.

٢. إن جوهر الصراع الدائر في حركة التاريخ البشري، ليس بين الإنسان وأخيه، وليس بين الإنسان والطبيعة؛ بل بين قوى الحق والباطل. أما ما يحصل بين الإنسان وأخيه أو بين الإنسان والطبيعة فإنه تنافس وتدافع. وإن هذا التنافس والتدافع ضروري لتطور وتكامل مسيرة الإنسانية.

٣. إن الذي يصوغ الفعل الحضاري التاريخي، ويبني الحياة الإنسانية، في منظور القرآن الكريم، هو الإنسان نفسه. فقد خلقه الله تعالى مفكرا مريدا مختارا، وجعل ما في الكون من قوى وقوانين وسنن وطاقات تتخادم مع مصلحته، وتستجيب لإرادته.

٤. إن الدين القيم «الإسلام» محور حركة التاريخ الإنساني، على امتداد الأجيال والقرون، ومن غير العمل بهداه لن تصل البشرية إلى بر الأمان.

٥. إن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه بنفسه ـ مشابهة وتحديدا ؛ بل يمكن أن تتقارب أحداثه ووقائعه لتقارب ظروفه وأسبابه. وحينئذ يمكن الكشف عن معالم المستقبل والتنبؤ عن خطوطه العريضة، لا التنبؤ عن وقائعه وتفاصيله بالدقة.

٦. إن حركة التاريخ تجري وفق حركة تكاملية ـ بمعنى أنها تميل نحو التكامل ـ بشكل تموجي، يتخللها علو وهبوط، وتقدم وتراجع، حتى تصل إلى هدفها المنشود؛ لأنها حركة مستقبلية ذات غاية مقصودة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولا: التفسير والدراسات القرآنية:

الآلوسي (أبو الفضل، شهاب الدين، السيد محمود الآلوسي، البغدادي، الحسني، الحسيني)، ت: (١٢٧٠هـ - ١٨٥٣م):

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني «المعروف بتفسير الآلوسي»، دار الفكر، بيروت، (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).

(٢) أحمد فائز الحمصي: قصص الرحمن في ظلال القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).

الراغب الأصفهاني (أبو القاسم، الحسين بن محمد، الأصفهاني)، ت: ٥٠٢هـ:

(٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الكاتب العربي، بيروت، (د.ت).

رضا (السيد محمد رشيد رضا)، ت: (١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م):

(٤) تفسير القرآن الحكيم، «المعروف بتفسير المنار»، دار المعرفة، بيروت، ط٢، (د.ت).

الزمخشري (أبو القاسم، محمود بن عمر، الخوارزمي، الزمخشري، الملقب بجار

الله)، ت: ٥٣٨هـ:

(٥) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت).

(٦) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، منشورات دار الأضواء، قم ـ إيران، ١٣٦٣ هـ. ش.

(٧) سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط٩، (١٤٠٠هـ ـ ١٩٧٨م).

السيوطي (أبو بكر، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر، السيوطي)، ت: ٩١١ هـ:

(٨) الإتقان في علوم القرآن، دار إحياء العلوم، بيروت، (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م).

الطبرسي (أبو علي، الفضل بن حسن، الطبرسي، الطوسي)، ت: ٥٤٨هـ:

(٩) مجمع البيان في تفسير القرآن، تصحيح وتحقيق وتعليق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، والسيد فضل الله اليزدي الطباطبائي، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).

(١٠) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، دار القلم، دمشق،ط٢، (١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م).

(١١) عبد الرحمن النحلاوي: التربية بضرب الأمثال، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م.

(١٢) عفيف عبد الفتاح طبارة: مع الأنبياء في القرآن الكريم، إنتشارات الشريف الرضي، قم ـ إيران، ١٤١٣هـ

الفخر الرازي (أبو عبد الله،محمد بن عمر القرشي،والملقب بفخر الدين الرازي)، ت: ٦٠٦هـ:

(١٣) مفاتيح الغيب، «الشهير بالتفسير الكبير وبتفسير الفخر الرازي»، المطبعة البهية المصرية، القاهرة، (د.ت)

القرطبي (أبو عبد الله، محمد بن أحمد، الأنصاري، القرطبي)، ت: ٦٧١هـ:

(١٤) الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، «المشهور بتفسير القرطبي»، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).

ابن كثير (أبو الفداء، إسماعيل بن كثير، القرشي، الدمشقي)، ت: ٧٧٤هـ:

(١٥) تفسير القرآن العظيم، «المعروف بتفسير ابن كثير»، دار المعرفة، بيروت، (١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م).
(١٦) السيد محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).
(١٧) محمد تقي مصباح: معارف القرآن، تعريب: محمد عبد المنعم الخاقاني، الدار الإسلامية، بيروت، (١٤١٠هـ - ١٩٨٩م).
(١٨) محمد جواد مغنية: التفسير الكاشف، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨١م.
(١٩) محمد جواد مغنية : التفسير المبين، نشر توحيد، طهران، ط٢، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
(٢٠) محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، (١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م).
(٢١) السيد محمد حسين الطباطبائي: القرآن في الإسلام، ترجمة: السيد أحمد الحسيني، منظمة الإعلام الإسلامي، طهران - إيران، ١٤٠٤هـ.
(٢٢) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط٣، (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).
(٢٣) السيد محمد حسين فضل الله: تفسير من وحي القرآن، دار الملاك، بيروت، ط٢ ، (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).
(٢٤) السيد محمد حسين فضل الله: حركة النبوة في مواجهة الانحراف، إعداد وتنسيق: شفيق محمد الموسوي، دار الملاك، بيروت، (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).
(٢٥) الشيخ محمد متولي الشعراوي: المنتخب من تفسير القرآن الكريم، منشورات دار النصر، بيروت، (د.ت)، ج١.
(٢٦) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل «الشهير بتفسير الأمثل»، مؤسسة البعثة، بيروت، (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).
(٢٧) الواحدي (علي بن أحمد بن محمد، الواحدي)، ت: ٤٦٨هـ:
أسباب نزول القرآن، «المشهور بأسباب النزول»، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

ثانيا: الحديث النبوي الشريف ودراساته:

ابن الأثير (مجّد الدين، أبو السعادات، المبارك بن محمد، المعروف بابن الأثير الجزري)، ت: (٦٠٦هـ - ١٢١٠م):

(٢٨) النهاية في غريب الحديث والأثر، مؤسسة التاريخ العربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

الترمذي (أبو عيسى، محمد بن عيسى بن سورة، الترمذي)، ت: (٢٧٩هـ - ٨٩٢م):

(٢٩) الجامع الصحيح، وهو: سنن الترمذي، تحقيق الشيخ إبراهيم عطوة عوض، دار الحديث، القاهرة، (د.ت).

ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين، أبو الفضل، أحمد بن علي بن حجر، العسقلاني)، ت: (٨٥٢هـ - ١٤٤٨م):

(٣٠) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).

أبو داود (سليمان بن الأشعث، السجستاني، الأسدي)، ت: (٢٧٥هـ - ٨٨٨م):

(٣١) سنن أبي داود، دار الجنان، بيروت، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م).

المجلسي (محمد باقر بن المولى محمد تقي بن مقصود علي الأصفهاني، الشهير بالمجلسي)، ت: ١١١١هـ.

(٣٢) بحار الأنوار، الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط٢، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

(٣٣) محمود أبو رية: أضواء على السنة المحمدية أو دفاع عن الحديث، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط٣، (د.ت).

مسلم (أبو الحسين، مسلم بن الحجاج بن مسلم، القشيري، النيسابوري)، ت: (٢٦١هـ - ٨٧٤م):

(٣٤) صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

ثالثا: الفقه والأصول:

الآمدي (أبو الحسن، سيف الدين، علي بن محمد بن سالم، الآمدي، التغلبي)، ت: (٦٣١هـ ـ ١٢٣٣م):

(٣٥) الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: د. سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م).

الشوكاني (محمد بن علي بن محمد، الشوكاني)، ت: (١٢٥٠هـ ـ ١٨٣٩م):

(٣٦) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، دار الفكر، بيروت، (د.ت).

(٣٧) د. عبد الكريم زيدان: الوجيز في أصول الفقه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م).

ابن قيم الجوزية (شمس الدين، أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيم الجوزية)، ت: (٧٥١هـ ـ ١٣٥٠م):

(٣٨) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق: بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، دمشق، (١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م).

(٣٩) محمد بحر العلوم: عيوب الإرادة في الشريعة الإسلامية، دار الزهراء للطباعة، بيروت، ١٩٨٤م.

(٤٠) محمد صالح جعفر الظالمي: من الفقه السياسي في الإسلام، منشورات، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩م.

(٤١) الشيخ محمد مهدي شمس الدين: في الاجتماع السياسي الإسلامي «المجتمع السياسي الإسلامي، محاولة تأصيل فقهي وتاريخي»، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، (١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م).

(٤٢) د. مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، المكتب الإسلامي، دمشق، ط٢، (١٤٩٨هـ ـ ١٩٧٨م).

رابعا: اللغة العربية وآدابها ومصطلحاتها:

(٤٣) إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار:

المعجم الوسيط (معجم اللغة العربية)، إشراف: عبد السلام هارون، مجمع اللغة العربية، طبع مكتبة النوري، دمشق، ط٣، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

البطليوسي (أبو محمد، عبد الله بن محمد بن السيد، البطليوسي)، ت: ٥٢٠هـ:

(٤٤) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تحقيق: الأستاذ: مصطفى السقا، د. حامد عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١م.

أبو البقاء (أيوب بن موسى، الحسيني، الكفوي)، ت: (١٠٩٤هـ - ١٦٨٣م):

(٤٥) الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: د. عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).

(٤٦) التهانوي (محمد علي التهانوي): موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناتي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٦م.

الجرجاني (السيد، الشريف، علي بن محمد بن علي، السيد الزين، أبو الحسن، الحسيني، الجرجاني)، ت: ٨١٦هـ:

(٤٧) التعريفات، تحقيق: محمد بن عبد الحكيم القاضي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (١٤١١هـ - ١٩٩١م).

ابن أبي الحديد (عز الدين، عبد الحميد بن أبي الحديد، المدائني، المعتزلي)، ت: ٦٥٥هـ وقيل: ٦٥٦هـ:

(٤٨) شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ط٢، (١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م).

الرازي (محمد بن أبي بكر عبد القادر، الرازي)، ت: بعد ٦٦٦هـ:

(٤٩) مختار الصحاح، مكتبة بكداش، حلب - سورية، (د.ت).

(٥٠) الشرتوني (سعيد، الخوري، اللبناني): أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم - إيران، ١٤٠٣هـ.

الطريحي (فخرالدين بن محمد بن علي، النجفي، المعروف بالطريحي)، ت: ١٠٨٥هـ.

(٥١) مجمع البحرين ومطلع النيرين، المكتبة المرتضوية، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، طهران، ط ٢، ١٤٠٣هـ.

الفيومي (أحمد بن محمد بن علي، المقري، الفيومي)، ت: ٧٧٠هـ:

(٥٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، منشورات دار الهجرة، قم - إيران، ١٤٠٥هـ.

ابن منظور (جمال الدين، أبو الفضل، محمد بن مكرم، المعروف بابن منظور الأنصاري، الإفريقي، المصري)، ت: ٧٧١هـ.

(٥٣) لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).

خامسا: دراسات في العقيدة والأديان:

(٥٤) د. أحمد شلبي: اليهودية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ١٢، ١٩٧٧م.

(٥٥) أحمد عبد الرحيم السايح: بحوث في مقارنة الأديان، دار الثقافة، الدوحة - قطر، (١٤١١هـ - ١٩٩١م).

(٥٦) أحمد فائز: اليوم الآخر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١٦، (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).

التفتازاني (مسعود بن عمر بن عبد الله، الشهير بسعد الدين، التفتازاني)، ت: (٧٩٣هـ - ١٣٩٠م):

(٥٧) شرح المقاصد، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، منشورات الشريف الرضي، قم - إيران، ١٣٧١هـ. ش .

(٥٨) الشيخ جعفر السبحاني: الله خالق الكون، بقلم جعفر الهادي، منشورات سيد الشهداء العلمية، قم - إيران، ١٤٠٥هـ.

(٥٩) د. رشدي عليان، وسعدون الساموك: الأديان دراسة تاريخية مقارنة، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، (١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م).

الشهرستاني (أبو الفتح، محمد بن عبد الكريم بن أحمد، الشهرستاني)، ت: ٥٤٨هـ:

(٦٠) الملل والنحل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٢، (د.ت).

(٦١) الكتاب المقدس (كتب العهد القديم والعهد الجديد)، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، (د.ت).

(٦٢) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط ٤، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

(٦٣) السيد محمد باقر الصدر: موجز في أصول الدين، تحقيق: عبد الجبار الرفاعي، دار سعيد بن جبير، قم - إيران، ١٤١٧هـ.

(٦٤) د. محمد الصادقي: حوار بين الإلهيين والماديين، إنتشارات فرهنك إسلامي، طهران - إيران، ط ٢، ١٤٠٧هـ.

(٦٥) د. محمد عبد الله دراز: الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار القلم، الكويت، (د.ت).

(٦٦) محمد مهدي الآصفي: دور الدين في حياة الإنسان، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط ٢، (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).

(٦٧) الشيخ نديم الجسر: قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والإيمان، دار المثقف المسلم، قم - إيران، ١٤٠٣هـ

(٦٨) د. يوسف محيي الدين أبو هلالة: دعوة الفطرة، دار العاصمة، الرياض، (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م).

سادسا: السيرة والتاريخ:

(٦٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت، (د.ت).

حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله)، ت: ١٦٥٨م :

(٧٠) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، أوفست عن طبعة المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، (د.ت).

خليفة بن خياط (خليفة بن خياط، العصفري)، ت: (٢٤٠هـ - ٨٥٤م):

(٧١) تاريخ خليفة بن خياط؛ تاريخ الطبقات، تحقيق: أكرم ضياء العمري، دار طيبة، الرياض، ط ٢، ١٩٨٢م.

الطبري (أبو جعفر، محمد بن جرير، الطبري)، ت: ٣١٠هـ :

(٧٢) تاريخ الأمم والملوك، «المعروف بتاريخ الطبري»، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

(٧٣) د. عماد الدين خليل: دراسة في السيرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٢، (١٤١٢ هـ - ١٩٩١م).

(٧٤) د. محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة، دار الفكر، دمشق، ط٢، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).

(٧٥) محمد الصادق إبراهيم عرجون: محمد رسول الله، دار القلم، دمشق، ط٢، (١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م).

(٧٦) د. محمد الغزالي: فقه السيرة، دار القلم، دمشق، ط٤، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).

المسعودي (أبو الحسن، علي بن الحسين بن علي، المسعودي)، ت: ٣٤٦هـ:

(٧٧) مروج الذهب ومعادن الجوهر، منشورات دار الهجرة، قم - إيران، ط٢، (١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م). أوفست على طبعة دار الأندلس ببيروت، (١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م).

مسكويه (أبو علي، أحمد بن محمد، مسكويه)، ت: ٤٢١هـ:

(٧٨) تجارب الأمم، تحقيق: د. أبو القاسم إمامي، دار سروش، طهران - إيران، (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م).

ابن النديم (أبو الفرج، محمد بن إسحاق النديم، البغدادي)، ت: ٣٨٥هـ:

(٧٩) الفهرست، تحقيق: الشيخ إبراهيم رمضان، بيروت، دار المعرفة، (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).

ابن هشام (أبو محمد، عبد الملك بن هشام بن أيوب، الحميري)، ت: ٢١٨هـ وقيل: ٢١٣هـ:

(٨٠) السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا - إبراهيم الأبياري - عبد الحفيظ شلبي، دار الكنوز الأدبية، القاهرة، (د.ت).

ياقوت الحموي (أبو عبد الله، شهاب الدين، ياقوت بن عبد الله، الحموي، الرومي، البغدادي)، ت: ٦٢٦هـ:

(٨١) معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، (١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م).

سابعا: بحوث إسلامية عامة:

(٨٢) د. أحمد أمين: فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦م.

(٨٣) د. أحمد شلبي: موسوعة الحضارة الإسلامية ـ رقم (١) ـ المناهج الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٨ ١٩٩٢م.

(٨٤) أبو الأعلى المودودي: الجهاد في سبيل الله، دار الفكر، بيروت، (د.ت).

(٨٥) باقر شريف القرشي: النظام السياسي في الإسلام، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط٣، (١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م).

(٨٦) جودت سعيد: حتى يغيروا ما بأنفسهم، مطبعة زيد بن ثابت الأنصاري، دمشق، ط٦، (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م).

(٨٧) جودت سعيد : العمل قدوة وإرادة، مطبعة زيد بن ثابت الأنصاري، دمشق، ط٢، (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م).

(٨٨) أبو الحسن الندوي: النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، دار القلم، دمشق، ط٥، (١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م).

(٨٩) حسين بركة الشامي: الزمن في حركة العاملين، دار الإسلام للدراسات والنشر، لندن، (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م).

(٩٠) حسين معن: نظرات في الإعداد الروحي، مؤسسة العارف، بيروت، ط٢، (١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢م).

(٩١) سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الشروق، بيروت، الطبعة الشرعية الثامنة، (١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م).

(٩٢) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامي، دار الشروق، بيروت، (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م).

(٩٣) عبد الرحمن النحلاوي: التربية بالآيات، دار الفكر المعاصر، بيروت، (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م).

(٩٤) د. عبد الكريم زيدان: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م).

(٩٥) عبد اللطيف الراضي: المنهج الحركي في القرآن الكريم، دار المنتدى، بيروت، ط٢، ١٩٩١م.

(٩٦) د. ماجد عرسان الكيلاني: مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح، كتاب الأمة، رقم ـ ٢٩ ، قطر، (شوال/١٤١١هـ).

الماوردي (أبو الحسن، علي بن محمد بن حبيب، الماوردي، البصري)، ت: (٤٥٠ هـ ـ ١٠٥٧م):

(٩٧) أدب الدنيا والدين، تحقيق: مصطفى السقا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، (١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م).

(٩٨) د. محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة: عباس محمود، مطبعة لجنة التأليف والترجمة في القاهرة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٨م.

(٩٩) السيد محمد باقر الصدر: اقتصادنا، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط١٤، (١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م).

(١٠٠) السيد محمد باقر الصدر: خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط٢، (١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م).

(١٠١) السيد محمد باقر الصدر: صورة عن اقتصاد المجتمع الإسلامي، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط٢، (١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩).

(١٠٢) محمد تقي المدرسي: المنطق الإسلامي، أصوله ومناهجه، دار الجيل، بيروت، ط٢، (١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م).

(١٠٣) السيد محمد حسين فضل الله: الإسلام ومنطق القوة، الدار الإسلامية، بيروت، (١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م).

(١٠٤) السيد محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، دار الملاك، بيروت، ط٥، (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م).

(١٠٥) السيد محمد حسين فضل الله: خطوات على طريق الإسلام، دار الملاك، بيروت، ط٥، (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م).

(١٠٦) د. محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق في القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، (١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م).

(١٠٧) د. محمد عمارة: الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، (د.م)، (د.ت).

(١٠٨) محمد قطب: الإنسان بين المادية والإسلام، دار الشروق، بيروت، ط٦، (١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م).

(١٠٩) محمد قطب: التطور والثبات في حياة البشر، دار الشروق، بيروت، ط٤، (١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م).

(١١٠) محمد قطب: حول التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية،دار الشروق، بيروت، (١٤١٨هـ - ١٩٩٨هـ)

(١١١) محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة، دار الكتاب الإسلامي، قم - إيران، (د.ت).

(١١٢) الشيخ محمد مهدي شمس الدين: نظام الحكم والإدارة في الإسلام، دار الثقافة للطباعة والنشر، قم - إيران، ط٣، (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).

(١١٣) الشيخ مرتضى المطهري: الإنسان والإيمان، ترجمة: عبد المنعم الخاقاني، منظمة الإعلام الإسلامي، طهران - إيران، ط٢، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م).

(١١٤) الشيخ مرتضى المطهري: بحوث اقتصادية، ترجمة: جعفر صادق الخليلي، مؤسسة البعثة، طهران - إيران، ١٤٠٩هـ.

(١١٥) الشيخ مرتضى المطهري: التربية والتعليم في الإسلام، دار الهادي، بيروت، (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).

(١١٦) الشيخ مرتضى المطهري: التكامل الاجتماعي للإنسان، دار الهادي، بيروت، ط ٢، (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).

(١١٧) الشيخ مرتضى المطهري: ختم النبوة، ترجمة: عبد الكريم محمود، مؤسسة البعثة، طهران - إيران، ١٤٠٩هـ.

(١١٨) وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى، ترجمة: ظفر الإسلام خان، دار البحوث العلمية، الكويت، ط٢، (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).

(١١٩) د. يوسف القرضاوي: الإيمان والحياة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٥، (١٤١٢ هـ - ١٩٩١م).

(١٢٠) د. يوسف القرضاوي: ثقافة الداعية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، (١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م).

ثامنا: دراسات في التاريخ والحضارة:

(١٢١) إبراهيم الحيدري: الحضارة والمدنية، أطروحات في النظرية الاجتماعية والمجتمع، منشورات جامعة عنابة، رقم ـ ٨ ـ، الجزائر، ١٩٨٣م.

(١٢٢) د. إبراهيم علي محمد أحمد: في السيرة النبوية، قراءة لجوانب الحذر والحماية، كتاب الأمة، رقم ـ ٥٤ ـ، وزارة الأوقاف، دولة قطر، (رجب ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م).

(١٢٣) د. أحمد إبراهيم الشريف: دراسات في الحضارة الإسلامية، دار الفكر العربي، (د.م)، ط٢، ١٩٨١م.

(١٢٤) أحمد الشحاتي: تفسير التاريخ «أو فلسفة التاريخ»، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، مطابع الثورة العربية، طرابلس ـ ليبيا، (د.ت).

(١٢٥) د. أحمد علي الإمام: المستقبل للإسلام، كتاب الأمة، العدد: ٤٦، وزارة الأوقاف، الدوحة ـ قطر، (ربيع الأول ١٤١٦هـ ـ تموز، آب ١٩٩٥م).

(١٢٦) د. أحمد محمد كنعان: أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، كتاب الأمة، العدد: ٢٦، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، (محرم ـ ١٤١١هـ).

(١٢٧) د. أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٤م.

(١٢٨) د. أسد رستم: مصطلح التاريخ، منشورات المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، ط ٣، ١٩٥٥م.

(١٢٩) أنور الجندي: الإسلام وحركة التاريخ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٨ ١٩٨٦م.

(١٣٠) د. أنيس الأبيض: بحوث في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، جروس برس، طرابلس ـ لبنان، (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م).

(١٣١) برغوث عبد العزيز مبارك: المنهج النبوي والتغير الحضاري، كتاب الأمة، رقم ٤٣ـ وزارة الأوقاف، دولة قطر، (رمضان ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م).

(١٣٢) د. حسان حلاق: مناهج الفكر والبحث التاريخي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط٣، (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م).

(١٣٣) د. حسن سلمان: النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ، مؤسسة الوفاء،

بيروت، (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م).

(١٣٤) د. حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٨٠م.

(١٣٥) د. حسين نصار: نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٤م.

(١٣٦) د. حسين مؤنس: الحضارة، كتاب عالم المعرفة، رقم ـ ٢٣٧ ـ الكويت، ط٢، (جمادى الأولى ١٤١٩هـ ـ أيلول ١٩٩٨م).

ابن خلدون (أبو زيد، ولي الدين، عبد الرحمن بن محمد، الحضرمي، الملقب بابن خلدون)، ت: (٨٠٨هـ ـ ١٤٠٦م):

(١٣٧) المقدمة، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٦م.

(١٣٨) د. راشد البراوي: التفسير القرآني للتاريخ، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٣م.

البيروني (أبو الريحان، محمد بن محمد الخوارزمي، البيروني)، ت: ٤٤٠هـ:

(١٣٩) الآثار الباقية عن القرون الخالية، دار صادر، بيروت، (د.ت).

(١٤٠) ساطع الحصري: دراسات عن مقدمة ابن خلدون، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، (١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م).

(١٤١) د. سالم أحمد محل: المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب، كتاب الأمة، العدد ـ ٦٠ ـ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، (رجب ١٤١٨هـ ـ تشرين الثاني ١٩٩٧م).

السخاوي (شمس الدين، محمد بن عبد الرحمن، السخاوي)، ت: ٩٠٢هـ:

(١٤٢) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م)، نسخة مصورة من خزانة المرحوم المحقق أحمد باشا تيمور.

(١٤٣) سميح عاطف الزين: حركة التاريخ في المفهوم الإسلامي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

(١٤٤) سيد قطب: الإسلام ومشكلات الحضارة، دار الشروق، بيروت، (د.ت).

(١٤٥) د. السيد عبد العزيز سالم: مناهج البحث في التاريخ الإسلامي والآثار الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ت).

(١٤٦) د. سيار الجميل: المجايلة التاريخية، فلسفة التكوين التاريخي، الأهلية للنشر

والتوزيع، عمان ـ الأردن، ١٩٩٩م.
(١٤٧) شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، (١٩٨٣م).
(١٤٨) د. شحادة الناطور، د. أحمد عودات، د. جميل بيضون، أ: علي عكاشة: مدخل إلى تاريخ الحضارة، دار الكندي للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن، ط٢، (١٤١١هـ ـ ١٩٩١م).
(١٤٩) شوقي جلال: التراث والتاريخ، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥م.
(١٥٠) د. شوقي الجمل: علم التاريخ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م.
(١٥١) د. طريف الخالدي: بحث في مفهوم التاريخ ومنهجه، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٢م.
(١٥٢) د. عاصم الدسوقي: البحث في التاريخ، دار الجيل، بيروت، (١٤١١هـ ـ ١٩٩١م).
(١٥٣) د. عبد الحليم عويس: التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون، كتاب الأمة، (العدد: ٥٠)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ قطر، (ذو العقدة/ ١٤١٦هـ).
(١٥٤) د. عبد الحليم عويس: تفسير التاريخ، علم إسلامي، دار الصحوة للنشر، القاهرة، (د.ت).
(١٥٥) د. عبد الحليم عويس: فقه التاريخ، دار الصحوة للنشر، القاهرة، (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م).
(١٥٦) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ، ترجمة: د. كاظم الجوادي، دار القلم، الكويت، (١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م).
(١٥٧) عبد الرحمن حبنكة الميداني: أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، د.ن، دمشق، ١٩٧٠م.
(١٥٨) د. عبد العزيز الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ، عند العرب، دار المشرق، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م.
(١٥٩) د. عبد العزيز الدوري، د. صالح أحمد العلي، د. جعفر خصباك، د. ياسين عبد الكريم: تفسير التاريخ، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، (د.ت).
(١٦٠) د. عبد الكريم بكار: من أجل إنطلاقة حضارية شاملة، الدار الشامية، بيروت، (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م).

(١٦١) عبد اللطيف شرارة: الفكر التاريخي في الإسلام، دار الأندلس، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.

(١٦٢) الشيخ عبد الله التليدي: أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين، دار البشائر الإسلامية، بيروت، (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م).

(١٦٣) د. عبد الله العروي: العرب والفكر التاريخي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٨٥م.

(١٦٤) د. عبد المنعم نور: الحضارة والتحضر، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٧٠م.

(١٦٥) د. عفت محمد الشرقاوي: أدب التاريخ عند العرب، دار العودة، بيروت، (د.ت).

(١٦٦) د. عفت محمد الشرقاوي: في فلسفة الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت،ط٤، (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

(١٦٧) د. علي شريعتي: الإنسان والتاريخ، ترجمة: خليل علي، دار الصحف للنشر، طهران ـ إيران، ١٤١١هـ.

(١٦٨) د. عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٥م.

(١٦٩) د. عماد الدين خليل: المنظور التاريخي في فكر سيد قطب، دار القلم، دمشق، (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م).

(١٧٠) عمر عبيد حسنة: في النهوض الحضاري، بصائر وبشائر، المكتب الإسلامي، بيروت، (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م).

(١٧١) د. عمر فروخ: الإسلام والتاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م).

(١٧٢) د. عمر فروخ: كلمة في تعليل التاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م).

(١٧٣) د. فكتور سحاب: إيلاف قريش، رحلة الشتاء والصيف، كومبيوتر نشر والمركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٢م.

(١٧٤) د. قسطنطين زريق: في معركة الحضارة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٤م.

(١٧٥) د. قسطنطين زريق: نحن والتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٨٥م.
الكافيجي (محيي الدين، محمد بن سليمان، الكافيجي)، ت: ٨٧٩هـ:
(١٧٦) المختصر في علم التاريخ، بتحقيق نص روزنثال، في كتاب علم التاريخ عند المسلمين،ترجمة: د. صالح أحمد العلي مؤسسة الرسالة،بيروت،ط٢،(١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
(١٧٧) كريم جبر الحسن: عملية النهوض الحضاري، دار الهادي،بيروت ، (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).
(١٧٨) د. ليلى الصباغ: دراسة في منهجية البحث التاريخي، مطبوعات جامعة دمشق، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).
(١٧٩) مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي،عبد الصبورشاهين،دار الفكر، دمشق، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).
(١٨٠) مجتبى الموسوي اللاري: الإسلام والحضارة الغربية، تعريب: محمد هادي اليوسفي الغروي، مطبعة الهادي، قم - إيران، ١٤١١هـ.
(١٨١) د. محمد رشاد خليل: المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره، دار المنار، القاهرة، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).
(١٨٢) د. محمد سعيد رمضان البوطي: حوار حول مشكلات حضارية، الدار المتحدة، دمشق، ط٣، (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).
(١٨٣) د. محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر، دمشق، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).
(١٨٤) د. محمد عبد الرحمن مرحبا: الموجز في تاريخ العلوم عند العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م.
(١٨٥) محمد عبد الغني حسن: التاريخ عند المسلمين، سلسلة كتابك، رقم ٣٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م.
(١٨٦) د. محمد عبد المنعم خفاجي: فلسفة التاريخ الإسلامي، دار الجيل، بيروت، (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).
(١٨٧) د. محمد فتحي عثمان: المدخل إلى دراسة التاريخ الإسلامي، دار النفائس، بيروت، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

(١٨٨) محمد مهدي الآصفي: المذهب التاريخي في القرآن، دار القرآن الكريم، قم - إيران، ١٤١٢هـ.

(١٨٩) الشيخ محمد مهدي شمس الدين: حركة التاريخ عند الإمام علي، مطابع مكتب الإعلام الإسلامي، طهران - إيران، (شوال ١٤٠٥هـ).

(١٩٠) محمد هيشور: سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، (١٤١٧هـ - ١٩٩٦).

(١٩١) محمود الشرقاوي: التفسير الديني للتاريخ، كتاب الشعب، القاهرة، ١٩٧٥م.

(١٩٢) د. محمود الطناحي: مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

(١٩٣) الشيخ مرتضى المطهري: المجتمع والتاريخ، دار المرتضى، بيروت، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

(١٩٤) د. نشأت نور الدين الخطيب: التأريخ والمؤرخون العرب، شركة النعمان التجارية، بيروت، (١٤٢٠هـ - ١٩٩٢م).

(١٩٥) د. نور الدين حاطوم، نبيه عاقل، أحمد طربين، صلاح مدني: المدخل إلى التاريخ، مطبعة الإنشاء بدمشق، (١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م).

(١٩٦) د. نور الدين حاطوم، نبيه عاقل، أحمد طربين، صلاح مدني: موجز تاريخ الحضارة، مطبعة جامعة دمشق، (١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م).

تاسعا: دراسات في الفكر والثقافة:

(١٩٧) أحمد حسين: الطاقة الإنسانية، منشورات المكتبة المصرية، بيروت، ط٣، ١٩٧٠م.

(١٩٨) د. أكرم ضياء العمري: التراث والمعاصرة، كتاب الأمة، رقم - ١٠ ، مطابع الدوحة الحديثة، الدوحة - قطر، ط٢، (ربيع الآخر/١٤٠٦هـ).

(١٩٩) برهان غليون: اغتيال العقل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٦، ١٩٩٢م.

(٢٠٠) برهان غليون: الوعي الذاتي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٩٢م.

(٢٠١) جورج طرابيشي: مذبحة التراث في الثقافة العربية المعاصرة، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٣م.
(٢٠٢) زكي الميلاد: الفكر الإسلامي، تطوراته ومساراته المعاصرة، كتاب قضايا إسلامية، قم - ٢٣ ، طبع قم - إيران، (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).
(٢٠٣) عبد الجبار الرفاعي: جدل التراث والعصر، كتاب قضايا إسلامية معاصرة، رقم - ٧ ، طبع قم - إيران، (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).
(٢٠٤) د. عبد الكريم بكار: فصول في التفكير الموضوعي، الدار الشامية، بيروت، ط ٢، (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).
(٢٠٥) د. عبد الكريم بكار: نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي، الدار الشامية، بيروت، (١٤٢٠هـ - ١٩٩٢م).
(٢٠٦) د. علي لاغا: مدخل إلى العلوم السياسية، دار بيروت المحروسة، بيروت، ط ٢، (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).
(٢٠٨)د. عماد الدين خليل: حول إعادة تشكيل العقل المسلم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ.
(٢٠٩) مالك بن نبي: تأملات، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، ط ٥،(١٤١٢ هـ - ١٩٩١م).
(٢١٠) مالك بن نبي:مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط ٤، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).
(٢١١) د. محمد عابد الجابري: إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ٢، ١٩٩٠م.
(٢١٢) د. محمد عابد الجابري: التراث والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩١م.
(٢١٣) د. ملحم قربان: المنهجية والسياسة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط ٤، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

عاشرا: الفلسفة والاجتماع:

(٢١٤) جميل صليبا: المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.

(٢١٥) د. حسين عبد الحميد أحمد رشوان: ميادين علم الاجتماع ومناهج البحث العلمي، طبع المكتب الجامعي الحديث بالإسكندرية، ط٥، ١٩٨٩م.

(٢١٦) سالم القمودي: التغيير، الدار الجماهيرية، بنغازي - ليبيا، (د.ت).

(٢١٧) طلعت همام: سين وجيم عن علم الاجتماع، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).

(٢١٨) د. عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، (د.ت)

(٢١٩) د. عبد الرحمن بدوي: نيتشه، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٥م.

(٢٢٠) د. عبد الكريم اليافي: تمهيد في علم الاجتماع، مطبعة جامعة دمشق، ط٤، (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م).

(٢٢١) د. عدنان أحمد مسلم: محاضرات في علم الاجتماع، مطبعة دار الكتاب، دمشق، ط٥،(١٤١٩هـ - ١٩٩٨م)، ص٦٨-٦٩.

(٢٢٢) مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، (١٤١٠هـ - ١٩٨٩م).

(٢٢٣) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط٥، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

(٢٢٤) السيد محمد باقر الصدر: فلسفتنا، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط١٠، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).

(٢٢٥) محمد تقي مصباح: المنهج الجديد في تعليم الفلسفة، مؤسسة النشر الإسلامي، قم - إيران، ١٤٠٩هـ.

(٢٢٦) محمد تقي مصباح: النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ، تعريب: محمد عبد المنعم الخاقاني، دار الروضة، بيروت، (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).

(٢٢٧) محمد سعيد فرح: ما علم الاجتماع، الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، (د.ت).
(٢٢٨) محمد صادق عرجون: سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، منشورات العصر الحديث، جدة، (١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م).
(٢٢٩) محمد عبد الجبار: المجتمع، بحوث في المذهب الاجتماعي القرآني، دار الأضواء، بيروت، ط٢، (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م).
(٢٣٠) د. محمد عبد الهادي أبو ريدة: رسائل الكندي الفلسفية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٧٨م.
(٢٣١) د. محمد علي الجندي: إشكالية الزمان في فلسفة الكندي،رؤية معاصرة، مكتبة الزهراء، القاهرة، (١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م).
(٢٣٢) د. محمود حمدي زقزوق: دراسات في الفلسفة الحديثة، دار الطباعة المحمدية بالقاهرة، ١٩٨٨م.

حادي عشر: المراجع الأجنبية المترجمة:

(٢٣٣) أحمد الشنتاوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس: دائرة المعارف الإسلامية، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، المجلد الرابع.
(٢٣٤) أدوارد جيبون: الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة: محمد علي أبو درة، دار الكاتب العربي، القاهرة، (د.ت).
(٢٣٥) إدوارد كار: ما هو التاريخ، ترجمة: ماهر كيالي، بيار عقل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.
(٢٣٦) ألبرت أشفيتسر: فلسفة الحضارة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس، بيروت، ط٢، (١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م).
(٢٣٧) الكسيس كاريل: تأملات في سلوك الإنسان، ترجمة: د. محمد القصاص، مكتبة مصر، القاهرة، (د.ت).
(٢٣٨) ت.ج.دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار النهضة العربية، بيروت، ط٥، ١٩٨١م.

(٢٣٩) جان فور آستيه: معايير الفكر العلمي، ترجمة: فايز كم نقش، منشورات عويدات، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.

(٢٤٠) جوردان ايست: الجغرافية توجه التاريخ، ترجمة: جمال الدين سرور، الألف كتاب، القاهرة، (د.ت).

(٢٤١) جوردن شايلد: التاريخ، ترجمة: عدلي برسوم عبد الملك، الدار المصرية للكتب، القاهرة، (د.ت).

(٢٤٢) جوزف هورس: قيمة التاريخ، ترجمة: نسيم نصرة، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٧٤م.

(٢٤٣) دينكن ميتشيل: معجم علم الاجتماع، ترجمة ومراجعة: د. إحسان محمد الحسن، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م.

(٢٤٤) ر.ج. كولنجوود: فكرة التاريخ، ترجمة: محمد بكير خليل، وزارة التربية والتعليم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦١م.

(٢٤٥) د. غوستاف لوبون: روح التربية، ترجمة: عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، (١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م).

(٢٤٦) د. غوستاف لوبون: السنن النفسية لتطور الأمم، ترجمة: عادل زعيتر، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٥٧م.

(٢٤٧) د. غوستاف لوبون: فلسفة التاريخ، تعريب: عادل زعيتر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٤م.

(٢٤٨) غيورغي بليخانوف: دور الفرد في التاريخ، تعريب: إحسان سركيس، دار ابن الوليد، حمص، سوريا، ١٩٥٦م.

(٢٤٩) د. غوستاف لوبون: فلسفة التاريخ، «المفهوم المادي للتاريخ»، (د.ن)، (د.م)، (د.ت).

(٢٥٠) فرانز روزنثال: علم التأريخ عند المسلمين، ترجمة: د. صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

(٢٥١) فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ، ترجمة وتعليق: د. حسين الشيخ، دار العلوم العربية، بيروت، (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).

(٢٥٢) كارل بوبر: بؤس الأيديولوجيا، نقد مبدأ الأنماط في التطور التاريخي، ترجمة: عبد الحميد صبرة، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٢م.
(٢٥٣) كارل ماركس: منشورات روسية، (د.م)، (د.ت).
(٢٥٤) لأنجلو أوسينوبوس، بول ماس، أمانويل كنت: النقد التاريخي، تعريب: د. عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط ٤، ١٩٨١م.
(٢٥٥) لويس جوتشلك: كيف نفهم التاريخ - مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخي، ترجمة: د. عائدة سليمان عارف، د. أحمد مصطفى أبو حاكمة، دار الكاتب العربي، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت - نيويورك، ١٩٦٦م.
(٢٥٦) مونتجمري وات: محمد في المدينة، تعريب: شعبان بركات، المكتبة العصرية، صيدا - لبنان، (د.ت).
(٢٥٧) م.بوشنسكي: مقدمة أي بر فلسفة، ترجمه إلى اللغة الفارسية: محمد رضا باطني، دار النشر الجديد، إيران، (د.ت).
(٢٥٨) النظام الشيوعي: منشورات روسية، (د.م)، (د.ت).
(٢٥٩) نيقولا تيماشيف: نظرية علم الاجتماع، ترجمة محمد عودة وآخرين، دار المعارف، مصر، ١٩٧٤م.
(٢٦٠) هرنشو: علم التأريخ، ترجمة: عبد الحميد العبادي، سلسلة المعارف العامة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٧م.
(٢٦١) هيوغ أتكن: دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ترجمة: د. محمود زايد، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢، ١٩٨٢م.
(٢٦٢) ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة: د. زكي نجيب محمود، دار الجيل، بيروت، (د.ت).
(٢٦٣) ول ديورانت: مباهج الفلسفة، ترجمة: د. أحمد الإهواني، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م.
(٢٦٤) و.هـ ولش: مدخل لفلسفة التاريخ، ترجمة: أحمد حمدي محمود، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٦٢م.

ثاني عشر: مجلات ودوريات وبحوث:

(٢٦٥) الثقافة الإنسانية وفلسفة التربية في الشرق والغرب: مباحث دولية، ترجمة: انطوان خوري، دار النشر للجامعيين، بيروت،(د.ت).

(٢٦٦) جماعة العلماء في النجف الأشرف: رسالتنا، الدار الإسلامية، بيروت، (١٤٠١ هـ - ١٩٨١م).

(٢٦٧) الحضارة الإنسانية بين التصور الديني والنظريات الوضعية: وقائع ندوة وأبحاث، إشراف: الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية في لندن - قسم الدراسات والبحوث العلمية، دار النصر، بيروت، (١٤٠٥هـ - ١٩٩٤م)، ج١.

(٢٦٨) نخبة من الباحثين العراقيين: حضارة العراق، دار الجيل، بيروت، (د.ت).

(٢٦٩) مجلة عالم الفكر، تصدر عن وزارة الإعلام الكويتية، المجلد ١٢، (يناير - فبراير - مارس ١٩٨٢م).

(٢٧٠) مجلة قضايا إسلامية معاصرة، السنة الأولى (العدد الثالث/١٤١٩هـ - ١٩٩٨م)، قم - إيران.

(٢٧١) مجلة قضايا إسلامبة معاصرة، السنة الثالثة، (العدد السادس/١٤٢٠هـ - ١٩٩٩)، قم - إيران.

(٢٧٢) مجموعة باحثين: فكرة الزمن عبر التاريخ، كتاب عالم المعرفة رقم - ١٥٩ - إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، (شعبان/رمضان، ١٤١٢ هـ - مارس/آذار، ١٩٩٢م).

المحتويات

المقدمة ٥

الفصل الأول

أساسيات في ثقافة حركة التاريخ

تعريف مصطلح حركة التاريخ ١٩

أولا: المقصود بكلمة «حركة» ١٩

ثانيا: المقصود بكلمة «التاريخ» ٢٠

ثالثا:المقصود بمصطلح «حركة التاريخ» ٢٣

١. البعد التاريخي ٢٣

٢. البعد الماورائي ٢٣

لماذا حركة التاريخ في القرآن الكريم ؟ ٢٥

أولا: طبيعة سعة الماضي ٢٥

ثانيا: طبيعة التعقيد ٢٦

ثالثا: طبيعة المنهج ٢٧

مفهوم حركة التاريخ عند العرب ٣٠

١. مرحلة ما قبل الإسلام ٣٠

٢. مرحلة ما بعد الإسلام ٣٣

أثر الوعي القرآني لحركة التاريخ في مسيرة الفرد والأمة ٤٠

أولا: القدرة على الإبداع والفعل الحضاري ٤٣

ثانيا: القدرة على التحليل والنقد التاريخي ٤٥
ثالثا: الإحساس بتقلبات الأحوال والظروف........................ ٤٨
رابعا: الإحساس بحتمية انتصار الحق ٥١
خامسا: وعي التواصل مع التراث وتفعيله ٥٤

الفصل الثاني
علاقة التاريخ بالعلم والقرآن الكريم

أولا: علاقة التاريخ بالعلم والعلوم المساعدة ٦٩
هل التاريخ علم ؟........................ ٦٩
علاقة دراسة حركة التاريخ بالعلوم المساعدة ٧٢
١. علم التفسير ٧٣
٢. مصطلح الحديث........................ ٧٤
٣. علم اللغة ٧٤
٤. علم فقه اللغة ٧٥
٥. علم التوقيت، أو الكرونولوجيا ٧٦
٦. علم الجغرافية ٧٧
٧. علم الاقتصاد ٧٨
٨ علم الأجناس والإنسان، وعلم وصف الشعوب ٧٩
٩. علم الاجتماع........................ ٨٠
١٠. علم النفس ٨١
ثانيا: علاقة علوم التاريخ بدراسة حركة التاريخ ٨٤
علوم التاريخ ٨٤
القسم الأول: ويصطلح عليه «التأريخ النقلي» ٨٤
القسم الثاني: ويصطلح عليه «التاريخ العلمي»........................ ٨٥
القسم الثالث: ويصطلح عليه « فلسفة التاريخ» ٨٧

علاقة التأريخ النقلي بدراسة حركة التاريخ ٨٩
١. الاختلاق والتزوير ٨٩
٢. الانتقائية ٩٠
٣. الذاتية والإسقاط ٩١
ثالثا: أثر القرآن الكريم في التاريخ ٩٣
١. تأصيل مفهوم التاريخ ٩٤
٢. توثيق التاريخ وتحقيقه ١٠١
٣.الرؤية الحضارية للتاريخ ١٠٥

الفصل الثالث

ثقافة حركة التاريخ في القرآن الكريم

أولا: أخبار الأمم السالفة ١٢١
١. هلاك الأمم بسبب ظلمها ١٢٤
٢. هلاك الأمم بسبب كفرها وشركها بالله تعالى ١٢٥
٣. هلاك الأمم بسبب تكذيبها الرسل ١٢٥
٤. هلاك الأمم بسبب ارتكابها الذنوب ١٢٦
٥. هلاك الأمم بسبب بطر النعمة وكفرانها ١٢٧
٦. هلاك الأمم بسبب اختلافها وتفرقها ١٢٧
معنى الاستدراج في اللغة ١٢٨
معنى بغتة في اللغة ١٢٨
ثانيا: القصص القرآني ١٣١
١.قصة آدم مع إبليس ١٣٢
٢. قصة البقرة الصفراء ١٣٣
٣. قصة طالوت وجالوت ١٣٣
٤. قصة قابيل وهابيل ١٣٤

٥. قصة بني إسرائيل وعبادة العجل ١٣٥
٦. قصة يوسف ١٣٦
٧. قصة أهل الكهف ١٣٧
٨ قصة سليمان وملكة سبأ ١٣٧
٩. قصة مؤمن آل فرعون ١٣٧
١٠. قصة أصحاب الفيل ١٣٨
ثالثا: الأمثال القرآنية ١٣٩
١. مثل الحق والباطل ١٤٠
٢. مثل أعمال الذين كفروا كرماد أوكسراب ١٤٠
٣. مثل العبد المملوك ١٤١
٤. مثل القرية الآمنة التي كفرت بأنعم الله ١٤٢
٥. مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء ١٤٢
٦. مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ١٤٣
رابعا: تأريخ حركة النبوءات والرسالات ١٤٤
خامسا: تأريخ حركة الدعوة الإسلامية ١٥٢

الفصل الرابع
القرآن يوظف حركة التاريخ

مجالات التوظيف القرآني للتاريخ ١٧١
أولا: مجال الاتعاظ والعبرة ١٧١
ثانيا: مجال الفكر والثقافة ١٧٣
ثالثا: مجال السياسة والحكم ١٧٥
رابعا: مجال المرابطة والجهاد ١٨٠
خامسا: مجال الاجتماع والحضارة ١٨٤
حركة المجتمع في القرآن ١٨٩

١.كل مجتمع له عمر محدود يعبر عنه القرآن بـ«الأجل» ١٨٩
٢.كل مجتمع له كتاب يحصي عليه حياته ١٩٠
٣. كل مجتمع له عمله وسلوكه الخاص به ١٩١
٤.كل مجتمع له شعوره وذوقه الذي يتميز به عن غيره ١٩٢
٥.كل مجتمع يتلقى جزاء أعماله بنفسه ١٩٣
حركة الحضارة في القرآن ١٩٥
أولا: الإنسان، صانع الحضارة في القرآن ١٩٦
ثانيا: الفكر، الموجه للحضارة في القرآن ١٩٨
ثالثا: الأشياء أو الموجودات، وأثرها الحضاري في القرآن ٢٠٢
نهوض المجتمعات والحضارات وانحطاطها في القرآن ٢٠٥
أولا: العدل والظلم ٢٠٥
ثانيا: الاتحاد والتفرق ٢٠٧
ثالثا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢٠٨

الفصل الخامس

العناصر الأساسية لحركة التاريخ في القرآن الكريم

أولا: السنن أو «القواعد والقوانين» في حركة التاريخ ٢٢٤
معنى السنة ٢٢٤
١.في اللغة ٢٢٥
٢.في الاصطلاح ٢٢٥
٣. في القرآن الكريم ٢٢٦
السنن التاريخية (خصائصها ـ طبيعتها ـ أنواعها) ٢٢٩
خصائص السنن التاريخية ٢٢٩
أولا: الاطراد ٢٣٠
ثانيا: الربانية ٢٣١

ثالثا: الإنسانية ٢٣٢
طبيعة عمل السنن التاريخية ٢٣٤
أنواع السنن التاريخية ٢٣٦
أولا: السنن الشرطية ٢٣٦
ثانيا : السنن الفعلية ٢٣٨
ثالثا: السنن الاتجاهية ٢٤٠
ثانيا : الإنسان في حركة التاريخ ٢٤٤
الإنسان وموقعه في الكون ٢٤٤
إرادة الإنسان والتغيير في التاريخ ٢٤٧
مؤثرات التغيير في الإنسان والتاريخ ٢٥١
ثالثا: المجتمع في حركة التاريخ ٢٥٣
علاقة الفرد بالمجتمع ٢٥٣
التغير الاجتماعي والتاريخ ٢٥٥
١. العامل الديني ٢٥٨
٢. العامل الفكري أو الثقافي ٢٥٩
٣. العامل الاقتصادي ٢٦٠
٤. عامل السياسة والحكم ٢٦٠
٥. عامل البيئة الطبيعية والجغرافية ٢٦٠
رابعا: الزمن في حركة التاريخ ٢٦٢
قيمة الزمن ٢٦٢
تصور الزمن ٢٦٤
إشكالية الزمن والتاريخ ٢٦٦

الفصل السادس

ملامح حركة التاريخ في القرآن الكريم

أولا: طبيعة الرؤية القرآنية لحركة التاريخ ٢٨٣
الاتجاه الأول: التفسير المثالي ٢٨٣
الاتجاه الثاني: التفسير الوضعي ٢٨٤
١. الحتمية الاقتصادية ٢٨٥
٢. الحتمية الاجتماعية ٢٨٥
٣. حتمية الدورات التاريخية ٢٨٦
الاتجاه الثالث ٢٨٧
الرؤية القرآنية لحركة التاريخ ٢٩٠
١. مبدأ العلية في حركة التاريخ ٢٩٠
٢. الإرادة الإنسانية ٢٩٢
٣. المشيئة الإلهية ٢٩٣
ثانيا : الدين محور حركة التاريخ ٢٩٦
الدين والإنسان ٢٩٦
هوية علاقة الإنسان بالدين ٢٩٧
١. الدين وليد الخوف ٢٩٧
٢. الدين وليد الجهل ٢٩٨
٣. الفرضية الماركسية ٢٩٨
٤. فرضية المذهب النفسي ٣٠٠
الحاجة إلى الدين ٣٠٠
الدين من سنن الحياة والتاريخ ٣٠٣
١.تحقيق مفهوم الوحدانية لله تعالى في الأرض ٣٠٤
٢. تجسيد مبدأ الحاكمية لله تعالى وحده بين الناس ٣٠٤
٣. ترسيخ روح الأخوة العامة بين الناس ٣٠٤

٤. الإحساس بمسؤولية الاستخلاف في الأرض ٣٠٥
ثالثا : خصائص حركة التاريخ ٣٠٧
١. الاستمرارية ٣٠٧
٢. التبدل أو التغير (تقلب الأحوال)........................ ٣٠٩
٣. الواقعية ٣١١
رابعا : تكامل حركة التاريخ ٣١٣
الأول: حركة التقدم الصاعد للتاريخ ٣١٣
الثاني: حركة النكوص المتدهور للتاريخ ٣١٥
الثالث: حركة الدورات الحضارية للتاريخ ٣١٥
النزوع الإنساني نحو الكمال ٣١٨
مفهوم التكامل الاجتماعي والتاريخي في القرآن ٣٢٢
١. مجال الكون والبيئة الطبيعية ٣٢٧
٢. مجال البيئة الاجتماعية ٣٢٨
٣. مجال بناء الذات الإنسانية ٣٣٠
خاتمة واستنتاجات ٣٤١
أولا: أساسيات المعرفة التاريخية ٣٤١
ثانيا: صلة التاريخ بالعلم، وأثر القرآن فيه ٣٤٥
ثالثا: اهتمام القرآن الكريم بحركة التاريخ ورعايته لها ٣٥٠
رابعا: أبعاد الوظيفة التربوية لحركة التاريخ في القرآن ٣٥٣
خامسا: أفعال حركة التاريخ وأحداثها ومداخلاتها ٣٥٧
سادسا: أهم الملامح العامة لحركة التاريخ في المنظور القرآني ٣٦١
المصادر والمراجع ٣٧١
أولا: التفسير والدراسات القرآنية ٣٧١
ثانيا: الحديث النبوي الشريف ودراساته ٣٧٤
ثالثا: الفقه والأصول ٣٧٥

رابعا: اللغة العربية وآدابها ومصطلحاتها ٣٧٥
خامسا: دراسات في العقيدة والأديان ٣٧٧
سادسا: السيرة والتاريخ ٣٧٨
سابعا: بحوث إسلامية عامة ٣٨٠
ثامنا: دراسات في التاريخ والحضارة ٣٨٣
تاسعا: دراسات في الفكر والثقافة ٣٨٨
عاشرا: الفلسفة والاجتماع ٣٩٠
حادي عشر: المراجع الأجنبية المترجمة ٣٩١
ثاني عشر: مجلات ودوريات وبحوث ٣٩٤

كتاب قضايا اسلامية معاصرة

سلسلة دورية تصدرها مجلة قضايا اسلامية معاصرة

رئيس التحرير: عبد الجبار الرفاعي

❑ الاجتهاد والتجديد	ابراهيم العبادي
❑ علم الكلام الجديد	محمد مجتهد شبستري
❑ المدرسة التفكيكية	محمد رضا حكيمي
❑ اشكالية الاسلام والحداثة	عادل عبدالمهدي
❑ اسلامية المعرفة	اسماعيل الفاروقي
❑ اصلاح الفكر الاسلامي	طه جابر العلواني
❑ جداليات الفكر الاسلامي	ابراهيم العبادي
❑ فقه التحيز	عبد الوهاب المسيري
❑ اسلمة الذات	كامل الهاشمي
❑ نظرية العلم في القرآن	غالب حسن
❑ القسط والعدل	لمحمد رضا حكيمي واخويه
❑ مقدمة في اسلامية المعرفة	طه جابر العلواني
❑ تطور الدرس الفلسفي في الحوزة العلمية	عبد الجبار الرفاعي
❑ قضايا التجديد	حسن الترابي
❑ نزعة التغريب	جلال آل احمد
❑ الدستور والبرلمان	جعفرعبد الرزاق
❑ الفكر الاسلامي: تطوراته و مساراته	زكي الميلاد
❑ علم الاستغراب	حسن حنفي
❑ الاجتهاد التحقيقي	محمد رضا حكيمي
❑ المستنيرون: خدمات وخيانات	جلال آل أحمد
❑ أصالة النبوة في حياة الرسول الكريم	غالب حسن
❑ اشكاليات التجديد	ماجد الغرباوي
❑ مقاصد الشريعة	طه جابر العلواني
❑ الثقافة الاسلامية بين التغريب والتأصيل	شلتاغ عبود
❑ الواقع والمثال في الفكر الاسلامي المعاصر	جمال الدين عطية
❑ فقه النظرية عند الشهيد الصدر	باقر بري
❑ محاولات للتفقه في الدين	حسن الخليفة
❑ الصراع الاجتماعي في القرآن الكريم	غالب حسن
❑ المنهج الفقهي عند الشهيد الصدر	محمد الحسيني
❑ المنهج البنائي في التفسير	محمود البستاني
❑ حركة التاريخ في القرآن	عامر الكفيشي

بسم الله الرحمن الرحيم